

وزارة الثقافة والرياضة - قطر
إصدارات إدارة البحوث والدراسات الثقافية
قسم الإصدارات الثقافية والنشر

رسالة الغُفران

أبو العلاء المعريّ

أعاد كتابتها بلغة عصرية جديدة

نزار عابدين

رسالة الغُفران



رسالة الغُفران

أعاد كتابتها بلغة عصرية جديدة: نـزار عـابـديـن
الطبعة الأولى ٢٠١٦
الناشر: وزارة الثقافة والرياضة
إدارة البحوث والدراسات الثقافية
قسم الاصدارات الثقافية والنشر

هاتف: 44022785 (974+)
فاكس: 44022231 (974+)
ص.ب: ٣٣٣٢
الدوحة – قطر

رقم الايداع: ١٥٣ / ٢٠١٦
الترقيم الدولي (ردمك): ٨ - ٣٧ - ١٢٢ - ٩٩٢٧ - ٩٧٨

المراجعة والمتابعة: د. باسم عبود
الطباعة: مطابع علي بن علي

جميع الحقوق محفوظة
(لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر)

رسالة الغُفران

أبـو الـعـلاء الـمـعـريّ

أعاد كتابتها بلغـة عـصرية جـديـدة

نــزار عــابــديـــن

تقـديـم

تهتم وزارة الثقافة والرياضة بإصداراتها للوصول إلى أكبر عدد من القراء، وهي تحاول أن تنوع فيما تقدمه للمكتبة العربية فلا تتوقف عند نوع معين من الكتب على حساب نوع آخر، فلكل توجه قرّاءه وعلينا أن نرضي جميع الاذواق.

إن كتاب «رسالة الغفران» لأبي العلاء المعري يعد أحد أهم كتب التراث، لما فيه من الرؤية الفلسفية والفكرية الشيء الكثير، وفي إعادة إصدارنا هذا الكتاب الذي يقدمه نزار عابدين كما يصفه «بإعادة كتابته بلغة عصرية»، إنما هي محاولة من المؤلف لتقريب التراث الى القاريء المعاصر الذي بعدت المسافة الزمينة بينه وبين وقت تأليف الكتاب، وما أصاب اللغة العربية من تطور جعل بعض النصوص القديمة يصعب إدراك معناها بيسر وسهولة، فكان هذا الكتاب، دون أن يؤثر عمل معده على مضمون وجوهر الكتاب الذي وضعه المعري.

نأمل أن يكون هذا الكتاب إضافة جديدة للمكتبة العربية ومن الله التوفيق.

إدارة البحوث والدراسات الثقافية



المحتويات

بين يدي الكتاب

لقي جهدي المتواضع في إعادة كتابة «البخلاء» لشيخ الأدباء وإمام المتأدبين أبي عثمان عمرو بن بحر» الجاحظ « صدى طيباً لدى القراء والأدباء والنقاد، حتى قبل أن ينشر كاملاً، فقد عرضت فصولاً منه على هؤلاء الأفاضل، وكان لتشجيعهم كبير الأثر في دفعي إلى إتمام مشروعي في نقل هذا السفر الخالد إلى لغة يفهمها القارئ العادي دون الحاجة إلى العودة إلى المعجم أو هوامش الكتاب، ولم يكن لي من غاية إلا هذا.

ولا يمكن أن يكون المرء مثقفاً بحق، دون الغوص في بحار تراث أمته الأدبي والثقافي. فالأدب الجديد، والشعر الجديد، والنتاج الفكري الجديد، لا يكفي وحده، لأن هذا الإبداع الجديد، ليس إلا أغصاناً جديدة في شجرة ضاربة جذورها في الأعماق، تعطي أزهارها وثمارها في كل حين بأشكال وألوان متعددة، لكن القانع المكتفي بها، كمن على شاطئ البحر يبهجه انسياب الموج على رمال الشاطئ، ولا يعرف متعة الإبحار، أو كمن على سطح البحر يتأمل الأمواج الرقيقة، ولا يدري شيئاً عن متعة الغوص إلى الأعماق، واكتشاف الكنوز التي لا تنتهي.

ومنذ بدأ تعاملي مع تراثنا الخالد، وترددي على قصوره المنيفة الشامخة في زيارات خاطفة، تطول أحياناً، حتى كأني نويت الإقامة طويلاً، وغوصي إلى أعماق بحاره المذهلة الساحرة، وكان هذا قبل سنوات طويلة لا أذكر عددها، وجدت نفسي أمام معضلة حقيقية، كانت تنغّص علي متعة الغوص والإبحار أحياناً. لقد عانيت - كما عانى غيري - من صعوبة فهْم النصوص دون العودة إلى المعجم مرة بعد أخرى، فكأنني أقرأ بلغة أخرى لا أجيدها تمام الإجادة. فاللغة التي كتب بها أسلافنا أدبهم العظيم غير اللغة التي نكتب بها الآن. لقد حافظت اللغة على قواعدها، لكن أسلوب صياغة الجملة تغير كثيراً، كما أن كلمات كثيرة سقطت من اللغة على مر الأجيال وكلمات كثيرة أخرى تغير معناها، أو لم نعد نفهمها لأنها تدل على أشياء لم تعد موجودة في حياتنا، وكلمات كثيرة لم نعد نستعملها.

لقد قام المحققون - جزاهم الله كل خير - بجهود عظيمة في تحقيق هذا التراث الخالد، وأمهات الكتب المتناثرة مخطوطاتها في مختلف جامعات العالم ومتاحفه، فنفضوا غبار السنين عن تلك الأسفار

الخالدة، وقارنوا، وحققوا، ودققوا، وأثبتوا الصواب، ونحّوا الخطأ، وقدموا للأجيال العربية الجديدة تراث أجدادهم العظيم، ليكون فخراً لهم ونبراساً وهدْياً، ولكن هذا ظل جهداً ناقصاً.

والعيب ليس فيما فعله هؤلاء الأساتذة الأجلاء الأفاضل، بل في تراجع اللغة العربية على لسان أبنائها، وضعفهم الواضح - والمخزي أحياناً - في استخدامها استخداماً صحيحاً. ومع ذلك فإننا لا نستطيع إلقاء اللوم كلّه على أبناء الأجيال الجديدة. فاللغة نفسُها تتطور، وكما قلنا قبل قليل تسقط منها كلمات، وتتبدل معاني كلمات، وتدخلها كلمات واشتقاقات جديدة، ولذلك صار القارئ الجديد، يقرأ آدابَ أمته وتراثَها شعراً ونثراً - إذا قرأ - وكأنه يقرأ آداب أمة أخرى بلغة أخرى، فإن لم يكن النص مشروحاً شرحاً وافياً، لم يكن له غنى عن المعجم، وحتى في مثل هذه الحالة قد لا يتمكن من الإحاطة بالمعنى إحاطة تامة، ويفقد الاستمتاع بجمال النص النثري أو الشعري.

ولقد تساءلت - ومنذ سنوات طويلة أيضاً - إذا كان المحققون الأفاضل قد قاموا بجهد مشكور وحميد في إحياء هذا التراث العظيم والحفاظ عليه، فلماذا لا يهب نفرٌ من أبناء اللغة العربية العاشقين لها، ليكملوا ما بدأ هؤلاء؟ ولماذا لا يبذل بعض تلاميذ هذا التراث جهداً ووقتاً لإعادة كتابة هذا التراث بلغة عصرية سليمة، بعيدةٍ عن وحشيِّ الكلام وغريبِ الألفاظ، لكنها ليست مقطوعة الصلة بلغة القرآن الفصحى الجميلة؟ لا أقول بلغة تشبه لغة الصحافة والإعلام السقيمة، ولكني لا أقول أيضاً بلغة طالعة من بطون المعاجم.

ورأيت أن من المستحيل تطبيق هذا على النصوص الشعرية، فلا يمكن إعادة كتابة قصيدة، إلا عندما نترجمُها، فإذا كان الشعرُ لا يقبل هذا، فإن النثر يقبله. ولذا اقتنعت بإعادة كتابة هذه الأعمال الخالدة بلغة تفهمها الأجيال الجديدة بسهولة، فإذا أرادَ أحدٌ التعمق في دراسة التراث، عاد إلى النصوص الأصلية في بطون الكتب المحققة تحقيقاً علمياً دقيقاً، وحصّل متعة وفائدة جديدتين ومختلفتين.

لقد كان كل همّي أن أتجنب الهوامش، وألا يجد القارئُ رقماً بين قوسين، وعليه أن ينظر إلى أسفل الصفحة، ليجد الشرح، وغالباً ما لا يجد، بل يُطلب منه أن يعود إلى كتاب كذا وكتاب كذا. وأنا لا أريد للقارئِ أن يعود إلى أي مرجع آخر، ولا أن يقلّب الصفحات، ليقرأ في الملحق تعريفَ الأسماء (أسماء الشخصيات والأمكنة والأشياء) أو أن يجدَ في أسفل الصفحة شرحاً للألفاظ. لقد أردت للقارئ أن يقرأ كتاب «البخلاء» متكاملاً، بلغةٍ عصرية سليمة، دون أن أتعبَه بأي هامش أو ملحق أو شروح.

ولقد استغربت أن عدداً غير قليل من الأصدقاء حسني الاطلاع على التراث ممن أثق بصحة

أحكامهم، شفعوا استحسانَـهم ما فعلت بإبداء رغبة، فقالوا كلهم على غير اتفاق: تابع مشروعَـك، وعسى أن يفعلَ فعلَـك عشاقٌ آخرون للغة العربية، ونرشح لك لخطوتِك التالية « رسالة الغفران » لفيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة أبي العلاء المعري. هل كانوا يُلقون إلي طـُعماً ليعرفوا قدرتي؟ هل قرؤوا الرسالة فوجدوها صعبة الفهمِ فأرادوني أن أبسِّطها؟ هل قرأ بعضُهم صفحات من الرسالةِ ثم رماها لأنه وجدَها متعبة جداً، ويريدُني أن أبسطها ليستمتع بقراءتها؟ هل يعرفون وعورة َالطريق الذي حرضوني على السير فيه؟ ربما، وهذه الأسئلة كلها صحيحة ومشروعة، ولكنني لا أجزم.

لكنني في إعادة كتابة «رسالة الغفران» لم أستطع فعل ما فعلت في البخلاء. لقد كان ابنُ القارح يعرفُ لمن يوجِّه رسالتَـه، ولذلك حشدَ فيها كلَّ معارفه، ونوَّه كثيراً بالعلماء الذين تتلمذ عليهم، ولذا ليسَ معقولاً أن يحاولَ تعريف المعري بهم، وكذلك فعل المعرّي عندما ذكر الشعراء والعلماء ، وتحدّاهم أحياناً، وسخر من آراءِ بعضِهم أحياناً أخرى، وكان لِزاماً أن ألجَأ إلى الهوامش للتعريف بهؤلاء بصورة موجزة، وإذا كان المعرّي يعتمد على علم علي بن منصور، فإنني لا أستطيع الاتكال على أن القارئ يعرف ما كان هذا يعرفه.

ورحلة ابن القارح في الجنة كلُّها عرض لآراء المعري بالشعر والشعراء، وما أخـَذ على بعض النحويين والعروضيين في مناقشةِ أشعار هؤلاء، ولكنه لا يقدِّم أي تعريفٍ بهم، معتمداً كما قلنا على أن ابن القارح لا يجهلـُهم، بل إنه يشير إليهم أحياناً بأسـماءٍ غريبة، فيقول مثلاً: «الحَكَـمي» وعـليـنا أن نتذكَّر أن أبا نواس كان «حَكَـميّاً» بالولاء، ويقول «الكِنْدي» ويجب أن نعرفَ أنه «امرؤ القيس» ويقول «الطائيّ» ونعرف أنه يعني حبيبَ بنَ أوس الطائي، ويسأل قارئ حديث: ومن هذا؟ ويجب أن نقولَ له إنه أبو تمام، وفي الرسالة عشرات الأمثلة.

وبالإضافة إلى اختلاق الحكايات والمواقف في الجنة بما يشي بشيءٍ من الفن القصصي عند المعرّي، تبدو لغة المعري صعبة ًجداً، حتى إنه يلجَأ ُهو نفسه إلى شرح الكلمات التي أوردها، مع أنـَّه يقولُ في رسالة الغفران «وهو، آنس الله الإقليمَ بقربِه، أجلُّ من أن يُشرَحَ له مثل ذلك، وإنَّما أفـزعُ من وقوعِ هذه الرِّسالة في يد غلامٍ ما زال صغيراً، ليس بالفهمِ جديراً، فتستعجم عليه اللـَّـفظة، فيظلُّ معها كأنما كبَّـلـَـتْه قيود الحديد، لا يقدِرُ على الإسراع ولا المَشْـي الوئيد». وهذا مثل واحد على وُعورة لغة المعري « ويحمُّ فإذا هو بأسدٍ يفترس من صيران الجنّة وحَسِيلِها فلا تكفيه هُنيدةٌ ولا هِندٌ فيقول في نفسه: لقد كان الأسدُ يفترسُ الشاة العجفاء، فيُقيم عليها الأيَّام لا يطعَمُ سواها شيئاً. فيُلهم الله الأسدَ أن يتكلّم، وقد عرف ما في نفسه، فيقول: يا عبدَ الله، أليس أحدُكم في الجنَّة تُـقدَّمُ له الصِّحْفة وفيها

البهطُّ والطِّريم مع النـُّهيدة، فيأكلُ منها مثلَ عمرِ السّموات والأرض، يلتذّ بما أصاب فلا هو مكتفٍ، ولا هي الفانية؟ وكذلك أنا أفترِسُ ما شاء الله، فلا تأذى الفريسةُ بظفرٍ ولا نابٍ، ولكن تجدُ من اللَّذة كما أجدُ بلطفِ ربِّها العزيز. أتدري من أنا أيُّها البزيع؟ »

وهذا مثال آخر:» كم متظاهر باعتزال، وهو مع المخالف في نزال! بزعْم أنّ ربَّه على الذّرَّة يخلد في النار، بله الدّرهم وبله الدّينار ، وما ينفكّ يحتقبُ المآثم عظائم، ويقع بها في أطائم. ينهمك على العهار والفـُسق، ويظعن من الأوزار الموبقة بأوفى وسق، ويقنت على رهط الإجبار، ويسند إلى عبد الجبار. يطيل الدأب في النهّار واللّيل، ويضمر أنّ شيخ المعتزلة غير طاهر الرُّدن ولا الذّيل، فقد صيّر الجدل مصيدة، ينظم به الغيّ قصيدة. وحدِّثت عن إمام لهم يوقرّ ويتبع، وكأنه من الجهل ربع، أنّه كان إذا جلس في الشـَّرْب، ودارت عليهم المسكرة ذات الغرْب، وجاءه القدح شربه فاستوفاه، وأشهد من حضرة على التوبة لما اقتفاه.

والأشعري إذا كشف ظهر نمي، تلعنه الأرض الرّاكدة والسمي، إنّما مثله مثل راعٍ حطمة، ويخبط في الدهماء المظلمة، لا يحفل علام هجم بالغنم، وأن يقع بها في الينم، وما أجدره أن تأتي بها سراحين، تضمن لجميعها أن يحين! فمن له أيسر حجى، كأنمّا وضع في دجى، إلا من عصمه الله باتباع السّلف، وتحمل ما يشرع من الكلف»

وهذا مثال ثالث» وكلّ ساعٍ للفانية لا بدّ له من الندّم، في أوان الفرقة وحين العدم، فذمنّا لها يحسب من الضّلال، كما تمنّى القنع أخو الإقلال، وهذه زيادة في النّضب، وفاز بالسبَّق حائز القصب. نذمهّا على غير جناية، ولم تخبر أحداً بالعناية، بل أبناؤها في المحن سواء، لا تساعفهم الأهواء، فرب حاملٍ حزمة عضيدٍ ليس رثده بالنضيد، يعجز ثمنها عن القوت، ويكابد شظف عيشٍ ممقوت، يلج سلاء في قدمه، ويخضبه الشائك بدمه، وهو أقل أشجاناً من الواثب على السرير، ينعم برشأ غرير، يجمع له الذهب من غير حلٍّ، بإعنات الأمم وإسخاط الإلّ، وإذا ملأ بطنه من طعام، وسبح في بحرٍ من الترف عام، فتلك النعّم ولذاته، تحدث لأجلها أذاته، يختلجه القدر على غفول، وغاية السّفر إلى قفول. وما يدري العاقل، إذا افتكر، أي الشخصين أفضل: أربيب عقد عليه إكليل، أم أرقش ظله في الملك ظليل؟ كلاهما بلغ آراباً، وأحدهما يأكل تراباً، الآخر يعل بالراح، ويجتهد له في الأفراح.»

وقد بذلت جهدي ألا يكون في الهوامش شرح للكلمات، وأن أجد الكلمة المناسبة المفهومة لدى القارئ الحديث، أما الأشعار فقد تركتها على حالها، وإن كان المعري قد أتعبني بإيراده أشعاراً لم أجدها في الدواوين ولا في الكتب الجامعة.

كانت المعضلة الكبرى أن المعري كتب الرسالة مسجوعة، والسجْع ليس غريباً، ومعظم كتب الأولين كانت مسجوعة، لكن سجْع المعري يختلف عن أي سجع آخر، فهـو هـنا في رسـالة الغـفـران يفعل نثراً – في معظم الأحيان – ما فعله في « لزوم ما لا يلزم » شعراً، هناك التزم ثلاثة حروف في القافية وليس حرف الرويّ وحده، وهنا يلزم نفسه في السجع بثلاثة حروف أيضاً، ولذلك تعج الرسالة بالكلمات الغريبة التي تحتاج إلى بحث في المعجم لفهمها، وسيعذرني أبو العلاء والقارئ لأني لم أستطع مجاراة هذا، فاكتفيت في السجع بحرفين.

هذه هي رسالة الغفران بلغة جديدة، حاولت في إعادة كتابتها ألا أسيء إلى لغة المعري، وفي الوقت نفسه أن أجعلها مفهومة لدى القارئ الحديث، فإن وُفـِّقْت، فبفضل من الله ومِنـّة. وأرجو أن يستمتع أبناء الجيل الجديد بقراءة هذا السِّـفْـر الفريد الخالد، ليس في الأدب العربي وحده، بل في آداب الأمم كلها، فإن تحقق لهم ذلك، فالفضل الأول يعود إلى المعري، وإن تحقق ناقصاً، فإنهم سيعذرون، ويكفيني شرف المحاولة، وأقنع بأجر واحد لأنني اجتهدت، والله ولي التوفيق.

الكاتب والكتاب

كتاب المعـريّ فـريد بيـن كتبه وفي تراثـنـا العـربي كله، بل هـو فريد في الآداب العالمـيـة، قـبس منه كثيـرون أشـــهـرهـــم دانـتي أليغـيـيـري (١ يونيو ١٢٦٥ - ١٤ سبتمبر ١٣٢١) شاعر إيطاليا الأشهر والأعظم في أعظم أعماله (الكوميديا الإلهية) بشقيه الفردوس والجحيم، ويعتبر البيانَ الأدبي الأعظم الذي أنتجه أوروبا أثناء العصور الوسطى، وقاعدة اللغة الإيطالية الحديثة.

تعد رسالة الغفران من أعظم كتب التراث العربي النقدي، وهي من أهم وأجمل مؤلفات المعري، وقد كتبها رداً على رسالة ابن القارح، وهي ذات طابع روائي، وتنقسم إلى قسمين رئيسيين: في الأول جعل المعري ابن القارح بطلاً لرحلة خيالية أدبية عجيبة يحاور فيها الأدباء والشعراء واللغويين في العالم الآخر، ويتنقل ابن القارح في الجنة ويلتقي ويحاور عدداً من الشعراء في الجنة من مشاهير الأدب العربي، ويواصل مسامراته الأدبية مع من يلتقي بهم من شعراء وأدباء ثم يعود للجنة مجدداً ليلتقي عدداً من الشعراء يتحلقون حول مأدبة في الجنة وينعمون بخيرات الجنة من طيور وحور عين ونعيم مقيم. ثم يمر وهو في طريقه إلى النار بمدائن العفاريت فيحاور شعراء الجن ويلتقي حيوانات الجنة ويحوارها ويحاور الحطيئة. ثم يلتقي الشعراء من أهل النار، ولا يتوانى في مسامرتهم وسؤالهم عن شعرهم وروايته ونقده، ثم يعود من جديد للجنة ونعيمها.

ومحاورات ابن القارح مع الشعراء والأدباء واللغويين التي تخيلها المعري في العالم الآخر مصدر مهم من مصادر دراسة النقد الأدبي القديم، حيث حوت تلك المسامرات والمحاورات مباحث نقدية مهمة وأساسية في النقد الأدبي، وقد انتبه كل من طه حسين و لويس عوض ونبها إلى أمر مهم في رسالة الغفران، ووصفاها بأنها من البدايات الخلاقة للأدب المقارن في العربية، وأسلوب فذ في المقاربة النقدية للتراث العربي.

وفي رسالة الغفران نجد للمعري صورة أخرى غير ما ألفناه في كل ما كتب عنه وقيل فيه، إذ تظهره الرسالة ذا مخيلة خلاقة قادرة على تشييد بناء خيالي قصصي ممتع، وذا فكاهة ودعابة أكثر مما يمكن تصوره عند رهين المحبسين، ويمارس أبو العلاء التصوير الكاريكاتوري الساخر نفسه الذي مارسه في رسالة الملائكة، حتى إن بعض النقاد يرون أن المعري مارس مع ابن القارح سخرية راقية مخففة، لكثرة

ما أورد من دعاء له في كل صفحة تقريباً من الرسالة، من مثل:

ثم إنه، أدام الله تمكينه

وهو، أكمل الله زينة المحافل بحضوره

وكأني به، أدام الله الجمال ببقائه

فيقول، أصلح الله به وعلى يديه

فيكره، جنّبه الله المكاره

فلو أنه أورد هذه الأدعية في بعض الأمكنة حيث تلزم، لعُدَّ هذا من حسن الأدب، لكن هذا التكرار والإصرار يجعل هذا الأسلوب مضحكاً.

كما نلحظ سخرية المعري من الرواة الذين نسبوا شعراً لآدم عليه السلام وللجن، فخرج على أيديهم حكايات مما لا يصدقه العقل ولا يقره المنطق، ويرد ذلك إلى التأويل المفرط. ويعمد إلى ما توارثه الخلفُ عن السلف من حكايات، ويوضّح ما فيها من مبالغات تجعل تصديقَها من المستحيلات، ويرى أن الخيال تولى تضخيم هذه الحكايات، فأحالها إلى خرافات وأساطير، وابتعد بها كثيراً عن أن تكون واقعية صحيحة، ولا ينسى في كل ذلك إظهار قدراته اللغوية الكبيرة، ومعرفته العميقة بكلام العرب وأساليبهم بكل ما فيها من الافتنان والتوسع. وفي القسم الثاني يرد على رسالة ابن القارح فقرة فقرة، والقسم الأول هو الأهمُّ أدبياً، أما الثاني فتوضيح لقضايا أثارها ابن القارح في رسالته، ويمكننا القول إن هذا القسم وحده الرد على ابن القارح، أما القسم الأول فلعبة خيالية لعل رسالة ابن القارح أثارتها.

الرسالة كثيرة الاستطراد, ولعل الجاحظ الذي وسَم أدبَه بالتنقل من موضوع إلى آخر, ثم العودة إلى ما بدأ, قد دمغ باستطرادته الأدبَ العربي، وأعدى صاحبنا المعري, وربما كان استطرادُ المعري لسبب آخر هو اللهو، والعبث بابن القارح، أو أنه لسعة اطلاعه فاض كما فاض الجاحظ. وكمثال على الاستطراد والاسترسال نقرأ الصفحات من ٣٣٤ إلى ٣٣٦ من هذا الكتاب حيث يسترسل المعري مع أوصاف الخمر وأسمائها، وإذ يعود إلى قول ابن القارح إن ابنة أخته سرقت منه ثمانين ديناراً، فإنه يسترسل في الحديث عن الدينار والدنانير من الصفحة ٣٣٦ إلى الصفحة ٣٤٢، ثم يجذبه عدد الدنانير» ثمانون « ليسترسل مع الثمانين من ٣٤٢ إلى ٣٤٧. بل إن القسم الأول كلُّه استطراد، فهو يقول:» وقد غـُرِس لمولاي الشيخ الجليل إن شاء الله بذلك الثناء، شجرٌ في الجنة لذيذ اجتناء، كل شجرة منه تمتد ما بين المشرق والمغرب بظلٍّ عظيم وارِف، ليست في الأعين كذاتِ أنْواط في الزمن السالف» ولعل هذا

ما دفعه إلى ابتكار رحلة ابن القارح الخيالية في الآخرة. ثم يذكر الأباريق فيستطرد ويسترسل في شرح كل ما توحي به الكلمة في صفحات عدة.

إلى جانب ذلك أسرف المعري في الجري في مضمار الغريب، كأنه يكتب لخاصة الناس كما يقول الدكتور طه حسين, أو أنه لم يشأ أن يطلع عامة الناس على آرائه ومنازع فكره, لكن هذا الغريب النادر أظهر لنا أبا العلاء واسع الاطلاع - إلى حد لم نألفه عند سواه - على الغريب والنادر في اللغة، فأحيا ألفاظاً كانت مواتاً, مستوفياً قواعد اللغة والشاذ فيها, متصرفاً بالاشتقاق والتوليد تصرف الخبير، حتى إن العلّامة عبد الله العلايلي (وهو العلم في اللغة العربية) يميزه بأنه صاحب فلسفة لغوية خاصة, مما أدى به إلى اعتبار الحروف كالأرقام ذات دلالات رمزية.

وفي رسالة الغفران علم كثير بالشعر وروايته ونقده ومقابلاته، وبالتاريخ والأماكن والأفراد، وبالقرآن وتفسيره وروايته، والحديث ومختلف شؤونه, واللغة بكل ما يتصل بها, والتفات حصيف إلى الفرق والأديان، وما خفي من حياة الأفراد العظماء، فجاءالمعري ينبش ويكشف, أو يصحح أو يفضح.

وهذا هو الجانب الذي جعلني أتردد كثيراً في خوض غمار تجربة نقل رسالة الغفران إلى لغة العصر الحديث، كما فعلت في بخلاء الجاحظ . فالجاحظ - وإن كان شيخ الأدباء - اهتم في كتابه بالقصص والروايات والسخرية والمفاكهات، أما المعري فإن اللغة حجر الأساس في رسالته، وتهيبت الإقدام على تبسيط الرسالة، ثم توكلت على الله وعزمت/ متذكراً قول أبي جعفر المنصور:

إذا كنتَ ذا رأيْ فكُنْ ذا عَزيمَةٍ فإنَّ فَسادَ الرَّأيِ أنْ تَتَردَّدا

أما الكاتب فهوأبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان القضاعي التنوخي (٣٦٣ - ٤٤٩هـ/ ٩٧٣ - ١٠٥٧م (، وكنيته أبو العلاء مجازية، كما كان المتنبي يكنى أبا الطيب، مع أن اسم ابنه مُحَسَّد، وليس للمعري ابن يدعى العلاء، فهو لم يتزوج، وقد أوصى بأن يُكتب على قبره:

هذا جناه أبي عليّ وما جنيت على أحد

ولقب نفسه برهين المحبسن. المحبس الأول فقدُ البصر، والثاني ملازمتُه داره واعتزاله الناس. ولد بمعرة النعمان المنسوبة إلى النعمان بن بشير الأنصاري والي حمص وقنسرين أيام معاوية ويزيد ثم أيام عبدالملك، وترجع أسرةُ المعري بأصولها إلى قبيلة عربية مشهورة هي تنُوخ التي ينتهي نسبها إلى قضاعة ثم إلى يعرب بن قحطان. وبيت أبي العلاء في بني سليمان بن داود بن المطهر وفيهم العلم والرئاسة، يقول ابن العديم "وأكثر قضاة المعرة وفضلائها وعلمائها وشعرائها من بني سليمان". وتولى أجداد أبي العلاء قضاء المعرة، وضم إليها جدُّه أبوالحسن سليمان قضاء حمص أيضاً، وعرف بالفضل

وكرم النفس، ومات سنة ٢٩٠ هـ فولي بعده ابنه أبوبكر محمد بن سليمان عم أبي العلاء، فلما مات ولي القضاء بعده أخوه عبدالله بن سليمان والد أبي العلاء، واختلف المؤرخون في سنة وفاته، وله من الولد، غير أبي العلاء، أبو المجد محمد بن عبدالله، وأبو الهيثم عبدالواحد بن عبدالله، وكانا شاعرين، وخلّفا طائفة من الأولاد تولوا القضاء. واستمر مجد الأسرة حتى أواخر القرن السادس الهجري. وأمّه من بيت معروف من بيوتات حلب الشهباء، وجده لأمه هو محمد بن سبيكة. وخالاه هما أبوالقاسم علي وأبو طاهر المشرف، وكانا من ذوي الشرف والمروءة والكرم، ومن أرباب الأسفار طلباً للمجد والجاه، وكانت صلته بهم طيبة، كما كانوا بررة به يُعينونه ويصلونه. وخالُه أبو طاهر هذا هو الذي أعانه على رحلة بغداد، ولذا كان يُكثر من ذكرهم، وله معهم مراسلات.

وكان المعري شديد التعلق بأمّه، يتحدث عنها بعاطفة مشبوبة متقدة، وعندما رحل إلى بغداد كان حنينُه إليها متصلاً، ولم يكن طيفُها يفارقه، وتصحبه الهواجس والظنون، ولم ينسها على مر الأعوام.

أصيب في آخر العام الثالث من عمره بالجدري فعمي في الرابعة من عمره، ولم يبق من ذكريات ما رآه إلا اللون الأحمر. قال: " لا أعرف من الألوان إلا الأحمر، لأني ألْبِستُ في الجُدَري ثوباً مصبوغاً بالعصفر، لا أعقِلُ غيرَ ذلك".

بدأ أبوالعلاء صغيراً في تلقي العلم على أبيه، وأول ما بدأ به علومُ اللسان والدين على دأب الناس في ذلك العصر، وتُلمَح الفائدة التي جناها من هذه الدروس، إذ بدأ يقرض الشعر وله إحدى عشرة سنة، ثم ارتحل إلى حلب ليسمع اللغة والآداب من علمائها تلاميذ ابن خالويه. وكانت حلب في ذلك العصر إحدى حواضرِ العالم الإسلامي الكبرى، تضم جمعاً من العلماء ممّن استدعاهم سيفُ الدولة إبّان عنفوان دولته، ولم تذهبْ نهضتُها بموته، بل استمرت بعده. وفي حلب اشتهر المعري وروايته للأدب والشعر.

ومن حلب توجه إلى أنطاكية، وكانت بها مكتبة عامرة تشتمل على نفائس الكتب، فحفظ منها ما شاء الله أن يحفظ، ثم سافر إلى طرابلس الشام، ومر في طريقه باللاذقية، ويقال إنه درس النصرانية واليهودية جميعاً. ولما وصل أبو العلاء إلى طرابلس وجد بها مكتبة كبيرة ـ وقفها أهل اليسار ـ درس منها ثم عاد إلى المعرة. تردَّد في طور لاحق في مكتبات بغداد ودور العلم بها، وكان استعداده للعلم عظيماً وذكاؤه ملتهباً. روى الثعالبي عن أبي الحسن المصيصي الشاعر قوله: " لقيت بمعرة النعمان عجباً من العجب، رأيت أعمى شاعراً ظريفاً يلعب بالشَّطرَنج والنَّرْد، ويدخل في كل فن من الجد والهزل، يكنّى أبا العلاء، وسمعته يقول: " أنا أحمَدُ الله على العمى، كما يحمده غيري على البصر، فقد أحسن بي إذ كفاني رؤية الثقلاء البغضاء». ولعله في هذا يذكّرنا ببشار بن برد، فقد قيل له: إنك تحمد العمى،

فقال: لأنه جنبني رؤية الثقلاء. وقيل له يوماً وقد أنشد قوله:

كأن مثارَ النقْعِ فوقَ رؤوسِنا وأسيافَنا ليلٌ تهاوى كواكبُهْ

ماقال أحد أحسن من هذا التشبيه، فمن أين لك هذا ولم تر الدنيا قط؟ فقال: إن عدم النظر يقوِّي ذكاء القلب، ويقطعُ عنه الشغل بما ينظر إليه من الأشياء، فيتوفرحِسُّه وتذكو قريحته، ثم أنشدهم قوله:

عَميتُ جَنيناً وَالذكاءُ مِنَ العَمى فجِئتُ عَجيبَ الظنِّ لِلعِلمِ مَعقِلا

أشار ابن العديم إلى قوة حفظ أبي العلاء برواية حكاية عن ابن منقذ، ذكر فيها أنه يقرأ عليه الكراسة والكراستين مرة واحدة فيحفظهما، ولم يُعلم له من شيوخ بعد سن العشرين، وذكر هو نفسه أنه لم يحتج إليهم بعدها.

اختلف المؤرخون في السنة التي مات فيها أبوه، فيذكر ياقوت أنه توفي سنة ٣٧٧هـ بحمص، وبهذه الرواية يأخذ بعضهم، ويبني عليها رأيه في نبوغ أبي العلاء الباكر وعبقريته الفذة. ويقول ابن العديم: إنه توفي سنة ٣٩٥هـ بمعرة النعمان، ويؤيد جمع من الدارسين روايته لأسباب منها أنه كان يذكر أسانيد رواياته، وأغلبُ رواته من بني سليمان أو من تلاميذ المعري ومعاصريه، ويذكر طرق الرواية قراءة أو سماعاً أو مكاتبة، هذا فضلاً عن تخصصِه واقتصارِه على أخبار أبي العلاء بخلاف ياقوت في كتابه الجامع المانع. ومنها أن القصيدة التي رثى بها أباه شديدةُ الأسر مُحكمةُ التركيب، فيها درجةٌ من النضج الفني والفكري يصعب أن يتصفَ به ابن أربع عشرة سنة، وقد وصفت بأنها من عيون الشعر في الديباجة والأغراض والمعاني.

وقد خلفت وفاة والده جراحاً غائرة وأسى عميقاً في نفسه لعظم عطاء الوالد البر الذي كان اعتماد أبي العلاء عليه كبيراً في كثير من شؤونه، فأحس بعده بأنه مَهيض الجناح ضائعٌ أو شبه ضائع، وهذا الحدث أمده بكثير من الآراء التي عظمت عنده من سوء رأيه في الحياة ويقينه بفسادها.

كان أبوالعلاء فقيراً، ولم يكن يتكسب بشعره، وكان له ثروة ضئيلة لا تتجاوز ثلاثين ديناراً في السنة، جعل نصفها لخادمه. ويرى بعضُهم أن ما منعه من التكسُّب أمران: أولهما أن عزة النفس التي ورثها عن أسرته تمنعُه من إراقة ماء وجهه، وتصدُّه عن ذلِّ السؤال، وثانيهما فطرتُه السليمة ودراسته الفلسفية اللتان صانتاه من الابتذال وصوغ الأكاذيب في الأمراء. والكذب عنده بشع قبيح، ثم إن المال الذي يأخذه عن طريق التكسب مالٌ حرام استُحِل ظلماً، وأولى به شيخ كبير وعجوزٌ فانية وأرملةٌ مهيضةُ الجناح وأطفالٌ زُغْب.

كانت أمه تمانع في سفره أول الأمر، ولكنه أقنعها فأذنت له، وأعدَّ له خالُه أبو طاهر سفينة انحدر بها إلى الفرات حتى بلغ القادسية، وهناك لقيه عمال السلطان، فاغتصبوا سفينته، واضطروه إلى أن يسلك طريقاً مخوفة إلى بغداد، ولا يذكر المؤرخون أسباباً لرحلته تلك سوى أنها للسياحة وطلب العلم والحرص على الشهرة بمدينة السلام، وربما أشاروا من طرف خفي إلى فقره وطلبه الغنى. ولكن القفطي والذهبي ينصّان على أن عاملَ حلب كان قد عارض أبا العلاء في وقفٍ له، فارتحل إلى بغداد شاكياً متظلِّماً. وقد يكون الاضطراب السياسي في الشام آنذاك أحدَ الأسباب التي أخرجته وبغَّضت إليه المعرة، فتركها ليقيمَ ببغداد. وكانت أجزاء كبيرة من الشام قد خضعت للعُبيديين وهم من الشيعة الباطنية، وكان المعري مبغضاً لهم ، فيرجِّح بعض الدارسين أنَّ خروجه قد يكون بسبب تحكُّم هؤلاء في المعرة في السنة التي خرج فيها.

أما المعري فينفي أن يكون خروجُه طلباً لدنيا أو التماساً لرزق، وكرر هذا في رسائله إلى أهل المعرة وإلى خاله، وذكر أن أهل بغداد بذلوا له الأموال ليبقى بينهم، ولكن وجدوه "غير جَذِلٍ بالصفات ولاهَشَّ إلى معروف الأقوام» كما نفى نفياً قاطعاً أن يكون خروجُه ليستزيد من العلم: "ومنذ فارقت العشرين من العمر ما حدثت نفسي باجتداءِ العلم من عراقي ولا شامي. وانصرفتُ وماءُ وجهي في سِقاء غير سَرِب، لم أرق قطرة منه في طلب مال ولا أدب " مع أنه كان أمراً مألوفاً في عصره أن يرحل الرجل ليستكثر من لقاء الشيوخ، وكانت بغداد مما يقصد إليها الشعراء واللغويون والفقهاء والمحدثون. وقد صرح أبو العلاء بسبب سفره في بعض رسائله أنه أتاها قاصداً دار الكتب بها، وكان يسمِّيها دار العلم. ويَذكر أنه لما دخل بغداد طلب أن تُعرض عليه الكتب التي في خزائنها. وأنه حضر إلى خزانة الكتب التي بيد عبدالسلام البصري، وعرض عليه أسماءها، فلم يستغرب شيئاً لم يره من قبل بدور العلم بطرابلس، إلا ديوانَ تيم اللات فاستعاره.

كان خروج المعري إلى بغداد في أواخر سنة ٣٩٨هـ ودخلها في أوائل سنة ٣٩٩هـ ولم يذهب إلى بغداد نكرة مغموراً بل سبقته شهرتُه إليها، ولكن أهل العاصمة الكبرى لم يكونوا ليسلموا بعبقرية الوافد قبل امتحانِه، وقد أعدوا له امتحاناً عسيراً اجتازه بنجاح، ذكره ابنُ فضل الله العمري في مسالك الأبصار: "أحضروا دستور الخراج الذي في الديوان، وجعلوا يوردون عليه ما فيه مُياوَمة وهو يسمع إلى أن فرَغوا، فابتدأ أبو العلاء وسرَد عليهم كل ما أوردوه له". وأقروا له بالحفظ والعلم والشعر معاً، إذ قرأوا عليه ديوان سقط الزند.

حضر المعري كثيراً من مجالس العلماء ببغداد واشترك في دروسهم ومناظراتهم، فكان يحضرُ مجمعَ سابور بنِ أردشير، ومجمع عبدالسلام البصري يوم الجمعة ، ويحضرُ دروسَ الشريف

المرتضى، وكانت علاقتُه أول الأمر حسنة متينة بالشريفين المرتضى والرضي وأسرتهما، ورثى والدهما الشريف الطاهر بقصيدة مرتجلة، وكانا يُجلانه ويرفعان منزلته، كما كان يحضرُ المجالس الشعرية بمسجد المنصور حيث يلقي الشعراء قصائدهم.

وعلى الرغم من هذا الحضور وتلك المشاركات العلمية الاجتماعية الحافلة لم يَطِب له المقام ببغداد، وحدث له من الحوادثِ ما آلمه وزهَّده فيها. من تلك الحوادث ما يروى من أنه عثر يومَ إنشاده المرثية في الشريف الطاهر برجل لا يعرفه، فقال له الرجل: إلى أين يا كلب؟ فأجابه: الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً. وأشدُّ من هذا وقعاً على نفسه موقفُ الشريف المرتضى منه لما جرى ذكر المتنبي في مجلسه، وكان المرتضى يكرهه، ويتعصَّب عليه، ويتتبَّع عيوبَه، بينما كان المعري من أشد الناس إعجاباً بالمتنبي، فقال المعري: "لو لم يكن له إلا قصيدته التي مطلعها:

لك يا منازِلُ في القلوبِ منازلُ   أقْفَرْتِ أنت وهنَّ منك أواهلُ

لكفاه"، فغضب المرتضى، وأمر بإخراجه، فسُحب برجله ، ثم قال المرتضى لجُلسائِه: أتدرون لم اختار الأعمى هذه القصيدة دون غيرها ؟ قالوا: لا. قال: إنما عرض بقوله:

وإذا أتَتْكَ مَذمَّتي مِن ناقِصٍ   فهيَ الشَهادَةُ لي بأَنّيَ كامِلُ

ولا ندري ممَّ نعجب: من ذكاء المعري الذي دافع عن المتنبي، وعرَّض بالغمز لمنتقديه دون أن يقول هذا صراحة، أم من الشريف الذي فهم التعريض ولم يفهمه جلساؤه.

وعلى ذكر إعجاب أبي العلاء بالمتنبي، نذكر أن المعري كان يقول: ما عنى أبو الطيب غيري حين قال:

أنا الذي نظرَ الأعمى إلى أدبي   وأسْمعتْ كلماتي من بِه صَمُمُ

وحاول المعري حضور مجلس إمام النحو ببغداد أبي الحسن علي بن عيسى الرَّبعي، ولما قصده واستأذنَ في الدخول عليه، قال أبو الحسن: ليصعد الاصطبل، وتعني الأعمى بلغة الشام، فانصرف المعري من فوره مغضباً. ثم قرر المعري مغادرة بغداد، وما كان هيناً على البغداديين مفارقته، فكانوا لرحيله كارهين، ولفراقه محزونين، وودّعوه باكين. ويذكر أبو العلاء سببين لرحيله هما فقره ومرض أمه. ورجع إلى المعرة ولزم منزله لا يخرج منه. ويقول في إحدى رسائله: "يُحسِن الله جزاءَ أهل بغداد، فقد وصفوني بما لا أستحق، وشهدوا لي بالفضل على غير علم، وعرضوا أموالهم عرض الجِد".

خرج أبوالعلاء من بغداد لست ليال بقين من رمضان عام ٤٠٠هـ، وحدد طريق عودته من بغداد إلى الموصل وميافارقين، ثم نزل بالحسنية ووصل بعدها إلى آمد، وقد مر في طريقه بطرف حلب ولم يدخلها تنفيذاً لقرار العزلة. توفيت أمه وهو في الطريق راجعاً من بغداد، فرثاها بقصيدتين وكثيرٍ من النثر، وأضاف موتها إلى فواجعه ما ملأ نفسه ظلاماً وحباً في العزلة التي اختارها، وظل يذكرأمَّه طوال عمره، ولا يرى عزاء إلا في لَحاقه بها، حيث يؤنسُه أن يدفن إلى جوارها .وبعد عودتهِ من بغداد قرر أن يعتزل الناس جميعاً ، وعبر عن ثلاثة سجون يعيشها بقول

أَرانـي فـي الـثـلاثـةِ مِـن سُـجـوني	فـلا تسـأل عَـنِ الخبَـرِ الـنَـبـيـثِ
لِـفـقـدِيَ نـاظِـري وَلُـزومِ بَـيـتـي	وكَـونِ الـنـفـسِ في الجَـسَـدِ الخَبيثِ

وكان في طبعه ميل إلى العزلة كما وصف نفسه بأنه "وحشيُّ الغريزة إنسيُّ الولادة". وتضافرت أسبابٌ حملته على اتخاذ قرار العزلة، فمنها الأحداث المؤلمة التي مرت به من فقد أبيه وأمه، وما يلقى من أذى أحياناً من بعض الناس. ويجعل بعضهم من أسباب عزلته ـ إضافة إلى ما سبق ـ سببين رئيسيين، أولهما: ذهاب بصرِه الذي جعله يجهلُ كثيراً من آدابِ الناس في عاداتهم، وكان شديدَ الحياء عزيز النفس، يكره أن يُخطئ في ما أَلِفَ الناس، فيكونَ موضعَ السخرية والاستهزاء أو الرحمة أو الشفقة. وثانيهما إخفاقه في الإقامة في بغداد حيث يلقى العلماء والفلاسفة، ومن ثم اضطرارُه إلى لزوم المعرة، وهي خِلْوٌ من العلماء، فكأن معاشرته للبغداديين قد بغَّضت إليه معاشرة الناس.

قرر أبو العلاء الانقطاع عن الدنيا ومفارقة لذائذها، فكان يصوم النهار ويسرد الصيام سَرْداً لا يفطر إلا العيدين، ويقومُ الليل، ولا يأكل اللحومَ والبَيضَ والألبان، ولم يتزوج، وكان يكتفي بما يخرج من الأرض من بقل وفاكهة:

غـدَوتَ مريضَ العَـقلِ وَالدينِ فالْقَـني	لِتسـمَـعَ أنبـاءَ الأمـورِ الصَحـائِـحِ
فلا تأكُـلَـنْ مـا أخـرَجَ المـاءُ ظالِـمـاً	وَلا تبْغِ قوتاً مِن غَـريـضِ الذبائِـحِ
وَلا تـفـجَـعَـنَّ الـطـيـرَ وَهـيَ غـَوافِـلٌ	بِما وَضَعَت، فالظُـلـمُ شـرُّ القبائِـحِ
وَدَعْ ضَـرَبَ النحـلِ الـذي بَكَـرَت لـهُ	كـواسِـبَ مِـن أزهـارِ نَـبـتٍ فـوائِـحِ

ويكتفي من الثيابِ بالخشنِ منها، ومن الفراش بالحصير، وكان يكلِّف نفسه أموراً شاقة زيادةً في مجاهدتها مثل الاغتسالِ شتاءً بالماء البارد:

مـضى كـانـونُ مـا استعملتُ فيه حـمـيـمَ المـــاءِ فـاقْـدُمْ يـا شُـبـاطُ

وقد التزم بقرار عزلته فلم يخرج من داره تسعاً وأربعين سنة إلا مرة واحدة مكرهاً، بعد ما ألحَّ عليه أهلُ بلدته طالبين شفاعتَه لدى الأمير أسد الدولة صالح بنِ مِرداس، وذلك أن امرأة دخلت جامعَ المعرة صارخة تستعدي المصلين على أصحابِ ماخورٍ قصدوها بسوء، فنفر إليها الناس وهدموا الماخور ونهبوا ما فيه. وكان أسدُ الدولة في نواحي صيدا، فأسرع إلى هناك، وعَسْكر بظاهر المعرة وحاصرها، وشرع في قتالها، واعتقل سبعين من أعيانها، فلما ضاق الأمر بالمعريين لجؤوا إلى أبي العلاء، فخرج من محبِسه مكرهاً، وقابل صالحاً واستشفع لديه فقال له: قد وهبتها لك يا أبا العلاء.

والتزم بقرار عزلته من جهة ثانية مدة من الزمان، أي إنه لم يفتح دارَه لأحد من الناس. قال ابن العديم: " أقام مدة طويلة في منزله مختفياً لا يدخل عليه أحد. ثم إن الناسَ تسببوا إليه، وألحُّوا في طلب الشفاعة لديه من أقاربه الأدنين". ثم إنه استجابَ لتوسلات المتوسلين، ففتح داره لطلاب العلم من كل صقع وصوب، وصارت داره جامعة يَؤمُّها الزائرون من شتى البقاع، وأخذ الناس يفدون إليه، وكاتبه العلماء والوزراء وأهل الأقدار. قال ابن فضل العمري: "أخذ عنه خلق لا يعلمهم إلا الله، كلهم قضاة وخطباء وأهل تبحُّرٍ واستفادوا منه، ولم يذكرْه أحد منهم بطعن، ولم ينسُبْ حديثَه إلى ضعف أو وهن". ومن أشهر تلاميذه أبو زكريا الخطيب التبريزي وعلي بن المحسن بن علي التنوخي القاضي. وله كتّاب كان يملي عليهم مصنفاته، منهم أبو محمد عبدالله بن محمد القاضي ابن أخيه، وكان بَرّاً بعمه، وأبو الحسن علي بن محمد أخو عبدالله، وأبو نصر زيد بن عبدالواحد، وجعفر بن أحمد بن صالح التنوخي، وإبراهيم بن علي بن الخطيب، وأبو الحسن علي بن عبدالله بن أبي هاشم المقرئ. وكان يذكرهم بالخير في شعره ونثره.

عُمِّر أبو العلاء طويلاً، وأصابته الشيخوخة بالوهن، ووصفها بقوله:

«الآن علت السن، وضعف الجسم، وتقارب الخَطْو، وساء الخُلق". ولكنها إن أصابت جسمه فما أصابت عقله وصفاءه وقريحته وتوقدها وحافظته وقوتها، فما نسي شيئاً مما حصَّل. وفي اليوم العاشر من ربيع الأول سنة 944هـ اعتل أبو العلاء وعاده الطبيب المشهور أبو الحسن مختار بن بطلان، وكان ممن يتردد عليه للزيارة والسماع أثناء مقامه بديار الشام، ووصف له كأساً من شراب أتاه به ابن أخيه القاضي فامتنع عن شربه وأنشد:

تُعَلِّلُني لتسقيني فذرْني لعَلّي أستريحُ وتستريحُ

كما وصفوا له لحمَ الدجاج، وهم يعلمون أنه لا يأكل اللحومَ كلها ولا البيض ولا العسل، فلما وضعوه بين يديه لَمَسه بيده فجزع وقال "استضعفوك فوصفوك، هلّا وصفوا شِبل الأسد". وتوفي بعد ثلاثة أيام ووقف على قبره أربعة وثمانون شاعرًا يرثونه.

كان المعري على الرغم من عزلته ذا صلة حسنة بالناس. وكان مع فقره كريماً ذا مروءة، يعين طلاب الحاجات، وينفق على من يقصده من الطلاب، يهدي ويُهدى إليه، ويُكرِم زائريه. ومن مُروءته وكرمه أنه لم يقبل من تلميذه الخطيب التبريزي ذهباً ثمناً لإقامته عنده. لم يردَّه إليه في حينه حتى لا يُوقِعه في مشقة الحرج، ولكنه احتفظ له به حتى تجهَّز قافلاً فودعه ورد إليه ما دفع. وكان رقيق القلب رحيماً عطوفاً على الضعفاء، حتى شملت رقة قلبه الحيوان، فكان يرى ألا يُذبح ولا يُروَّع بولده وبيضه. وكان وفياً لأصدقائه وأهله. وتفيض رسائله إلى أهل بغداد والمعرة وإلى أخواله بهذا الوفاء. ومن أهم خصاله الحياء، وكثيراً ما كتب كتباً ورسائل لأناس يستشفع لهم فيها عند الأمراء، وهو كاره لذلك، ولكنه لفرط حيائه لا يستطيع لهم رداً. وقد دفعه عماه إلى تحدي الصعاب والرغبة في التكيف واكتساب العلم والمعرفة والتفوق فيهما على البصراء. ويتبدى تحديه هذا في لعبِه النردَ والشطرنج، وعلى الرغم من تكيُّفه مع هذه العاهة، واكتسابه صفات تعويضية، فإنها أورثته شعوراً عميقاً بالألم والحزن ملأ شعره بالزفرات الحارة، مما يدل على مالها من أثر شديد على نفسه.

اتهم المعري بالزندقة والإلحاد من بعض معاصريه، ولا شك أنه كان يناقش في مجالسه قضايا الفلسفة، ويشرحُ للطلاب أشعارَه، ويفسر لهم ما صعب منها. وربما قاده الشرح إلى الحديث عن مختلف الآراء الفلسفية التي لا يرتضيها عامة الناس. يضاف إلى هذا تبتُّله وتركُه الزواج وامتناعه عن اللحم وما أشبه ذلك، وفيه ما فيه من مجانبة لسنن الدين ولحوق بفلسفات برهمية هندية. وقد استند متهموه إلى ما في رسالة الغفران من أخبار الزنادقة وأشعارهم.

ولكنه وجد من يدافع عنه نافياً هذه التهمة. ومن هؤلاء القفطي وابن العديم، وسمى الأخير كتابه " كتاب الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري" وقال في مقدمته متحدثاً عن حُسّاده وشانئيه: "رموه بالإلحاد والتعطيل، والعدول عن سواء السبيل، فمنهم من وضعَ على لسانِه أقوالاً ملحدة، ومنهم من حمل كلامه على غير المعنى الذي قصده، فجعلوا محاسنه عيوباً وحسناته ذنوباً وعقله حُمقاً وزهده فُسقاً، ورشقوه بأليم السهام، وأخرجوه عن

الديـن والإسلام". ومن أحســن الشـهـادات في حـقـه شـهـادة الإمام الذهـبي المـتـوفى ســنة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م، حـيـث قال: " كان مـن أهـل الـفـضـل الوافـر والأدب الـبـاهـر ومعـرفة الـنـسـب وأيـام العـرب. وله في التـوحـيـد وإثـبات النـبـوة وما يـحض على الـزهـد وإحياء طرق الفتوة والمروءة شعر كثير".

ألَّـف أبو العلاء مصنفات جمة، ضاع أكثرها، ولم يصل إلينا منها إلا النزر اليسير. يقول القفطي والذهبي إن أكثر كتبه بادَ ولم يخرج من المعرة، وحرقها الصليبيون فيما حرقوا من المعرة، وأحصيا له من الكتب خمسة وخمسين كتاباً في أربعة آلاف كراسة، تشمل الشعر والنثر، ويذكر الرحالة الفارسي "ناصر خسرو"سنة ٤٣٨هـ أن أبا العلاء نـظم مائة ألف بيت من الشعر، وجاء هذا القول قبل وفاته بإحدى عشرة سنة. وعد ياقوت من مصنفاته اثنين وسبعين مـصـنَّـفـاً. بقي من نثره رسالة الغفران ورسالة الملائكة، وهي صغيرة، وأجزاء من الفصول والغايات، وطائفة من الرسائل كان يوجهها إلى أصدقائه. ويمتاز نثره بالغريب وكثرة الغموض واللجوء إلى السجع مثل أهل عصره. وقد طرق في نثره موضوعات مختلفة مثل المدح والعزاء والوصف.

كتب المعري رسالة الغفران رداً على رسالة بعث بها إليه ابن القارح، وهو صديق له من حلب عنوانها "في تقبل الشـرع وذم من ترك الوقوف عنده" وفيها يمازح المعـري صديقـه، ويعبث به، ويشـير من طرف خـفي إلى أنه كان مـشـككاً غيـر قوي الإيمان. وفيها يطـوف ابن القـارح في الجنة، وتظهر فيها مقدرة المعري اللغوية كما تبدو فيها مقدرته على السخرية والنقد.

الفصول والغايات: صورة أخرى للزوميات، فقد أورد فيه كثيراً من الآراء التي أوردها هناك، وألفه المعري تقرباً إلى الله وتمجيداً وتسبيحاً له قال: "علم ربُّنا ما علم.. أني ألـَّـفْت الكلِم، آمَلُ رضاه المسلم وأتقي سخطَـه المؤلم" وكان الشائع المشهور أنه ألف هذه الفصول متأثرًا ببلاغة القرآن الذي هو المثل الأعلى للبلاغة والبيان، وما وجد أديب وشاعر إلا فتن بأسلوب القرآن.

كان القدماء، إلا أقلـَّهم، يعترفون بشاعرية المعري، ويعرفون تقدمه، وينشد الناس أشعارَه ويتظرف بها الظرفاء. أما المحدَثون فمنهم من جعل المعري فيلسوفاً ، وعده آخرون شاعراً ، وجمع له فريق ثالث بين الحسنيين. فبينما يرى بعضهم فيه شاعـراً فيلســوفاً حقاً لم يعهد المسلمون في قديمهم وحديثهم فيلسوفاً مثله، يرى آخرون أنه بلا مذهب فلسفي، بل له اتجاهات تخل بالمنهج الفلسـفي إخلالاً واضحاً، فهو رجل وجدان، دقـيق الحس، عـميق الإدراك، صادق التعـبـيـر، جريء التعـرض للمعـاني والخواطر. بينما جعـله فـريـق ثالث مع سـقـراط والقديس أوغسـطين والغـزالي وتـوما

الأكويني وشوبنهاور في طبقة واحدة، فضلاً عمن عده مجدداً لأصول الفلسفة أو هو الفيلسوف الأكبر.

ولكن أكثر النقاد يرونه شاعراً إنسانياً متأملاً في المحل الأرفع بين شعراء العربية، له مقام فريد لامِن حيث أسلوبُه وفنه فحسب، ولكن من حيث روحُه ونظرته إلى الحياة من حوله. كما أدلى المستشرقون بدلوِهم في هذا الشأن، فعدُّوه شاعراً عالمياً سبق زمانه بآرائه العقلية والأخلاقية والسياسية والدينية.

بقي من شعر المعري ثلاثة دواوين: سقط الزند والدرعيات واللزوميات.. يضم سقط الزند أكثر شعر صباه وشيئًا من شعر الكهولة. وقد رتبه أبو العلاء ووضع له مقدمة. ويظهر في شعر صباه المبالغة والتكلف والمحاكاة. وكلما تقدم به العمر اكتسب شعره صفات تجعله متفرِّداً. فتبدو فيه ظاهرة استعمال الاصطلاحات والإشارات العلمية، كما في قصيدة توديع بغداد. أما الشعر الذي نظمه في كهولته ففيه نضْجٌ في الفكر وإتقان للمعاني وبعد عن الضرورات والمبالغات. ويلجأ فيه للقوافي الصعبة، ويطيل فيها مثل الطائية التي بعث بها إلى خازن دار العلم ببغداد. وفي هذا الديوان تأثر واضح بالمتنبي، وكان به مغرماً ولأشعاره دارساً، وبينهما صفات مشتركة، أهمها التفوق والنبوغ والشعور بالامتياز والطموح، والشعور بفساد الحياة والأحياء في عصريهما. ويأتي تباينهما من اختلاف طباع كليهما وظروفه. فبينما آثر المتنبي الحربَ والثورة وسيلة للإصلاح، آثر المعري النقدَ السلبي والاعتزال وتصوير القبائح والسخرية منها، وهذا الذي جعل له التفرد والأصالة. ويحوي ديوانه أغراضاً مختلفة كثيرة من أهمها:

المدح: لم يمدح أبو العلاء أميراً طلباً لنواله، وقد سطَّر في مقدمة الديوان: "ولم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد، ولا مدحت طلباً للثواب، وإنما كان بغرض الرياضة وامتحان القريحة" وسلوك الطريق التي سلكها الشعراء قبله، وإن كان له مدائح نظمها في أناس من أصحابه، أو أجاب بها نفراً من الشعراء أرسلوا إليه قصائد. ولهذا السبب جاء مدحه مختلفاً عن مدائح من سبقوه. فلم يكن محتاجاً لأن يتزلف الممدوح أو يسبغ عليه صفات مبالغاً فيها. ومن هذا النوع النونية التي بعث بها إلى الشريف أبي إبراهيم العلوي، وكان قد بعث إليه بقصيدة:

غير مستحسن وصال الغواني   بعد سبعين حجة وثماني

فرد عليه أبو العلاء بقصيدة معارضة من البحر نفسه (الخفيف) والروي نفسه:

علّلاني فإنّ بِيضَ الأماني   فَنِيَتْ والظّلامُ ليسَ بِفانِ

الفخر: لم تترك نفسُه الزاهدة وحياةُ الانعزال التي فرضها على نفسه للفخر إلا حظاً ضئيلاً في شعره، فلم تظهر فيه الأنا المتضخمة، ولم يُبتَل بالحساد لأنه ترك للناس حُطامَ الدنيا، ووجدنا له قليلاً من الفخر في صباه يعبِّر عن عنفوان هذه المرحلة من العمر وجموحها. ومن أشهر ما قاله في الفخر قصيدته:

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل ... عفاف وإقدام وحزم ونائل

وفي هذه القصيدة كما في قصائد أخرى أبيات أقرب إلى شعر المتنبي:

وإني وإن كنتُ الأخيرَ زمانُه ... لآتٍ بما لم تستطعْه الأوائِلُ

وهذه القصيدة علامة من علامات تأثير المتنبي الكبير في شعر المعري، حتى يكاد القارئ يظن أنها ضلَّت طريقها من ديوان أبي الطيب إلى سقط الزند. ثم ترك أبو العلاء المعري الفخر كله في آخر عمره.

الوصف: يحاول المعري وصف الأشياء المحسوسة، ويزين لفظه حتى يعوض ما يحس به من نقص تجاه وصف المبصرين، ولعله كان يعمد إلى الوصف الحسي ليثبت أنه لا يقل قدرة عن المبصرين في الوصف:

رُبّ ليلٍ كأنّه الصّبحُ في الحُسْـ ... ـنِ وإن كانَ أسْودَ الطّيلَسانِ
ليلتي هذه عَروسٌ من الزَّنْـ ... ـجِ عليها قلائِدٌ مِن جُمانِ
هَرَبَ النَوْمُ عن جُفونيَ فيها ... هَرَبَ الأمْنِ عن فؤادِ الجَبانِ
وكأنّ الهِلالَ يَهْوى الثُريّا ... فهُما للوَداعِ مُعْتَنِقانِ
وسُهَيْلٌ كوَجْنةِ الحِبّ في اللّوْ ... نِ وقلبِ المُحِبّ في الخفَقانِ

الغزل: في ديوان المعري مقطوعات غزلية رقيقة. ولم ينقل المؤرخون عنه أنه أحب فتاة بعينها في صباه، ويراه بعضهم ضريراً زاهداً محزوناً لا سبيل للحب إلى قلبه، ويرتفع شعره القليل في الغزل عن أن يكون محاولة لإكمال الديوان بالموضوعات التي استنَّها الأوائل، ففي بعضه لوعة حقيقية، وغناء والهٍ مَشوق:

يا ساهِرَ البَرْقِ أيقِظْ راقِدَ السَّمُرِ ... لعَلّ بالجِزْعِ أعواناً على السّهَرِ
وإنْ بخِلْتَ عن الأحياء كُلِّهِم ... فاسْقِ المَواطِرَ حَيّاً من بَني مَطَرِ

ويا أسيرةَ حِجْلَـيْهـا أرى سَـفَـهـاً حَمْلَ الحُلِيّ لِمَـنْ أعْـيا عن النّظَـرِ
ما سِرْتُ إلا وطيْفٌ منكِ يصْحَبُني سُرىً أمامي وتأوِيباً على أثـري

الرثاء: رثى أبو العلاء أباه وأمه وطائفة من الناس، وفي ديوانه سبع مراث، وفي أغلبها حزن وتفجُّع لأنها أحزان شخصية وليست تعزية. وأجودُ ما قاله في الرثاء قـصيدتُه الدالية التي أبَّنَ بها أبا حمزة الفـقيه الحنـفي، يقول عنها طه حسيـن مبالغاً: "نعتقد أن العربَ لم ينظموا في جاهـليـتهـم وإسلامِهـم ولا في بداوتِهـم وحضارتِهم قصـيدة تبلغ مبلغ هذه القصيدة في حُسن الرثاء" ، ونقول إن طه حسين بالغ في مدح القصيدة، لأن في الشعر العربي قصائد رثاء كثيرة تضاهيها ، إن لم تكن تتفوق عليها كرثاء أبي تمام لمحمد بن حَميد الطوسي ، ورثاء أبي ذؤيب الهذلي لأبنائه، ورثاء المتنبي لجدته ولأخت سيف الدولة، ورثاء ابن الرومي لابنه محمد، ولا ننسى طبعاً مراثي الخنساء الكثيرة في أخويها، ولا سيما في رثاء صخر، ولعل ميزة قصيدة المعري أنه بث فيها كثيراً من أفكاره الفلسفية، ومنها:

غـيْـرُ مُـجْـدٍ في مِلّـتي واعْـتِـقـادي نَــــوْحُ بـــاكٍ ولا تَــرَنُّـــمُ شـــادِ
وشــــبِيـهٌ صَـوْتُ الـنَّعِـيِّ إذا قِيــــ سَ بِصَوْتِ البَـشـيـرِ في كـلِّ نادِ
صَاحِ هَـذِي قُبُورُنا تـمْلأ الرُّحْــــ بَ فـأيـنَ القُـبـورُ مـنْ عَـهـدِ عادِ
خفـِّفِ الـوَطْء مـا أظُـنُّ أديـمَ الــــ أرْضِ إلاّ مـنْ هَـذِهِ الأجْـســــادِ
سِرْ إنِ اسْطَعْتَ في الهَـواءِ رُوَيـداً لا اخْـتِـيـالاً عـلى رُفـاتِ العِـبـادِ
إنّ حُـزْناً في ساعةِ المَوْتِ أضْعـا فُ سُـرُورٍ في سـاعَـةِ الـمـيـلادِ
تـعَـبُ كُلـُّهـا الحَـيــاةُ فـمــا أعْــــ ـجَـبُ إلاّ مِـنْ راغـبٍ في ازْديـادِ

الهجاء: لم ينظم المعري في هذا الغرض من أغراض الشعر بمعناه التقليدي المعروف، بمعنى أن يتجه الشاعر إلى شخص، فيثلبه ويذمه. فليس للمعري عدو ليفعل به هذا. ولكنه تتبع عيوب البشر عامة ونقائصهم، فأظهرها في لهجة قاسية متجنباً الفحش والإقذاع، وليس غرضه الإساءة والتشهير، بل الرحمة والإصلاح. ولا نجد هذا الموضوع في سقط الزند بل في اللزوميات، ويعده النقاد ضرباً من ضروب السخرية، وإن كان القدماء عدوه هجاء. وقد انتقد المعري ظواهر متعددة في مجتمعه، منها الادّعاء باسم الدين والرياء، وخص بنقده الواعظ المنافق:

رُوَيــدَكَ قـد غُـرِرْتَ وأنـتَ حُـرٌّ بِصاحِبِ حيلـةٍ يَـعِـظُ النِسـاءَ

يُحَرِّمُ فيكُمُ الصَهباءَ صُبحاً ويشرَبُها على عَمْدٍ مَساءَ
يقولُ لكُمْ غدَوتُ بِلا كِساءٍ وَفي لذّاتِها رَهَنَ الكِساءَ

الدرعيات: قصائد وصف بها الدرع، طبعت ملحقة بسقط الزند. والغريب أن المعري يصف فيها شيئاً من عدة الحرب وهي الدروع، مع أنه لم يخض غمار معركة ولا استعد لها. وقد افتن في وصفها، فمرة يصفها على لسان رجل أَسَنَّ فترك لبسها، أو على لسان رجل رهنها، وجعل وصفها مرة محاورة بين درع وسيف، ووصفها على لسان رجل يبيع درعاً أو رجل خانه آخر في درع، أو على لسان امرأة توصي ابنها بلبس الدرع والانشغال بها عن الزواج. والدرعيات موضوع جديد في الشعر العربي يدل على براعة وأصالة. ويجعلها النقاد مقابلة للطرديات (شعر الصيد) عند الشعراء الآخرين، كما يراها آخرون محاولة من المعري لتحقيق قوله:

وإني وإن كنتُ الأخيرَ زمانُهُ لآتٍ بما لم تسْتطِعْهُ الأوائِلُ

اللزوميات: سميت كذلك لأنه التزم فيها حرفًا قبل حرف الرَّوِيِّ. وإذا تأملناها وجدنا فيها مشابهة من سجونه التي اختارها. فإن القافية والتزام رويها سجن للشاعر، فجعل المعري لنفسه سجناً آخر هو الحرف الذي التزمه قبل الروي. لم يكن المعري أول من ابتكر هذا، وألزم نفسه بهذا القيد الشعري ، فلكُثَيِّر عزّة تائية التزم فيها اللام قبل التاء ومطلعها:

خليليَّ هَذا رُبعُ عَزَّةَ فاعْقِلا قلوصَيكُما ثمَّ ابْكِيا حَيثُ حَلَّتِ

ولكن الجديد في صنع المعري أنه نظم ديواناً كاملاً على هذا النمط حاوياً جميع حروف المعجم، فجاء عملاً يحمل بصماته مقترنًا باسمه، وظل ديوانه هذا نسيج وحده، ولم يستطع شاعر أن يحذو حذوه إلا في المقطوعات المحدودة. وقد قدم له المعري قائلاً: "وقد تكلَّفْت في هذا التأليف ثلاث كُلَف: الأولى أن ينتظمَ حروفَ المعجم عن آخرها، والثانية أن يجيءَ رويُّه بالحركات الثلاث وبالسكون، والثالثة أنه لَزم مع كل روي فيه شيءٌ لا يلزم". وفوق هذا لم يضعه قصداً للبراعة اللفظية والمقدرة اللغوية فحسب، وإنما قصد به إلى معان فلسفية، كذلك جاء من أحد عشر ألف بيت في مائة وثلاثة عشر فصلاً. وقد جاء الديوان مثقلاً بالغريب واستعمال المصطلحات، وجاءت القيود المتراكمة هذه على حساب الوحدة المعنوية في المقطوعات أحياناً، إذ يركز فيها على وحدة القوافي. ويرى بعض النقاد أن المقطوعة أو القصيدة في اللزوميات تطول وتقصُر تِبْعاً لصعوبة القافية وسهولتها، فقد تساعده القافية السهلة فيمتد نفسه الشعري، فيكثر من الأبيات وإن استوفى المعنى

المراد، وقد ينقطع نفسه عند البيتين والأبيات القليلة، وإن كان في المعنى مُتَّسَع، لأن القافية تضطره إلى ذلك. ومن أمثلة إثقال الأبيات بالعلوم والمصطلحات قوله:

ما لي غدَوتُ كقافِ رُؤْبةَ قُيِّدتْ في الدَهرِ لَم يُقْدَرْ لها إجراؤُها
أُعْلِلْتُ عِلَّةَ قالَ وَهيَ قديمةٌ أَعيا الأَطِبَّة كُلَّهُم إبراؤُها

يعد عصر المعري عصراً ذهبياً في نضج العلوم وانتشارها على اختلاف مشاربها، فالعلوم الشرعية وعلوم القرآن من تفسير وقراءات وإعجاز، وعلوم الأدب والنقد ثم الفلسفات المنقولة كانت قد استوت على سوقها، وكان للمعري مشاركات جادة فيها، وهو مع هذا يتواضع ويضع من شخصه وعلمه:

ماذا تُريدونَ لا مالٌ تيَسَّرَ لي فيُسْتماحُ وَلا عِلمٌ فيُقْتبَسُ
أتسألونَ جَهولاً أن يُفيدَكُمُ وَتحلبُونَ سَفِيّاً ضَرعُها يَبَسُ

كان علمه باللغة والنحو والأدب الغاية القصوى حتى قيل إن المعري بالمشرق وابن سيده بالمغرب ليس لهما في زمانهما ثالث في اللغة. وذكر التبريزي أنه لا يعرف كلمة نطقت بها العرب ولم يعرفها أبو العلاء. وكان المعري حريصاً على إظهار علمه باللغة، يرصِّع شعره ونثره بالغريب النادر، ويدل على باهر علمه باللغة تحويلُه لقافيتي بيتي النمر بن تولب وقد عرض لهما في رسالة الغفران:

ألمّ بصُحْبتي وهُمُ هُجوعٌ خيالٌ طارقٌ من أمِّ حصنِ
لها ما تشتهي: عسلاً مُصفّى إذا شاءت، وحُوَّارى بسمنِ

ويستطرد إلى حكاية وقعت بين خلف الأحمر وأصحابه، فإنه سألهم لو أنه وضع أم حفص موضع أم حصن ماكنتم تقولون في البيت الثاني؟ فسكتوا، فقال خلف: وحُوَّارى بلمْص، والحوارى: الخبز الأبيض، واللمص الفالوذج، فذكر خلفٌ تغييراً واحداً وعجز أصحابه عنه. فيأتي أبو العلاء ويظهر مقدرته اللغوية، ويفرِّع على هذه الحكاية مغيِّراً حرف الروي على كل حُروف المعجم، ويشرح الألفاظ الغريبة التي جاء بها، وكان مع الشرح يشير إلى الخلافات اللغوية، ويورد الشواهد، ويفرِّق بين الاستعمال الحقيقي والمجازي.

ومن وسائله في الإفصاح عن التمكن اللغوي إتيانُه باللفظ ثم يفسره أو ينفي عن سامعه ما قد يتبادرُ إلى ذهنه من معناه مثبتاً معنى آخر:

نوديتَ أَلْـوَيتَ فَانْزِل لا يُـرادُ أتى سَيري لِوى الرَملِ بَل لِلنَّبْتِ إلواءُ

ويكثر عنده لذلك الجناس والتورية والطباق والاستعارة، ولها صلة قوية بالتفنن اللغوي. ومن أبرع ما وجد عنده، استغلاله المعارف النحوية واللغوية للتعبـيـر عن الآراء الفـلسـفـيـة . ولـلـمعـري معـرفـة نادرة بالعـروض ، وقد ألف كتـابـاً فـصَّل فـيه ضـروب الشـعـر وقـوافـيه، ومثَّل لها بأشـعـارمن نـظـمـه. ويدل على اهتمامه بذلك نثره المعلومات العروضية في كل تآليفه.

تأثر المعري بمختلف الفلسفات التي سادت في عصره، وأضاف إليها تجربته الشخصية وآراءه التي استقاها واختارها لنفسه. وأكثر آرائه الفلسفية حوتها اللزوميات. وكان يرى قدم المادة الكونية والزمان، وهذا أثر من أثار أرسطو:

وَليسَ اعْتِقادي خُـلودَ النُـجـومِ وَلا مَـذهَـبـي قِـدَمُ الـعـالـَمِ

ابن القارح

وقبل الدخول في رسالة الغفران يستحسن أن نورِدَ رسالة ابن القارح، فقد كانت سبباً في أنَّ المعري كتب رسالة الغفران، ورسالتـُه رد على الرسالة التي أرسلها ابن القارح وأيُّ رد. فمن ابن القارح هذا؟

هوأبو الحسن علي بن منصور بن طالب الحلبي، الملقّب دَوْخَـلَـة، ويُعْرف بابن القارح (٣٥١-٤٦١هـ). كان شيخاً من أهل الأدب، راوية للأخبار، حافظاً لِقِطع كثيرة من اللغة والأشعار، قيِّماً بالنحو. وكان ممّن خدَم أبا علِّي الفارسي في داره وهو صبيّ، ثمَّ لازمَه وقرأ على زعمِه جميع كتبه وسماعاته. وكانت معيشته من التعليم بالشام ومصر. وكان مؤدِّباً للوزير أبي القاسم المغربي، وله فيه هَجْو كثير، وكان يذمّه ويَعُدُّ معايبه، وشعره يجري مجرى شعر المعلمين، قليل الحلاوة خالياً من الطلاوة. قال ياقوت الحموي في معجم الأدباء: " وكان آخرُ عهدي به بتكريت في سنة إحدى وستين وأربعمائة، فإنا كنا مقيمين بها، واجتاز بنا وأقام عندنا مدة، ثم توجه إلى المَوصل، وبلغتني وفاته من بَعد، وكان يذكرُ أن مولده بحلب سنة ٣٥١هـ ولم يـتـزوج ولا أعـقـب، وجـمـيـع ما أوردُه مـن شـعـره مـمّـا أنشـدنـيـه لنـفـسـه، فـمـنـه في الشـمـعـة:

لقد أشْبهتني شمعة ٌفي صبابتي ... وفي طـولِ مـا ألقى ومـا أتوقـّعُ

نُحولٌ وحـرقٌ في فـناءٍ ووحـدةٌ ... وتسهيدُ عـينٍ واصـفـرارٌ وأدمـعُ

ومنه يهجو الوزير المغربي:

لُقِّبتَ بالكاملِ سَـتـراً على ... نَـقـصِـكَ كالباني عـلى الخُـصِّ

فـصِرتَ كالكُنْفِ إذا شُـيِّدتْ ... بُـيِّـضَ أعلاهُـــنَّ بـالجِـصِّ

يـا عُـــرَّة الـدنـيـا بـلا غُـرَّةٍ ... ويا طـُوَيْسَ الشـُّـؤْم والحِرْصِ

قـتلتَ أهـليكَ وأنهـبـتَ بيـ ... تَ الـلـه بالمَـوْصـل تسـتعـصي

رسـالـة ابـن الـقـارح

بسم الله الرحمن الرحيم

أستفتح باسمه الكريم، مستنزلاً منه البركة والخيرَ العميم، والحمد لله الجواد واهبِ النِّعم، كان قبل كل شيء وتفرَّد بالقِدم، جلَّ سبحانه عن أن يشبهه أحد من خلقه، أو يرقى إلى بعض صفاته من يرجون رحمته وينعمون برزقه، وهو ولي النعم والحسنات، تعالى سُبحانه عن النقص والسيئات، حرَّمَ الظلم على نفسِه فهو العدل المطلق، قولـُه الحقُّ، خلق الإنسان وأنطق، خلقَ الكون وابتداه، ويُبقيه ما أراد في علاه، فإن شاء محَقه وأفناه. وأصلـِّي وأسلـِّمُ على أشرف الخلق وخاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آلِه الطيبين المُطهَّرين، صلاةً يرضاها ربُّ العِـزة كما أمر في كتابه، وعلى صحابته وأصحابه.

هذا كتابي أطال الله بقاءَ مولاي الشيخ الجليل، ومتـَّعـَه بالصحة والعمر الطويل، وأدام عليه الخير والسعادة، فإن استزاد وهبه الزيادة، وأعطاه النقاء والصفاء، وجعلني له الفداء، وأدعو الله سبحانه أن يأخذ من عمري ليَـمُـدَّ له البقاء، ولا أقول هذا جرياً وراء ما ساربين الناس في اللفظ والكتابة وشاع، وحاشاه أن أعمد إلى التملـُّق والخداع، وإلى ما يملأ البيوت والأسواق، من كلام التزلـُّف والنفاق، أو كما يقول واحدهم إذا زار صديقه العليل: كيف أنت يا صاحب الذكر الجميل؟ جعلني الله فداك، وأيَّد من نصَرَك وعادى من عاداك، وهو لا يريد إلا تحبّباً وتكراراً لما يُقال، وكلامُه تملـُّق في أحسن الأحوال، ويُضمِرُ أن كلامه فضل سيشكره صديقه إذا نهض من علته، وعاد إلى سابق عهده بقوته، فيكافئه على ما أظهر من جميل الأقوال.

ويعلم الله تقدست أسماؤه، وتعددت في الكون آياته وآلاؤه، أني لو حننت إليه، أدام الله تأييده، حنين الأمِّ الوالِه إلى ولدها الغائب، أو إناث الطير إلى أفراخها فرّقتهم النوائب، أو الحمامة إلى إلـْفها وعشيرها، أو الغزالة إلى صغيرها، لكان ذلك ممّا تغيّره الليالي والأيام، والشهور والأعوام، لكنه حنينُ الظمآن إلى الماء، والخائِف إلى الأمن والرجاء، والسقيم إلى البَرْءِ والشـِّفاء، والغريق إلى النجاة وقد تعالت الأنواء، والقلِقِ إلى السكون والراحة، بل حنين نفـْسِ مولاي الجليل النفيسة إلى الحمد والمجد،

أدام الله عليه السعد، فإني رأيت توجُّهَها إليهما، حنينَ الأشياء إلى عناصرها، ونزوعَ مُكوِّنات الكون إلى جواهرها. فإن جعل الله لي في العمر مُتَّسَعا، ابتهلت إلى الله ابتهالَ مذنب تاب ودعا، أن يؤنسَني ربي الكريمُ برؤيتِه، وأن يُنعم عليَّ بأن أعْلَقَ حبل مودته، فكنت كساري الليل ألقى عصا التَّرحال، وحمِد المسرى، وقرَّت عينُه، ونعِم البال، وكان كمَن لم يمْسَسْه سوء، ولا يطلب عيوبه عدو لا يرجو له الفلاح، ولا أنهكه السعي في المساء والصباح، وأدعو العليَّ القدير أن يمُنَّ عليَّ بذلك النجاح، واللهَ سبحانه أدعو أن يشفي النفسَ ويُبرِئ الجراح، ويروي ظمأها بالماء القُراح.

وإني أسأل الله في البُعد والقُرب والفراق، أن يمتع مولاي الشيخ الجليل بالسعادة والفضل الجزيل، وأن يجعل المجدَ يسعى إليه سَعيَ مشتاقٍ إلى مشتاق، فمن مرَّ على بحرِه الزاخر، ونظرَ إلى نورِ بدره الباهر، جديرٌ بأن يتعثر القلم بين أنامله، ويخبو وهْجُ الكلمات في رسائله، إلا أن يعطيَه مولاي المفتاح، ليفتح باب النجاح والفلاح، فيشرِّفَه مولاي بأن يجعلَه إليه منسوباً، ومن مريديه محسوباً، خادماً في قصور علمه، يفتح له مولاي ما استعصى فتحُه من الأبواب، ويشرفه بجعله أحدَ الخدام والحُجّاب، فيكون شرارةً من ناره، يهتدي سواءَ السبيل بأنوارِه، يكتنفه بحرُ مولاي من كل جانب، فلا يحتاجُ عوناً من خِلٍّ أوصاحب، ولكن هيهات! نأتِ الديار وبعُدَت المسافات، وحاشاه أن يبلُغَه فهم المتعلمين، فهو السخاء وهم من المُتساخين، لاسيما وألوانُ النفس تلزمُها لزومَ الألوان للأبدان، لا يقدِرُ الأبيض على السواد، ولا على الأبيض يقدِرُ الأسود كالمِداد، ولا على الجُبْن الشجاع، ولا على الشجاعة الجبان المُرتاع، وكما قال أبو بكر محمد بن عبد الله العرزمي، ويعلم مولاي الشيخ الجليل أن أصلَه من حضرموت، ولكنه نشأ في الكوفة:

يفِرّ جبانُ القوم عن أُمِّ نفسهِ	ويحمي شجاعُ القومِ من لا يناسِبُهْ
ويُرزقُ معروفَ الجوادِ عدُوُّه	ويُحرَمُ معروفَ البخيلِ أقاربُهْ
ومن لا يكفُّ الجهل عمَّن يودُّه	فسوفَ يكفُّ الجهلَ عمَّن يواثبُهْ

وقد نلقى بللاً في الضباب، ولكن من أين له مطرُ السحاب؟ وهل من عاقل يشبِّهُ الغرابَ بالعُقاب؟ ولقد طار ذكر مولاي في كل مكان، ويتردد اسمُه كما يتردَّد الأذان، فجرى بذكره القلمُ واللسان، فمن أنكر صيتَه الرنّان، كان كمن يُكابر الإنس والجان، ويتمسَّك بالإفك والبهتان، وكان كمن جَعلت وقاحتُه وجهَه كالحجر، ومن يتطاولُ على نور القمر، وكأنه سكرانُ هذى وهذر، ووصف نفسَه بالغباء بين بدوٍ وحضَر، فما استفاد إلا أنه قلَّل قدرَه، وما أظن الشاعرَ كان يعني غيرَه:

كـناطِحٍ صَـخـرَةً يَـومـاً لِيَـفـلِـقَـهـا		فلم يَضِـرْها وَأَوهى قَـرنَـهُ الوَعِـلُ [1]

وردتُ حلبَ حماها الله وحرَسَها، ومَن عرَفها آنسها، وقد مُنيتُ في ظاهرها بالدواهي الشديدة والمصائب العنيدة، فلما دخلتُها لم يقرّ لي قرار، وأنكرْتُها لأني لم أجدْ فيها من كنتُ آلـفُهم من صاحب وجار، فأنشدت باكياً أبياتاً لإياس بن القائف:

يفِرّ جبانُ القـوم عن أُمِّ نـفـسـهِ		يُقِـيمُ الرِّجـالُ الأَغْـنِيـاءُ بأَرْضِـهِـمْ

فأَكْـرِمْ أَخاكَ الدَّهْـرَ ما عِـشْـتُما معاً		كـفَى بالمَـمـاتِ فُـرْقـةً وتـنـائِـيـا إذا

جئْتُ أَرْضاً بَـعْـدَ طولِ اجْـتِـنابِها		فقـدْتُ صَدِيقِي، والبِـلادُ كما هِـيا

١- البيت للأعشى، وروي البيت: ليُوهِنها

غرام أبي القطران

كان الشاعرُ الفاتكُ اللص أبو القَطِران المُرّارُ بن سعيد الفقعسي شجاعاً كريماً، وكان يهوى ابنة عمٍّ له في نجد اسمُها وحشية، ثم تزوَّجَها رجلٌ من أهل الشام، ورحل بها إلى بلده، فغَمَّ أبا القطران بُعدُها، وأحزنه فراقُها، فقال من قصيدة له تبلغ اثني عشر بيتاً:

إِذا تـرَكتُ وَحـشِيَّة ُالنَجدِ لم يَكُـن لِعَـينَـيكَ مِـمَّا تـشـكُـوانِ طبـيـبُ

وَلا خيـرَ في الدُّنيـا إِذ أنتَ لَم تَـزُرْ حَبيبـاً وَلَم يَـطـرَبْ إِلـيـكَ حَبيـبُ

وكانـتْ رِياحُ الـشـــامِ تُـكـْرَهُ مَـرَّةً فقد جَعلـتْ تِـلـكَ الرِّيـاحَ تـطـيـبُ

فلم أنلْ إلا رائحَة الرياح، مِثلما كان حظُّ أبي القطِران من وحشية.

ولقيتُ أبا الفرج الزُهْرُجي ومعه خزانة ُكتبِه، فعرضَها علي فقلت: كتبك هذه يهودية، برئت منها الشريعةُ الحنيفية، فأظهرَ من قولي عظيمَ الإنكار واحتج، فقلت مهلاً يا أبا الفرج، لقد وقعتَ على الحكَم المُجرِّب، لا يحكم على ما يجهل، ولا يُجيب قبل أن يُسأل، ومن قَولِ الحق لا يخجل، فقرأ هو وولدُه وقال: مِثلُك من يحكمُ عن تجربة ودراية، ويُولي الكتابَ كل عناية، وكتبَ إلي رسالة يمدحُني فيها، وما ذلك إلا من طبعِ له كريم، وخُلـُق غير ذميم.

آراء المتنبي

قال المتنبي: « أذُمُّ إِلى هـذا الزَمانِ أهَـيـلـَهُ »

وهكذا صغـَّرهم تصغير تحقيرٍ غيرِ تكبير، وتقليلٍ غيرِ تكثير، فباحَ بمكنون سرِّه، وما خفي من أمره، وهذا مقبولٌ في مجال الشعر، ومن حقِّ قائل أن يقول في النظم والنثر، ولكنه لم يضعْه في موضعه الصحيح، وهذا من الفعل القبيح، وما يستحق زمانٌ ساعده بلقاءِ سيف الدولة أن يذمَّ أهلـَه، أليس القائل:

أَسيرُ إِلى إِقـطـاعِــهِ فـي ثِيابِــهِ   عَلى طِـرفِهِ مِن دارِهِ بِحُـسامِـهِ

وقد كان أولى به أن يشملـَهم بشفاعة سيف الدولة، فهم عليه محسوبون، وإليه ينتسِبون، ولا يجوزُ أن يشكو عاقلاً ناطقاً إلى غيرِ عاقل ولا ناطق، إذ الزمان ليس إلا حركات الفلك، إلا أن يكون ممَّن يعتقد أن الأفلاك تعقِلُ وتعلـَم، وتدري بمواقع أفعالها وتُعْلِم، ولها قصد وإرادة، ويحملـُه هذا الاعتقاد على أن يَحرُقَ لها البخور في كل حين، ويقرِّبَ لها الهدايا والقرابين ، فيكونُ مناقضاً لقوله:

فـتَــبّـــاً لـِديــنِ عَـبـيـدِ النُجومِ   وَمَــن يَــدَّعـي أنَّــهــا تَـعْـقِـلُ

منزلة أبي العلاء المعري

ثم جرى ذِكرُ مولاي الشيخ الجليل، أدامَ الله تأييدَه، من غير سبب جرَّه ولامقتضى اقتضاه، فقيل:

الشيخُ أعلمُ بالنحو من سيبويه، وباللغةِ والعَروضِ من الخليل[1] فقلت وكلٌّ من في المجلس يسمعون: بلغني أنه- أدام الله تأييده - يُصغّر الكبير ويُقلل الكثير، فيَصيرُ تصغيرُه تكبيراً وتقليلـُه تكثيراً، وكانوا بهذا عارفين وله مُدركين، فقد تفتَّح الزَهـْرُ وتوضَّح النـَّوْر وأضاء الصبحُ لكل ذي عينين.



كان أبو الفرج الزهرجي كاتب حضرةِ نصرِ الدولة، أطال الله بقاءه، كتب رسالة إليَّ أعطانيها، ورسالة ًإليه، أدامَ الله تأييدَه، استودَعَنيها، وسألني إيصالـَها إلى جليل حضرته، وأكون موصِلـَها لا مُرسلها، ومُعجّلـَها لا مُؤجلـَها، فسرَقَ عديلي الرَّحْلَ الذي فيه الرسالة، فكتبتُ هذه الرسالة أشكو أمري، وأبثُّ ما في صدري، وما لقيتُه في سفري، من أناس صغيري النفوس، يدَّعون العلم والأدب وعِلمُهم عِلمُ التيوس، والأدبُ أدبُ النفس لا أدبَ الدرس، وحظـُّهم صِفـْرٌ في الحالتين، ولهم تصنيفات لا يرضاها العقل ولا المنطق، كنتُ إذا رددتـُها عليهم، سعَـوا إلي بالشدائد، ونصبوا لي الفخاخَ والمكائد، أو يكونُ واحدُهم كما قال الله تعالى في سورة النساء يصف المنافقين: «مُذَبْذَبِين بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلى هَؤُلاءِ وَلا إِلى هَؤُلاءِ»

١ - الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠-١٧٥هـ/٧١٣-٧٨٦م) كان إماماً في النحو، وهو أستاذ سيبويه، وضع أول معجم عربي سمّاه "العين" وهو مستنبط علم العروض.

المتنبي في السجن

حكى القطربلي[1] وابن أبي الأزهر[2] في كتاب اجتمعا على تصنيفه، ويزعُم أهلُ مصرَ أنه لم يُصنَّف في معناه مثلُه، يحكيان فيه أن المتنبي أخْرِج في بغداد من الحبس إلى مجلس أبي الحسن الوزير رحمه الله، فقال له: أنت أحمدُ المتنبي؟ فقال: أنا أحمدُ النبي، وكشفَ عن بطنِه، فأراه بقعة بيضاء وقال: هذا طابَعُ نبوتي، فأمرَ به فصُفِعَ خمسين مرة، وأعاده إلى محبسه. ويقول لسيف الدولة:

وَتغضَبونَ عَلى مَن نالَ رِفدَكُمُ حَتّى يُعاقِبَهُ التَنغيصُ وَالمِنَنُ

وكذبَ والله، لقد كان يتحرشُ بالمكارم ويتحكَّكُ بها، ولا يُرضيه إلا أن تكون له ومنه وبه، وهذا لا ينفي طلاوةَ شعره ورونقَ ديباجته.

ولكنّي أغتاظ على الزنادقة والمُلحدين الذين يتلاعبون بالدين، ويُريدون إدخالَ الشكوك على المُسلمين، ويستعذبون الدسَّ والانتقاصَ من نبوة النبيين، صلوات الله عليهم أجمعين، وتراهم يتظرَّفون، ويَبْدون من أتباعِ مذهب:

تيهُ مُغَنٍّ وَظُرفُ زِنديقِ

وقتلَ الخليفة العباسي الثالث المهدي بشارَ بنَ بُردٍ بتهمة الزندقة، وكان بشارٌ حين اشتُهِر بالزندقة خافَ العقاب ، فدافع عن نفسه بقوله:[3]

يا ابنَ نِهيا رَأسٌ عَليَّ ثَقيلُ وَاحْتِمالُ الرَأسَينِ عبءٌ ثقيلُ
اِدعُ غيري إِلى عِبادَةِ ربَّيـ ـنِ فإِنّي بِواحِدٍ مَشْغولُ

---

١ – أحمد بن عبد الله بن الحسين القُطْرُبُلِّي الكاتب من علماء الكتاب وأفاضلهم .

٢ – هو أبو بكر محمد بن أحمد الخزاعي النحوي الإخباري

٣ – ورد البيتان في الديوان بلفظ آخر ولهما ثالث:

يا ابنَ نِهيا رَأسي عَليَّ ثَقيلُ وَاحْتِمالُ الرَأسَينِ خطبٌ جَليلُ
اِدع غيري إِلى عِبادَةِ الاثْنَيـ ـنِ فَإِني بِواحِد مَشْغولُ
يا ابنَ نِهيا بَرِئتُ مِنكَ إِلى اللـ ـهِ جِهارا وَذاكَ مِناي قليلُ

وابن نِهيا هو ح ا ماد عجرد الشاعر من رؤوس الزنادقة

صالح بن عبد القُدُّوس

وجيءَ بصالحِ بن عبد القدُّوس، ووضعوا السيفَ على رقبته، فقال: علامَ تقتلونني؟ قالوا: على قولك:

رُبَّ سِــرٍّ كتمتُـهُ فكأنّي ... أخـرسٌ أو ثنى لِسانيَ عَـقلُ
وَلَـوَ انّي أظهَرتُ لِلنّاسِ ديني ... لَـم يَكُن لي في غـيرِ حَبسي أَكـلُ

يا عدوَ الله وعدوَ نفسه:

وَالسِترُ دونَ الفاحِشاتِ وَما ... يَلقاكَ دونَ الخيرِ مِن سِترِ[1]

فقال: كنت زنديقاً وقد تبت عن الزندقة.

يا ابنَ نِهيا رَأسي عَليَّ ثَقيلُ ... وَاحْتِمالُ الرَأسَينِ خطبٌ جَليلُ
اِدعُ غيري إِلى عِبادَةِ الاِثْنَيـ ... ـنِ فإِنّي بِواحِدٍ مَشْغولُ
يا ابنَ نِهيا بَرِئتُ مِنكَ إِلى اللـ ... ـهِ جِهاراً وَذاكَ مِنّي قليلُ

وابن نِهيا هو حمّاد عجرد الشاعر من رؤوس الزنادقة

قال: كيفَ وأنت القائل:

والشَيخُ لا يَتركُ عاداته ... حَتّى يُواري في ثرى رَمسِهِ[2]
إِذا ارْعَوى عد إِلى جَهلِهِ ... كذي الضنا عادَ إِلى نُكسِهِ

وأخذ السيافُ غَفلَته، فإذا رأسُه يتدحرجُ على بِساط الجلد.

❖❖❖

١ - البيت للشاعر الجاهلي الحكيم زهير بن أبي سُلمى.

٢- ورد البيت -

وَالشَيخُ لا يَترُك أخلاقه ... حَتى يُواري في ثَرى رَ مسِهِ

وفي أيامِه خرَج في بلاد ما وراءَ النهر رجلٌ أعورُحرفتُه صباغة الثياب، فصنعَ لنفسه قناعاً من ذهب، وخُوطب بربِّ العزة، وصنع لمن اتَّبعوه قمَراً فوق جبلٍ عال، فأرسل إليه المهديُّ جيشاً أحاط بقلعته، وأحرقَ كلَّ ما فيها، فجمع ذلك الدجالُ كلَّ من في البلد، وسقاهُم شراباً مسموماً، فماتوا جميعاً، ثم شرِبَ بعدهم، فلحِقَ بهم، وعجَّل بروحِه إلى النار.



والصناديقي في اليمن، كانت له جيوشٌ، وخُوطِب بربِّ العزة وكوتِب بها، وكانت له دارٌ واسعة يجمعُ فيها نساء البلدة كلَّهن، ويُدْخِل الرجالَ عليهن ليلاً، وقال من يُوثَق بخبره: دخلتُ هذه الدارَ لأنظر، فسمعتُ امرأة تقول: بُني؟! فقال: يا أمّاه، يجب أن نُمضِي أمرَ وليِّ الله فينا. وكان يقولُ لهم: إذا فعلتم هذا لم يتميَّز مالٌ من مال، ولا ولد من ولد، وكنتم كنفسٍ واحدة، فغزاه الحَسَني من صنعاء وهزمَه، فتحصَّن منه في حِصْن هناك، ولم يقدِر عليه، فأنفذ إليه طبيباً والوليد بن يزيد بن عبد الملك، تولى الخلافة سنة وشهرين وأياماً، وهو القائل:

إِذا مُتُّ يا أمَّ الحُنَيكِلِ فانْكِحي ... وَلا تأمُلي بعدَ الفِراقِ تلاقِيا
فإِنَّ الذي حُدِّثْتِهِ مِن لِقائِنا ... أحاديثُ طَسْمٍ تترُكُ العَقلَ واهِيا

ورمى المُصحفَ الشريفَ بالنشّاب فمزّقه وقال:

إِذا ما جِئتَ رَبَّكَ يومَ حَشْرٍ ... فقُل يا رَبِّ خرَّقَني الوَليدُ

وأرسل إلى مكةَ بنّاءً مجوسياً ليبنيَ له على الكعبةِ سبيلاً يشربُ منه الناس، فكان الحُجّاج يقولون: لبَّيك اللهُمَّ لبيك، لبيك يا قاتلَ الوليد لبيك.



وأحضر عُلبةً من ذهبٍ وفيها جوهرةٌ جليلة القدْرِ على هيئةِ رجل، فسجَدَ له وقبّله وقال: اسْجُد له يا سَمين، قلتُ: ومن هذا؟ قال: هذا ماني[1]، كان شأنه عظيماً، واضمحل أمرُه لطول المدة، قلت: لا يجوزُ السجودُ لغير الله، فقال: قُمْ وانصرف عنا.[2]

وكان يشربُ على سطحٍ وبين يديه دَنٌّ كبيرٌ من زجاج، فقال لندمائه: أينَ القمرُ الليلة؟ فذكروا له الأبراجَ، وقال أحدهم: في الدنّ، فضحِكَ وقال: صدقت، لقد قلتَ ما في نفسي، والله لأشربنَّ سبعة

١ – ماني: مؤسس مبدأ الثنوية أو إله الخير وإله الشر، وإله النور وإله الظلام، أصل الزندقة، وكان أتباعه يعدونه نبياً.

٢ – الكلام غير واضح، فمن الذي أحضر؟ أهو الوليد؟ لايستقيم هذا، فبين ابن القارح والوليد قرون، لكنه يثبت" قلت " فلمن قال؟

أيامٍ متتالية. وكان بموضعٍ بالقرب من دمشق يقال له البَحر فقال:

تـلَـعَّـبَ بِالـنـبـوّةِ هـاشِـمِـيٌّ ... بِلا وَحـيٍ أتاهُ وَلا كِتـابِ[١]

وأبو عيسى بن الرشيد القائل[٢]

دَهـانِيَ شَهْرُ الصَّوْمِ لا كانَ منْ شَهْرِ ... وَلا صُمْتُ شَهْراً بَعْدَهُ آخِـرَ الدَّهْرِ

ولوْ كانَ يَـعْـدِيـنِي الإمـــامُ بِـقَـدْرِهِ ... على الشهْرِ لاسْتَعْـدَيْتُ جُدِي على الشهْرِ

فناله بعقِبِ هذا صَرَعٌ، فكان يُصرَعُ في اليوم مراتٍ إلى أن مات، ولم يدرك شهرا غيرَه والحمد لله.

---

١ – ورد البيت بتغيير في الشطر الأول ويليه بيتان:

تلعَّبَ بِالخلائِقِ هاشِمِيٌّ ... بِلا وَحْيٍ أتاهُ وَلا كِتابِ

تُذكِّرُني الحِسابَ وَلستُ أدري ... أَحَقّاً ما تقولُ مِنَ الحِسابِ

فقلْ لِلَّهِ يَمنعُني طعامي ... وقُلْ لِلَّهِ يَمنعُني شَرابي

٢ – أبو عيسى بن هرون الرشيد كان أحسن الناس غناءً وأجملهم وجهاً، وكانت النساء في بغداد ينتظرن مروره ليمتعن أبصارهن بجماله.

قتل الألوف في مكة

والجِنّابيّ[1] قتل بمكّة ألوفاً، وأخذ ستة ًوعشرينَ ألفَ جَمل دونَ قتال، واستملكَ من النساءِ والغلمانِ والصِّبيان من ضاقَ الفضاءُ بكثرتهم، وأخذ الحَجَر الأسود، وظنَّ أنه مِغناطيسُ القلوب، واقتلَـعَ ميزابَ الكعبة، وقتلَ في البصرة أربعة وعشرين ألفاً في ثورةِ الزَّنْج،[2] وقال يخاطبُهم: لقد ابْـتُـليتُم بقُبْحِ مظهر، فاجْمَعوا إليه قُبْـحَ مَخبَر. اجعلوا كلَّ عامرٍ قفراً وكل بيتٍ قبراً.

١ - هو أبو طاهر سليمان بن الحسن القُرمطي، قاد الجيوش وهزم الفاطميين والعباسيين وحاصر القاهرة، وقطع طريق الحج، وانتزع الحجر الأسود من الكعبة، قتل سنة ٣٣٢هـ

٢ - تخليط من ابن القارح فقد كانت ثورة الزنج عام ٢٥٦هـ، وظهر الجنابي عام ٢٨٦هـ، ولا علاقة لهذا بذاك

الحسين بن منصور الحلّاج

والحسينُ بن منصور الحلاج أصله من نيسابور وقيل من مَرْو، يدَّعي كل علم، وكان متهوِّراً جسوراً يرومُ تغييرَ الملوك والأمراء، ويدَّعي فيه أصحابُه الألوهية، ويقولُ بالحُلول، ويُظهِرُ للملوك مذاهبَ الشيعة، ومذاهب الصوفية للعامة، وبين هذا وذاك يدَّعي أن الألوهية حلّت فيه، وناظرَه علي بن عيسى الوزير فوجدَه صِفْراً في العلوم كلها، فقالَ له: لو أنك تعلَّمْت فرائضَك وأصولَ دينك، لكان أنفعَ لك من كلامٍ تقولـه ورسائلَ تكتبها وتقول: تباركَ ذو النورِ الشَعْشعانيّ الذي يلمعُ بعد شعشعتِه، وأراكَ بحاجةٍ إلى الأدب.

حدَّثني أبو علي الفارسي قال: رأيتُ الحلاجَ واقفاً على حلقة أبي بكر الشبلي[١]، وأنشد:

يـا سِـرَّ سِـرٍّ يَـدِقُّ حَـتّـى ... يَـخـفى عـلى وَهـمِ كُـلِّ حَـيِّ

وظـاهِـراً بـاطِـنـاً تَجَلى ... لـكُـلِّ شَـيءٍ بِكُـلِّ شَـيِّ

إنَّ اعْـتِـذاري إلـيكَ جَـهلٌ ... وَعُـظـمُ شَـكٍّ وَفَـرطُ عَـيِّ

يـا جُـمـلـةَ الـكُـلِّ لـستَ غـيري ... فـمـا اعْـتِـذاري إذاً إلـيِّ

وهو يعتقد أن «العارف»[٢] من الله بمنزلةِ شُعاعِ الشمس، منها بدأ وإليها يعود، ومنها يستمدُّ نوره.

وأنشدني الظاهر لنفسه[٣]

أرى جِيلَ التصَوُّفِ شَرَّ جِيـلٍ ... فـقُـلْ لهُـمُ وأهْـوِنْ بـالـحُـلـولِ

أقال الـلـّـهُ حـيـنَ عـشِـقْـتُـمـوهُ ... كُلوا أكْلَ البَهائِمِ وَارْقُـصُـوا لي

وكان الحلاج يوماً في مجلس، فحرَّك يدَه فانتثرَ على القوم مِسْكٌ، وحرَّكها مرة ثانية فانتثرتْ دراهم، فقال له بعضُ الحاضرين ممَّن يفهم: أريتَـني دراهمَ معروفة، أؤمنُ بك وهؤلاء الناس معي

١ – أبو بكر الشبلي فقيه مقدَّم مالكي المذهب، صار من كبار المتصوفين

٢ – العارف: درجة متقدمة من درجات الصوفية التي تؤدي إلى اتصال الكائن بالخالق

٣ – هو سداد بن إبراهيم الجزري وورد لقبه في الوافي بالوفيات "الطاهر" شاعر مدح المهلّبي وزير معزّ الدولة ومدح عضد الدولة.

إن أرَيتني درهماً واحداً عليهِ اسْمُك واسْمُ أبيك، فقال: كيف وهذا لم يُصنع؟ قال الرجل: مَن أحضَر ما ليس حاضِراً صنعَ ما ليس مصنوعاً.

وكان في كتبِه: إني أغرقتُ قومَ نوح، وأهلكتُ قومَ عادٍ وثمود. فلما شاع أمرُه، ووصل إلى السلطان خبرُه،أمرَ بضربه ألفَ سوط، وقَطْعِ يديه، ثم أحرقه بالنار في آخر سنة تسعٍ وثلاثمائة، وقال لحامد بن العباس[١]: أنا أهلـُك، فقال حامد: الآن صحَّ أنك تدعي ما اتـُّهِـمتَ به.

والشلمَغاني[٢] كالحَلاج يدَّعي قومٌ أنه إله، وأن الله حلَّ في آدمَ، ثم في شيث، ثم في الأنبياء واحداً واحداً، ثم في الأوصياءِ والأئمة حتى حلَّ في الحسين بنِ علي العسكري[٣] وأنـَّه حلَّ فيه. وقد أغوى جماعة من الجَهـَلة، منهم ابنُ أبي عَونٍ صاحبُ كتاب التشبيه، وقد ضُرِبت عُـنقـُه مع الشلمغاني، وكانوا يُبيحونـَه نساءَهم وأموالـَهم يتحكـَّمُ بها، وكان يتعاطى الكيمياءَ وله كتب معروفة.

١ – كان وزيراً في زمن المقتدر، وله حكايات وأخبار كثيرة في كتب التراجم

٢– هومحمد بن علي أبو جعفر ابن أبي العزاقر الشلمغاني الزنديق. أحدث مذهب الرفض في بغداد، وقال بالتناسخ وحلول الألوهية فيه. أفتى العلماء بإباحة دمه فأحرق.

٣– هو أحد أئمة الشيعة الاثني عشر، توفي عام ٢٧٠هـ

الراوندي الزنديق

كان أحمدُ بنُ يَحيى الراوندي من أهل مَرْوٍ في خراسان حسنَ السيرة جميلَ المذهب، ثم ترك هذا كلـَّه لأسبابٍ عرَضت له، ولأن علمَه كان أكبرَ من عقلِه، وكان كما قال الشاعر:

ومـن يطيق مُـزكّى عند صبـوتِـه ومـــن يقـومُ لمسـتـورٍ إذا خلعـا[1]

ومما ألّفه من الكتب «كتابُ التاج» يحتجُّ فيه لِقدم العالم. «كتاب الزمردة» يحتج فيه على الرسل وإبطالِ الرسالة. كتاب «نـَعْـتِ الحكمة» يسفّه الله تعالى في تكليفِ خلقِه ما لا يُطيقون من أمرِه ونهيه. «كتابُ الدامغ» يطعَنُ فيه على نظم القرآن. «كتاب القضيب» الذي يثبت فيه أن علمَ الله تعالى بالأشياء مُحدَث، وأنه كان غيرَ عالِم حتى خلق خلقـَه وأحدث لنفسِه علماً. «كتاب المرجان» في اختلاف أهل الإسلام. وقد نقضَها كلـَّها أبو الحسين عبدُ الرحيم بن محمد الخياط.[2][(4)]

١- البيت لمحمد بن يسير الرياشي، وورد» ومن يطيق خليعاً»

٢- أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد الخياط من أعيان المعتزلة في القرن الثالث، توفي بعد سنة ٣٠٠هـ بقليل

ابن الرومي وتطيره

علي بن العباس بن جُريج الرومي. قال أبو عثمان النّاجم[1]: دخلتُ عليه في علته التي مات فيها، وعندَ رأسه وعاء كبير فيه ماء مثلوج وخِنجر دون غِمد، إذا طُعِن به صدرٌ خرج من الظهر، فقلت: ما هذا؟ قال: الماءُ أَبُلُّ به حلقي، فقلَّما يموتُ إنسان إلّا وهو عطشان، والخِنجر إن زادَ علي الألم نحرت به نفسي. ثم قال: أقصُّ عليك قصتي، تستدِلُّ بها على حقيقة موتي. أردتُ الانتقالَ من الكرخ إلى باب البصرة في بغداد، فشاورت صديقَنا أبا الفضل، وهذا مشتقٌ من الأفضال، فقال: إذا جئتَ القنطرة فخُذ على يمينك، وهو مشتق من اليُمْن، وهل اليُمن إلا البركة؟ واذهبْ إلى سكَّة النعيمة، وهو مشتق من النعيم، فاسكُن في دار ابن المُعافى، وهو مشتق من العافية. فخالفتُه لتَعسي ونَحسي، فشاورتُ صديقنا جعفراً وهو مشتق من الجوع والفِرار، فقال: إذا جئتَ القنطرة فخذ على شِمالك، وهو مشتق من الشؤم، واسكنْ دار ابنِ قِلابة، وهي التي أنا فيها، وقد انقلبتْ بي الدنيا، ولا يؤذيني شيءٌ كالعصافيرِ في هذه الشجرة تصيح: سيق سيق، فها أنا في السياق، ثم أنشد:

أبا عُثمانَ أنتَ عَميدُ قومِكْ ... وَجُودُك للعَشِيرَةِ دُونَ لوْمِكْ
تمتَّعْ مِن أخِيك فما أراه ... يَراكَ وَلا تَراهُ بعدَ يومِكْ

وألح به البول، فقلت: البول مُلِحٌّ بك. فقال:

غداً ينقطِعُ البَولُ ... ويأتي الوَيلُ والعَولُ
ألا إنَّ لقاءَ اللّـ ... ـهِ هَولٌ دونه الهَولُ

ومات من الغد، فأرجو أن يكون هذا القولُ توبة له مما كان اعتقده من ذبحِه نفسه، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من وجَأ نفسَه بحديدة حُشِر يوم القيامة وحديدتُه بيده يجَأ بها نفسَه خالداً مخلداً في النار، ومن تردّى من شاهق حُشر يوم القيامة يتردّى على منخريه في النار خالداً مخلداً، ومن تحسّى سُماً حُشر يوم القيامة وسُمُّه بيده يتحسّاه خالداً مخلداً في النار.[2]

١- سعيد بن الحسن بن شدّاد المسمعي أبو عثمان الورّاق المعروف بالناجم، كان يصحب ابن الرومي ويروي أكثر شعره عنه، وَلَهُ معه أخبار، وكان أديباً فاضلاً شاعراً، وتوفي سنة ٤١٣هـ.

٢- وجأ: طعن

اتهام أبي تمّام

قال الحسنُ بنُ رجاءِ الكاتب[1]: جاءني أبو تمام إلى خُراسان، فبلغني أنه لايصلّي، فوكَّلْت به من لازمَه أياماً، فلم يره يصلي مرة واحدة، فعاتبتُه فقال: يا مولاي، قطعتُ إليكَ من بغداد، فاحتملت المشقة وبُعدَ الدار وطولَ الطريق، ولم أرَهُ يُثْقِل عليّ، فلو كنتُ أدركتُ أن الصلاة تنفعُني وتركُها يضرّني ما تركتُها. فأردتُ قتلَه، فخشيتُ أن يُحْمَلَ على غير هذا.

١- هو أبو علي الحسن بن رجاء بن أبي الضحاك، أحد البلغاء الكتاب الشعراء. قلده المأمون كور الجبل، وقد مدحه أبو تمام، وله معه حكايات كثيرة.

المعتصم والمازيار والأفشين

وفي روايات كثيرة أن المازيار[1] أحْضِرَ إلى المعتصم، وقبلَ قدومِه بيوم سخط المعتصم على الأفشين[2] لأنه زيَّن للمازيار العصيان. وأحضروا كاتبَ الأفشين، فأقرَّ بأنه كتب إلى المازيار: لم يكنْ في الأرضِ ولا في العصر بَليَّة إلا أنا وأنت وبابك[3] وقد كنت حريصاً على حقن دمه حتى كان من أمره ما كان ولم

يبق غيري وغيرُك، وقد توجَّه إليك عسكر من عساكر القوم، فإن هزمته وثَبْت أنا على مَلِكِهم في قرار داره، فظهر الدينُ الأبيض. فأجابه المازيار بكتاب محفوظٍ عنده في كيس أحمر، فجَمع بين الاثنين، فاعترف المازيار بما حُكي عنه، وقيل للمعتصم: إن المازيار خبأ أموالاً كثيرة، فأنشد:

إنَّ الأُسودَ أُسودَ الغِيلِ هِـمَّـتُهـا   يَومَ الكريهَةِ في المَسلوبِ لا السَلبِ[4]

١- محمد بن قارن المازيار صاحب طبرستان. كان الأفشين يشجعه ، فخالف وهدم المدن، فهرب الناس منه إلى خراسان، وأمر المعتصم عبد الله بن طاهر فحاربه وأخذه أسيراً ووعده إن أظهره على كتب الأفشين أن يشفع له عند المعتصم، فأقر له المازيار بالكتب، فأخذها ابن طاهر وبعث بها وبالمازيار إلى المعتصم محمد بن هارون الرشيد(٩٧١- ٧٢٢هـ/٥٩٧- ٢٤٨م) الخليفة العباسي الثامن.

٢- حيدر بن كاوس التركي، توفي ٦٢٢هـ/١٤٨م، كان من قواد المعتصم، وحارب بابك وقضى عليه، قبل أن يقتله المعتصم.

٣- بابك بن بهرام الخُرَّميّ، استأجره رئيس الخرمية جاويدان فعشقته امرأته، وقتل جاويدان، فزعمت امرأته أنه استخلف بابك على أمره، فجمع بابك أصحابه حتى صار عنده عشرون ألف فارس، ولما ولي المعتصم، بعث إليه الأفشين فأسره، وأمر جزاراً بقطع يديه ورجليه، وبعث برأسه إلى خراسان، وصُلِبَ بدنُه في سُرَّ مَن رأى .

٤- البيت لأبي تمام وهو من قصيدته الشهيرة» فتح عمورية» ومطلعها : السَيفُ أصدَقُ أنباءً مِنَ الكُتُبِ   في حَدِّهِ الحَدُّ بَينَ الجِدِّ وَاللَّعِبِ

جعفر بن محمد

وظهر بالبصرة من يدّعي أن جعفرَ بن محمد رضي الله عنهما[1] متصل به، وأن روحَه فيه. ولو استرسلت في هذا المجال، لطال فيه المقال، ولكن:

لا بــدَّ لــلـمـصـدور أن ينـفـثا   ولــلــذي في الــصــدرِ أن يُبعَـثا

بل لو قلت كل ما أعلمه، أكلت زادي في محبسي، بل كنت أنشِد:

أحمِلُ رَأسـاً قد مللتُ حَملـَهْ   أَلا فتىً يَحمِـلُ عَـنّي ثِقْــلَـهْ[2]

١- أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم أجمعين(٠٨- ٨١٤١هـ/ ٦٩٩- ٥٦٧م) أحد الأئمة الاثني عشر على مذهب الإمامية. من سادات أهل البيت، ولقب بالصادق لصدقه في مقالته، وفضله أشهر من أن يذكر.

٢- شطران من ثلاثة أشطر للشاعرة أم حكيم الخارجية، كانت مع قطري بن الفُجاءة، وكانت من أجمل الناس وجهاً وأشجعهم وأحسنهم بدينها تمسكاً.

شكوى العصر

إن شكوتُ العصرَ وأحكامَه، وذممت تقلباتِه وأيامَه، شكوت من لا يُشكـّي أبداً، وذمَمت من لا يُرضي أحداً، من طباعه رفعُ مَنزلة الخامل الوضيع، والحطُّ من قدْر الفاضلِ الرفيع. إذا سمحَ بالعطاء، فما أسرع ما يريدُ الردّ والاقتضاء، وإذا أعطاك على سبيل الإعارة، ملأ في مقابِلها الأيامَ بالمرارة، وما بين أن يقبل عليك بوجه ضاحك، ويولـّي عنك وقد يُوردُك المهالك، إلّا أقلُّ من لمح البصر، وانطفاءِ ما تقذفُ النار من الشرر. ليس من شيمتِه الوفاء، ويكاد يقضي على كل أمل ورجاء، ظاهرُه يُؤنس ويسرّ، وباطنُه يؤذي ويضرّ، يُخيّب ظنَّ من علـّق عليه الآمال، ويكذّب أمنياتِ الرجال. إن شكوتَ لا يسمع الشكوى، وإن ابتليتَ يشمتُ بالبلوى، وقد وقعتُ فيما منه أحَذّر، فكنتُ كالغريقِ يتعلـَّقُ بالطحالب يحسبها الحبال، والأسيرِ ينادي الرجالَ ولا رجال، وما أحسن قولَ ابن الرومي:

ألا ليس شـيبُك بالمُنْتزَعْ	فهل أنتَ عن غيِّه مُرتَدِعْ
وهل أنت تاركُ شكوى الزمانِ	إذاً لستَ تشكو إلى مستمعْ
فشيبُ أخي الشيبِ أمْنِيَّةٌ	متى ما تناهى إليها هَلِعْ[1]

١- البيت في الديوان:

وشيخوخةُ المرءِ أمْنيَّةٌ   متى ما تناهى إليها هَلِعْ

من حال إلى حال

عندما كنتُ في عمر الشباب، كان أقربَ الناس إليّ، وأعزَّهم عليّ، وأجلـّهم في نفسي مرتبة، مَن قال لي: أبْعدَ الله أجَلـَك، ووهَبك طولَ العمر. فلما بلغت الثمانين، جاءَ الجَـزَع، فممَّ أخافُ وأرتاع؟ ألمْ يكن هذا أولَ الأطماع؟ أما كان هذا ما تمنيتُه وتمنـّاه لي كل خِلٍّ مُصاحبٍ وصديقٍ مقرَّب؟ أمِن إعراض الحِسان عنّي؟ أنا والله أكثرُ ابتعاداً عنهنَّ وأكثرُ فراراً منهن، ولستُ ممن يُنشِد تحسُّراً عليهن:

للسُّـود في السـودِ آثـارٌ تـركن بهـا   لمعـاً من البيض تَـثـني أعـيُنَ البيـضِ[١]

وقول الآخر:

ولما رأيت الـنسـر عـزّ ابـنُ دأيـة   وعـشّـش في وكريه جاشت له نفسي[٢]

ولا أنشد قول أبي عبادة البحتري:

إنَّ أيّـامَـهُ مِـنَ الـبـيـضِ بـيــضٌ   مــا رَأيْــنَ المَـفـارِقَ الـسُّــودَ سـودا

فإذا المَـحْـلُ جاءَ جـاؤوا غُيُـوثـاً   وَإذا الـنـَّـقْـعُ ثـارَ ثـاروا أُسـوداً[٣]

١- البيت لابن الرومي، والسود الأول: الليالي، والسود الآخر: شعرات الرأس واللحية، والبيض الأول: الشيبات، والبيض الآخر: النساء..

٢- البيت للكميت بن زيد الأسدي. ابن دأية: الغراب، وعنى به الشباب، وعنى بالنسر الشيب

٣- ورد هذا البيت

فَإذا المَحْلُ جاءَ جاؤوا سُيُولاً   وَإِذا النـَّقْعُ ثارَ ثاروا أُســودا

المعرة والمعري

وإذا كان مولاي الجليل، أدامَ الله تأييدَه، يُنسب إلى المعرة، لا خلَتْ منه، فقد وجدت أهلَها معترفين بعلمِه وفضله، وقد لقيتُ أبا العباس أحمدَ بنَ خلف الممتع، أدام الله عزه، فوجدتُ آثار تفضُّل الشيخ الجليل عليه ظاهرة، ولسانَ أبي العباس رطْباً بشكرِه وذكره، وقد ملأ الأرض والسماء دعاء له وثناء عليه.

عِبر الدنيا

وأنا أستعين بعِصْمة الله وتوفيقه، وأجعلـُهما مُعيني على دفعِ شهوتي، وأشكو إلى الله عُكوفي على الأماني، وأسألـُه سبحانه فهماً لمواعظِ عِبَرِ الدنيا، فقد عَميتَ عن أسبابها، بما تلبَّد في خواطري وهواجسي من التعلـُّق بها، ولا أجدُ من ينصفني منها، ولاحاجزاً لرغبتي فيها، قال كـُثيِّر عزّة:

كـأنّي أنادِي صَخـرَةً حِينَ أعـرَضَت   مِن الصُمِّ لو تمشي بِها العُصمُ زَلَّتِ[1]

وأقول على مذهب كـُثيـِّر: يا دنيا، لي في كل لحظة منك عِبرة، ولي في كل فكرة حسرة، أنتِ المكدِّرةُ الهناء والصفا، ولم تعرفي يوماً عهود الوفا، ما صادف التوفيقَ مَن ماشاك، ولا السعدَ مَن أحسن الظنَّ بك، وهيهات يا معشرَ أبناء الدنيا، تحسبون في هذه الدنيا الغنى والثراء، وليس فيها إلا الفقر والعناء.

وكم من زمن كنت به مستبشراً، صحَتْ سماؤه وامتد ظِلـُّه، لا أجد في سويعاته إلا ما يقرِّبُ لي المنى، ويمدُّني بكلِّ ما أهوى من السنا، حتى إذا حَسِبت أن الزمان راضٍ، حسدتني عليه الدنيا، فسعَت بالفراق إلى الألفة فيه، وأنقصَت أيامَه ولياليه، فكسَفت بهجتـَه، وأرهقت نُضرتـَه بحَرِّ الفراق، ورمتنا متباعدين في الآفاق، بعد أن كنّا كالحمائم المؤتلفة، والأغصان اللينة المنعطفة:

يا غـفلـتي عـن يَـومِ يَجـ   ـمَعُ شِـرَّتي كـفـنٌ ولـحـدُ[2]
ضَيَّـعتُ مـا لا بُدَّ مِنــ   ـهُ بِـالـذي لي مِنــهُ بُـدُّ

وأنْشِد قول ابن الرومي:

ألا ليس شيبُك بالمنتزَعْ   فهل أنت من غيِّه مُرتدِعْ

فأقلق وأبكي بكاءً غير نافع وليس لمن كان مثلي بالدواء الناجع، وأعجب هل أبكي أيامي؟ أم أبكي ما كان سبب البكاء؟ وأنشد:

لـسـاني يـقـولُ ولا أفـعـلُ   وقـلـبـي يـريــد ولا أعْـمــلُ
وأعرف رشْدي ولا أهتـدي   وأعْــلـم لكـنـني أجْــهــلُ[3]

١- العصم: جمع أعصم وهو نوع من الظِّبَاء

٢ - البيتان لأبي العتاهية، ووردا في الديوان:

يا غفلتي عن يَوم يَجـ   مَعُ شِرَّتي كفنٌ وَلحدُ
ضَيَّعْتُ ما لا بُدَّ لي   مِنهُ بِما لِيَ مِنهُ بُـدُّ

٣- لم أجد قائل هذين البيتين، ولعلهما من شعر ابن القارح نفسه

أمر الخمرة

عرَض عليَّ بعضُ الناس كأسَ خمر فامتنعت وقلت: خلُّوني والمطبوخَ على مذهب الأوزاعي[١]، وقلت لهم: عرَضَ ابراهيم بن المهدي[٢] على محمد بن حازم الباهلي[٣]الخمرة فامتنع وأنشد:

أبَعدَ شيبيَ أَصبو ... والشيبُ لِلجَهلِ حَربُ[٤]
سِنٌّ وشيبٌ وجهلٌ ... أمرٌ، لعَمرُكَ، صعبُ
يا ابْنَ الإمامِ فهلا ... أيّام عوديَ رطبُ
وإذ مشيبي قليلٌ ... ومَنهلُ الحبِّ عذبُ[٥]
وإذ سهامي صِيابٌ ... ونصْلُ سيفيَ عَضبُ
وإذ شفاء الغواني ... منّي حديثٌ وقُربُ
فالآنَ لما رأى بيَ الـ ... ـعذّالُ ما قد أحبّوا
وآنسَ الرُّشدَ منّي ... قومٌ ، أعابُ وأصبو
آليتُ أشربُ كأساً ... ما حَجَّ للّه ركبُ

١ - عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، إمام أهل الشام وفقيههم وعالمهم. مات سنة سبع وخمسين ومائة للهجرة، وولد سنة ثمانين. وكان ثقة مأموناً فاضلاً خيراً حجة كثير العلم والفقه والحديث.

٢ - ابراهيم بن الخليفة العباسي المهدي، أخو الرشيد، نادى به بعضُ الناس خليفةً بعد مقتل الأمين، فقبض عليه المأمون ثم عفا عنه. أديبٌ وشاعرٌ وعلَم من أعلام الغناء

٣ - أبو جعفر محمد بن حازم بن عمرو الباهلي بالولاء. شاعر مطبوع، كثير الهجاء، لم يمدح من الخلفاء غير المأمون ، ولد ونشأ في البصرة وسكن بغداد ومات فيها. كان يأتي بالمعاني المبتكرة التي تستغلق على غيره أكثر شعره في القناعة ومدح التصّوف وذم الحرص والطمع.

٤ - ورد البيت في جميع المصادر «أبعد خمسين»

٥ - ورد هذا البيت «وشيب رأسي قليل»

التوبة النصوح

وأقبلتُ عليهم مخاطباً، ولهم معاتباً، والخطابُ لهم، والمقصودُ به نفسي: لقد أمْهَلكم حتى كأنّه أهملَكم، أما تسْتحون من كثرةِ ما منه يُستحى؟ فكنْ كالوليدِ تقلّبه على فراش اللطف به يَـدُ العطف عليه، يأتيه ما يحتاجُ بغيرِ طلبٍ منه لصِغـَره، ويُصرَف عنه الأذى بغيرِ حَذر منه لعجزِه. أما سمعتَ دعاءَ رسول الله صلى الله عليه وسلم:» اللهُمَّ اكْلأني كِلاءَة الوليد الذي لا يَدري ما يُرادُ به ولا ما يريد»[1]

يا متعلقاً بأذيالِ دليلك، ويامن تُعِد الرَّحْلَ والمطية ليوم رحيلك، مَن لم يَسبقْ إلى الماء يَظمى، إنما منعتك ما تَـشتهي ضنّاً بك وغـَيرة عليك، قال رسول الله عليه الصلاة والسلام» إذا أحبَّ الله عبداً حماه الدنيا» وأنتَ تشكوني إذا حمَيتُك، وتكره فعلي إذا حميتك. الله يُغني بشيءٍ عن شيء، وليس يُغنى عنه بشيء، ولهذا قال جبريل للخليل: ألكَ حاجة؟ قال: «أما إليك فلا، الله وحدَه يستحق أن يُسأل» أطِعْه لتُطيعَه، ولا تطعه ليُعطيك، فتسكنُ وتضعف وتمَلّ، جلَّ مَن القلوب بيده، وعزائمُ الأحكام عنده:

أنَـسِـيـتَ ذِكْـرَ أحِـبَّـةٍ ينسَـون ذنبَـك عـنـدَ ذِكـرِكْ[2]

وجَـفَـوتـَهُـمْ ولطـالـما كـانـوا، خِـلافـك، طـوعَ أمـرِكْ

وصـبَرْت عـنـد فـراقِـهـمْ مـا كـانَ عُـذرُك عـنـد صـبرِكْ؟

إنك تترك من إذا أظهرت له الجفاء، ونسيت ذكرَه في صباحٍ ومساء، وارتكبتَ ما عنه نهى، وتوانيتَ عمّا أمر به وقضى، ثم عُدت إليه تائباً، مُتكلّاً عليه وراغباً، وما اعتمادُك عليه إلا لأنه متفضِّلٌ عليك، وقلت: يا ربّ، قال لك: لبيك

{وإذا سَـألـكَ عِـبادِي عـنـِّي فـإنـّي قـريـبٌ أُجِـيبُ دَعْـوَةَ الـدَّاعِ إذا دَعَانِ}[3]. أنت الذي إذا

١ – كلأَه يَكْلؤُه كِلاءً وكِلاءَةً: حَرَسَه وحَفِظَه.

٢ – يبدو أن الأبيات لابن القارح نفسه.

٣ – البقرة ٦٨١

أعطيتُك ما أَمَلت تركتني وانْصرفت { وإِذا أنْعَـمْـنا عـلى الإِنْـسـانِ أَعْرَضَ ونأى بِجَانِـبِـهِ}.[1] أليس يقول لك: ما غرَّك بي ؟ تقول: حِلمُك، وإلالو أرسلتَ عليَّ بَعوضة لجمعتني عليك إذا أردتَ أن تجمعني:

أمِـن بعـدِ شُــربِـكَ كأسَ الـنُهــى   وشــمِّـكَ رَيْحــانَ أهــلِ الـتُـقـى[2]

عـشِـقـتَ فأصبحتَ في العاشقيــ   ــنَ أشـهَـرَ مـن فـرَسٍ أبْـلـقـا

أدُنـيـايَ من غـَمْـرِ بـحْـرِ الهـوى   خُـذي بـيـدي قـبـلَ أن أغـرَقـا

أنا لـكِ عـبــدٌ فـكـوني كـمَــنْ   إذا ســرَّهُ عَـبْـدُهُ أعْـتـقـا

١ - الإسراء ٣٨

٢ - الأبيات لأبي عُيينة بنِ محمد بن أبي عيينة

احذروا ميتة فأذوه

كان ببغدادَ رجل كبير الرأس، أذُناه كأذني الفيل، واسمُه «فأذوه»، ولم يكن يُغطّي رأسه لا في البرد ولا في الحر، ولا يتورَّعُ عن ارتكابِ المعاصي، ويقال له: ويلَك يا فأذوه، تُبْ إلى الله، فيقول: ياقومُ، لم تدْخلون بيني وبين مولاي وهو الذي يقبل التوبة َمن عبادِه؟ وذات يوم كان يسيرُ في شارعٍ اتَّسع أولُّه وضاق آخرُه، حتى إن البيوت المتقابلة تكاد تلتقي، فناولت امرأةٌ جارتَها « هاوَناً » فانسلَّ من يدِها وسقط على رأس « فأذوه » فهُرِس رأسُه، وخلَّطه كخلط الهريسة، وأعْجَله عن التوبة، وكان لنا واعظ صالحٌ يقول لنا دائماً: « احذروا مِيتة فأذوه ».

قال جبريل في حديثه: خشيتُ أن يُتِمَّ فِرعون الشهادة َوالتوبة، فأخذتُ قطعة من حالِ البحرِ فضربت بها وجهَه، أي من طينِه، والحال ينقسمُ ثمانية أقسام منها الطين، فكيف يَصنعُ مَن عنده أن التوبة َمن ذنبٍ لا تصِحُّ مع الإقامة على آخر؟ فلا حول ولا قوة إلا بالله.

معرفة الخبر

بلغني عن مولاي الشيخ ، أدام الله تأييدَه ، أنه قال وقد ذكِرت عنده: أعرفـُه خبراً، هو الذي هجا أبا القاسمِ بنَ علي بنِ الحسين المغربي[١]. وقد راعني ذلك، خوفاً من أن يظنَّ الشرَّ من طبعي، وأن يتصوَّرني بصورةِ مَن يضعُ الجُحود موضعَ الشكر، ولو أنه عرَفني بغير هذا لكان أنفعَ لي عنده، لجلالِ قدره ودينه ونسكه، وأنا أطْلِعه على خفايا الأمور كلـِّها، ليعرفَ أولَ الأمر ومنتهاه، ويحكم لي أو عليَّ بمقتضاه.

كنت أدرس على أبي عبدالله بن خالوَيه رحمه الله[٢]، وأختلف إلى أبي الحسن المغربي، ولما مات ابن خالويه سـافرت إلى بغـداد ونزلت على أبي علي بن أحمد الفارسي[٣] وكنت أختلف إلى علماء بغداد، إلى أبي سعيد الحسـن السيرافي[٤] والرمّاني[٥] وأبي عبيد المرزباني[٦] وأبي حفص

١ – هـوالحسـين بن علـي بن الحسـين المعروف بأبي القاسـم، الوزير المغـربي. (٠٧٣ – ٨١٤هـ / ٠٨٩ – ٧٢٠١م) كان كاتباً ناظماً ناثراً فاضلاً، وله ديوان شعر واختصار إصلاح المنطق واختصار الأغاني، وكتاب الإيناس، وأدب الخواص، و المأثور في ملح الخدور، و تفسير القرآن في مجلد، وغير ذلك.

٢ – الحسين بن أحمد بن خالويه النحوي اللغوي المتوفى عام ٠٧٣هـ / ٠٨٩م كان حجة في كل قسم من أقسام الأدب، وله كتاب كبير سماه «كتاب ليس» مبني على أنه ليس في كلام العرب كذا ، و «الاشتقاق»و «الجمل» في النحو، و»القراءات»و «المقصوروالممدود» و «المذكر والمؤنث» وغيرها. ولابن خالويه مع المتنبي مجالس ومباحث عند سيف الدولة.

٣ – أبو علي الحسن بن أحمد الفارسي "الفارسي" (٨٨٢– ٧٧٣هـ/٢٠٩– ٧٨٩م)، كان إمام وقته في النحو، أقام عند سيف الدولة مدة، ثم انتقل إلى فارس وصحب عضد الدولة ، وصنف له كتاب الإيضاح والتكملة في النحو، ومن كتبه" التذكرة " وهو كبير، و" المقصور والممدود" و" الحجة في القراءات، وكتاب العوامل المائة وكتب المسائل" الحلبيات و البغداديات و الشيرازيات والقصريات والمسائل العسكرية و المسائل البصرية وغيرذلك. وقال إنه لم يقل إلا ثلاثة أبيات:

خضبتُ الشـيبَ لمّا كان عيباً … وخضْبُ الشيبِ أولى أن يُعابا
ولم أخضِبْ مَخافةَ َهَجْرِ خلٍّ … ولا عَيبـاً خشِيتُ ولا عِتابا
ولكنَّ المَشـيـبَ بـدا ذمِيمـاً … فصيَّرتُ الخِضابَ له عقـابا

٤ – أبو سعيد الحسن بن عبد اللّه السيرافي النحوي (٠٨٢– ٨٦٣هـ/٧٩٨– ٩٧٩م)، كان إماماً كبير الشأن. تصدر أبو سعيد لإقراء القراءات والنحو واللغة والفقه والفرائض والحساب والعروض. وكان من أعلم الناس بنحو البصريين، عارفاً بفقه أبي حنيفة. شرح كتاب سيبويه. "سيبويه" ، ومن كتبه الإقناع في النحو، وأخبار النحاة، والوقف والابتداء، وصناعة الشعر والبلاغة، وشرح مقصورة ابن دريد. "ابن دريد"، وغيرها. وكان أبو حيان التوحيدي يعظمه، وقد ملأ تصانيفه بذكره والثناء عليه، وذكر فضائله.

٥ – أبو الحسن علي بن عيسى الرُمّاني(٦٩٢– ٤٨٣هـ/ ٨٠٩– ٤٩٩م). كان علاّمة في العربية، وهو في طبقة أبي علي الفارسي وأبي سعيد السيرافي. وكان يمزج نحوه بالمنطق حتى قال الفارسي: إن كان النحو ما يقوله الرماني فليس معنا منه شيء. وإن كان ما نقوله نحن فليس مع الرماني منه شيء، وكان يقال: النحويون في زماننا ثلاثة، واحد لا يفهم كلامه وهو الرماني، وواحد يفهم بعض كلامه وهوالفارسي، وواحد يفهم جميع كلامه بلا أستاذ وهو السيرافي.

ومن تصانيفه: تفسير القرآن، كتاب الحدود الأكبر، كتاب الحدود الأصغر، كتاب معاني الحروف، كتاب إعجاز القرآن،كتاب شرح سيبويه، كتاب التصريف، كتاب الهجاء، كتاب الايجاز في النحو، كتاب الاشتقاق الأكبر، كتاب الاشتقاق الأصغر، كتاب الألفات في القرآن، كتاب شرح الصفات، كتاب شرح الموجز لابن السراج، كتاب شرح الألف واللام لابن المازني، وغيرها.

٦ – أبو عبيد اللّه محمد بن عمران المرزباني(٧٩٢– ٨٧٣هـ/٩٠٩– ٤٩٩م) كان راوية للأدب صاحب أخبار، أشهر كتبه « معجم الشعراء» وله كتب كثيرة منها : الشعر والشعراء ومذاهبهم، الأزمنة، ، أيام العرب والعجم، الموشح، أشعار الخلفاء، أخبار البرامكة، أخبار المعتزلة، أشعار النساء،وغيرها

الكناني[١] صاحب أبي بكر بن مجاهد[٢]. وكتبت حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وارتاحت نفسي، فقد بذلت جهدي، ويُعذر مَن بذل جُهده. ثم سافرتُ منها إلى مصر، ولقيت فيها أبا الحسن المغربي[٣] فلزمته لزوم الظل للأشياء، ولم أتركْه في صباح أو مساء، فقال لي ذات يوم: إني أخافُ همـَّة أبي القاسم أن تدفعَه إلى أن يُوردَنا موارد الهلاك، وأنت من المقربين منه، فاحفظ كلَّ ما يصدر عنه، حتى الأنفاس إن كانت تُحفظ وتُكتب، فاحفظها واكتبها وأطلعني عليها.

فقال لي أبو القاسم يوماً: كيف نرضى الخمول الذي نحن فيه؟ قلت: عن أي خمول تتحدث؟ تأخذون من مولانا، خلـَّد الله ملكه، ستة آلاف دينار كل سنة، وأبوك من شيوخ الدولة، وهو مُعظـَّم مكـرَّم، فماذا تريد أكثر؟ فقال: أريد أن تكون على أبوابنا الكتائب، وأن تحُفَّ بنا المواكب، وأن نكون من ذوي السلطان، لا أن ننتظر الأعطيات كالوِلدان والنِسوان.

وأعدت ذلك على أبيه فقال: والله إني لأخشى أن يخضُب أبو القاسم هذه من هذا، وأشار إلى لحيتِه ورأسه، وعلم أبو القاسم بما فعلت، فصارت بيني وبينه جفوة.

واستدعاني أبو عبد الله الحسين بن جوهر[٤] فشرَّفني بخدمته، فرأيت الحاكم كلما قتل واحداً من الرؤساء، أرسلَ رأسَه إلى الحسين وقال: هذا عدوي وعدوك يا حسين، فقلت لنفسي: مَن يرَ مصائب الآخرين سيرى آخرون مُصيبته، والجاهل من يغترُّ بالدهر المتقلب، وعلمت أن الحاكم قد يُرسل رأس الحسين بن جوهر إلى غـيرِه، كما يرسـل إليه الرؤوس، فاسـتأذنته في الحجِّ فـأذن لي، وخرجت سـنة ٣٩٧هـ ، ولم أعدْ إلا بعد خمسة أعوام، فوجدتُ الحاكم قد قتل أبا الحسن المَغربي، وجاءني أولادُه سراً، فقلت لهم : ليس لكم ولي إلا الهرب، ولأبيكم في بغداد ودائعُ قيمتها خمسُمائة ألف دينار، فاهربوا وأهرب، ففعلوا وفعلت، وبلغني مقتلـُهم في دمشق وكنت في طرابلس، فدخلت أنطاكية، ومنها

انتقلت إلى مَلطيّة[٥] وفيها خولة بنت سعد الدولة بن سيف الدولة، فأقمت عندها إلى أن

١ – عمر بن ابراهيم البغدادي، إمام القراء في القرن الرابع الهجري.

٢ – أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد شيخ القراء في عصره(٢٤٥– ٣٢٤هـ/٩٥٨– ٩٣٦م). سمع جماعة وحدث عنه آخرون وكان ثقة مأموناً. وله: «القراءات الكبير» و«القراءات الصغير» و«الياءات» و«الهاءات» و«قراءة أبي عمرو» و «قراءة ابن كثير» و «قراءة عاصم» و«قراءة نافع» و« قراءة حمزة» و«قراءة الكسائي»و« قراءة ابن عامر»و« قراءة النبي صلى الله عليه وسلم» و«كتاب السبعة»و «انفراد القراء السبعة»و «قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه».

٣ – علي بن الحسين بن محمد بن المغربي ، ولد بحلب ونشأ بها، وكان وزيراً لسيف الدولة وكان شاعراً. ثم هرب خوفاً منه إلى مصر، ووزر للحاكم فقتله سنة أربعمائة، وهو والد الوزير أبي القاسم المغربي الذي ذكرناه قبل قليل.

٤ – الحسين بن جوهر الصِقلِّي: كان قائد القواد للحاكم بأمر الله صاحب مصر، ثم نقم عليه فقتله في سنة ٤٠١هـ، وكان الحسين قد خاف على نفسه من الحاكم، فهرب مع أسرته، وخدعهم الحاكم وطيب قلوبهم وآنسهم مدة، ثم غدر بهم. وجوهر هو الذي فتح مصر للمعز الفاطمي، وبنى القاهرة والجامع الأزهر.

٥ – ملطية: من الثغور بالشام، وهي المدينة العظمى وكانت قديمة، فخربتها الروم فبناها أبوجعفر المنصور سنة ١٣٩هـ وجعل لها سوراً محكماً، وغزتها الروم أيام الرشيد فلم يقدروا عليها.

جاءني كتاب أبي القاسم، فسرت إلى مِيافارقين[1] وأدركت أنه يُضمر أمراً ويظهر خلافَه. قال لي يوماً: مضت أيام وما رأيتك. قلت: أعَرَضت حاجة؟ قال: لا، ولكني أردت أن ألعـَنك. قلت: فالعَـنّي غائباً. قال: لا، في وجهِـك أشفى. قلت: ولِمَ؟ قال: لمخالفتك إيّاي فيما تعلم.

وقلت له يوماً بيني وبينه ونحن على أنس: لي حُرُمات ثلاث: البلدية، وتربية أبيك لي، وتربيتي لإخوتك، فقال: لا قيمة لهذه الحرمات التي تدّعي، فالبلدية نسب بين الجدران، وتربية أبي لك مِنـَّة ٌلنا عليك، وتربيتك لإخوتي بالهدايا والدنانير.

وأردت أن أقول له: استرحت مِن حيث تعب الكرام[2] فخشيت جنونَ جنونه، لأن جنونه كان مجنوناً، وأصح منه المجنون، وأجنُّ منه لا يكون، وقد أنشِد:

جُنونُكَ مَجنونٌ وَلستَ بِـواجِـدٍ　　　طبيباً يُداوي مِن جُنونِ جُنونِ[3]

وقال لي ذات ليلة: أريد أن أجمعَ أوصاف الشمعة السبعة َفي بيت واحد، ولا يخطـُر لي ما أرضاه، فقلت: أنا أفعلُ الساعة، فقال: أنت جُذَيلُها المُحكَّكُ، وعُذَيقُها المُرجَّب[4]، فأخذت القلمَ من دواته، وكتبت بحضرته:

لقد أشبهتني شمعةٌ في صبابتي　　　وفي هـولِ ما ألـقى وما أتوقـَّعُ
نحـولٌ وحُـزنٌ في فـناءٍ ووحـدةٍ　　　وتسهيدُ عينٍ واصفرارٌ وأدمُعُ[5]

فقال: كنت عملت هذا قبل هذا الوقت. قلت: سبحان الله! تمنعني سرعة الخاطر وتعطيني علم الغيب؟ وقلت: ألا تذكرُ قول أبيك لي ولك وللبَـتّي الشاعر[6] وللمحسن الدمشقي: ليقلْ كلٌّ منكم قطعة ًفي هذه القـُبّة، فمن أجاد جعلت جائزته أن أكتبَها فيها ، فقلت:

بـلـغ الـســـماء ســـمـوُّ بيـ　　　ـــتٍ شِـيـدَ في أعـلى مكانِ
بـــيـــت عـلا حـتـى تغـوَّ　　　رَ في ذراه الـفـرقــدانِ
أنـعِـــمْ بـــه لا زلــت مِـن　　　ريـــبِ الـحـوادث في أمـانِ

---

١ - ميافارقين: بلد معروف من أرض أرمينية، بين حدود الجزيرة وحدود أرمينية، وقال بعض الظرفاء: سميت ميافارقين لأن ذا الرمة أو غيره من العشاق، لو وصل إلى هذه المدينة بالاتفاق، وشاهد وجوه أهلها الملاح، والعيون السقيمة الصحاح، وعاين رشاقة القدود، ولباقة الخدود، وسمرة الشفاه اللعس، وحمرة الوجنات والجباه الملس، لقال لصاحبته: ميّ فارقيني ولا ترافقيني، فلا يجوز التيمم مع وجود الماء، ولاحاجة إلى الدواء بعد البرء والشفاء.

٢- هذا مثل يضرب لمن لا يهمه إن مدحه الناس أم ذمّوه.

٣- البيت للإمام الشافعي، وهو بيت مفرد وليس من قصيدة.

٤- جذيلها المحكك وعُذيقُها المرجب:الجُذيل، تصغير الجذل وهو أصل الشجرة. والمُحَكَّك هوعود ينصب في مَبارِك الإبل تتحكك به الإبل الجربى. والعُذيق، تصغير العَذق، وهو النخلة. والمُرَجَّب، الذي جعل له رُجْبة وهي دعامة تبنى من حولها الحجارة، وذلك إذا كانت النخلة كريمة وطالت، تخوفوا عليها أن تنقعر من الرياح العواصف، وهذا تصغيريراد به التكبير، والمعنى أنه رجل يستشفى برأيه وعقله.

٥- الغريب أن أسامة بن منقذ ينسب البيتين إلى المعري.

٦- أبو الحسن أحمد بن علي البَتّي: كان حافظاً للقرآن تالياً مليح المذاكرة بالأخبار والآداب عجيب النادرة ظريف المجون ، ويكتب خطاً جيداً، ويترسل وينظم الشعر، وشعره أقل من علمه، وكان يذهب إلى مذهب المعتزلة في الأصول وإلى مذهب أبي حنيفة في الفروع، ويتعصب للطائي تعصباً زائداً، ويفضل البحتري على أبي تمام.

فاستجاد سرعتها وكتبها على القبة، وخلع عليّ.

ولم يكن أحد يسلم من لسانه، وكان له معرفة بالغناء وصنعته. وله تصانيف منها: كتاب «القادري» . وكتاب «العميدي». وكتاب «الفخري». قال الوزيرأبو القاسم المغربي: كان ابوالحسن البتي لا يكاد يجارى في فن من العلوم فيعجز عنه، وكان مليح الحاضرة طيب المذاكرة مقبول الشاهد. توفي سنة ٤٠٣هـ ورثاه الشريفان الرضي والمرتضى.

وكان أبو القاسم مَلولاً، والملول ربَّما ملَّ الملل، ولكن أبا القاسم لم يكن يمَلُّ أن يمَلّ، ويحقدُ حقد من لا يلين، ولا تستطيع إليه أن تستكين. قال لي بعض الرؤساء معاتباً: أنت حقود، ولم يكن أبو القاسم حقوداً. فقلت له: أنت لا تعرفه، والله كان عوده صُلباً لا يُحنى، ومعروفه صعباً لا يُجنى، وله طبع يزيِّنُ له العُقوق والجحود، وليس من طبعه إلا الصُدود، ولم يكن ذلك الألوفَ الوَدود، وكأنه من غروره علا إلى السماء، أو استوى على الجوزاء. ولست ممَّن يرغب في وصل من لا يرغب بوصلي، ولا أريد أن يكون حقودٌ خِلّي، فلما رأيته مُمْعناً في قِلَّة إنصافي، ضربتُ صَفحاً عن التصافي، وقابلت التجافي بالتجافي:

وَفي الناسِ إن رَثَّتْ حِبالُكَ واصِلٌ　　　وَفي الأرضِ عَن دارِ القِلى مُتحَوَّلُ[1]

وأنشدت الرجل أبياتاً أعتذر بها عن قطيعتي لأبي القاسم: [2]

فلو كان منه ُالخير إذ كان شرُّهُ　　　عتيداً لقلنا إن خيراً معَ الشرِّ

ولو كان لا خيراً ولا شرَّ عنده　　　رضيتُ لعَمري بالكفافِ مع الأجْرِ

ولكنَّه شرٌّ، ولا خيرَ عنده　　　وليس على شرٍّ إذا طالَ من صَبرِ

وليس بُغضي له، شهد الله، لهذا وحدَه، بل لأنه أخذ ما كان في محاريبِ الكعبة من الذهب والفضة[3]، وسكّها دنانير ودراهم وسماها الكعْبية، وخرّب بغداد، وكم دمٍ سفك، وحريمٍ انتهك، وحُرَّةٍ صيَّرها أرملة، وأطفالٍ صيَّرهم أيتاماً.

---

١ – هذا البيت من قصيدة لمعن بن أوس المزني المتوفى سنة ٤٦هـ/٣٨٦م، وهوشاعر فحل من مخضرمي الجاهلية والإسلام. وأثبت أحد شرّاح رسالة الغفران أن البيت للشنفرى، ويظهر أن الأمر اشتبه عليه، إذ يقول الشنفرى:

وَفي الأرضِ مَنأى لِلكريمِ عنِ الأذى　　　وَفيها لِمَن خافَ القِلى مُتعَزَّلُ

٢ – يوحي كلام ابن القارح بأن الأبيات من شعره، لكن ابن حبّان البستيّ يوردها في «روضة العقلاء» لشاعر يدعى منصور بن محمد الكريزي .

٣ – نتذكر هجاءه أبا القاسم بأبيات منها :

قتلتَ أهليكَ وأنهبتَ بيـ　　　تَ الله بالمَوْصل تستعصي

امتداح أبي العلاء المعري

وأنا معتذر إلى الشيخ الجليل من مدحي مع أنني قصرت فيه، لأن فضله شاع في جميع البشر، كأنما كُتب على جبهة الشمس ووجه القمر. لا شيء يمحوه، فقد نال الخلودَ في بدائع الأخبار، فكأنما كُتب بسوادِ الليل على بياض النهار. وأنا في مكاتبة حضرته بشعري ونثري، كمن أمدَّ النار بالشرر، وأهدى الضوء إلى القمر، وصب في البحر جُرعة، وأعار النجوم السارية في الأفلاك سرعة، لا يحِلُّ النقصُ في بحره الزاخر، ولا تسهو عنه الأسماع والنواظر.

ولقد سمعت من رسائله دُرراً أطربتني- يشهد الله - كمن يسمع جيد الغناء. وبالله لو صدرت عمَّن كتبَـه حوله، يقلِّب طرفَه في هذا، ويرجع إلى ذاك، لكان ذلك عجيباً، صعباً شديداً. والله لقد رأيت علماءَ منهم ابنُ خالويه إذا قُرئت عليهم كتب الكبار، رجعوا إلى الأصول يقابلون ويقارنون، خوفاً من السهو والغلط واستبدال حرف بحرف.

أما حفظ مولاي، أدام الله تأييده، فمن العَجب العجيب والنادر الغريب، إذ إن حفظ الشخ الجليل النثرَ والأسماء، أفضلُ ممّا يحفظ الشعرَ الأذكياء، وهذا أمر من السهل قولـه، ولكنْ من الصعب فعله، فمَن سمعه طمع فيه، فإن أراده امتنع عليه بالمعنى والمبنى.

ابن خالويه وأبو الطيب

حدثني أبو علي الصِّقِـلّي بدمشق قال: كنتُ في مجلس ابن خالويه إذ وردت عليه من سيف الدولة مسائلُ تتعلـَّق باللغة، فاضطرب لها، ودخل خزانتـَه، وأخرج كتبَ اللغة، وفرَّقها على أصحابه يفتشونها ليُجيب عنها. وتركته وذهبتُ إلى أبي الطيب اللغوي[1] وقد وردت عليه تلك المسائل بعينِها، وهو جالس وبيده قلم أحمر، فأجاب به ولم يغيره ولا قامَ من مجلسه. قال أبو الطيب: قرأت على أبي عمر الفصيحَ وإصلاحَ المنطق حفظاً.

١- هوعبد الواحد بن علي العسكري. قدم حلب، وأقام بها إلى أن قتل في دخول الدمستق حلب سنة٣٥٠هـ. أحد العلماء المبرزين المتقنين لعلمي اللغة والعربية. أخذ عن أبي عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد ومحمد بن يحيى الصولي. وله كتاب «مراتب النحويين» وكتاب «الإبدال» وكتاب «شجرالدر» وكتاب «الأضداد».

ذاكرة ابن القارح

ولقد تعبتُ، فلقد أمضيت نصفَ عمري في الحفظ، وفي النصف الثاني صرتُ أنسى ما حفظت. درست ببغداد وأنا طريُّ العود سريعُ الحفظ، ومضيت إلى مصر فأرْخيْت لنفسي العِنان في الأغراض البهيمية، وما يجرُّ إلى الإثم في الأفعال الدنيوية، وزعمت لنفسي، وبخديعةٍ منها وهي الأمّارة بالسوء، أنني أذيقـُها حلاوة العيش ثواباً لصَبري في طلبِ العلم والأدب، ونسيتُ أن العلم غذاءُ النفس الشريفة، وبه تُصقـَل العقولُ وتسمو إلى المعاني اللطيفة، وكنت أكتبُ خمسين ورقة في اليوم وأدرسُ مائتين، فصرت الآن أكتب ورقة واحدة، وتحكـُّني عيناي حكـّاً مؤلماً، وأدرسُ خمس أوراق فأتعب .

ثم جاءت أوقات ليس فيها من يرغب في علم ولا أدب، ويسعى الجميع وراء الفضة والذهب، فلو كنتُ إياساً[1] لصرتُ باقلاً[2] وأضع كتاباً عن يميني وأطلبه عن شِمالي، وأريدُ مع ضعفي أن أرتادَ عيشاً بجسدٍ كليل، إن جلست فهو كالدُمَّل، وإن مشيتُ فهو دماميل، وأملك نزْراً يسيراً من مالٍ كان كثيراً، ولو أني أجد رجلاً ثقة ً لأعطيتُه له، ليعود عليَّ بما أرفـّه به عن نفسي، وأريحُ جسمي من الحركة، ومَن يرضى بهذا كثيرون، وما مِن خلافٍ إلا أن يردَّ مالي إليّ.

١ – إياس بن معاوية بن قرة البصري المزني، قاضي البصرة وأحد من يضرب به المثل في الذكاء والرأي والسؤدد والعقل. (توفي ١٢١هـ/٩٣٧م). كان يقال: يولد كل عام بعد المائة رجل تام العقل، وكانوا يرون إياس بن معاوية منهم.

٢ – باقل رجل من ربيعة، بلغ من عيِّه أنه اشترى ظبياً بأحد عشر درهماً، فمرَّبقوم فقالوا له: بكم اشتريت الظبي؟ فمد يده ودلع لسانه، يريد أحدعشر، فشرد الظبي وكان تحت إبطه، فصاروا يضربون به المثل فيقال: أعيا من باقل.

طرفة

أودع رجل جارية عند صديق له وسافر، فقال الصديقُ بعد أيام لمَن يأنس به: يا أخي، لم يعُد في الناس أمانة، أودعني صديقٌ لي جارية وقال إنها بِكْرٌ عذراء، جرَّبتها، فإذا هي ثـيِّب.

❖❖❖

ومن ظريف الأخبار أيضاً، أن بنتَ أخي سرقت مني ثلاثة وثمانين ديناراً فاشتكيتُها، فلما هدَّدوها قالت: واللهِ لو علمت أن الأمرَ يجري هكذا لقتلتُه.

❖❖❖

والله لولا ضعفي وعجزي عن السفر، لخرجتُ إلى مولاي الشيخ الجليل متشرِّفاً بمجالستهِ وسَماعِه، فأمّا مذاكرته فقد يئسْتُ منها لِما استولى عليَّ من النسيان، وما احتوى قلبي من الهموم والأحزان، ولا أشكو إلا إلى الله، وهل نقول عن رجل إنه حكيم، إذا كان يشكو رحيماً إلى غيرِ رحيم؟

❖❖❖

وكان أبو بكر الشـِّبلي[1] يقول: ليس عندَ غيرِ الله خير. وقال يوماً: يا كريم، ثم أطرَقَ مفكـِّراً ورفع رأسَه وقال: ما أوقحَني! أقول لك يا كريم وقد قيل لبعضِ عبيدك:

ولو لمْ يَكُن في كَفِّهِ غيرُ روحِهِ لجادَ بِها فليتـَّقِ اللـّه سائِلـُهْ

وقد قيل في آخر:

تـراهُ إذا ما جِـئْـتـَـهُ مُتهَـلـِّلاً كـأنـَّكَ تُعطيـهِ الذي أنتَ سائِلـُهْ[2]

ثم قال: بلى، أقول: يا جوادٌ فاقَ كلَّ جواد، وبجُودِه جادَ مَن جاد.

١ - هو دلف بن جحدر الصالح المشهور(٧٤٢- ٤٣٣هـ/٢٤٨- ٦٤٩م)، كان جليل القدر مالكي المذهب، وصحب أبا القاسم الجنيد ومن في عصره من الصلحاء، وأخباره كثيرة.

٢ - البيتان لعبد الله بن الزبير الأسدي المتوفى ٥٧هـ/ ٥٩٦م

وقال الرشيد لابن السمّاك[1]: عِظْني، وفي يد الرشيد كأس ماء، فقال: مهلاً يا أمير المؤمنين، لو حُبسَت عنك هذه الشَّرْبة أكنتَ تفديها بنصفِ مُلكك، قال: نعم، قال: اشربْ يا أميرالمؤمنين هَنّاك الله، فلما شرب قال: يا أميرَ المؤمنين لوحُبِسْتَ عن إخراجِها أكنت تفديها بنصفِ ملكك؟ قال: نعم، فقال له: فاتَّقِ الله في مُلكٍ لا يساوي شَربة ماء وإخراجَها.

١ - أبو العباس محمد بن صبيح، كان زاهداً عابداً حسن الكلام صاحب مواعظ، جمع كلامه وحفظ، ومن كلامه: خَفِ الله كأنك لم تُطِعْه، وارْجُ الله كأنك لم تعصِه. ومن كلامه: من جرَّعته الدنيا حلاوتها بميله إليها، جرَّعته الآخرة مرارتَها بتجافيها عنه. وأخباره ومواعظه كثيرة.

عناية اللـّه

وكيف أشكو مَن أطعمني ورعاني أكثرَ من سبعين سنة؟ كان قميصي ذراعين، فوكّل الله بي والدَين عطوفين مُشفقين، لم يدَّخرا جهداً في تنشئتي، فلما صارَ قميصي اثني عَـشَـر ذراعاً، تولـّى ربِّي رعايتي، فما جعْتُ ولا عَـريت {والذِي هـوَ يُـطْـعِـمُني وَيَـسْـقِـيـنِ} وخاطب ربَّه بالأدب فقال: «وَإذا مَرِضْتُ فـهوَ يَشْفِـيـنِ» [1] فنسب المرض إلى نفسه، لأنها تنفُر من الأعراض والأمراض. وكل شيء يطرأ على الإنسان لا يقدِرُ على دفعه، مثل النوم واليقظة والضحك والبكاء والغمّ والسرور والغنى والفقر، فهو منه تقدَّست أسماؤه. وما يقدِر على دفعه فهو منه، ومن بيده رعشةٌ لا يقدر على إمْساك قلم كما يفعلُ من ليست بيده.

كنت في «تنّيس»[2] وبين يدي رجل يقرأ مرقـّقاً صوته ويبكي { يُوفُون بِالنَّذرِ ويَخَافُون يَوْماً كان شَـرُّهُ مُسْتَطِيراً }[3] فخطر لي خاطر: أنا لاأنْذُر ولا أفي، ولا أخافُ شقاءً ولا عناء، ولو كنت أخافُ ما أصبحت إلا محموماً، وكنتُه.

وحدثني من أثق به عن أبيه وكان من الزهّاد قال: كنت مع أبي بكر الشبلي ببغداد في الجانب الشرقي بباب الطاق، فرأينا رجُلاً قد أخرَج من التنور حَمَلاً بلون التمر نُضْجاً، وقد صنع حلوى الفالوذج، فوقف أبو بكر ينظرُ إليهما ساهياً مفكراً، فقلتُ: يا مولاي، دعني آخذْ من هذا وهذا ورُقاقاً وخبزاً، ومنزلي قريب، فتشرِّفني بأن تجعلَ راحتك اليوم عندي. فقال: يا هذا، أظننتَ أني قد اشتهيتُهما؟ إنما كنتُ أفكر في أن الحيوانات كلـَّها لا تدخلُ النار إلا بعد الموت، ونحن ندخلها أحياء.

يا رَبِّ عَـفـوَكَ عَن ذي شيبَةٍ وَجِلٍ   كأَنـّهُ مِـن حـذارِ الـنـار مَجنـونُ[4]



١ - الآيتان ٩٧ و ٠٨ سورة الشعراء

٢ - تنّيس جزيرة بالقرب من دمياط

٣ - الآية ٧ سورة الإنسان

٤ - هذا البيت والذي يليه للشاعرعُبَيد بن أَيوب العَنبَري

يا رَبِّ عَفوَكَ عَن ذي توبَةٍ وَجِلٍ   كـأنـّهُ مِن حذارِ الناسِ مَجنونُ

قد كانَ قـدَّمَ أَعْـمـالاً مُـقـارِبَـةً   أَيّامَ ليسَ لـهُ عَـقـْلٌ وَلا ديـنُ

تمّت الرسالة والحمد لله نشكره ونحمَدُ عظيم أفضاله، وصلى الله وسلم على محمد وآلِه. ما فرَغت من الكتابة، حتى امتلأ قلبي بالكآبة، وأنا أعتذرُ عن أي خطأ فيها أو زلـّة، بعدد ما تتابعت الأهِلـّة، فمَن اعتذر واجتهد وتحرّى وُضِع عنه الخطأ: ومن ذا الذي يُؤتى الكمال فيكمُلُ[1]

قال عمر بن الخطاب: رحم الله امرأً أهدى إلي عيوبي

وأسـأل مولاي الشـيخ الجليل، أدام الـلـّه عزه، تـشريفي بالجواب عنها، فإن هذه الرسالة، على ما بها، قد استُحْسِنت وكـُتبَت عني، وشرَّفتُها باسمِه، وطرَّزتُها بذكرِه، وكانت الرسالة التي كتبها إليَّ الزهرجي أكبرَ الأسباب في دخولي إلى حلب. وإذا جاء جوابُ هذه الرسالة جعلتُها سائرة في حلب وغيرِها إن شاء الله، به الثقة وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

❖❖❖

بعد استعراض رسالة ابن القارح يحارُ المرء في إيجادِ الغاية من كتابتِها والهدفِ من إرسالها إلى المعري. هل كان ابن القارح يقدِّمُ نفسه إلى أبي العلاء بعد أن سمعَ أنه ذكر في مجلسه فقال المعري: أعرفـُه خبراً، هو الذي هجا أبا القاسم بن علي بن الحسين المغربي. ويقول ابنُ القارح: «وقد راعني ذلك، خوفاً من أن يظنَّ الشرَّ من طبعي، وأن يتصورَّني بصورة من يضع الجُحود موضعَ الشكر، ولو أنه عرفني بغيرِ هذا لكان أنفعَ لي عنده، لجلالِ قدرِه ودينِه ونسكِه، وأنا أطـْلعُه على خفايا الأمورِ كلـِّها، ليعرفَ أولَ الأمر ومُنتهاه، ويحكم لي أو عليَّ بمقتضاه».

إذا كان الأمر على هذا النحوِ فلماذا حشدَ في رسالته أخباراً من هنا وهناك؟ هل كان يعرضُ علمَه أمام أبي العلاء ليُعرِّفه بأنه ليس هجّاءً فحسب؟ وما الذي دعاه إلى ذِكرِ هؤلاء الذين اتهموا بالزندقة كلـِّهم؟ ما علاقة هذا كلـِّه بالدفاع عن نفسِه أمام المعري؟ وإذا كان يعرضُ علمه، كيف فاتـه أن أبا العلاء من أكثرِ الناس إعجاباً بالمتنبي؟ وأوردنا سبب الخلاف بينه وبين الشريف المرتضى، وعندما شـرح ديوان أبي تمّام سـمّى الـشـرح «ذكر حبيب» وسـمى شـرح ديوان البحـتري «عبث الوليد» بينما سمى شرح ديوان المتنبي « مُعجـِز أحمد »، ومن أين جاء ابنُ القارح بحكاية حبسِ المتنبي في بغداد؟.

إن الرأي الأرجح أن ابن القارح كان يقدم سيرة ذاتية كما نقول هذه الأيام، فشرّق وغرّب، وأتى

---

١ – شطر من أحد أربعة أبيات لابن عمار الثقفي أحمد بن عبيد الله بن محمد:

أَردْتَ لكيما لا ترى لِيَ زَلـَّةً ومَنْ ذا الذي يُعطـَى الكمالَ فيَكمُلُ

بكل ما خطر له من الأخبار والقصص والروايات، ولم يكلّف نفسه عناءَ نِسبة الأبيات إلى قائليها، ولا التعريفِ بمن عرَض لهم، اتكالاً على عِلم المعري الغزير ومعرفتِه بهم، وهو ما اضطرَنا إلى نسبة الأبيات إلى شعرائِها، والتعـريف بالأعلام الذين ذكرَهم، ولعل هذا كان سـبباً من أسـباب تأليف المعري «رسالة الغفران» ليريَه كيف يكونُ الإبحارُ في لُجَج المعرفة، في هذا القالب الطريف المبتكر.

رسالة الغُفران

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم يسِّر وأعِـن.

قد علِمتْ القوةُ الجبرُ الذي نُسب إليه جبريل، وهو في كل الخيراتِ سبيل، أن في صدري حَماطـَة قلبٍ ما كانت قطُّ أفانِية، وما اقتربت منها الحيَّة الناكِزةُ لحظة أو ثانية، وسُمِّيت الناكزة َلأنها تنكـُزُ بأًنفها لا بفمها وأنيابها. وحَماطة قلبي تُثمر من مودة مولاي الشيخ الجليل، كبتَ الله عدوَّه، وإنّه إن شاء الله دعاء مستجاب، وأدامَ عليه الفضل في ذهاب وإياب، ما لو حمَلتْه الأشجار من عهد عاد، لدنت من الأرضِ غصونُها، وأبيحَ من تلك الثمارِ مَصونُها. والحَماطة نوعٌ من الشجر يقال لها إذا كانت رطـْبة «أفانية». قال الشاعر:

إذا أمُّ الوُلَـيِّد لم تُـطِـعـني ... حَـنَـوتُ لها يـدي بعصاً حَـماطِ

وقلت لها عليك بني أقَـيـشٍ ... فإنك غـيرُ مُعجِـبة الشَّـطاطِ

والشطاط طولُ القامة واستواؤُها. ويُذكـر أن الحيّات تألفُ الحماطة. قال الشاعر:

أتِـيـحَ لها وكـان أخـا عِـيـالٍ ... شجاع ٌ في الـحَـماطـةِ مستكنٌّ[1]

وأن الحَماطة التي في مَقرّي، لتجدُ حماطة من الشوق، لا تُدانيها لهفة أو تـَوْق. والحَماطة حُرقة القلب، قال الشاعر» وهمٍّ تُملأ الأحشاءُ منه» ، فأما الحماطة المبدوءُ بها فهي حبَّة القلب، قال الشاعر:

رَمَـتْ حَماطة قلبٍ غيرِ منصرفٍ ... عنها بأسْهُمِ لحْظٍ لم تكن غـَرَبا

وإن في أسـمالي حَضَباً موكلا ًبأن يُؤذيني، ولو نطـَق لذكر لهفـتي وحنيني، فلا هو ساكنٌ في الوديان، ولا يدنو من دروب الإنسان. ما طـَهَر في صيفٍ أو شـتاء، ولا مرَّ بجبلٍ في هبوط وارتـقاء، يُضمِر من محبة مولاي الشيخ الجليل – ثبَّتَ الله أركانَ العلم بحياته – ما لا تُضمِره للولد أمّ، سواءً كان سُمُّه يقتل أم فُقد منه السمّ. وليس هذا الحَضَبُ مُجانساً للذي عناه الراجز بقوله: «وقد تطـَوَّيتُ انطواءَ الحَضَب». وقد علمَ – أدام الله جمالَ البراعة بسلامته – أنَّ الحَضَب ضربٌ من الحيّات، وأنَّه يُقال لحبة القلب «حضب».

[1] – الشجاع: ضرب من الحيات

وإن في منزلي أسودَ[١] أعزّ عليَّ من عنترة على زبيبة[٢]، وأكرمَ عندي من السُلـَّـيك[٣] عند السُّلـَّـكَـة، وأحقَّ بإيثاري من خفاف السلمي[٤] بخبايا ندبة، وهو أبداً سرٌّ من الأسرار، لا تـُزاح عنه الأغطية والأسْتار، وإنه إذ يُذكـَرُ، ليؤنَّث ُفي المنطِق ويُذكـَّر، وما يُعلمُ أنه حقيقي التذكير، ولكن تأنيثه ليس بمنكر، أسعى دائباً في رضاه، ولا أستطيع ردَّ مقتضاه. أجـِلـُّه أكثرَ من إجلال لـَخْم[٥] للأسود بن المنذر[٦] وكندة للأسود بن مَعْديكـَرِب[٧] وبني نهشل بن دارم[٨] للأسود بن يعـفـُر ذَي المقـال المُطرب، مولـَعاً به وُلوعَ سُحَيم بعُـمـيـرة[٩] في ابتداء أمرِه ومنتهاه، وولوع نُصَيبٍ[١٠] مولى بني أمية بسعداه، وقد كان مثله مع أسودٍ بن زمعة[١١]، والأسود بن عبد يغوث[١٢] والأسودين اللذين ذكرهما اليشكـُري[١٣] في قوله:

فـهَداهُم بِـالأَسـوَدَيـنِ وَأَمـرُ اللـّـ ـهِ بَلـْغٌ يَـشـقى بِـهِ الأشـقـيـاءُ

والأسودان التمر والماء، ومع أسودان، وهو لقب نبهان بن عمرو بن الغوث بن طيٍّء، ومع أبي الأسود الذي ذكره امرؤ القيس في قوله:

وذلِـكَ مِـن خبر جاءَني ونُـبِّـئـتـُـهُ عَـن أَبي الأَسـوَدِ[١٤]

١ - الأَسْوَدُ: العظيمُ من الحيَّات وفيه سوادٌ.

٢ - زبيبة: أم عنترة بن شداد، ومنها جاءه السواد.

٣ - السليك : فرخ القطا، والسلكة: الأنثى من فراخ الحجل، والسليك بن السلكة من أشهر الصعاليك العدائين لا تلحق به الخيل، والسلكة أمه.

٤ - خفاف بن عمير بن الحارث السلمي ينسب إلى أمه ندبة وكانت سوداء،وهو من فرسان العرب المعدودين، وكان أحد أغربة العرب، وهو ابن عم الخنساء الشاعرة. وروي عن الأصمعي قوله: خفاف ودريد بن الصمة أشعر الفرسان.

٥ - لـَخْمٌ: قبيلة عربية كبيرة جداً، ومنهم كانت ملوك العرب في الجاهلية وهم آل عمرو بن عَديّ بن نصر اللـَّخْميّ، وهم آل المُنْذِر.

٦ - هو الأسود بن المنذر بن ماء السماء، وهو عم النعمان بن المنذر، وقد حكمت هذه الأسرة للفرس الحيرة حتى الفتوحات الإسلامية.

٧ - كِنْدَةُ: أَبو قبيلة من العرب، وقيل: أَبو حيٍّ من اليمن وهو كِنْدَةُ بن ثَـوْرٍ. وبنو معديكرب حيٌّ من كندة، وكان معديكرب يقال له : ذو التاج.

٨ - نهشل بن دارم حيٌّ من تميم، وكان الفرزدق كثير الفخر بدارم، قال:

لـوَ انَّ جَميعَ النّاسِ كانوا بِتَلعَةٍ وَجِئتُ بِجَدّيَ دارم وَابنِ دارم

لظَلـَّت رِقابُ النّاسِ خاضِعَةً لنا سُجوداً عَلى أَقدامِنا بِالجَماجِم

والأسود بن يعفر النهشلي الدارمي التميمي ، كان فصيحاً جواداً، نادم النعمان بن المنذر، ولما أسن كفّ بصره ويقال له: أعشى بني نهشل.

٩ - هو سحيم عبد بني الحسحاس، وعميرة بنت سيده، فقتل بسببها شر قتلة

١٠ نصيب بن رباح المتوفى ١٠٨هـ/ ٧٢٦م ، شاعر فحل، مقدم في النسيب والمدائح، وكان يعد مع جرير وكثير عزة، وسئل عنه جرير، فقال: أشعر أهل جلدته، وتنسك في أواخر عمره.

١١ - أسود بن زمعة : قـُتل ابنه زمعة كافراً يوم بدر، فرثاه كثيراً.

١٢ - الأسود بن عبد يغوث من بني زهرة بن كلاب: كان من المستهزئين، وأسلم يوم الفتح، وكان قد تبنى المقداد بن الأسود، فلما أبْطِل التبني عاد المقداد إلى نسبه: المقداد بن عمرو.

١٣ - الحارث بن حِلـِّزَة اليشكري المتوفى ٤٥ ق. هـ / ٥٧٠ م أحد أصحاب المعلقات.

١٤ - ورد البيت:

وذلِك مِن نَبَأٍ جاءَني وَخُبِّرتُهُ عَن أَبي الأَسـوَدِ

وما فارقه أبو الأسود الدؤلي [١] طرفة عين، في حال الراحة والهناء، وقارَنَ سويدَ بن أبي كاهل[٢]، وسُوَيد تصغيرُ ترخيم لسيِّد، وحالف سويدَ بن الصامت[٣]، ما بين المبتهج والشامت، وساعف سويد بن صُمَيع في أيام الربح والرَّيْع، وسويد هذا هو القائل:

إذا حلـَّفـوني بـالإلـهِ مـنحْـتُهـمْ   يـمـيـناً كـبُـرد الأتْحَـميِّ المُـمَـزّقِ[٤]

وإنْ حلـَّفوني بالعَتاق فقـد درى   دُهَـيـمٌ غُـلامي أنّه غـيرُ مُعْـتَـقِ

وإنْ حلـَّفـوني بالطّلاق ردَدْتُهـا   كأحـسنِ ما كانتْ كأنْ لمْ تُطـَلـَّقِ

وكان يألف بيت سودة بنت زمعة بن قيس وهي زوجة رسول الله صلى الله عليه وسـلم، ويعـرف مكانة النبي المصطفى، ولا ينقطع عنه الأمل المرتجى،

ودخـل مع سوادة بنِ عدي[٥] القبر، وما من عجيبٍ في هذا الأمر، وحضر النوادي التي يحضرُها الأسودان، وهما التمرُ والماء، والحرُّ والرمضاء، وقد امتلأت بالحَرور الظلماء، وإنه لينفـُرُ من الأبيضين، إذا كانا في الغبار متعرِّضين، والأبيضان اللذان يَـنفُـر منهما سيفان، أو سيفٌ وقناة رُكـِّبَ في رأسها السنان، ولكنه إذا لقيهما يَصبِر عليهما. قال الراجز:

الأبيضان أبردا عظامي   الماء والفث بلا إدام[٦]

ويرتاح إليهما في قول الآخر:

ولكِنـَّهُ يَمضي ليَ الحَولُ كـُلـُّه   وَما لِيَ إِلّا الأبـيَـضـيـنِ شَرابُ[٧]

فأما الأبيضان اللذان هما الشبابُ والعافية، فتفرَح بهما الغانية، وقد يبتهج بهما غيري، أما أنا فليسا من خيري.

---

١ - ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدؤلي الكناني (١ ق. هـ - ٩٦ هـ / ٥٠٦ - ٨٨٦ م) تابعي، واضع علم النحو، كان معدوداً من الفقهاء والأعيان والأمراء والشعراء والفرسان والحاضري الجواب. قيل أن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) رسم له شيئاً من أصول النحو، فكتب فيه أبو الأسود.

٢ - سويد بن أبي كاهل شبيب بن حارثة بن ذبيان ، شاعر مقدم من مخضرمي الجاهلية والإسلام.

٣ - سويد بن الصامت الأوسي؛ لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة في الجاهلية، وذلك في أول البعثة، فدعاه رسول الله إلى الإسلام فلم يرد عليه شيئاً ولم يظهر له قبول ما دعاه إليه، ثم انصرف إلى قومه بالمدينة، فيزعم قومه أنه مات مسلماً وهو شيخ كبير، فقتلته الخزرج قبل بعاث. وكان شاعراً محسناً كثير الحكم في شعره، وكان قومه يدعونه الكامل لحكمة شعره وشرفه فيهم.

٤ - هذه الأبيات تحيرنا، إذ تنسب إلى الممزق العبدي شأس بن نهار، وإلى المزرِّد الغطفاني، وهو أخو الشماخ بن ضرار، وإلى آخرين، والتحقق من نسبتها يحتاج إلى بحث طويل.

٥ - هو سوادة بن عدي بن زيد، وكان عدي شاعراً وليس من الفحول، قتله النعمان بن المنذر خنقاً في سجنه، وهو أول عربي قتل خنقاً.

٦ - ورد البيت:

الأسودان أبردا عِظامي   الماء والفثُّبلا إدام

والفثُّحبٌّ يُطحن ويُخبز منه خبز أسود، ومعنى: أبردا عظامي أي أذهبا مُخّي، والقول: الأسودان أقربُ إلى المنطق، لأن الأسودين عند العرب التمر والماء.

٧ - البيت لأشجَع السَلمي المتوفى٥٩١ هـ / ١١٨ م شاعر فحل، كان معاصراً لبشار.

وصول رسالة ابن القارح

وقد وصلت الرسالة التي تملؤها الحِكمُ كبحرٍ زاخرٍ بالنور، ومن قرأها لا شكَّ مأجور، إذ تأمُر بتقبُّل الشرع، وتعيبُ من ترك أصلاً إلى فرع. وغرِقتُ في أمواجٍ من البِدع زاخرة، وعجبتُ من روعة المعاني فيها كالعقود الفاخرة، ومثلُها شفَع ونفَع، وقرَّب إلى الله ورفع، وألفيتُها مبدؤُها التسبيح والتمجيد، صادراً عمّن امتلكَ بلاغة الإنشاءِ والتشييد، فهو يُبدِع ويُجيد، ومن قُدرة ربِّنا- جلَّت عظمتُه- أن يجعلَ كلَّ حرفٍ منها نُوراً يكاد يتجسَّد، ينأى عن مقال الزُور ويبعُد، ويستغفرُ لمن أنشأها إلى يومِ القيامة، ويدعو له بالنجاةِ والسلامة. ولعلَّه- سبحانه- قد نصب لسُطُورها المُنجية من اللهَب، دروباً من الفضة أو الذهب، ترقى بها الملائكةُ من الأرض الراكدة إلى السماء، وتكشِفُ أستار الظلماء، بدليل الآية الكريمة:"إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ"[1]، وهذه الكلمة الطيبة كأنها المعْنِيَّة بقوله تعالى: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثابِتٌ وَفرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا"[2]، وفي تلك السطور كَلِمٌ كثيرٌ مفصل، وكلُّه عند ربِّ العزة محبب مفضل.

وقد غُرس لمولاي الشيخ الجليل إن شاء الله بذلك الثناء، شجرٌ في الجنة لذيذ اجتناء، كل شجرة منه تمتد ما بين المشرق والمغرب بظلٍّ عظيم وارِف، ليست في الأعين كذاتِ أنْواط في الزمن السالف، وذاتُ أنواط – كما يعلم – شجرة كانوا يعظّمونها في الجاهلية، وقد رُوِيَ أن بعض الناس قالوا: يا رسول الله، اجعلْ لنا ذات أنواطٍ كما لهم ذات أنواط، وقال بعض الشعراء:

لنا المُهَيمِنُ يكفينا أعادِيَنا ... كما رفضنا إليه ذاتَ أنواط

والوِلدان المخلَّدون في ظلالِ ذلك الشجر قِيام وقُعود، يسبحون الربَّ المعبود، ربَّ كل شيء في الوجود، ويقولون، والله على كل شيء قادر وعزيز: نحن وهذا الشجرُ إنعامٌ من الله لعليّ بن منصور[3]، نُخَبَّأ له إلى يومِ يُنفخ في الصور. وتجري بين تلك الأشجار أنهارٌ من ماء لم يره ولم يسمع به إنسان، ونهر الكوثر يجري في كل أوان، من شرِبَ من تلك الأنهار جُرعةً فلا فناء، وقد أمِنَ هنالك

١ – الآية ١٠ سورة فاطر

٢ – الآيتان ٢٤و٢٥ سورة ابراهيم

٣ – نذكّر بأنه ابن القارح

الشقاء. وتجري من اللبن أنهار، مادام الليل والنهار، وجداولُ من الرحيق المختوم،عزَّ الإلهُ الذي لا شيء غيرَه يدوم.

تلك هي الراحُ الدائمة، ما دامت الجنة قائمة، بل هي كما قال علقمة بافتراء، وما دنا من الصواب والنقاء:[١]

تَشفي الصُداعَ ولا يُؤذيك صالِبُها   وَلا يُخالِطُها في الـرَأسِ تدويمُ

ويعمدُ إليها الشارب بكؤوس من الذهب، فسبحان من أعطى ووهب، يرى فيها مُتأمِّل السعدِ، فيرى ما حلم به أبو الهندي، فلقد آثر رحِمَه الله شراب الدنيا، ورغب بها عن الآخرة الأبقى، وهو القائل:

سيُغني أبا الهنديّ عن وطْبِ سالمٍ   أباريقُ لم يَعْلقْ بها وَضَرُ الزُبْدِ
مُـفـَـدَّمــةٌ قـزّاً كأن رقـابَـهـــا   رقـابُ بناتِ المـاءِ أفزعَها الرعْـدُ

هكذا ينشد على الإقواء[٢] وبعضهم ينشد:
رقابُ بناتِ الماءِ ريعَتْ من الرعْـدِ

والرواية الأولى إنشاد النحويين. وأبو الهندي إسلاميٌّ، واسمه عبد المؤمن بنُ عبد القدُّوس، وهذان اسمان شرعيان، وما استُشهِد بهذا البيت إلا وقائله عند المستشهِد فصيح، فإن كان أبو الهنديّ ممَّن كتب وعرَف حروف المعجم فقد أساء في الإقواء، وإن كان بنى الأبياتِ على السُّكون، فقد صحَّ قول سعيد بنِ مَسعدة، في أن الطويل من الشعر له أربعة أضرب.

ولو رأى تلك الأباريق أبو زيد[٣] لعلمَ أنّه كالعبد الخادم أو العُبَيد، وهزئ بقوله:

وأبـاريـقُ مـثـلُ أعـنـاقِ طـيرِ الـ   ـماءِ قد جِـيـبَ فوقهُـنَّ خَنيفُ

هيهات ! هذه أباريق، تحملها أباريق، كأنّها في الحسن الأباريق. فالأولى هي الأباريق المعروفة، والثانية من قولهم: جارية إبريق، إذا كانت تبْرُق من حسنِها، قال الشاعر:

وغـيـداءَ إبـريـقٍ كـأنَّ رُضابَـهـا   جَنى النحلِ ممزوجاً بصهباءِ تاجرِ

١ – علقمة بن عَبدة بن ناشرة بن قيس، المتوفى ٠٢ ق. هـ / ٣٠٦ م شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، كان معاصراً لامرئ القيس وله معه مساجلات.
٢ – الإقواء: تغيير حركة الروي عن باقي أبيات القصيدة
٣ – سعيد بن أوس بن ثابت بن زيد بن قيس بن زيد الأنصاري اللغوي البصري؛ كان من أئمة الأدب، وغلب عليه اللغات والنوادر والغريب، وكان ثقة في روايته.

والثالثة، من قولهم: سيف إبريق، مأخوذ من البريق. قال ابن أحمر[1]

تـقلـَّـدْتَ إبريقاً وَعَـلـَّـقت َجُعبَة ً لِـتُهـلِـكَ حَـيّا ً ذا زُهـاءٍ وَجامِـلِ

ولو نظر إليها علقمة لبرِق وخاف، كمن أدركته السِّنون العجاف، وأين يراها المسكينُ علقمة، ولعله في نار الجحيم، يُسقى من ماء حميم . ما علقمة بن عبدة وما فريقه؟! خسِرَ وكُسِر إبريقه! أليس هو القائل:

كـأنَّ إبريقـَهُم ظَبيٌ عَلى شَـرَفٍ مُفـَـدَّمٌ بِـسَـبا الكَـتّـانِ مَفـدومُ

أبيَضُ أبــرَزَهُ لِـلضِـحِّ راقِـبُـهُ مُقَـلـَّدٌ قُضُبَ الريحانِ مَفغومُ

ولو رآها عديُّ بن زيد، لشُغِل عن المُدام والصَّيد، واعترف بأن أباريق الخمور، وما أدرك من النَّدامى والبُدور، أمرٌ هيـِّنٌ، لا يعدل بالعدس والفول، أو بما هان وحقر من البقول.

وكنتُ بمدينة السّلام، فشاهدت بعض الورّاقين يسأل عن قصيدة عدي بن زيد التي أوّلها:

بَكَرَ العاذِلونَ في وَضَــحِ الصُبْـ ـحِ يَـقـولونَ لي أما تـستـَـفـيـقُ

وَدَعَـوا بِالصَبـوحِ يَـوماً فجاءَت قَـيْـنَـةٌ فـي يَـمـيـنِـهـا إِبـريـقُ

وزعم الورَّاق أن ابنَ حاجب النعمان سأل عن هذه القصيدة، وطُلبت في نسخٍ من ديوان عديّ فلم توجَد. ثمّ سمعتُ بعد ذلك رجلاً من أهل أستراباذ، يقرأ هذه القافية في ديوان العبّاديّ، ولم تكن في النسخة التي في دار العلم.

فأمّا الأُقَيشِر الأسديّ [2] فإن صفقته كانت خاسرة، وشقي إلى يومِ الآخرة، قال ولعله سيندم،حين لا ينفع الندم:

أفْنى تِلادي وَما جَمَّعتُ مِن نَـشَـبٍ قَـرْعُ القـواقـيـزِ أَفـواهَ الأَباريـقِ

وما هو؟ وما مشاربُه؟ باءت بالخسران مآربُه. لو عاين تلك الأباريق، لأيقن أنّه فُتن بالغرور، وسُرَّ بغير موجبٍ للسّرور. وكذلك إياس بن الأرتّ، إن كان عجب لأباريق كإوزّ الطَّفّ، فإن الحوادث بسطت له أقبض كفّ. فكأنه ما قال:

---

١ - عمرو بن أحمر الباهلي المتوفى٥٧ هـ / ٤٩٦ م شاعر جاهلي مخضرم، أسلم وشارك في الفتوحات وفي مغازي الروم.

٢ - المغيرة بن عبد الله بن مُعرض الأسدي المتوفى ٠٨ هـ / ٩٩٦ م شاعر هجّاء عالي الطبقة، ولد في الجاهلية، ونشأ في أول الإسلام، وعاش وعُمِّر إلى زمن عبد الملك بن مروان.

كـأن أباريـق المـدامة بـيـنهـم إوزٌّ بأعلى الطَّفِّ، عُوجُ الحناجرِ

والطَّفُّ ما أَشْرَفَ من أَرض العرب على رِيف العراق، وطفُّ الفرات: شَطُّه،والطفُّ ساحل البحر وفِناء الدار. والطفُّ اسم موضع بناحية الكوفة.

ورحم الله العجَّاج بن رؤبة [١]، فإنّه خلط في رجزه شُربَه، أين إبريقه الذي ذكر فقال:

قـطـَّفَ مـن أعـنابهـــا ما قـطـَّـفـا فـغـَمـَّها حَـولـَـيـنِ ثم اسْـتَـودَفـا

صَهـباءَ خُرطوماً عُـقـاراً قَـرقـَـفـا فَـشَـنَّ في الإبـريـقِ مِـنها نُـزَفـا

مِـن رَصَــفٍ نـازَع َسَـيـلاً رَصَـفـا

وكم على تلك الأنهار من آنيةِ فيروزٍ فتّان، وياقوتٍ خلق قبلَ خَلْقِ الإنسان، من أصفرَوأحمرَ وأزرق، يخالُ المرء إن لمس يُحْرِق، كما قال الصنوبريُّ [٢]:

تـخَــيَّــلـُـهُ ساطِـعـاً وَهْـجُـــهُ فـتـأبى الـدُّنـوَّ إلى وَهْـجِـهِ

وفي تلك الأنهار أوانٍ على هيئة الطير السابحة، تنتظر لتغطِسَ في الماء الفرصة السانحة،على خلق طواويس وبطّ، فبعضٌ في المياه الجارية وبعضٌ في الشَّطّ، ينبعُ من أفواهها شرابٌ، كأنه من الرِّقَّــة سرابٌ، لو جَرَع جُرعةً منه الحكميُّ أبو نواس[٣]، لحكم أنّـه الفـوز بين الناس، وشهـِدَ له كلُّ وصَّاف للخمر، من حديثٍ في هذا الزمن أوعتيقٍ مُجرِّبٍ في الأمر، أنّ أصنافَ الأشربة المعروفةِ في الدار الفانية، كخمرِ أذْرَعاتٍ وعانة ، في الدِّنان الملآنة، وبيتِ راسٍ وغزّة، والمتباهية المعتزة، وما جُلِب من بصرى في الأحمال، تبغي به المُرابحة في سوق الأعمال، وما ذكره ابن بُجْرَة بوَجّ[٤]، واعتمد به أوقات الحجّ، قبل أن تُحرَّم على الناس الخمرة، وتُحظَـر لخوف الله هذه المسرة. قال أبو ذؤيب [٥]:

ولو كانَ ما عِندَ ابنِ بُجرَة عِندَها منَ الخمرِ لم تـَبْـلـُل لـَهاتي بناطِـلِ

---

١ – عبد الله بن رؤبة بن لبيد بن صخر السعدي التميمي المتوفى٠٩ هـ / ٨٠٧ م راجز مجيد، ولد في الجاهلية ، ثم أسلم وعاش إلى أيام الوليد بن عبد الملك، وهو أول من رفع من شأن الرجز، وشبهه بالقصيد.

٢ – أحمد بن محمد بن الحسن بن مرار الضبّي المتوفى٤٣٣ هـ / ٥٤٩ م شاعر اقتصر في أكثر شعره على وصف الرياض والأزهار. وكان ممن يحضر مجالس سيف الدولة.

٣ – اسم أبي نواس الكامل: الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن الصباح الحكمي.

٤ – ابن بُجرة: خمّار مشهور قيل إنه من بني عبيد بن عويج بن عدي بن كعب من قريش، وكانت قريش وسائرالعرب تقصده، فتشرب في حانته، وتمتار منه ما تحمله إلى أوطانها. و«وجّ» واد مشهور في الطائف.

٥ – أبو ذُؤَيب الهذلي :خويلد بن خالد بن محرِّث من بني هذيل بن مدركة المضري. ٧٢ هـ / ٨٤٦ م شاعر فحل مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وسكن المدينة واشترك في الغزو والفتوح، وعاش إلى أيام عثمان فخرج إلى إفريقية سنة (٦٢ هـ) غازياً. فلما كانوا بمصر مات أبو ذؤيب فيها.

وما اعتُصر بأرض شبام أو صَرْخد لكلّ ملكٍ في السوق لا تكسد، وما تردَّد ذكره من خمرة بابل وصريفين،[١](٤) واتُّخِذ للأشراف الموسرين، وما عمل من أجناس المسكرات، مُفَوِّقات للشارب أو مُخَمِّدات، كالجِعة والبَتْع والسُّكُرْكَة والمِزْر مُحَمِّلات الوزر[٢]، وما صُنع من النخيل، لكريمٍ يجود أو بخيل، وما صنع من أيام نوحٍ وآدم، إلى أن نُبعث في يومٍ لا محالة قادم.

ويعارض تلك المُدامة أنهارٌ من عسلٍ مُصفًّى مما كسبته النحل المُبكِّرة إلى الأزهار، ولا هُو في فلاةٍ كأنها بحرُ دون قرار، ولكن قال له العزيز القادر: كن فكان، وبكرْمه أعْطِي الإمكان. وما أكرَمَه من عسل مصفّى، ما مسته نار تخفّى، لو جعله المملوءُ حرارة َغيظٍ غذاءَه طول الأبد، ما قُدِّر له عارض حُمّى تمتدّ وتدوم، ولا لبس ثوبَ المَحْموم، وذلك كلُّه بدليل قوله: "مَثلُ الجَنَّةِ التي وُعِدَ المُتـَّقون َ فيهَا أنْهَارٌ مِنْ مَاءِ غَيْرِ آسنٍ وأنْهَارٌ من لبَنٍ لمْ يَتغَيَّرْ طَعْمُهُ وأنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لذةٍ للشَّارِبين وَأنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ولهُمْ فيهَا منْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كمَنْ هُوَ خَالِدٌ في النّارِ وَسُقُوا مَاءً حَميما ً فقَطَّعَ أمْعَاءَهُمْ"[٣] فليت شعري عن النَّمِر بن تولَبٍ العكليّ[٤](٢)، هل يقدرُ له أن يذوق ذلك العسل، فيعلمَ أن شهد الفانية إذا قيس عليه حنظل، وهو لمَّا وصف أمَّ حصنٍ وما رزقته في الدَّعَة والأمن، ذكَر حُوّارى بسمن، والحُوّارى الخبزُ الأبيضُ من لباب القمح، وأضاف إليه العسلَ المُصفّى، فرحمه الخالق إذ توفّى، قال النمر:

ألَمَّ بصُحبَتي وَهُم هُجوعٌ خيالٌ طارِقٌ مِن أمِّ حِصْنِ
لها ما تشتهي عَسَلاً مُصَفّى إذا شاءَت وَحُوّارى بِسَمنِ

وهو، أدام الله تمكينه، يعرف حكاية خلفٍ الأحمر[٥] مع أصحابه في هذين البيتين، فقد قال لهم: لو كان موضع أمِّ حصن أمُّ حفص، ما كان يقول في البيت الثاني؟ فسكتوا، فقال: حُوّارى بلمْصٍ، يعني الفالوذج، ويُفرَّعُ على هذه الحكاية فيُقال: لو كان مكان أمّ حصن أمُّ جُزء وآخره همزةٌ،ما كان يقول في القافية الثانية؟ فإنّه يُحتمل أن يقول: وحوارى بكَشْئٍ، من قولهم: كَشأتُ اللحمَ إذا شويته حتى ييبس، ويقال: كشَأ الشِّواء إذا أكله. أو يقول بوَزْء، من قولهم: وزَأتُ اللحم إذا شويته. ولو قال: حوَّارى بنَسْئ لجاز، وأحسنُ ما يُتأوَّل فيه أن يكون من نسأ الله في أجله، أي لها خبزٌ مع طول

---

١ – الأسماء المذكورة أسماء مدن وبلدات في فلسطين والشام واليمن والطائف والعراق.

٢ – بعض أنواع الخمور في الجاهلية ولا فائدة من شرحها.

٣ – الآية ٥١ من سورة محمد

٤ – النَمِرُ بن تَولَب بن زهير العكلي المتوفى ٤١ هـ / ٥٣٦ م شاعر جاهلي أسلم وهو كبير، لم تعرف له في المدح إلا قصيدة واحدة مدح فيها الرسول وكان هجاؤه نادراً، وكان شعره صادقاً وألفاظه سهلة جميلة.

٥ – خلف بن حسان الأحمر المتوفى٠٨١ هـ / ٦٩٧ م. كان شاعراً وأعلم الناس بالشعر، ووضع على الشعراء شعراً موضوعاً كثيراً عبثاً بهم، فأخذ عنه أهل البصرة وأهل والكوفة ، ثم تنسك فترك الشعر، وأقر بما فعل فلم يصدقوه، وكان يقرأ القرآن في كل يوم وليلة.

حياة، وهذا أحسنُ من أن يُحمَل على أن النَّسْأ اللبن الكثير الماء، وقد قيل: إن النَّسْأ الخمر، ولو حَمَل حُوّارى بنسْأ، على اللبن أو الخمر لجاز،لأنّها تُأكَل الحوارى بذلك، أي لها الحُوّارى مع الخمر ، وقد حدّث مُحدِّثٌ أنه رأى ملك الروم وهو يغمِسُ خبزاً في خمرٍ ويُصيب منه، وفسروا قول عروة بن الورد[1] على الوجهين:

سَقَوني النَسْأ ثُمَّ تكنَّفوني عُداةُ اللّه مِن كَذِبٍ وَزُورِ

ولو قيل: حُوَّارى بلَزْء، من قولهم: لَزَأَ إذا أكل، لما بَعُد، وتكون الباء في بِلَزء بمعنى في. ولا يمكن أن يكون رويُّ هذا البيت ألِفاً، لأنّها لا تكون إلاّ ساكنة، وما قبل الرويّ ها هنا ساكنٌ، فلا يجوز ذلك. فإن خرج إلى الباء وقال: من أمّ حَرْب، جاز أن يقول: وحُوَّارى بصَرْب، وهو اللبن الحامض، ويجوز بإرْبِ، أي بعُضوٍ من شِواءٍ أو قديد، ويجوز بكشْبِ وهو أكل الشواء.

فإن قال: من أمّ صمت، جاز أن يقول: وحُوّارى بكُمْت، يعني جمعَ تمرةٍ كُمَيت،أي لونها بين الأسود والأحمر، وينشد للأسود ابن يعفر:

وكُنتُ إذا ما قُرِّبَ الزادُ مُولَعاً بكُل كُمَيتٍ جِلْدةٍ لم تُوسِّفِ

فإن أخرجه إلى الثاء فقال: من أمِّ شَثّ، قال: وحُوَّارى ببثّ، والبثُّ: تمرٌ لم يُجِد خازنُه كَنْزه فهو متفرق. فإن أخرجَه إلى الجيم فقال: أمّ لجّ، جاز أن يقول: وحوّارى بدُجّ، والدُّجُّ: الفرُّوج، جاء به العمانيُّ في رجْزه [2]. فإن خرج إلى الحاء، فقال: من أمّ شُحّ، جاز أن يقول: وحوارى بمُحّ، وببُحّ، وبرُح، وبجُحّ، وبسَحّ. فالمُحُّ: مُحّ البيضة، وبُحٌّ: جمع أبحَّ، من قولهم: كسْرٌ أبحُّ، أي كثيرُ الدّسم، وقال:

وعاذلة هبَّت عليَّ تلومني وفي كفّها كسْرٌ أبَحُّ رذومُ

ويجوز أن يعنى بالبُحّ القداح، أي هذه المرأة أهلُها أهلُ يسار، كما قال خفاف بن ندبة السُّلميُّ:

قَرَوا أَضيافَهُم رَبَحاً بِبُحٍّ يعيشُ بفضلهن الحيُّ سُمرِ

ورُحٌّ: جمع أرَحَّ، وهو من صفات بقر الوحش، أي يُصاد لهذه المرأة، ويقال لأظلاف البقر: رُحٌّ،

---

١ - عروة بن الورد بن زيد العبسي، من غطفان، توفي٣٠ ق. هـ / ٥٩٣ م، من شعراء الجاهلية وفرسانها وأجوادها. كان يلقب بأمير الصعاليك وبأبي الصعاليك، لأنه كان يتعهد الفقراء والمرضى حتى يصحوا، ثم يغزو بهم.قال عبدالملك بن مروان: من قال إن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد.

٢ - محمد بن ذؤيب بن محجن بن قدامة ١٩٣ هـ / ٨٠٨ م. شاعر راجز من مخضرمي الدولتين، عُمر طويلاً، روى الأصمعي: أنه مات وهو ابن ١٣٠سنة.

قال الأعشى[1]:

ورحٌّ بـالـزّمـاع مـردَّفـاتٌ، بـهـا تنضو الـوغـى وبـهـا تـرودُ

والسُحُّ والسَحُّ: تمرٌ صغير يابس. والجُحُّ: صغار البطيخ قبل أن ينضج. فإن قال: أمُّ دخّ، قال: حُوَّارى بمخّ، ونحو ذلك. فإن قال: أمّ سعد، قال: حوَّارى بثـَعْد، وهو الرُّطَب الذي لان كلـُّه. فإن قال: أمّ وقـْذ، قال:حوارى بشـَقـْذ، وهي فراخ الحجل. فإن قال: أمّ عمرو، فإنَّ أشبه ما يقول: حُوّارى بتمر.

فإن قال: أمّ كـَرْزِ، فإن أشبه ما يقول: وحوَّارى بأرْز، وفيه لغات ستّ: اَرُزٌّ كأَشُدّ، وهي اللـُّغَة المشهورة عند الخَواصّ، أُرُزّمثل عُـتُـلٍّ بإتْباع الضّمّةِ، أرزٌ على وزن أشدّ، وأرْزٌ على وزن شُغْل، وأرزٌ في وزن قفل، ورزٌّ مثل جدٍّ، ورنز وهي رديئة. فإن قال: أمّ ضَبْس، قال: وحوّارى بدِبس. والعرب تسمّي العسلَ دِبْساً. وكذلك فسروا قول أبي زبيد[2]

فـنـهـزةٌ مـن لـقـَـوا حَسِبَـتْهُم أحـلى وَأشـهـى مِـن بـارِدِ الـدِبَـسِ

وحَرَّك الباء للضرورة.

فإن قال: من أمّ قرشٍ، جاز أن يقول: حُوَّارى بوَرْش، والورش: ضربٌ من الجـبـن، ويجوز أن يكون مولـَّداً، وبـه سُـمّي ورشٌّ الذي يـروي عن نافـع واسْـمه عثمان بن سعيد. والصاد قد مضت.

فإن قال: أمّ غـَرْض، جاز أن يقول: حُوَّارى بفَرض، والفرض: ضربٌ من التمر، قال الراجز:

إذا أكـلـتُ لبـنـاً وفـرضـا ذهـبـتُ طـولاً وذهـبـتُ عرضا

وفي نصب (طول وعرض) اختلافٌ بين المبرِّد وسيبويه[3]. فإن قال: من أمّ حظّ، فإن الأطعمة تقلُّ فيها الظاء، كقِلـّتها في غيرها، لأن الظاء قليلةٌ جدّاً، ويجوز أن يقول: حُوَّارى بكظّ، أي يكظـُّها الشّبع، أو نحو ذلك من الأشياء التي تدخل على معنى الاحتيال. فإن قال: أمّ طـَلـْع، جاز أن يقول: حُوَّارى بخـَلـْع، والخلع: هو اللحم الذي كان يطبح ويحملونه في القُروف، وهي أوعيةٌ من جلد، وينشد:

كـُلي اللحمَ الغريضَ، فـإنَّ زادي لـَمِن خـَلـْعٍ تضمَّنـُه القـُروفُ

١ - ميمون بن قيس من بني قيس بن ثعلبة يعرف بأعشى قيس والأعشى الكبير، توفي ٧ هـ / ٦٢٨ م من شعراء الطبقة الأولى وأحد أصحاب المعلقات.

٢ - أبو زبيد الطائي حرملة بن المنذر بن معد يكرب بن حنظلة المتوفى ٤١ هـ / ٦٦١ م شاعر جاهلي من المعمرين ويروى أنه عاش مائة وخمسين عاماً وأدرك الإسلام واسلم على يد صديقه الحميم الوليد بن عقبة بن أبي معيط. رافق الوليد في اعتزاله علياً ومعاوية فأقام معه نديماً في الرقة ثم توفي بعده بقليل ودفن إلى جانبه هناك.

٣ - المبرد: محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي البصري(٢١٠- ٢٨٥هـ/ ٨٢٦- ٨٩٨م) إمام العربية في زمانه،كان فصيحاً بليغاً مفوهاً ثقة علامة صاحب نوادر وظرافة، وكان جميلاً وسيماً لا سيما في صباه، وله مصنفات عديدة في النحو واللغة والأدب.

فإن قال: أمّ فرْع، جاز أن يقول: حوَّارى بضَرْع، لأن الضُّروع تُطبخ، وربمّا تشوَّق إلى أكلها الملوك. فإن قال: أمّ مَبْغ، قال: حُوّارى بصِبغ، والصِبَّغ والصِباغ ما تُغمس فيه اللقمة من مَرَقٍ أو زيت أوخلٍّ.

فإن قال: أمّ نَخف، قال: حُوَّارى برَخْف، والرَخفُ زُبْدٌ رقيق، والواحدة رَخفة، قال الشاعر:

لـنـا غـنـمٌ يـرضـي النـزيلَ حليبُـها   ورَخْـفٌ يُغـاديـــه لهـا وذبـيـحُ

فإن قال: أمّ فـَرْق، قال: حُوّارى بعِرْق، والعرق: عظمٌ عليه لحمٌ من شواءٍ أو قديد. فإن قال: أمّ سَبْك، جاز أن يقول: حُوّارى برَبْك أو بلبك، من قولهم: ربَكْت الطعام أو لبكته، إذا خلطته، وكان ذلك ممّا فيه رطوبةٌ، مثل أن يخالطه لبنٌ أو سمنٌ، أو نحو ذلك، ولا يقال: ربكت الشعير بالحنطة، إلاّ أن يستعار.

فإن قال: أمّ نخل، قال: حوّارى برَخْل، يريد الأنثى من أولاد الضأن، وفيه أربع لغات: رَخِل ورَخْلٌ ورِخْلٌ ورِخِلٌ. فإن قال: أمّ صَرْمٍ، قال: حُوّارى بطِرم، والطِرم: العسل، وقد يسمَّى السمنُ طِرماً. وقد مضت النون في أمّ حصن.

فإن قال: أم دوّ، قال: حوّارى بحَوّ، والحَوُّ: الجدي، فيما حكى بعض أهل اللغة في قولهم: ما يعرف الحوَّ من اللوّ، أي الجدي من العناقٍ، وقيل لا يعرف الحق من الباطل. فإن قال: أمّ كـُره، قال: حوّارى بوُرْه، يريد جمعَ أوْرَه، من قولهم: كبشٌ أوْرَه، أي سمين. فإن قال: أمّ شَرْي، قال: حُوّارى بأرْي، أي عسل.

وهذا فصل يتّسع، وإنمّا عرض في قول تام، كخيال طرق في المنام.

ولو خالط رطْلان من عسلِ الجنان، ما خلقه الله سبحانه في هذه الدار الخادعة، كالصابِّ، والمَـقـَرِّ، والسُّـلـَع، والجَعْدَة، والشِّيح، والهَـبيد، لصار ذلك كُلـُّه وغيره من مُرِّ المُعْقبات، يُعدُّ من اللذائذ المرتقبات، فلذّ ما كُرِه من الصَّاب، كأنَّه المعتصر من المُصاب، والمُصابُ: قصب السكر، وأمسى الحَدَجُ وهو الحنظل، وكأنّه ما جاء من الأهواز، حلواً كالسُّكر، أو هو أفضل، ولصارت الراعية في الإبل، إذا وجدت الحنظلة، أتحفت بها سيدتها المُحَظّـَـلة، وهي التي تعظم عليها الغـَيرة، من قولهم: حَظـَل نساءَه، إذا أفرط في الغـَيرة عليهنَّ، قال رؤبة بن العجاج:

فـلا تــرَى بَـعْــلاً ولا حَـلائِـلا   كَـهْـوَ وَلا كَـهُـنَّ إلّا حاظِلا

ولانقطعت أرزاق أصحاب القصب في ساحل البحر، وصنع من المُرِّ الفالوذج المُحكَمُ بلا سحر، أي بلا خدع. ولو أن الحارث بن كلدة [1] طعم من ذلك العسل، لعلم أن الذي وصفه يجري من هذا الموصوف، مجرى الدِّفلى الشّاقة من حلوى اللُّوزينج المعروف، وذكرت الحارث بقوله:

فما عسلٌ ببارِدِ ماءِ مُزْنٍ على ظِماءٍ، لشاربه يُشابُ
بأشهى من لقائِكُمُ إلينا فكيفَ لنا به، ومتى الإيابُ

وكذلك السَّلوى التي ذكرها أبو ذؤيب الهذلي بقوله:

وقاسَمَها بِاللّهِ جَهداً لَأنتُمُ ألَذُّ مِنَ السَلوى إذا ما نَشُورُها

هي عند عسل الجنّة كأنَّها قارٌ رمليّ، والقار: شجرٌ مُرٌّ ينبت بالرَّمل، قال بشرٌ[2]:

يُرَجُّونَ الصلاحَ بِذاتِ كَهْفٍ وَما فيها لَهُم سَلَعٌ وَقارُ

وإذا منَّ اللـه تبارك اسمُه على عبدٍ بورودِ تلك الأنهار، صاد فيها الوارد سمكاً لم يُرَ مثله في الأسماك، منذ كان الكون ودارت الأفلاك، ولو بصر به أحمد بن الحسين[3] لاحتقر الهديّة التي أهديت إليه فقال فيها:

أقَلُّ ما في أقَلِّها سَمَكٌ يَلعَبُ في بِركَةٍ مِنَ العَسَلِ

فأمَّا الأنهار الخمريّة، فتلعب فيها أسماكٌ هي على صور السَّمك بحريَّةٌ ونهريّة، ومنه ما يسكن في مياه الينابيع ويسعى، ويظفر بضُروب النّبت ليرعى، إلاّ أنّه من الذَّهب والفضّة وصنوف الجواهر، تتلألأ بالنُورالباهر. فإذا مدّ المؤمن يده إلى واحدةٍ من ذلك السَّمك، شرب من فمِها رحيقاً عذباً، لو وقعت الجُرعة منه في البحر الذي لا يَحتمِلُ ماءَه مَن يَنهل، لحَلا منه أعلاه والأسفل، ولصار النَّتَنُ كأنَّه رائحة ُالخزامى بسهل، طلَتْه السحابة الماطرةُ بدَهْل، والدَّهْل: الطائفة من اللَّيل. وكأنّي به، أدام الله الجمالَ ببقائه، إذا استحقَّ تلك الرُّتبة، بيقين التوبة، وقد اصطفى له نَدامى من أدباء الفردوس: كأخي ثمالة، وأخي دوسٍ، ويونس بن حبيب الضَّبِّي وابن مسعدة المجاشعيّ[4] فهم كما جاء في الكتاب الكريم: العزيز: "وَنَزَعْنا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ

١ – الحارثُ بنُ كَلَدة بن عمرو بن علاج من ثقيف، طبيب العرب المشهور، ومات في أول الإسلام، وليس يصح إسلامه، توفي في حدود ٦٠هـ/٦٨٠م.

٢ – بشر بن أبي خازم عمرو بن عوف الأسدي، توفي ٢٢ ق. هـ / ٦٠١ م شاعر جاهلي فحل من الشجعان. وورد البيت:"يسومون العلاج"

٣ – أحمد بن الحسين: أبو الطيب المتنبي

٤ – أخو ثمالة: المبرِّد يونس بن حبيب الضبي(٨٠- ١٨٢هـ/ ٧١٠- ٨٠٨م) إمام النحويين في البصرة في عصره ، وكان عالماً بالشعر نافذ البصر في تمييز جيده من رديئه.

مُتَقابِلِيـن لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ" [1] فصدْرُ أحمد بن يحيى هنالك قد غُسِل من الحقد على محمد بن يزيد، فصارا يتصافيان ويتوافيان[2]، كأنهّا ندمانا جذيمة: مالكٌ وعقيل[3]، جمعها مبيتٌ ومَقيل، وأبو بشر عمرو بن عثمان سيبويه[4]، قد غـُسلت سويداءُ قلبه من الضغينة، لما فعل به في مجلس البرامكة علي بن حمزة الكسائي وأصحابه[5]. وأبو عبيدة[6] صافي الطويّةِ لابْن قُرَيـب[7]، قد ارتـقـيا عن البُـغـض والعَـيب، فهـما كأربد ولبـيـد أخـوان[8]، أو ابني نويرة في سالف الأوان [9]، أو صخرٍ ومعاوية: ولدي عمرو[10]، وقد أخمدا من الأحقاد كلَّ جمر "جَنّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلونَهَا وَمَنْ صَلـُحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأزْوَاجِهِمْ وَذرِّيّاتِهِمْ والمَلائِكةُ يَدْخُلون عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلامٌ عليْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فنِعْمَ عُـقْـبَى الدّارِ"[11] وهو، أيّد الله العِلمَ بحياته ، معهم كما قال الأعشى:

١ – الآيتان ٤٧ و ٤٨ من سورة الحجر

٢ – أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار النحوي المعروف بثعلب(٢٠٠– ٢٩١هـ/ ٨١٥– ٩٠٤م) كان إمام الكوفيين في النحو واللغة، وكان ثقة حجة صالحاً مشهوراً بالحفظ وصدق اللهجة والمعرفة بالعربية ورواية الشعر القديم. ومحمد بن يزيد: المبرِّد.

٣ – مالك وعقيل ابنا فارج كانا نديمين لجذيمة بن الأبرش بن مالك ملك الحيرة، ويضرب بهما المثل في التآلف. وروي أن جذيمة لم يكن ينادم أحداً كبراً وزهواً. وكان يقول: أنا أعظم من أن أنادم إلا الفرقدين. فلما أتى مالك وعقيل نادماه أربعين سنة، ما أعادا عليه حديثاً.

٤ – سيبويه(١٥٤– ١٩٤هـ/٧٥٨– ٧٩٦م) كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو، ولم يوضع فيه مثل كتابه، وذكره الجاحظ يوماً فقال: جميع كتب الناس عيال عليه وقيل إن المؤامرة عليه جرت في مجلس هارون الرشيد، وقد غمّه ذلك، فخرج غاضباً، وارتحل إلى شيراز، فمات هناك ولما يبلغ الأربعين.

٥ – أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله المعروف بالكسائي، أحد القراء السبعة، كان إماماً في النحو واللغة والقراءات، ولم تكن له في الشعر يد، حتى قيل: ليس في علماء العربية أجهل من الكسائي بالشعر، توفي نحو ١٨٩هـ/ ٨٠٥م.

٦ – أبو عبيدة معمر بن المثنى، البصري النحوي العلامة (١١٠– ٢٠٩هـ/ ٧٢٨– ٨٢٥م) قال الجاحظ في حقه: لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم منه.

٧ – الأصمعي عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي(١٢٢ – ٢١٦ هـ / ٧٤٠ – ٨٣١ م) راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان. وكان الرشيد يسميه (شيطان الشعر). قال الأخفش: ما رأينا أحداً أعلم بالشعر من الأصمعي. وقال أبو الطيب اللغوي: كان أتقن القوم للغة، وأعلمهم بالشعر، وأحضرهم حفظاً، وتصانيفه كثيرة.

٨ – لبيد بن ربيعة بن مالك العامري المتوفى ٤١ هـ / ٦٦١ م أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية. وفد على النبي (صلى الله عليه وسلم). يعد من الصحابة، ومن المؤلفة قلوبهم. وهو أحد أصحاب المعلقات، وأربد بن قيس أخوه لأمّه.

٩ – مالك بن نويرة، قتله خالد بن الوليد في حروب الردة، واتـُّهم بأنه ما فعل ذلك إلا ليتزوج امرأته وكانت فائقة الجمال. رثاه متمم بن نويرة بقصائد خالدة.

١٠ – معاوية وصخر: أخوا الخنساء، ومعظم شعرها وأجوده في رثائهما ولا سيما رثاء صخر.

١١ – الآيتان ٢٣و٢٤ من سورة الرعد.

الأعشى

نازَعـتُهُمْ قُضُبَ الرَيحانِ مُـتَّـكِـئاً وَقَـهـوَةً مُـــزَّةً راوُوقُـهـا خَـضِـلُ
لا يَسـتـفـيـقـونَ مِنها وَهيَ راهِـنَـة إلّا بِهـاتِ وَإِن عَلـُّوا وَإِن نهِـلوا
يَسعى بِها ذو زُجاجاتٍ لهُ نُطَـفٌ مُقـلَّـصٌ أسفَلَ السِربالِ مُعتَـمِلُ
وَمُستجيبٍ تخالُ الصَنْجَ يَسـمَعُهُ إذا تُرَجِّعُ فـيهِ القَـيـنَـةُ الفـُضُـلُ

وأبو عبيدة يُذاكرِهم بوقائع العرب ومقاتل الفرسان، والأصمعيُّ ينشدهم من الشعر ما أحسن قائلـُه كلَّ الإحسان. وتشتهي نفوسهم اللَّعب، فيقذفون تلك الآنية في أنهارِ الرّحيق، ويعترضها العسل الأبيض بالتصفيق، ويلطم بعضُ تلك الآنية بعضاً، فتـُسمع لها أصواتٌ، تُبعَـثُ بمثلها الأموات. فيقول حسّنَ اللّـهُ الأيّام بطول عمره: آه لمصرعِ الأعـشى ميمـون، لو أنه استبق إلى الخير قبل المنون!!

ودِدت أنَّه ما صدّتْه قريشٌ لمَّا توجَّه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وإنَّما ذكرتُه الساعة لمّا تقارعت هذه الآنية بقوله في الحائيّة:

وشَـمُـولٍ تحـسِبُ العـيـنُ، إذا صُفـِّـقَـت، جُندُعَـهـا نَـوْرَ الذُبَـحْ
مثـلُ ريـحِ المِـسـك ذاكٍ ريحُها صـبّها السـاقي إذا قـيـل: تَــوَحْ
من زِقـاقِ الـتَّـجْـرِ في باطيَـةٍ جَـونَـــةٍ حـاريَّـــةٍ ذاتِ رَوَحْ
ذات غـَـوْرٍ ما تُـبـالي يَـومَـهـا غـرَفَ الإبـريـقُ مِـنـها والـقَـدَحْ
وإذا ما الـرّاحُ فـيـهـا أزْبَـدَت أفـَلَ الإزبـادُ عـَنـهـا، وامْـتَـصَحْ
وإذا مَـكـُّـوكـُـهـا صـادَمَـــهُ جـانـبـاهـا، كَـرَّ فـيـهـا فـسَـبَـحْ
فـترامَـت بـزُجـاجٍ مُـعْـمَـلٍ يُـخـلِـفُ الـنـازِحُ مِـنـها ما نـزَحْ
وَإذا غـاضَـت رَفَـعـنـا زِقـّـنـا طـُلـُقَ الأَوداجِ فـيـهـا فانْـسَـفَـحْ

ولو أنـَّه أسْلم، لجاز أن يكون بيننا في هذا المجلس، فيُنشدنا غريب الأوزان، ممّا نظـَم في دارالأحزان، ويحدّثنا حديثـَه مع هُـوَذة بني عليّ، وعامر بن الطـُّفـَيل، ويزيد بن مُسهـِر وعلقمة بن عَلاثة، وسلامة بن ذي فائش، وغيرِهم ممّن مدحه أو هجاه، وخافه في الزمن أو رجاه [1].

١ - فرسان وسادة من الجاهلية كان للأعشى معهم حكايات.

نزهة في الجنة .. لقاء الأعشى

ثمّ إنّه، أدام الله تمكينه، يخطرُ له حديثُ شيءٍ كان يسمَّى النُّزهة في الدار الفانية، فيركبُ بعيراً كريماً من نجائِب الجنّة، خُلق من ياقوتٍ وزبرجد، في فضاء بَعُدَ عن الحرّ والبـرد، ومعه إناءٌ بالخـمرة مُـفـعَم، فيسـيـر في الجنَّـة على غـير هـدى أو دربٍ مُعلـَم، ومعه شيءٌ من طعام الخلود، لم يذق مثلَـه والد أو مولود، فإذا رأى بعيرَه يُسرع بين كثبان العنبر، تحُفُّ به شجيرات ريحان البرّ، رفع صوته متمثـّلاً بقول الأعشى:

ليت شعري متى تخُبُّ بنا النَّا   قـةُ نحـو العُـذيبِ فالصَّيِّـبـون[1]
مُحْـقِباً زِكـْـرةً، وخـبـزَ رِقـاقٍ   وحِـبـاقـاً وقِـطْـعَـةً مـن نُـونِ

فيهتف هاتفٌ: أتدري أيّها العبدُ المغفورُ له لمن هذا الشِّعر؟ فيقول الشيخ: نعم، حدّثنا أهل ثقتنا، عن أهل ثقتهم، يتوارثون ذلك كابراً عن كابر، حتى يصلوه بأبي عمرو بن العلاء [2]، فـيرويه لهم عن أشـياخِ العرب، ممن يتحرشون بالضب الأراضي الوعْرةِ الصلدة، ويجنون الكمْأة في الفلـَوات الممتدة، الذين لم يأكلوا رائِبَ الألبان، ولا جمعوا الثمَرَ في أوعيةٍ تُجعَـل في الأحضان، أنَّ هذا الشّعر لميمون بنِ قيس بنِ جندلٍ أخي بني ربيعة بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن عليّ بن بكر بن وائلٍ فيقول الهاتف: أنا ذلك الرَّجل، منَّ الله عليَّ بعدما صرت من جهنّم على شفا، فعفا عني وهو سبحانه خيرُ من عفا. فيلتفت إليه الشيخ هشّاً بشّاً مرتاحاً، فإذا هو بشابٍّ وسيم، يرفـُل في النّعيم المقيم، وقد صار العشا في عينيه حَـوَراً معروفاً، وانحناءُ ظهرِه ممشوقَ قوامٍ موصوفاً، فيقول: أخبرني كيف كان خلاصُك من النار، وسلامتك من قبيح العار؟

فيقول: سحبتني زبانية جهنم إلى سقـَر، فرأيت رجلاً في ميادين القيامة يتلألأ وجهه تلألـُؤَ

---

١ - يورد المعري البيتين على أنهما من شعر الأعشى، لكن المُفضَّل الضَّبِّي المتوفى ١٦٨هـ/٧٨٤م يذكر في كتابه "الأمثال" في ما يلي : وكان للنعمان (ابن المنذر) أخ يقال له سعد القرقرة، يضحك النعمان ويعجبه، وسعد الذي يقول:

ليت شعري متى تخب بي النا   قة نحو العذيب فالصيبون
محقباً زكرة وخبـز رقاق   وحباقاً وقطعة من نون

أما ابن قتيبة الدينوري (٢١٣- ٢٧٦هـ/ ٨٣٨- ٨٩٨م) فيورد البيتين في كتابه " عيون الأخبار" وينسبهما إلى شاعر مجهول، إذ يقول: وقال أحد العباسيين.

٢ - زبان بن العلاء بن عمار بن عبد الله التميمي المازني المقرئ النحوي (٧٠- ١٥٤هـ/ ٦٨٩- ٧٧٠م) أحد القراء السبعة كان أعلم الناس بالقرآن الكريم والعربية والشعر، وهو في النحو في الطبقة الرابعة من علي بن أبي طالب، وقال أبو عبيدة: كان أبوعمرو أعلم الناس بالأدب والعربية والقرآن والشعر.

القمر، والنّاس يهتفون به من كلِّ حَدَبٍ وصوبٍ: يا محمَّد يا محمّد، الشفاعة الشّفاعة! نمُتٌ لكذا ونمُتٌ بكذا. فصرخت في أيدي الزبانية: يا محمّد أغِثني فإنّ لي بك حُرمةً! فقال: يا عليُّ اذهبْ إليه فانظر ما حُرمته؟ فجاءني عليُّ بن أبي طالبٍ، صلوات الله عليه، والزبانية يشدّونني كي يُلقوني في الدَّرْك الأسفل من النّار، فزجَرَهم عنّي، وقال: ما حُرمَتُك؟ فقلت: أنا القائل:

ألا أيُّهذا السّائلي أين يَمَّمَتْ	فإنَّ لها في أهلِ يَثْرِبَ مَوعدا
فآليت لا أرثي لها من كَلالَةٍ	ولا من حَفىً حتى تُلاقي محمّدا
متى ما تُناخي عند باب ابنِ هاشمٍ	تُراحي وتَلْقَيْ من فواضِلِه ندى
أجِدَّكَ لم تسْمَع وَصاةَ محمّدٍ	نبيّ الإلهِ حين أوْصى وأشْهَدا
إذا أنتَ لمْ ترحَلْ بزادٍ من التُّقى	وأبْصرْتَ بعدَ الموتِ مَن قد تزودّا
ندِمْتَ على أن لا تكونَ كمِثْلِهِ	وأنّك لمْ ترصُدْ لِما كان أرصدا
فإيّاك والمَيْتاتِ لا تقْرَبنَّها	ولا تأخُذنْ سهْماً حديداً لتَفْصِدا
ولا تقْرَبَنَّ جارةً إنَّ سِرَّها	عَليك حرامٌ فانْكِحَنْ أو تأبَّدا
نبيٌّ يَرى مالا يَرَون، وذِكْرُهُ	أغارَ لعَمْري في البِلاد وأنْجَدا

وهو، أكملَ الله زينة المحافل بحضوره، يعرفُ الأقوال في هذا البيت، وإنّما أذكرها لأنّه قد يجوز أن يَقرأَ هذا الهذيانَ ناشِئٌ لم يبلُغْه: حكى الفرّاء وحدَه[1] أغار في معنى غار، إذا أتى الغَوْر، وإذا صحّ هذا البيت للأعشى فلم يرد بالإغارة إلا ضدَّ الإنجاد. وروي عن الأصمعيّ روايتان: إحداهما أنَّ أغار في معنى عدا عدواً شديداً، وأنشد في كتاب الأجناس:

فعَدِّ طِلابَها وتَسَلَّ عنه	بناجيةٍ إذا زُجِرت تُغِيرُ

والأخرى أنّه كان يقدِّم ويؤخِّر فيقول:

لعمري غار في البلاد وأنجدا

١ – الحسين بن مسعود بن محمد، المعروف بالفراء، الفقيه الشافعي المحدث المفسر؛ كان بحراً في العلوم، وصنَّف في تفسير كلام الله تعالى،وروى الحديث ودرَّس، وكان لا يلقي الدرس إلا على الطهارة، وصنف كتباً كثيرة.

فيجيء به على الزّحاف. وكان سعيد بن مسعدة [1] يقول:

غار لعمري في البلاد وأنجدا.

ويقول الأعشى: قلتُ لعليٍّ: وقد كنتُ أؤمن بالله وبالحساب وأصدّق بالبعثِ وأنا في الجاهليّة الجهْلاء، فمن ذلك قولي:

وَمـا أَيْبُـلِيٌّ عـلى هَـيكَـلٍ ... بَنـاهُ وَصَلَّبَ فيـهِ وَصـارا
يُـراوِحُ مِـن صَلَـواتِ المَـليـ ... ـكِ طَـوراً سُـجـوداً وَطَـوراً جُـؤارا
بأعظمَ منك تُـقىً في الحساب ... إذا النَّسَماتُ نفَضْنَ الغُبارا

فذهب عليٌّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسولَ الله، هذا أعشى قيس قد رُوي مدحه فيك، وشهِدَ أنّك نبيٌّ مرسلٌ. فقال: هلاَّ جاءني في الدّار السَّابقة؟ قال: عليٌّ: قد جاء، ولكنْ صدَّته قريشٌ وحبُّه للخمر. فشفَع لي، فأدخلت الجنّة على أن لا أشربَ فيها خمراً، فقرَّت عيناي بذلك، وإنَّ لي عِوضاً في العسل واللبن. وكذلك مَن لم يتُب عن الخمر في الدار الساخرة، لم يُسقَها في الآخرة.

---

[1] – أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي النحوي المعروف بالأخفش الأوسط، أحد نحاة البصرة من أئمة العربية ، أخذ النحو عن سيبويه، وهو الذي زاد في العروض بحر الخَبَب أو المُتدارَك، لأنه تدارك به على الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي صنف البحور الخمسة عشر كلها.

مع زهير بن أبي سُلمى

وينظر الشيخ في رياض الجنَّة فيرى قصرين مُنيفين، فيقول في نفسه: لأبلغنَّ هذين القصرين فأسألُ لمن هما؟ فإذا قرُب إليهما رأى على أحدِهما مكتوباً: هذا القصرلزهيربن أبي سُلمى المُزنيّ[1] وعلى الآخر:هذا القصر لعُبيد بن الأبرص الأسديّ فيعجب من ذلك ويقول: هذان ماتا في الجاهليّة، ولكنّ رحمة ربِّنا وسعت كلَّ شيء، وسوف ألتمس لقاء هذين الرّجلين فأسألهما بِمَ غُفر لهما. فيبتدىء بزهير فيجدُه شابّاً عن الزَهرة لا يختلف، قد وُهِب له قصرٌ من دُرَّةِ الصدف، كأنّه ما لبس جِلباب الهرم، ولا شكا من السأم، وكأنَّه لم يقل في معلقته الميمّية:

سئمتُ تكاليفَ الحياة ومن يَعِشْ   ثمانين حَوْلاً، لا أبا لك، يَسـأمِ

ولم يقل في الأخرى:

ألم ترني عَمَّرت تـسـعـيـن حِجّـةً   وعَـشراً تِباعاً عِشتها، وثمانيا؟[2]

فيقول: حقّاً حقـّا ! أنت أبو كعب وبجير صِدقا؟ فيقول: نعم. فيقول، أدام الله عزّه: بم غُفر لك وقد كنت في زمان الفترة والنّاس مثل ضالّات الإبل، لا يحسُن منهم العمل؟ فيقول: كنت أنفُر من الباطل نفوراً، فصادفت ملكاً غفوراً، وكنت مؤمناً بالله العظيم، ورأيتُ فيما يرى النّائم حبلاً نزل من السَّماء، فمَن تعلـَّق به من سُكّان الأرض سلم، فعلمت أنَّه أمرٌ من أمرِ الله، فأوصيت بَنيَّ وقلت لهم عند الموت: إن قام قائمٌ يدعوكم إلى عبادة الله فأطيعوه. ولوأدركتُ محمّداً لكنت أوَّل المؤمنين. وقلت في الميميّة:

فلا تكتُـمُنَّ الـلـّهَ ما في نُفوسِكُم   لِيَخفى، وَمَهما يُكتَـمِ الـلّـهُ يَعـلَـمِ
يُؤَخَّر فيُوضَع في كِتابٍ فـيُدَّخَـر   لِيَومِ الحِسابِ أَو يُعَجَّل فـيُنْـقَـمِ

---

١ – زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح المزني المتوفى١٣ ق. هـ / ٦٠٩ م حكيم الشعراء في الجاهلية، وضعه ابن سلّام في الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية. أحد أصحاب المعلقات، قيل: كان ينظم القصيدة في شهر وينقحها ويهذبها في سنة، ويقال : إن أبياته في آخرها تشبه كلام الأنبياء.

٢ – ورد البيت، ولعله بيت آخر:

كأنّي وَقَد خلَّفْتُ تِسعينَ حِجَّةً   خَلَعْتُ بِها عَن مَنكِبَيَّ رِدائِيا

فيقول: ألست القائل:

وقـــد أَغـــــدو عَـلى ثـُبَـــةٍ كِـرامٍ　　نـَـشـاوى واجِـديـنَ لِـما نـشاءُ
يَـــجُـــرّونَ الــــبُرودَ وقـد تَمَشَّت　　حُمَيّا الـكـأسِ فيهِـم وَالغِـناءُ

فهل أطلِـقَـت لك الخمرُ كغيرك من أصحابِ الخلود؟ أم حُرِّمت عليك مثلما حُـرِّمت على أعشى قيس؟ فيقول زهيرٌ: إن أخا بكْرٍ أدرك محمّداً فوجبَتْ عليه الحُجَّة، لأنّه هلك وبُعث بعد تحريم الخمر، وحظْرِ ما قَبُح من أمر؛ وهلكت أنا والخمرُ كغيرها من الأشياء، يشربها أتباع الأنبياء، فلا حجّة عليَّ. فيدعوه الشَّيخ إلى المنادَمة، فيجدُه من ظرّاف النُّدماء، فيسأله عن أخبار القدماء، ومع الخادم الدَنُّ الذي يُقال له باطِيَة من الزمرّد، فيها من الرَّحيق المختوم شيءٌ يمزج بزنجبيل، والماءِ من سلسبيل. فيقول زاد الله في أنفاسِه: أين هذه الباطِيَة من التي ذكرها السّرَويُّ [1] في قوله:

ولـنــــا بـاطــيـــةٌ مـمْـلوءةٌ　　جـونــــةٌ يـتـبـعـهـا بِـرزَيْـنـُهـا
فـــإذا مــا حـــــارَدَت أو بَـكـَـأت　　فـُـكَّ عـن خـاتــَـمِ أخـــرى طينُها

١ - إبراهيم بن محمد بن موسى بن هارون السروي كان إماماً فاضلاً زاهداً وله تصانيف كثيرة ،مات سنة ٤٥٨هـ عن مائة سنة.

مع عبيد بن الأبرص

وعَـدِيّ بنِ زيْـد

ثم ينصرف إلى عبيد فإذا هو قد أعْطِي بقاءَ التأبيد، فيقول: السلام عليك يا أخا بني أسـد. فيقول: وعـليك السلام (وأهل الجنّة أذكياء، لا يخالطهـم الأغبياء) لعلّـك تريدُ أن تسألني بِـمَ غُـفِـر لي؟ فيقول: أجل، وإنّ في ذلك لعجباً! أألفَـيْـت حُكـْماً للمغـفـرة مُوجباً، ولم يكن عن الرَّحـمـة مُحجَّـباً؟ فيقـول عـبـيدٌ[1]: أخبرك أنّي دخلت الهاوية، وكنت قلت في أيّام الحياة:

مَــن يــســألِ الــنــاسَ يـحـرِمـوه ... وســائِــلُ الــلــّـهِ لا يَـخـيـبُ

وسار هذا البيت في آفاق البلاد، فلم يزل يُنشد فيخفُّ عني العذاب حتى أطْلِقت من القيود والأصفاد، ثم كُرِّرَ إلى أن شملتني الرحمة ببركة ذلك البيت، وإنَّ ربّنا لغفورٌ رحيم. فإذا سمع الشَّيخ، ثبّتَ الله وطأته، ما قال ذانك الرّجلان، طمع في سلامة كثير من أصناف الشعراء.

فيقـول لعبيدٍ: ألكَ عـلم بعـديٍّ بـن زيدٍ العـبّاديّ[2]؟ فيقـول: إن منزلـه قريب منك فيقف عليه فيقول: كيف كانت سلامتُك على الصِّراط وخلاصُك من بَعد الإفراط؟ فيقول: إنِّي كنت على دين المسيح، ومن كان من أتباع الأنبياء قبل أن يُبعث محمدٌ فلا بأس عليه، وإنّما التّبعة على من سجَد للأصنام، وعُدّ في الجهلة من الأنام. فيقول الشيخ: يا أبا سوادة، ألا تُنشدني بعض أبيات الصاديَّة، فإنها بديعة من أشعار العرب؟ فينبعث منشداً:

أبْـلِـغ خـلـيـلي عَـبْـدَ هِـنـدٍ فـلا ... زِلتَ قَـريباً مِن سَـوادِ الخُـصوصْ

تُجْـنى لـكَ الكـمْــأةُ ربـعِـيَّــة ... بالخبِّ تندى في أصُـولِ القصيصْ

١ - عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم الأسدي المتوفى٢٥ ق. هـ / ٥٩٨ م. شاعر من دهاة الجاهلية وحكمائها. عاصر امرؤ القيس وله معه مناظرات ومناقضات، وعمّر طويلاً حتى قتله النعمان بن المنذر وقد وفد عليه في يوم بؤسه.

٢ - عدي بن زيد بن حمّاد العبادي التميمي المتوفى ٣٦ ق.هـ / ٥٨٧ م. شاعر من دهاة الجاهليين، كان يحسن العربية والفارسية، والرمي بالنشاب. أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى، فجعله ترجماناً بينه وبين العرب، ولما مات كسرى وولي الحكم هرمز أعلى شأنه، ثم تزوج هنداً بنت النعمان. وشى به أعداؤه إلى النعمان بما أوغر صدره فسجنه وقتله في سجنه بالحيرة.

تقنِصُك الخيل، وتصطادُك الـ ـطّيرُ، ولا تنْكَحُ لهْوَ القنيصْ
غُيِّبْتَ عنّي عبدُ في ساعةِ الـ شرِّ وجُنِّبْتَ أوانَ العَويصْ
لا تنْسَيَنْ ذكري على لذّة الـ الكأس وطوفٍ بالخذوف النَّحوص
إنَّك ذو عَهْدٍ وذو مَصْدقٍ مُخالفاً هَدْيَ الكذُوبِ اللَّمُوصْ
قد يُدْرِكُ المُبْطِىءُ مِن حَظّه والخيْرُ قد يَسْبِقُ جَهْدَ الحَرِيصْ
يا عَبدُ هل تذكرُني ساعةً في موكبٍ، أو رائداً للقنيصْ
فلا يَزلْ صَدرُك في رَيْبةٍ يذكُرُ مِنّي تلَفي أو خُلوصْ
يا نفسُ أبْقِي واتَّقي شتمَ ذي الـ أعراضِ، إنَّ الحِلْمَ ما إنْ ينوصْ
يا ليتَ شِعْري وإنْ ذو عَجَّةٍ متى أرى شَرْباً حَوالَي أصِيصْ
والرَّبْرَب المكْفوفُ أردانُه يَمشي رُوَيداً، كمشْي الرَّهيصْ

فيقول الشيخ: أحسنت والله أحسنت فيما قلت، لو كنتَ الماءَ الراكدَ لما تغيرت فأسِنْت. وقد عمل أديبٌ من أدباء الإسلام قصيدة على هذا الوزن، وهو المعروف بأبي بكر بن دريدٍ[١]، قال:

يَسعَدُ ذو الجِدِّ وَيَشقى الحَريصْ ليسَ لِلخَلْقِ مِن قَضاءٍ مَحيصْ
أيـن مُـلوكُ الأرض مِـن حِمْيَرٍ أكرمُ مَن نصَّت إليهم قَلُوصْ
جَيفَرُ الوَهّابُ أودى بِهِ دَهْرٌ عَلى هَدْمِ المَعالي حَريصْ

إلاّ أنَّك يا أبا سوادة أحرزْت فضيلة السَّبق. وما كنت أختارُ لك أن تقول:

يا ليت شعري وإنْ ذو عَجَّةٍ

لأنّك لا تخلو من أحد أمرين: إمَّا أن تكون قد وصلت همزة القطع وذلك رديء، ويزيد ما فعلت من إسقاط الهمزة بُعداً أنّك حذفت الألف التي بعد النون، فإذا حذفت الهمزة من أوّل الكلمة بقيت على حرفٍ واحدٍ، وذلك بها إخلال. وإمّا أن تكون حقَّقت الهمزة فجعلتها بين بين، ثم اجترأت على تصييرها ألفاً خالصة، وحسبُك بهذا نقضاً للعادة، ومثل ذلك قول القائل:

والرَّبْرَب المكْفوفُ أردانُه يَمشي رُوَيداً، كمشْي الرَّهيصْ

١ - أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (٢٢٣ - ٣٢١ هـ / ٨٣٨ - ٩٣٢ م) من أئمة اللغة والأدب،وهو صاحب المقصورة الدريدية، من كتبه (الاشتقاق)، و(المقصور والممدود)، و(الجمهرة) في اللغة، و(أدب الكاتب)، و(الأمالي).

ولو قلت: يا ليت شعري أنا ذو عجَّةٍ، فحذفت الواو، لكان عندي أحسنَ وأشبه. فيقول عديٌّ ابن زيد: إنّما قلتُ كما سمعتُ أهلَ زمني يقولون، وحدثت لكم في الإسلام أشياءُ ليس لنا بها علم، فيقول الشيخ: لا أراك تفهمُ ما أريده من الأغراض، ولقد هَممْت أن أسألك عن بيتك الذي استشهد به سيبويه، وهو قولك:

أرَواحٌ مُـــــوَدِّعٌ أَم بُـكُـورُ أنت فاعـمَـدْ لِأَيِّ حالٍ تـَصيـرُ

فإنه يزعم أنَّ أنت يجوز أن يرتفع بفعلٍ مضمرٍ يفسره قولك: فانظر، وأنا أستبعد هذا المذهب، ولا أظنُّك أردتـه. فيقول عديّ بن زيدٍ: دعني من هذه الأباطيل، ولكني كنتُ في الدار الفانية صاحب قنص، ولعلـّه قد بلغك قولي:

ولقـد أغـدو بـطِـرْفٍ زانَـــهُ وجـهُ مَـنْـزوفٍ وخدٌّ كالـمِـسَـــنْ
مُـدْمَـجٍ كالقَـدْح ِلا صَـدْع َبِـه فـيُـرى فـيــه ولا عَـيْـبَ أبَـــنْ
رمَّـــه الـبـاري، فـسوّى دَرْأه غَـمْـز كـفـّيْه وتخـلـيـق الـسَّـفَـنْ
أيُّ ثغرٍ ما يَخْـفَ يُـنـدبْ لـه ومتى يَـخْـلُ من الـقَـوْدِ يُـصَــنْ
كرَبيبِ الـبيتِ يَـفـري جُـلـَّـه طاعـةُ العُضِّ وتسحيـرُ الـلَّـبَـنْ
فـالـذي يُـمْـسِـكُـه يـحْـمَـدُه تـَئِـقٌ بالـشـــدِّ مُـمْـتـدُّ الـرَّسَــنْ

فهل لك أن نركب فرسين من خيلِ الجنَّة، فنُجريهما بين نخلها، وجماعات نعامِها، وأسراب ظبائِها، وقُطعان المها فيها، فإن للقنيص لذّةً أشتهيها لك؟ فيقول الشيخ: إنّما أنا صاحبُ قلم ، ولم أكن صاحبَ خيل، ولا ممَّن يسحبُ طويل الذيل، وزرتك إلى منزلك مهنئاً بسلامتك من الجحيم، وتنعُّمِك بعـفـو الرحيم. وما يُؤمِّنني إذا ركبت جواداً نشيطاً رَتَعَ في رياض الجنَّة فصارَ من البطَـرِ كالغول والسِّعلاة، وأنا كما قال القائل[1]:

لم يركبوا الخيلَ إلاّ بعدما كبِروا فهُمْ ثِـقـالٌ على أكْنافِـها عُـنُـفُ

أن يلحقني ما لحق جَلَـماً صاحب المتجرِّدة[2] لمّا حُمِل على فرس النعمان "اليحموم"، والتَّعرض

١ – كعب بن معدان الأشقري المتوفى٨٠ هـ / ٧٠٠ م، فارس وشاعر وخطيب. كان من أصحاب المهلب بن أبي صفرة في حروب الأزارقة.

٢ – جلم بن الضحياء زوج المتجردة، نزل بها على النعمان ، فرآها النعمان فهويها، فأقنع جلماً بأن يركب اليحموم ليصيد المها Kوكان اليحموم قلّما ركبه أحد إلا صرعه، فجمح به الفرس، فأدرك الخديعة، فألقى الحربة، وأمسك عنان الفرس وناصيته بيديه جميعاً، وعاد سالماً، واحتال عليه النعمان بالخمر حتى أسكره، فطلق المتجردة، فتزوجها النعمان.

لما لم يلحق به قبل من الهموم، وقد بلغك ما لقيَ ولدُ زهيرٍ لمَّا دُقّـَت عنقُه، وكان يحسب أنه يأتي بالخير، فسلك في طريقٍ وسيعة، فسفح عليه كعب بن زهير[1] دموعَه، وكذلك ولدُك عَلقمَة، حلـَّت في العاجلة به النقِمة، وقلت فيه:

أنْعِـمْ صَباحاً عَـلْقَـمَ بـنَ عَـــدِيٍّ إذا ثَــوَيـتَ اليَـومَ لـم تَـرحَلِ

ويجوز أن يقذفني السابحُ على صخور زمرُّدٍ، فيكسِرَ لي عَضُداً أو ساقاً، فأصيرَ مضحكةً لأهل الجنان. فيبتسم عديٌّ ويقول: ويحَك! أما علمت أنَّ الجنة لا يُرهَبُ فيها السَّقـَم، ولا تنزِلُ بساكنها النـِّقـم؟ فيركبان سابحين من خيل الجنة، كلٌّ واحدٍ منهما لو عُدِل بممالك العاجلة الكائنة من أوَّلها إلى آخرها لرجح بها، وزاد في القيمة عليها. فإذا نظرَ إلى قُطعانٍ ترتع في دقاري الفردوس، والدَّقاريُّ: الرياض، صوَّبَ مولاي الشيخُ المِطـْرَد، وهو الرُّمح القصيرُ لصيد حُمْرِ الوحش،

إلى ثورٍ طال ذيلـُه ويختال، قد رتعَ هناك طويلَ أيامٍ وليال؛ فإذا لم يبق بين السنان وبينه إلا قيدُ ظفرٍ، قال: أمْسِك، رحِمَك الله، فإني لست من وحشٍ الجنَّة التي أنشأها الله ولم تكن في الدار الزائلة، ولكني كنتُ في دار الغرور أرودُ بعض القفار، فمرَّ بي ركبٌ مؤمنون قـد فـَنِي زادُهم، فصرَعوني واستعانوا بي على السَّفر، فعوَّضني الله، جلَّت كلمتُه، بأن أسكنني في الخلود. فيكفُّ عنه مولاي الشيخ الجليل.

ويعمد إلى ثور وحشيٍّ قد سمِن، فهو يرعى وقد أمِن، فإذا صار السنانُ منه بقدر أنْمُلة قال: أمْسِك يا عبد الله، فإن الله أنعمَ عليَّ ورفعَ عني البؤس، وذلك أنّي صادني صائدٌ بقوس، وباع جلدي في بعضِ الأمصار، فاتـُّخِذ منه غرْبٌ للسقاء، شُفي بمائه العِطاش ومن كوتهم الرَّمْضاء، وتطهَّرَ من تلك البئرِالصَّالحون، فشملتني بركةٌ من أولئك، فدخلت الجنَّة أرْزَق فيها بغير حساب. فيقول الشيخ: فينبغي أن تتميَّزْنَ عن غيرِكن، فما كان منكنَّ من وحوش الفانية، فما يجب أن يختلط بوحوش الجنَّة. فيقول ذلك الوحشيُّ: لقد نصحتنا نُصحَ الشقيق، وسوف نمتثل لما أمرت.

---

١ - كعب بن زهير بن أبي سُلمى، توفي ٢٦هـ/٦٤٦م، حارب الإسلام بشعره، ثم أسلم ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلم بقصيدته المشهورة "بانت سعاد"

مع أبي ذؤيب الهُذلي

وينصرف مولاي الشيخ الجليل وصاحبه عَديّ فإذا هما برجلٍ يحتلب ناقةً في إناءٍ من ذهب، فيقولان: مَن الرَّجل؟ فيقول: أبو ذؤيب الهُذليُّ. فيقولان: حُيِّيت وسَعِدت، لا شقيت في عيشك ولا بَعُدت، أتحتلب ناقة وحولك من اللبن نهور؟ إن هذا من الغُبْن والجور. فيقول: لا بأس، إنما خطر لي ذلك مثلما خطر لكما الصيد وإني ذكرت قولي في الدّهر الأول:

وإنَّ حَديثاً مِنكِ لو تعلمينَهُ جَنى النَحلِ في ألبانِ عُوذٍ مَطافِلِ[1]

مَطافيلَ أبْكارٍ حَديثٍ نِتاجُها تُشابُ بِماءٍ مِثلَ ماءِ المَفاصِلِ

فقيَّض الله بقدرته لي هذه النّاقة عائذاً مُطفلاً، وكان بالنِّعَم متكفّلاً، فقمت أحتلب على العادة، وأريد أن أشوبَ ذلك بالعسل الأبيض الفوّاح، جمعه نحلُ الجنّة من أفواه الأقاح. فإذا امتلأ إناؤه من اللبن، كوَّن الباري، جَلَّت عظمته، خليّةً من الجوهر، رتع نحلـُها في الزَّهَر، فاجتنى ذلك أبو ذؤيب، ومزج حليبَه بلا ريب، فيقول: ألا تشربان؟ فيشربان من ذلك المزيج رشَفات، لو فُرِّقت على أهل سقر لكانت مشبعات، فيقول عديٌّ: الحمدُ للـّه الذي هدانا لهذا وما كنّا لنَهتديَ لولا أن هدانا الله. لقد جاءت رُسُلُ ربِّنا بالحقِّ، ونُودوا أنْ تلكُمُ الجنّةُ أُورِثْتُمُوها بما كنتم تعملون.[2]

ويقول، أدام الله تمكينه، لعديّ: جئتَ بشيئين في شعرك، ودِدت أنَّك لم تأت بهما، أحدهما قولك:

فضافَ يُعَرّي جُلَّهُ عَن سَراتِهِ يَبُذُّ الجِيادَ فارِهاً مُتَتابِعا

والآخر قولك:

فليتَ دفعتُ الهمَّ عنّي ساعة فنمسي على ما خيَّلَتْ ناعِمَي بالِ

فيقول عديٌّ بعباديته: يا مكبور، لقد رزقت ما يكب أن يشغلك عن القريض، إنما ينبغي أن تكون

١ - ورد البيت: لو تبذلينه

٢ - الآية ٤٣ الأعراف

كما قيل لك: «كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون»[1] قوله يامكبور، يريد: يامجبور، فجعل الجيم كافاً، وهي لغةٌ رديئةٌ يستعملها أهل اليمن. وجاء في بعض أحاديث الأولين: أن الحارث بن هانىء بن أبي شمر بن جبلة الكندي، نادى يوم ساباط: يا حكر يا حكر، يريد: يا حجر بن عديَّ الأدبر، فعطف عليه فاستنفذه. ويكب: في معنى يجب.

فيقول، زاد الله في أنفاسه: إنَّي سألت ربَّي عزَّ سلطانُه، ألاّ يحرمني في الجنّة تلذُّذاً بأدبي الذي كنتُ أتلذّذ به في عاجلتي، فأجابني إلى ذلك» وله الحمدُ في السّمواتِ والأرضِ وعَـشِـيّاً وحين تُظْـهِـرون»[2] .

١ - الآية ١٩ الطور

٢ - الآية ١٨ الروم

النابغتان

ويمضي ف ي نزهته تلك بشابَّين يتحادثان، كلٌّ واحدٍ منهما على باب قصرٍ من دُرٍّ؛ قد أعفي من البُؤس والضُّرّ. فيسلِّم عليهما ويقول: من أنتما رحمَكما الله، وقد فعل؟ فيقولان: نحن النابغتان: نابغة بني جَعْـدة ونابغة بني ذبيان. فيقول، ثبَّت الله وطأته: أمّا نابغة جعدة[١] فقد استوجب ما هو فيه بالحنيـفـيَّة، وأمّا أنت يا أبا أمامة[٢] فما أدري ما هيّانك؟ أي ما جهتك. فيقول الذُّبيانيُّ: إني كنت مقرّاً بالله، وحججت البيت في الجاهليَّة، ألم تسمع قولي:

فلا لعَـمْـرُ الَّذي قد زُرتُه حِجَجاً ... وَما هُـريقَ عَلى الأَنصابِ مِن جَـسَـدِ[٣]

والمُؤمِنِ العائذاتِ الطيرِ تمسَحُها ... رُكـبانُ مَـكَّـةَ بينَ الغَـيْـلِ وَالسَـعَـدِ

وقولي:

حَـلـفتُ فلم أترُك لِـنَـفسِـكَ ريبَـة ... وهَـل يَأثَـمَـن ذو إمَّـةٍ وهـوَ طائِعُ

بِمُصطَحِباتٍ مِن لَـصافٍ وَثـبرَةٍ ... يَـزُرْنَ إلالاً سَـيـرُهُــنَّ الـتَـدافُـعُ

ولم أدرك النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فتقومَ الحجّة عليَّ بخلافه، وإنَّ الله تقدَّست أسماؤه، عزَّ ملكاً وجلَّ، يغفر ما عظم بما قلَّ. فيقول، لا زال قولـُه عالياً: يا أبا سوادة، ويا أبا أمامة، ويا أبا ليلى، اجعلوها ساعة منادمةٍ، فإنَّ من قول شيخنا العباديّ:

أيُّها القـلـبُ تعَـلـَّلْ بـدَدَنْ ... إنَّ هـمَّي في سـمـاعٍ وأذَنْ

وشرابٍ خُـــســـــــروانِّيٍ، إذا ... ذاقـه الشيخ تغنَّى وارْجَـحَـنّْ

١ – أبو ليلى قيس بن عبد اللّه الجعدي العامري(٥٤ ق. هـ – ٥٠ هـ / ٥٧٠ – ٦٧٠ م) شاعر صحابي من المعمرين، وكان ممن هجر الأوثان، ونهى عن الخمر قبل ظهور الإسلام. ووفد على النبي صلى اللّه عليه وسلم فأسلم، وأدرك صفّين فشهدها مع علي كرم اللّه وجهه، ثم سكن الكوفة فَسَيّره معاوية إلى أصبهان مع أحد ولاتها فمات فيها وقد كُفَّ بصره وجاوز المائة.

٢ – زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري المتوفى ١٨ ق. هـ / ٦٠٥ م ،شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، كان يحكم بين الشعراء بسوق عكاظ، وهو أحد شعراء المعلقات. شعره كثير وكان أحسن شعراء العرب ديباجة، لا تكلف في شعره ولا حشو. عاش عمراً طويلاً.

٣ – ورد البيت: فلا لعَمرُ الّذي مَسَّحتُ كَعبَتـهُ

وقال:

وســــــماعٍ يـــأذنُ الـشّـــيخُ له　　　وحـديـثٍ مِـثـلِ مـــاذيٍّ مُـشـارْ

فكيف لنا بأبي بصير؟ فلا يُتِـمُّ الكلمة إلا وأبو بصيرٍ قد صار خامِسَهم، فيسبَّحون الله ويقدّسونه ويحمدونه على أن جمع بينهم، ويتلو، جمّل الله ببقائه، هذه الآية: "وهو على جَمعِهِمْ إذا يَـشاءُ قديرٌ".[1]

فإذا أكلوا من طيّبات الجنَّة، وشربوا من شرابها الذي خزنه الله لعباده المتّقين قال، أرغم الله أنفَ مُبغِضه: يا أبا أمامة إنّك لحصيف الرأي لبيبٌ، فكيف حسَّن لك لبُّك أن تقول للنُّعمان بن المنذر:

زعَــمَ الهُـمـامُ بـأنَّ فاهـا بـارد　　　عَـذبٌ إذا قبَّـلْـتَـه قُـلْـتَ ازْدَدِ

زعـمَ الهُـمامُ ولم أذُقــْـهُ بأنَّـه　　　يُشفَى بـبردِ لِثاتهِ العَطِشُ الصَّدِي

ثمَّ استمرَّ بك القول، حتى أنكره عليك خاصَّةٌ وعامَّةٌ؟

فيقول النابغة بذكاءٍ وفهم: لقد ظلمني من عابَ عليَّ، ولو أنصف لعلم أنَّني احترزْت أشد احترازٍ. وذلك أنَّ النعمان كان مُستهاماً بتلك المرأة، فأمرني أن أذكرَها في شعري، فأدرت ذلك في خلدي فقلت: إن وصفتُها وصفاً مطلقاً، جاز أن يكون بغيرها مُعلـَّقاً. وخشيت أن أذكر اسمها في النَّظْم، فلا يكون ذلك موافقاً للملك، لأنَّ الملوك يأنفون من تسميةِ نسائهم، فرأيتُ أن أسنِد الصفـَّة إليه فأقول: زعم الهمام، إذ كنتُ لو تركتُ ذكرَه لظنَّ السَّامع أن صفتي على المشاهدة، والأبيات التي جاءت بعد، داخلةٌ في وصف الهمام، فمن تأمَّل المعنى وجده غير مختلٍّ. وكيف ينشدون:

وإذا نظرت فرأيت أقمر مشرقاً

وما بعده؟ فيقول، أرغم الله أنفَ شانِئه: ننشد: وإذا نظرتَ، وإذا لمستَ، وإذا طعنتَ، وإذا نزعتَ، على الخطاب. فيقول النابغة: قد يسوغ هذا، ولكنَّ الأجودَ أن تجعلوه إخباراًعن المتكلّم، لأنّ قولي: زعم الهمام يؤدّي معنى قولنا: قال الهمام، فهذا أسلم، إذ كان الملك إنما يحكي عن نفسه، وإذا جعلتموه على الخطاب قبح.

إن نسبتموه إليَّ فهو مُخْزٍ، وإن نسبتموه إلى النّعمان فهو إزراءٌ وانتقاص. فيقول: أيدَّ الله الفضلَ بزيادة مدتّه: لله درُّك يا كوكبَ بني مُرّة. ولقد صحَّف عليك أهل العلم من الرواة، وكيف

١ - الآية ٢٩ الشورى

لي بأبوي عمرو: المازنيّ والشّيبانيّ، وأبي عبيدة، وعبد الملك، وغيرِهم من النّقلة لأسألـهم: كيف يَروُون، وأنت شاهدٌ، لتعلم أني لا أكذب ولا أخوض في الأعراض ؟ فلا يقَـرُّ هذا القول في أذن أبي أمامة إلاّ والرواة أجمعون قد أحضرهم الله القادر، من غير مشقّةٍ نالتهم، ولا كلفةٍ في ذلك أصابتهم، فيسلّمون بلطفٍ ورفقٍ. فيقول، أعلى الله قوله: من هذه الشّخوص الفردوسيَّة؟ فيقولون: نحن الرُّواة[1] الذين شئت إحضارهم آنفاً فيقول: لا إله إلاّ الله مُكـوِّناً مُدوِّناً، وسبحان الله باعثاً وارثاً، وتبارك الله قادراً لا غادراً!! كيف تروون أيُّها المرحومون قول النابغة في الداليَّة: وإذا نظرت، وإذا لمست، وإذا طعنت، وإذا نزعت، أبفتح التاء أم بضمّها؟ فيقولون: بفتحها. فيقول: هذا شيخنا أبو أمامة يختار الضَّمّ، ويخبر أنّه حكاه عن النَّعمان. فيقولون: هو كما جاء في الكتاب الكريم: «والأمرُ إليكِ فانْظـُري ماذا تأمُرين»[2] فيقول، ثبّت الله كلمته على التوفيق: مضى الكلامُ في هذا يا أبا أمامة، فأنشدنا قصيدتك التي أوّلـُها:

أَلِـمَّـا عـلى الـمَـمْـطـورة الـمُـتـأبِّـدَةْ	أقامَـت بها في المَـرْبَعِ المُـتجـرِّدَةْ
مضمَّخةٌ بالمسك مخضوبةُ الشَّـوى	بِـدُرٍّ ويـاقُـوتٍ لـهـــا مُـتـقَـلِّـدَةْ
كأنَّ ثـنـايـاهـا، وما ذُقْـتُ طـعْـمَها،	مُجاجَـةُ نحـلٍ في كُـمَـيـتٍ مُـبَـرَّدَةْ
ليَـقْـرِرْ بها النُّـعـمـانُ عـينـاً فـإنّـهـا	لـه نِـعْـمـــةٌ، في كُلِّ يـومٍ مُـجَـدَّدَةْ

فيقول أبو أمامة: ما أذكر أنّي سلكت هذا الرويَّ قطُّ. فيقول مولاي الشيخ، زيَّن الله أيّامَه ببقائه: إن ذلك لعجبٌ، فمن الذي تطوَّع فنسبها إليك؟ فيقول: إنَّها لم تُنسَب إليَّ على سبيل التَّطوع، ولكن على معنى الغلط والتَّوهمُّ، ولعلَّها لرجل من بني ثعلبة بن سعد. فيقول نابغة بني جعدة: صحبني شابٌّ في الجاهليّة ونحن نريد الحيرة، فأنشدني هذه القصيدة لنفسِه، وذكر أنَّه من ثعلبةَ بن عُكابة، وصادف قدومُه مرضَ النُّعمان فلم يصل إليه. فيقول نابغة بني ذبيان: ما أجْدر ذلك أن يكون!

ويقول الشيخ، كتب الله له مثوبة المُـتـَّـقـيـن، لنابغة بني جعدة: يا أبا ليلى، أنشدنا قصيدتك التي على الشين وتقول فيها:

ولـقـد أغْـدُو بِـشَـــــرْبٍ أُنُـفٍ	قبلَ أَن يَـظهَـرَ في الأَرضِ رَبَـشْ

---

١ - بكر بن محمد بن عثمان بن حبيب المازني البصري النحوي المتوفى ٢٤٨هـ/٨٦٣م، كان إمام عصره في النحو والآداب، وكان المبرد يقول: ما بعد سيبويه أعلم بالنحو من المازني.

- إسحاق بن مرار الشيباني النحوي اللغوي (٩٦ - ٢٠٦هـ/٧١٦- ٨٢١م)، كان من الأئمة الأعلام في فنون اللغة والشعر.

- أبو عبيدة معمر بن مثنى سبق ذكره، عبد الملك بن قريب هو الأصمعي.

٢ - الآية ٣٣ النمل

مَـعَـنـــا زِقٌ إلى سُـــمَّـهَـــةٍ	تَـسِـــقُ الآكالَ مِن رَطْبٍ وَهَـشْ
فنَـزَلْـنـــا بِـمَـلِيـــعٍ مُـقْـفِـرٍ	مَـسَّـــهُ طَـلٌّ مِـنَ الـدَجْـــنِ وَرَشْ
وَلَـدَيْنـا قَـيْنَــــةٌ مُـسْـمِـعَــــةٌ	ضَخمَةُ الأردافِ مِن غَـيْـر نَفَشْ
وإذا نـحُـن بِـإجْــلٍ نـافِــــــرٍ	ونَـعــامٍ خِـيطَــــةٍ مِـثْـلِ الحَـبَـشْ
فَـحَـمَـلْـنـا مـاهِـنـاً يُـنـصِـفُـنـــا	فوقَ يَـعبُـوبٍ مـنَ الخَـيـلِ أَجَـشْ
فَـأتـانـا بِـشَـــبُـوبٍ نـاشِـــطٍ	وَظَـلـيـــمٍ مَـعَـــــهُ أمٌّ خُـشَـــشْ
فاشْتَـوَينا مِـن غَـرِيضٍ طَـيِّـبٍ	غـيـرِ مَـمـنُـونٍ وَأُبْـنـا بِـغَـبَـشْ

فيقول نابغة بني جعدة: ما جعلت الشِّين قط رويّاً، وفي هذا الشعر ألفاظ لم أسمع بها قطّ: ربشٌ، وسمهة، وخششٌ. فيقول مولاي الشيخ الأديب المغرم بالعلم: يا أبا ليلى، لقد طال عهدك بألفاظ الفصحاء، وشغلك شرابٌ ما جاءتك بمثله بابل ولا أذرعات حوران، وثنتك لحوم الطَّير الرّاتعة في رياض الجنَّة، فنسيت ما كنت عرفت، ولا ملامة إذا نسيت ذلك " إِنَّ أَصْحَابَ الجَنّةِ اليَومَ في شُغُلٍ فاكِهُون هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُـتّـَكِئُون لهُمْ فِيهَا فاكِهَةٌ وَلهُم مَّا يَدَّعُون"[١]

أما ربش، فمن قولهم: أرضٌ ربْشاء إذا ظهرت فيها قطعٌ من النَّبات وكأنَّها مقلوبةٌ عن برشاء، وأمَّا السُّمَهة فشبيهةٌ بالسُّفرة تُـتَّخذ من الخوص، وأمّا خُشَش فإنّ أبا عمرو الشَّيبانيّ ذكر في كتاب الخاء أن الخشش ولد الظبّية. فكيف تنشد قولك:

وليس بمعروفٍ لنا أن نردّها	صِحاحاً،ولامُستَـنْكَـراًأن تُعَقَّرا

أتقول: ولا مُستَـنكَراً، أم مُستنْكِرٍ؟ فيقول الجعديُّ: بل مستنكَراً. فيقول الشيخ: فإن أنشد منشدٌ: مستنكرٍ، ما تصنع به؟ فيقول: أزجرُه وأنهرُه، نطق بأمرٍ ليس عنده خبرُه. فيقول الشيخ، طوَّل الله له أمد البقاء: إنّا لله وإنَّا إليه راجعون، ما أرى سيبويه إلاَّ وَهِمَ في هذا البيت، لأنَّ أبا ليلى أدرك جاهليةً وإسلاماً، وغَذي بالفصاحة غلاماً. وينثني إلى أعشى قيس فيقول: يا أبا بصيرٍ أنشدنا قولك:

أمِنْ قَـتْـلَــةٍ بـالأنْـقـــا	ءِ دارٌ غـيـــرُ مَـحْـلــولَـةْ
ومـا صَـهـبـاء من عانَـةٍ	في الــــذارع مَـحْـمـولَـةْ

١ - الآيات ٥٥- ٥٧ سورة يس

بـمــاءِ الـمُـزْنَـةِ الـغــرّا ءِ راحَــتْ، وهــي مشمولةْ
بأشــهى مـنـك لـلـظَّـمْــآ نِ لـو أنّـك مَـبْـذولــــةْ

فيقول أعشى قيس: ما هذه ممّا صدر عنَّي، وإنَّك منذ اليوم لمُولَعٌ بالمنحولات.

الإوز المغنّي

ويمرُّ رفٌ من إوَزِّ الجنَّة، فلا يلبث أن ينزل على تلك الرَّوضة ويقف وقوف منتظر لأمر، ومن شأن طير الجنَّة أن يتكلَّم، فيقول: ما شأنكنَّ؟ فيقلن: ألـْهِـمنا أن نسقط في هذه الرَّوضة فنغنّي لمن فيها من الشاربين. فيقول: على بركة الله القدير. فينتفضن، فيَصِرن جواريَ كواعبَ يرفـُلن في وشْي الجنَّة، وبأيديهنّ المزاهر وأنواعُ ما يُلتمس به الملاهي. فيعجب، وحُقَّ له العجب، وليس ذلك ببديعٍ من قدرة الله جلَّت عظـَمتُه، وعزَّت كلمَتُه، وسَبَغَت على العالم نعمتُه، ووسِعت كلَّ شيءٍ رحمتُه، ووقعت بالكافر نقمتُه. فيقول لإحداهنَّ على سبيل الامتحان: اعْـمَلي على الثقيل الأول قولَ أبي أمامة، وهو هذا القاعد:

أمِــنْ آل مَــيَّــة رائِـــحٌ أو مُغْـتَدِ   عَجْـــلان ذا زادٍ وغـيــرَ مُــزَوَّدِ؟

فتصنعُه، فتجيءُ به مطرباً، وفي أعضاء السامع متسربّاً. ولو نُحِت صنمٌ من أحجار، أو دَفٌّ نُشِرعند النَجَّار، ثمّ سمعَ ذلك الصوت لرقص، وبه زاد السرور وما نقص، فيَرِدُ عليه خاطر،تعجز عنه النظائر والبصائر، فيقول: هلّا جعلته من خفيف الثَّقيل الأوَّل! فتنبعث فيه بنغم لو سمعه الغريض بانسجام[1]، لأقرَّ أنَّ كلَّ ما ترنَّم به مريضٌ يشكو السُّقام. فإذا أجادته، وأعطته الصنعةً وزادته، قال: عليك بالثقيل الثاني، ما بين مَثالِثك والمثاني، فتأتي به على رويٍّ لو سمعه عبد الله بن جعفر الطيّار، لقرن أغانيَّ بديح[2] إلى هدير الجمل إذا رغا وثار. فإذا سمع ذلك قال: سبحان الله! كل ما زادت أتت بالعجائب، فتنسي المحزونَ حزنـَه، وتُطرب من حاقت به المصائب، ويقل لها: صيري إلى خفيف الثقيل الثاني، فإنّك لمحسنة مجيدةٌ ، تكتمل بغنائك الأوقات السعيدة. فإذا فعلت ما أمرَ به، أتت بما يعجَز عنه مَعْبد، وأمرت الأنفس بأن تسعد، ثمَّ يقترح عليها: الرَّمَل والهَـزَج، والثمانية من الألحان، تتمنى سماعها الآذان.

فإذا تيقّن منها المهارة، لم يُخفِ انبهاره، وهلَّل وكبَّر، وأطال حمد ربَّه واعتبر.وقال: ويحك! ألم تكوني السّاعة إوزَّةً طائرة، والله خلقك مهديَّة لا حائرة؟ فمن أين لك هذي العلوم، بغناء يُبهج

١ - عبد الملك أبو زيد، أحد رؤساء المغنين.

٢ - عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، كان من أجود أجواد العرب، وكان محباً للغناء، يرعى المغنين ويعطيهم، وبديح مولاه من أشهر المغنين وأمهرهم.

النفس ويُنسي الهموم؟ لو نشأت بين معبدٍ وابن سُـرَيج[1]، لما هجت السـامع بهذا الهـيج؟ فتـقول: وما الذي رأيت من قدرة فتقول: وما الذي رأيت من قدرة ربك العظيم؟ إنّك على سِيفِ بحرٍ هائل، لا يُدرَك له ساحل، سبحان من يحيي العظام وهي رميم.

١ - معبد: كان أحسن الناس غناء وأجودهم صنعة وأقر له بالتفوق جميعُ المغنين. عبيد بن سريج مولى بني نوفل. كان منقطعاً إلى عبد الله بن جعفر، وكان أول من ضرب بالعود، وقيل: ما خلق الله بعد داود النبي أحسن صوتاً من ابن سريج، ولا صاغ الله أحداً أحذق بالغناء منه.

لبيد بن ربيعة

فبينا هم كذلك، إذ مرَّ شابٌ في يده عصا من الياقوت كالصولجان، يحمله ملوك الإنس والجان، فيسلّم عليهم، فيقولون: من أنت؟ فيقول: أنا لبيد بن ربيعة بن مالك[1]. فيقولون: أكْرِمْتَ أكْرِمْت! لو قلت: لبيدٌ وسَكتّ، لكفاك اسمك وإن صمَتّ. فما لقيت من مغفرة ربّك؟ فيقول: أنا بحمد الله في عيشٍ يُقصّر عن وصفه الواصفون، ولديَّ الخدمُ والحشم، لا أهْرم ولا أضجر ولا أبْرم. فيقول الشيخ: تبارك الملك القُـدُّوس، ومن بيده الأرواحُ والنفوس، كأنَّك لم تقل في الدار الفانية:

ولقدْ سَئِمتُ من الحياةِ وطولِها　　　وسُـؤالِ هذا النّاسِ: كيـفَ لَـبيدُ

ولم تفه بقولك:

فـمَتى أَهْـلِـك فلا أَحْـفِـلُــهُ　　　بَجَـلي الآنَ مِنَ العَـيشِ بَـجَـلْ

مِن حَـياةٍ قـد مَـلِـلْنا طولَـها　　　وَجَديـرٌ طولُ عَـيشٍ أَن يُـمَـلّْ

فأنشدنا ميميَّـتـك المعَـلـَّـقة. فيقول: هيهات! إنَّي تركت الشعرَ في الدار الخادعة، ولن أعودَ إليه في الدار الآخرة، وقد عَـوَّضني ربي ما هو خيرٌ وأبَرّ. فيقول: أخبرني عن قولك:

تـــرَّاكُ أمـكـنـةٍ إذا لم أرضَها　　　أو يـرتبطْ بعضَ النـُّفوس حِمامُها

هل أردت ببعضٍ معنى كلٍّ؟ فيقول لبيدٌ: كلا، إنّما أردت نفسي، وهذا كما تقول للرَّجل: إذا ذهب مالك، أعطاك بعضُ الناس مالاً، وأنت تعني نفسَك في الحقيقة، وظاهر الكلام واقعٌ على كلّ إنسان، وعلى كلّ فرقة تكون بعضاً للناس. فيقول، لا فَـتِـئَ خصمُه مُفحَماً: أخبرني عن قولك: أو يرتبط، هل مقصدُك: إذا لم أرضَها أو يرتبطْ، فيكون: لم يرتبطْ؟ أم غرضُك: أتركُ المنازلَ إذا لم أرضَها، فيكون يرتبط كالمحمول على قولك: ترَّاكُ أمكنةٍ؟ فيقول لبيدٌ: الوجهَ الأوّلَ أردت. فيقول، أعظم الله حظّه في الثواب: فما مغزاك في قولك:

---

١ – لبيد بن ربيعة بن مالك العامري المتوفى ٤١ هـ / ٦٦١ م ،أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية. أحد الصحابة، ومن المؤلفة قلوبهم. وترك الشعر فلم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً. وسكن الكوفة، وعاش عمراً طويلاً. وهو أحد أصحاب المعلقات.

وصَبُوحِ صافِيةٍ وجَـذبِ كَرينـَةٍ   بـمُـوتـَّـرٍ تـأتـالـُـهُ إبْـهامُـهــا؟

فإن الناس يروون في هذا البيت على وجهين: منهم من ينشده تأتالُه، يجعله تـفْـتَـعِـلُـه، من آلَ الشيءَ يَؤولـُه إذا ساسَه، ومنهم من ينشد: تأتالـه من الإتيان. فيقول لبيدٌ: كلا الوجهين يحتملـُه البيت، فيقول، أرغم الله حاسدَه: إنّ أبا عليّ الفارسيّ كان يدّعي، في هذا البيت، أنـَّه مثلُ قولهم: اسْتحى يسْتحي، على مذهب الخليل وسيبويه، لأنهما يريان أنَّ قولهم: اسْتَحَـيْـتُ، إنما جاء على قولهم استحايَ، كما أن اسْتـقـَمْـتُ على استقام، وهذا مذهبٌ ظريفٌ، لأنّه يعتقدُ أنّ تأتـى مأخوذةٌ من أوَى، كأنّه بُنِيَ منها افْتـَعَـل، فقيل: ائْتايَ، فأعِـلـَّت الواو كما تُعَلُّ في قولنا: اعْتانَ من العَون، واقـْتـالَ من القول. ثمّ قيل: ائْـتـَـيْـتُ، فحُذِفـت الألف، كما يقال: اقـْتـَلـْت. ثمّ قيل في المستقبل: يأتى، بالحذف، كما قيل: يسْتحي. فيقول لبيدٌ:

الأمـر أيـسرُ ممّا ظنَّ هذا المتكلَّف.   "مُعْتـَرِضٌ لِعَنـَنٍ لم يَـعْـنـِهِ"[1]

ويقول لبيدٌ: سبحان الله يا أبا بصير، بعد إقرارِك بما تعلم، غُفِر لك وجئت إلى جنّة عدْن؟ فيقول مولاي الشيخ متكلـِّماً عن الأعشى: كأنّك يا أبا عقيلٍ تعني قوله:

وأشـرَبُ بِالـريـفِ حَـتّى يُـقا   لَ قد طـالَ بِالريفِ ما قد دَجَـنْ

صـريـفـيّـة ًطـيِّــباً طـعْـمُــهـا   تُـصَـفـَّـقُ مـا بـيــنَ كـُـوبٍ ودَنّْ

وأقررتُ عـيــني مــن الـغـانـيــا   تِ، إمَّـــا نـكاحــاً وإمّـــا أُزَنّْ

وقوله:

فَـبِـتُّ الخليفـَـةَ من بَعْـلِـها   وسـيِّــدَ تـَـيّــا ومُـسْـتـادَهــا

وقوله:

فظـَلِـلـْتُ أرعاها وظلَّ يحـوطـُهـا   حتى دنـوتُ إذِ الظّلامُ دنا لـَها

فرَمَيتُ غـفـْلـَة َعَـيـنـِه عـن شاتِـهِ   فأصبْتُ حبَّـة قـلبِها وطِحالـَهـا

ونحو ذلك مما روي عنه، فلا يعدو أحدَ أمرين: إما أن يكون قاله تحسيناً للكلام على مذهب الشعراء، وإما أن يكون فعله فغُـفِـرَ له « قُلْ يَا عِبَادِيَ الذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِـهِمْ لا تَـقْـنَطوا مِنْ

١ - «معترض لعنن لم يعنه» مثل يُضرب للمعترض فيما ليس من شأنه. والعنن، شوط الدابة، وأول الكلام.

رَحْـمَة الـلـّه إن الـلـّهَ يَغْـفـرُ الذنُوبَ جَمـيعـاً إِنَّهُ هُـوَالغَفُورُ الرَّحِيمُ »[١] . « إن الـلـّه لا يَغْـفـرُ أَنْ يُـشْـرَكَ بِهِ وَيَـغْـفـرُ مَـا دُون ذلِـكَ لِـمَـنْ يَـشَاءُ وَمَـنْ يُـشْـرِكْ بِالـلـّه فـقَـدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِـيـداً » [٢]

ويخطر له، جعل الله الإحسانَ إليه موصولاً، وكلَّ قلب بودِّه مشغولاً، غناءُ القيان في القاهرة وبغداد. ويذكر تغنِّيهنَّ بميميّة المخبَّل السّعدي[٣] فتندفع تلك الجواري التي نقلتهنّ قدرة الخالق من هيئة الطُّيور التي لا تعقِل، إلى هيئة حورِ العِينِ جمالها يُذهِل، يُلَحِّنَّ قول المخبَّل السَّعديّ:

ذكَـرَ الربَّابَ وذِكرُها سُـقْـمُ ... وصَـبـا، ولـيـسَ لِـمَـن صبا عَــزْمُ

وإذا ألَـمَّ خـيـالُـهــا طَـرِفَـتْ ... عَـيني، فـماءُ شـؤونِها سَـجْـمُ

كاللُّؤلؤِ المَسْـجور تُـوبِـعَ في ... سِـلْـكِ الـنِّـظام فخانَـهُ الـنَّـظْـمُ[٤]

فلا يمرُّ حرف ولا حركة، إلاَّ ويوقع مسرّةً لو قيست بمسرّات أهل الدار الفانية، منذ خلق الله آدم إلى أن طوى ذُرِّيَّـته من الأرض، لكانت الزائدة على ذلك، زيادة البحر المُتموِّج على دمعة طفل، والجبل الشامخ على حبة تراب في وادٍ أو سهل. ويقول لندمائه: ألا تسمعون إلى قول السّعديّ:

وتـقـولُ عـاذِلـتي ولـيـس لـهـا ... بِـغَـدٍ، ولا ما بَـعْـدَه عِـلْــمُ

إنَّ الـثَّـواءَ هـو الـخُـلـودُ، وإ ... نَّ المَــرءَ يـكـرُبُ يومَـه العُـدْمُ

ولَــئِنْ بَـنـيَـتِ لي المُـشَـقَّـرَ في ... عَنْقاءَ تَـقْصُرُ دُونَـهـا العُـصْـمُ

لَـتُـنَـقِّـبَـنْ عَـنِّي المَـنِـيَّــةُ إ ... نَّ الـلـّهَ ليس كَحُكْمِـه حُـكْـمُ

فيقول: إنّه المسكين، قال هذه الأبيات، وبنو آدم في دار المِحَن الشِّـداد، يقبِضون منها على شوك القتاد، والقتادُ شجرٌ شوكُـه كالإبر المسنونة ؛ والوالدة تخاف المنيَّةَ على الولد، ولا يزال رُعْـبها في قلبها يتَّقِد، والفقرُ يُرهَبُ ويُـتَّـقى، والمال يُطلب ويُستبقى؛ والجوع موجودٌ والظَّماء، والعمى معروفٌ والحَفاء، ولم يُجذب للظلم عِـنان، ولا سُكنت بالعفو الجنان. ف "الحَمْدُ للَّهِ الذي أذْهَبَ عَـنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لغَفُورٌ شَكُورٌ الَذي أحَلـَّنا دَارَ المُقامَةِ مِنْ فضْلِهِ لا يَمَـسُّـنا فيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَـسُّـنا فِيهَا لغُوبٌ"[٥].

---

١ - الآية ٥٣ سورة الزمر.

٢ - الآية ١١٦ سورة النساء.

٣ - المُخبَّل السعدي:ربيع بن مالك بن ربيعة السعدي من تميم المتوفى ١٢ هـ / ٦٣٣ م. شاعر فحل، من مخضرمي الجاهلية والإسلام، عُمِّر طويلاً ومات في خلافة عمر أو عثمان رضي اللّه عنهما. قال الجُمحي في كتابه طبقات فحول الشعراء: لهُ شعر كثير جيّد.

٤ - ورد البيت: كاللُّؤلؤِ المَسْجور أغْفِلَ في.

٥ - الآيتان ٣٤و٣٥ سورة فاطر

فتبارك الله القُـدُّوس! نقلَ هؤلاء المُسمِّعات من زيٍّ ربَّات الجناح ، إلى زيٍّ ربات الأكفال والوشاح، ثمّ ألهمَهُـنَّ بالحكمة حفظ أشعارٍ لم تمرر قبل بمسامعهنَّ، فجئن بها متقنة ً، محمولة على الطـَّرائق مُلحَّنة، مصيبة في لحن الغناء، منزّهة ًعن لحن الثقلاء. ولقد كانت الجارية في الدار العاجلة، إذا تفرِّستَ فيها الذكاء، وأحضرت لها المعلـّمة لتلقي إليها ما تعرف من ثقيلٍ وخفيفٍ من الأوزان، وتعـلمها ما تعرف من الألحان، تقيم معها الشّهـر والشهـرين ، قـبل أن تلقـّنها بيتاً

من الغزل أو بيتين، ثم تُعطى المائة أو المائتين. فسبحان القادرعلى كل صعب من الأمور، هو الخالق المبدع المصوِّر الغفور.

خلاف بين النابغة والأعشى

ويقول نابغة بني جعدة، وهو جالس يستمع: يا أبا بصير أهذه الربَّابُ التي ذكرها السّعديُّ، هي ربابُك التي ذكرتها في قولك:

يُعاصي العَواذِلِ طَلْقُ اليديـ ـنِ يُعطي الجزيلَ ويُرخي الإزارا

فما نطَق الدِّيكُ حتّى مَلأ تُ كُوبَ الرَّبابِ لهُ فاسْتدارا

إذا انْكبَّ أَزهَرُ بَينَ السُقاةِ ترامَوا بِهِ غَرَباً أَو نُضارا

فيقول أبو بصير: قد طال عمرُك يا أبا ليلى، وأحسبك أصابك الخرف، فبقيت على خرفك إلى اليوم! أما علمت أنَّ اللواتي يُسمَّينَ بالرَّبابِ أكثر من أن نُحصيهن؟ أتظن أنَّ الربّاب هذه، هي التي ذكرها القائل:

ما بالُ قومِك يا رباب خُزْراً كأنّهُمُ غِضابُ

غاروا عليك، وكيف ذا كَ ودونَك الخَرْقُ اليبابُ

أو التي ذكرها امرؤ القيس في قوله:

دارٌ لِهِندٍ والرَبابِ وَفَرتَنى وَلَميسَ قبلَ حَوادِثِ الأيّامِ

ولعلّ أمَّها أمُّ الربّاب المذكورة في قوله:

وجارتها أمِّ الربّاب بمأسل[1]

فيقول نابغة بني جعدة: أتكلِّمني بمثل هذا الكلام يا خليعَ بني ضُبَيعَة، وقد مُتَّ كافراً، وأقْررتَ على نفسك بالفاحشة، وأنا لقيتُ النبيَّ، صلى الله عليه وسلّم، فأنشدته قصيدتي التي أقول فيها:

بلغْنا السّماءَ مجدَنا وسناءَنا وإنّا لنبغي فوقَ ذلكَ مَظْهرا[2]

---

١ - كدَأبِكَ مِن أمِّ الحُوَيرِثِ قَبْلَها وَجارَتِها أمِّ الرَبابِ بِمَأسَلِ

٢ - روي البيت:

بَلغنا السَماءَ مَجدَنا وَجُدُودَنا وإنّا لنَرجُو فوقَ ذلكَ مَظهَرا

فقال: إلى أين يا أبا ليلى؟ فقلت: إلى الجنّة بك يا رسول الله! فقال: لا يفضُضِ الله فاك. أغرَّك أن عَـدَّك بعضُ الجُهَّال رابعَ الشُّعراء الأربعة؟[1] وكذب مُفضِّـلُـك، وإنِّي لأطولُ منك نفَـسـاً، وأكثرُ تصرُّفاً، ولقد بلغت بعددِ البيوت ما لم يبلـُغْه أحد من العرب قبلي، وأنت لاهٍ بتلك التي سميتها عفارة، تفتري على حرائر قومك. وإن صدقتَ فخِزياً لك ولأصحابك! ولقد أصابت زوجتك في تخليها عنك، عاشرتْ منك النّابح، عَـشِـيَ فطاف الحواضر والبوادي على الجيف المنتنة، وحرص على نبش القبور المنفردة.

فيغضب أبو بصير فيقول: أتقول هذا وإنَّ بيتاً ممّا بنيت ليعدل مائةً من بنائك؟ وإن أطلت في مقالتك وأسهَبت، فإنَّ المُسهب كحاطب الليل. وإنّي لفي الصميم من ربيعـة َ، وإنّك لمن بني جَعْـدة، وهـل لجعـدة َإلاّ المعاني الشنيعـة؟ أتعـيِّـرني بمدح الملوك؟ ولو قدرتَ يا جاهـلُ على ذلك لهجـرت إليه أهـلَـك وولدَك، ولكنّك خُـلِقـت جباناً أحمق، لا تجرؤ على الإسراء في الظّلماء، ولا قطعِ البلاد في الحر والرمضاء. وذكرت لي طلاقَ امرأتي الهزّانية، فما أدراك أنها لم تفارق وهي تكظم الغيظ والكمَد؟ والطّلاق ليس بمنكرٍ على أحد، لا للعامة ولا للملوك.

فيقول الجعديُّ: اسكت أيها الضالُّ بنُ الضالّ، فأقسم إنّ دخولك الجنَّة َمن المنكرات، ولكنَّ الأقضية جرت كما شاء الله! وحقـُّك أن تكون في الدّرَك الأسفل من النّار، ولقد رُمِي فيها من هو خيرٌ منك، ولو جاز الغلطُ على ربِّ العزّة، لقلت: إنَّه غلط بك! ألست القائل:

فـدخـلـتُ إذ نـامَ الـرّقـيـ	ـبُ، فبِـتُّ دون ثيـابِـهـا
حـتـى إذا مـا اسْـتـرْسَـلـتْ	للـنّـومِ، بَـعْـدَ لِعـابِـهـا
قـسَّـمْتُـهـا نـصـفـيـن كُـ	ـلُّ مُـسَـوَّدٍ يُـرمـى بِـهـا
فـثـنـيْتُ جِـيـدَ غَـريـرَةٍ	ولَـمَسْتُ بطـنَ حِقـابـهـا
كـالـحُـقَّـةِ الـصّـفْـراءِ صا	كَ عبـيـرُهـا بِمَـلابِـهـا
وإذا لـهـا تـامُـورَةٌ	مَـرفـوعَـةٌ لـشـرابِـهـا

واستقللت ببني جعدة، وليومٌ من أيَّامِهم يرجحُ بمساعي قومك. وزعمتني جباناً وكذبت! لأنا أشجع منك ومن أبيك، وأصبرُعلى السيرِ في الفيافي والظلمةُ مُحدقة، وأشدُّ إيغالاً تحت الشمس المحرقة.

---

١ - ثمة من يجعل الأعشى رابع طبقة امرئ القيس وزهير والنابغة.

ويثب نابغةُ بني جعدة َعلى أبي بصير فيضرِبه بكوز من ذهب. فيقول: أصلح الله وعلى يديه: لا عَربدَة َفي الجنان، إنّما يُعرف ذلك في الدار الفانية بين السَّفلة والرِّعاع، وإنك يا أبا ليلى لمُتسرع، وقد روي في الأخبار أن رجلاً صاح بالبصرة: يا آلَ قيسٍ! فجاء النابغة الجعديُّ بعصا له، فأخذته شرطة أبي موسى الأشعريّ[1] فجلدوه لأنَّ النبيَّ، صلّى الله عليه وسلّم، قال: "من تعزىّ بعزاءِ الجاهليّة فليس منّا". ولولا أنَّ في الكتاب الكريم: " لا يُصَدَّعونَ عَنْها ولا يُنْزَفون"[2] لظننّاك أصابك نَزْف في عقلك. فأمّا أبو بصيرٍ فما شرب إلاّ اللَّبن والعسل، وإنَّه لوقور في المجلس، وإنّما مثله معنا مثل أبي نواس في قوله:

أيُّها العاذلانِ في الراحِ لُوما	لا أذوقُ المُدامَ إلاَّ شَميما
نالني بالعِتابِ فيها إمامٌ	لا أرى لي خلافَه مُسْتقيما
إنّ حظيَّ منها إذا هي دارت	أن أراها وأن أشُمَّ النّسيما
فاصْرِفاها إلى سِوايَ فإنّي	لستُ إلا على الحَديثِ نديما
فكأنّي وما أحَسِّنُ مِنها	قَعَديٌّ يُحَسِّنُ التَّحْكيما
لم يُطِقْ حملَه السّلاحَ إلى الحَر	بِ، فأوْصى المُطيقَ ألاّ يُقيما

فيقول نابغة بني جعدة: قد كان النّاس في أيّام الدنيا الخادعة يظهر عنهم السَّفَهُ بشُرب اللّبن، لاسيَّما إذا كانوا أرِقَّاءَ لئاماً، كما قال الراجز:

يا ابْنَ هشامٍ أهلكَ النّاسَ اللَّبَنْ	فكلُّهمْ يغدو بسَيفٍ وقَرَنْ

وقال آخر:

ما دهْرُ ضبَّة فاعلمْ نَحْتُ أثْلَتِنا	وإنّما هاجَ من جُهَّالها اللَّبَنُ

وقيل لبعضهم: متى يُخاف شرُّ بني فلانٍ؟ قال: إذا ألبنوا. فيريد، بلَّغه اللهُ إرادته، أن يُصلِح بين النُّدماء، فيقول: يحب أن يُحْذرَ من مَلَكٍ يعبرُ فيرى هذا المجلس، فيرفعُ حديثه إلى الجبار الأعظم، فلا يجرُّ ذلك إلّا ما تكرهان، واستغنى ربُّنا أن تُرفعَ الأخبار إليه، ولكن جرى مجرى الحفَظَة في الدار العاجِلة، أما علمتما أنّ آدم خرجَ من الجنَّة بذنبٍ حقير، فغيرآمنٍ مَن ولَدَه آدم أن يجري

[1] – أبو موسى عبد الله بن قيس بن حضار الأشعري اليماني، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على زبيد وعدن. وولي الكوفة والبصرة لعمر وحفظ الكثير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان من أجلاء الصحابة. توفي سنة ٤٤هـ/ ٦٦٥م.
[2] – الآية ١٩ سورة الواقعة.

عليه مثل ذلك. فسألتك يا أبا بصير بالله هل يخطرُ لك تمنِّي المدام؟ فيقول: كلا والله! إنها عندي لمِثلُ الحامِض المُرّ لا يخطر ذكرها بالخَلَد. فالحمد لله الذي أغناني عنها بالعسل، فما أشتهيها أبد الدهر.

وينهض نابغة بني جعدة مغضباً، فيكرَهُ، جنَّبه الله المكاره، انصرافَه على تلك الحال، فيقول: يا أبا ليلى، إنَّ الله، جَلَّت قدرتُه، منَّ علينا بهؤلاء الحُور العِين اللواتي حوَّلهنَّ عن خِلَق الإوز، فاختر لك واحدةً منهنَّ، فلتذهبْ معك إلى منزلك، تروي لك أنباءَ الزمان، وتُسمِعك ضروب الألحان. فيقول لبيد بن ربيعة: إن أخذ أبو ليلى قينةً، وأخذ غيرُه مثلَها، انتشر الخبر في الجنَّة، فلا يُؤمَن أن يُسمَّى فاعلو ذلك أزواجَ الإوزّ، فتُضرِب الجماعة عن اقتسام أولئك القيان.

حسان بن ثابت

ويمرُّ حسَّانُ بن ثابت[1] فقولون: أهلاً أبا عبد الرحمن، ألا تجلس معنا ساعة؟ فإذا جلس إليهم قالوا: أين هذه المشروبة من خمرك التي ذكرتها في قولك:

كأنَّ سبيئة ًمن بيتِ رأسٍ   يكونُ مِزاجَها عَسَلٌ وماءُ
على أنيابِها أو طعْمَ غضٍّ   مِن التُفّاحِ هَصَّرَه اجْتناءُ
على فيها إذا ما الليلُ قلَّتْ   كواكبُهُ، ومال بها الغِطاءُ
إذا ما الأشْرِباتُ ذُكِرنَ يوماً   فهُنَّ لِطَيِّبِ الرَّاحِ الفِداءُ

ويحك! أما استحييت أن تذكر مثل هذا في مدحتك رسول الله، صلى الله عليه وسلم؟ فيقول: إنَّه كان أسمحَ ممَّا تظنُّون، ولم أقل إلا خيراً، لم أذكر أنِّي شربت خمراً، ولا فعلت ممّا نهى عنه أمراً، وإنّما وصفت ريقَ امرأةٍ، يجوز أن يكون حلالاً لي، ويمكن أن أقولـه على الظَّنِّ. وقد شفعَ صلى الله عليه وسلم في أبي بصيرٍ بعد ما تهكَّم في مواطن كثيرة، وما سُمِع بأكرم منه صلى الله عليه وسلم: لقد أوْغلْت في حديث الإفك فجلدني مع مِسْطحٍ، ثم وهب لي أختَ مارية فولدت لي عبد الرحمن، وهي خالة ولده إبراهيم.

وهو، زيّن الله الآدابَ ببقائِه، يخطُر في ضميره أشياء، يريد أن يذكرها لحسّانَ وغيره، ثم يخافُ ألا يستحسنوا ما طلب ، فيتركها إكراماً للجليس، مثل قول حسّان: "يكون مزاجها عسل وماء" يعرِض له أن يقول: كيف قلتَ يا أبا عبد الرحمن: أيكون مزاجَـها عسلٌ وماءُ، أم مزاجُها عسَلاً وماءُ، أم مزاجُها عسلٌ وماءُ على الابتداء والخبر؟ وقولِه:

فمَن يهجو رسولَ اللهِ منكمْ   ويمدحُهُ وينصُرُه، سواءُ

---

١ – حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، توفي ٥٤ هـ / ٦٧٣ م شاعر النبي (صلى الله عليه وسلم) وأحد المخضرمين، لم يشهد مع النبي (صلى الله عليه وسلم) مشهداً لعلة أصابته. توفي في المدينة.

يذهب بعضهم إلى "أنَّ من" محذوفة من قولك: ويمدحُه وينصُرُه، على أن ما بعدها صلةٌ لها. وقال قوم: حُذِفت على أنَّها نكرة، وجُعِل ما بعدها وصفاً لها، فأقيمت الصفة مقام الموصوف.

ويقول قائل من القوم: كيف جُبْنُـك يا أبا عبد الرَّحمن؟ فيقول: ألي يقال هذا وقومي أشجعُ العرب؟ أراد ستَّةٌ منهم[1] أن يميلوا على أهل الموسم بأسيافهم،

وأجاروا النبيَّ، صلى الله عليه وسلّم، على أن يحاربوا معه كلَّ عنودٍ مُكابر، فعادتهم ربيعـة ومضر وجميع العرب، وأضمروا لهم الحقد والبغضاء، وإن ظهر منّي تحرُّزٌ في بعض المواطن، فإنّما ذلك على طريقة الحزم، كما جاء في الكتاب الكريم: " وَمَن يُـوَلـِّهم يومَـئـذٍ دُبُرَه إلّا مُتـَحَـرِّفاً لِقتالٍ أو مُـتـَحَيِّـزاً إلى فِئةٍ، فـقـد باءَ بغـَضَبٍ مِن الله، ومَأواهُ جَهنَّمُ وبـِئـْسَ المصير".[2]

١ - يشير إلى الذين بايعوا بيعة العقبة الأولى ستة من الأوس وستة من الخزرج

٢ - الآية ١٦ الأنفال

عوران قيس

ويفترق أهل ذلك المجلس، بعد أن أقاموا فيه كعمر الدُّنيا أضعافاً كثيرةً، فبينا هو يطوفُ في رياض الجنَّة، لقيه خمسةُ رجال على خمسٍ من النوق، فيقول: ما رأيتُ أحسنَ من عيونكم في أهلِ الجنان! فمن أنتم خلَّد الله عليكم النّعيم؟ فيقولون: نحن عُورانُ قيسٍ: تميمُ بنُ مُقْبِلٍ العَجْلانيّ وعَمرُو بن أحمرَ الباهليُّ والشَّمّاخُ مَعْقِلُ بنْ ضِرار، أحدُ بني ثعلبةَ بنِ سعدِ بنِ ذُبيان، وراعي الإبل، عُبيدُ بنُ الحُصَين النُّمَيريّ، وحُمَيدُ بنُ ثورِ الهِلاليّ.[1]

فيقول للشَّمّاخ بنِ ضرارٍ: لقد كان في نفسي أشياءُ من قصيدتك التي على الزاي، والأخرى التي على الجيم، فأنشدنيهما لا زلت مُخلَّداً كريماً. فيقول: لقد شغلني عنهما النَّعيم الدائم فما أذكر منهما بيتاً واحداً. فيقول لفرط حبّه الأدب وإيثاره الإشادة بالفضل: لقد غَفَلتَ أيُّها المؤمن وأضعْت! أما علمت أنَّ قصيدتيك أنفعُ لك من ابنتيك؟ ذُكِرت بهما في المواطن، وشُهِرْت عند راكب السَّفَر والقاطن، وإنَّ القصيدة من قصائد النابغة، لأنفعُ له من ابنته عَقرب، ولعل تلك عابَته، وما زانَته، وأصابَها ما كان يُصيب بعضَ النساء في الجاهلية، وبعد أن كانت حُرَّة صارت سبيَّة. وإن شئت أن أنشدك قصيدتيك، فإن ذلك ليس بصعب عليّ. فيقول: أنشدني، زادك الله من نعيمه ، فينشده:

عَفا مِن سُليمى بَطنُ قَوٍّ فَعالِزُ ... فذاتُ الغَضا فالمُشرِفاتُ النَّواشِزُ

فيجدُه بها غيرَ عليم، ويسأله عن أشياء منها، فيلقاه بها غير بصير، فيقول الشَّمّاخ: شغلتني لذائذ الخُلود في النعيم عن تعَهُّد هذه المُنكَرات: "إن المُتَّقين في ظِلالٍ وعُيونٍ، وفواكهَ ممَّا يَشتهونَ، كُلوا واشْربوا هَنيئاً بما كُنتمْ تعْمَلونَ"[2]، إنّما كنت أقول هذا الشعر، وأنا آمل أن أجْزى بها ناقةً، أوأعْطى مؤونة عيالي سنةً، كما قال الراجز:

لو شاكَ من رأسِكَ عظمٌ يابِسُ ... لآلَ مِنكَ جَمَلٌ حُمارِسُ

١ - تميم بن أبيّ بن مقبل من بني العجلان من عامر(٧٠ ق. هـ - ٣٧ هـ / ٥٥٤ - ٦٥٧ م) شاعر جاهلي أدرك الإسلام وأسلم فكان يبكي أهل الجاهلية، وعمرو بن أحمر سبقت ترجمته. الشماخ لقب معقل بن ضرار الذبياني الغطفاني المتوفى ٢٢ هـ / ٦٤٢ م، شاعر مخضرم. عُبَيد بن حُصين بن معاوية النميري المتوفى ٩٠ هـ / ٧٠٨ م من فحول الشعراء المحدثين، ولقب بالراعي لكثرة وصفه الإبل.

حُميد بن ثور بن حزن الهلالي المتوفى ٣٠ هـ / ٦٥٠ م ، شاعر مخضرم، أسلم ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم.

٢ - الآيات ٤١-٤٣ سورة المرسلات.

سَوّى عليكَ الكيلَ شيخٌ بائسُ   مثلَ الحَصى يَعجبُ منهُ اللامِسُ

وأنا الآن بفضل من الله أغرف بكؤوسِ الذهب من اللبن، فتارة ألبان الإبل، وتارة البقر، وإن شئت لبنَ الضأن فإنه كثير جمّ، وكذلك لبن المَعيز، وإن اشتهيت لبنَ الظباء، فربّ نهرٍ منه كأنه دجلة أو الفرات. ولقد أراني في دار الشّقْوة أعصر بكلّ ما أوتيت من عزم ضُروع شِياهي، فلا يمتلئ منهن القدح الكبير. فيقول، لا زال قوّالاً للخير: فأين عمرُو بنُ أحمر؟ فيقول عمرٌو: ها أنا ذا. فيقول: أنشدني قولك:

بانَ الشَبابُ وَأَخلَفَ العَمْرُ   وَتغَيَّرَ الإِخوانُ وَالدَهْرُ

وقد اختلف الناس في تفسير العَمْر، فقيل: إنّك أردت البقاء، وقالوا إن العَمْرَ والعُمْرَ سواء، وقيل: إنّك أردتَ الواحدَ من عُمُور الأسنان، وهو اللَّحم الذي بينها. فيقول عمرو متمثلاً:

خُذا وَجه َهَرْشى أَو قَفاها فإِنَّهُ   كِلا جانِبَي هَرشى لهُنَّ طريقُ

ولم تترك فيَّ أهوال القيامة قوةً للانشاد، أما سمعت الآية: "يومَ ترَونَها تُذْهَلُ كلُّ مُرْضِعةٍ عمَّا أرْضعَتْ، وتضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها، وترَى النَّاسَ سُكارى وما هُمْ بسُكارى ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ"[1] وقد شهدتَ الموقف، فأعجبُ لك إذ بقيَ معك شيءٌ من روايتك! فيقول الشيخ: إنّي كنتُ أخلِص الدُّعاء في أعقاب الصلوات- قبل أن أنتقل من تلك الدار- أن يمتعني الله بأدبي في الدُّنيا والآخرة، فأجابني إلى ما سألت وهو الحميد المجيد:

ولقد يعجبني قولك:

ولقد غَدَوتُ وَما يُفَزِّعُني   خَوفٌ أُحاذِرُهُ وَلا ذُعْرُ

رُؤْدُ الشَّبابِ، كأنّني غُصْنٌ   بحَرامِ مَكّة، ناعِمٌ نَضْرُ

كشرابِ قَيْلٍ عن مَطيَّتِه   ولكُلِّ أمْرٍ واقعٍ قَدْرُ

مَدّ النَّهارُ لهُ، وطالَ عليـ   ـهِ الليلُ واستَنعَت به الخمْرُ

ومُسِفَّةٌ دهْماءُ داجِنَةٌ   رَكدَت وَأُسْبِلَ دونَها السَتْرُ

وَجَرادَتانِ تُغَنِّيانِهِمْ   وَعَليهِما الياقوتُ وَالشَّذْرُ[2]

---

١ - الآية ٢ سورة الحجّ

٢ - الجرادتان: جاريتان قيل إنهما أول من غنى من العرب العاربة في عهد عاد، وكان لعبد اللّه بن جدعان جاريتان مغنيتان يقال لهما الجرادتان، وعبد اللّه بن جدعان من أجواد الجاهلية، وفي داره عُقِد حلف الفضول، وروي الشطر الثاني: وتلألأ المرجان والشذر.

وَمُجَـلجَــلٌ دانٍ زَبَرْجَـــدُهُ حَدِبٌ كما يَتَحَدَّبُ الدُبْـرُ
ونّـان حَنّـانانِ، بَـينَهُـمــا وَترٌ أَجَشُّ غِـنـاؤُهُ زَمْـــرُ
وَبَعيرُهُمْ ساجٍ بِجَرَّتِـهِ لم يُــؤْذِهِ غَـرْثٌ وَلا نَـفْــرُ
فـإذا تجَرَّرَ شَـقَّ بازلُــهُ وَإذا أَصــاخَ فـإنَّــهُ بِـكْـرُ
خَـلُّوا طَريقَ الدَيْدَبونِ فقد وَلّـى الصِبا وَتـفـاوَتَ النَّجْـرُ

فما أردت بقولك: كشرابِ قَـيلٍ؟ الواحدُ من الأقْيال؟ أم قَـيْلَ بنَ عِـتْرٍ من عاد؟ فيقول عمرو: الوجهان صحيحان. فيقول الشيخ، بلغه الله الأمانيَّ: ممّا يدل على أنَّ المراد قيلُ بنُ عِتر، قولك: وجرادتان تغنيّانهم، لأن الجرادتين، فيما قيل، مغنِّيتان غنتا لوفدِ عادٍ عند الجرهميِّ بمكة، فشُغلوا عن الطواف بالبيت وسؤال الله، سبحانه وتعالى، فيـما قصدوا لـهُ، فـهلكت عادٌ وهـم لاهـون. ولقـد وجدت في بعض كتب الأغاني صوتاً يقال غنَّته الجرادتان، فدهشت لذلك، والصوت:

أقْـــفَـرَ مـن أهْـــلِـه المَصيفُ فبطـنُ عَـــردَة َ فـالغَـريفُ
هـلْ تُبَلِّـغَنّي ديـارَ قومي مَـــهْـرِيَّةٌ سيْرُها تـلـقيفُ
يـــا أمَّ عُـثـمـــانَ نـوِّليــنــي هـلْ ينفعُ النّـائِل الطّفِيفُ

وهذا شعر على غرار: "أقفـرَ من أهـلِه مَلحوبُ"[١] ومن الذي نُقل إلى المغنين في عصر هارون وبعدَه أنَّ هذا الشعر غنَّته الجرادتان؟ إنّ ذلك لصعبُ التصديق، وما أجدره أن يكون مكذوباً. وقولك: ومُسِفَّةٌ دهماءُ داجِنةٌ، ما أردت به؟ وما أردت بقولك: وَمُجَــلجَــلٌ دانٍ زَبَـرْجَـــدُهُ؟ فيقول ابن أحمر: أمّا ذكر الجرادتين فلا يدلُّ على أني قصدت قيلَ بن عترٍ وإن كان في الوفد الذي غنَّته الجرادتان، لأن العربَ صارت تسمّي كلُّ قَـيْنةٍ مغنيةٍ جرادةً، حملاً على أنّ قينة

في الدّهر الأول كانت تدعى الجرادة. قال الشاعر:

تُـغـنِّـيـنـا الجـرادُ ونحـنُ شَـرْبٌ نَعُلُّ الـرّاحَ خـالـطـها المَـشـورُ

وأمّا المُسِفَّة الدَّهـماء، فإنّها القِدر. وأمّا المُجَلجَلُ الداني زبَـرْجَـدُه، فهو العود، وزبَـرْجَـدُه ما حسن منه، أما تسمع القائل يسمّي ما تلوّنَ من السحاب زِبْـرِجاً؟ ومن روى: مُجَلجِـل، فقد أراد السحاب.

١ - مطلع قصيدة لعبيد بن الأبرص، والبيت كاملاً:

أقفَرَ مِن أَهلِهِ مَلحوبُ فالقُطَبِيّاتُ فالذنـوبُ

فيعجب الشيخ من هذه المقالة، ويقول: كأنّك أيُّها الرجلُ وأنت عربيٌّ صميم يُستشهَد بألفاظِك وشعرك، تزعم أن الزبَرْجَدَ من الزِّبْرِج، فهذا يقوّي ما ادعاه صاحب كتاب "العين" الخليل بن أحمد الفراهيدي من أنّ الدال زائدة في قولهم: صَلَخْدَم، وأهل البصرة ينفُرون من ذلك. فيُلهم الله القادرُ ابنَ أحمر علم التصريف، ليُريَ الشيخ بُرهان القدرة، فيقول ابن أحمر: وماذا الذي أنكرت أن يكون الزِّبْرِج من لفظ الزبَرْجَد ؟ كأنّ فعلاً صُرِّف من الزّبرجد، فلم يُمكِن أن يُؤتى بحروفه كلِّها، إذا كانت الأفعال لا يكون فيها خمسة أحرف من الأصول، فقيل: يُزَبْرِج، ثم بُني من ذلك الفعلِ اسْم فقيل: زِبْرِج، ألا ترى أنَّهم إذا صغَّروا فَرَزْدَقاً قالوا: فُرَيْزِد، وإذا جَمعوه قالوا: قالوا: فَرازِد؟ وليس ذلك بدليل على أن القاف زائدة. فيقول، خلّد الله ألفاظَه في ديوان الأدب: كأنّك زعَمتَ أنّ فعلاً أخِذ من الزَّبرْجد، ثم بُنيَ منه الزِّبرِج، ومعنى كلامك هذا، أن تكون الأفعالُ قبل الأسماء. فيقول ابن أحمر: لا يُلزمني ذلك، لأني جعلتُ زبَرْجَداً أصلاً، فيجوز أن يُحدَث َمنه فروع ليس حكمُها كحكم الأصول. ألا ترى أنهم يقولون: إنّ الفعلَ مشتقٌّ من المصدر؟ فهذا أصل، ثم يقولون: الصِّفة ُالجارية ُعلى الفعل، يعنون: الضارب والكريم وما كان نحوَهما، فليس قولُهم هذه المقالة بدليلٍ على أنّ الصفة مُشتقة ٌمن الفعل، إذا كانت اسماً، وحقُّ الأسماء أن تكون قبل الأفعال، وإنّما يراد أنَّه يُنطَق بالفعل منها كثيراً. ولمُدَّعٍ أن يقول: الفعل مشتقٌّ من المصدر فهو فرع منه، والصِّفة فرع آخر، فيجوز أن يتقدَّم أحدُ الفرعين على صاحبه. ثمَّ يذكرُ له أشياءَ من شعره، فيجده عاجزاً عن الجواب، إن نطق لم يأت بالصواب.

تميم بن أبَيّ

فيقول: أيكم تميم بن أبَيّ[1]؟ فيقول رجل منهم: ها أنا ذا. فيقول أخبرني عن قولك:

يا دارَ سلمى خَلاءً لا أكَلـِّفُـهَـا إلّا المَرَانَـة حَـتّى تَعْـرِفَ الدِّيـنـا

ما أردت بالمَرانة؟ فقد قيل: إنّك أردت اسم امرأة، وقيل: هي اسم ناقةٍ، وقيل: العادة. فيقول تميم: والله ما دخلت من باب الفردوس ومعي كلمة من الشعر ولا الرَّجز، وذلك أنّي حوسبت حساباً شديداً، وقيل لي: كنت فيمن قاتل عليَّ بن أبي طالب. وانبرى لي النَّجاشي الحارثيّ [2]، فما أفلتُّ من اللّهبِ حتى لفحتني ناره.

وإن حفظَك لغريبٌ منك، كأنّك لم تشهد أهوال الحساب، ومنادي الحَشْر يقول: أين فلان بن فلان؟ والجبابرة من الملوك تجذبهم الزّبانية إلى الجحيم، والملكات ذوات التِّيجان يَصرن من الوَقود، فتأخذُ في شعورهنَّ وأجسادهنَّ، فيَصِحْن: هل من فداء؟ هل من عُذرٍ يقام؟ والشباب من أولاد الأكاسرة يصرخون في سلاسل النار ويقولون: نحن أصحابُ الكنوز، نحن أربابُ الفانية، ولقد كانت لنا إلى الناس صنائع وأيادٍ فلا فادي ولا معين!

فهتف داعٍ من قبل العرش: "أوَلَـم نُـعَـمِّركمْ ما يَـتَـذكَّرُ فيه مَن تَـذكَّـرَ وجاءكم النّـذيـرُ فـذُوقوا فما للظالمين من نصير"[3] لقد جاءتكم الرسل في زمانٍ بعد زمان، فبيَّنوا لكم طريق الأمان، وقيل لكم في الكتاب: "واتـَّـقُـوا يوماً تُـرْجَعُون فيهِ إلى اللهِ ثمَّ تُـوَفَّى كُلُّ نفسٍ ما كَـسَـبَـتْ وهم لا يُـظْـلَـمون"[4] فكنتم في لذات الدنيا السَّاخرة واغلين، وعن أعمال الآخرة مُتشاغلين، فالآن ظهرَ الحق، لا ظلمَ اليوم إنَّ الله قد حكَم بين العباد.

١ - سبقت الإشارة إليه

٢ - النجاشي الحارثي: قيس بن عمرو بن مالك بن الحارث بن كعب بن كهلان، توفي ٤٩ هـ / ٦٦٩ م. شاعر هجاء مخضرم اشتهر في الجاهلية والإسلام وأصله من نجران باليمن انتقل إلى الحجاز واستقر في الكوفة وهجا أهلها. وكانت أمه من الحبشة فنسب إليها.

٣ - الآية ٣٧ سورة فاطر

٤ - الآية ٢٨١ سورة البقرة

قصة دخول ابن القارح الجنة

فيقولُ، أنطقه الله بكل فضْلٍ، إن شاءَ ربُّه أن يقول: أنا أقصُّ عليك قصّتي:

لمّا نهضتُ أنتفضُ من القبر، وحَضَرتُ حَرَصاتِ القيامة، والحَرَصات مثل العَرَصات، أبْدِلت الحاء بالعين، وهي الأراضي بين البيوت لا بناء فيها، ذكرتُ الآية الكريمة: «تعرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ إليهِ في يوم كانَ مِقدارُهُ خمسينَ ألفَ سنة، فاصْبِر صَبْراً جميلاً»[1] فطال علي الأمَد، واشتد الظمأ والوَمَد، والوَمَد: شدَّة الحرِّ وسكونُ الرّيح، كما قال أخوكم النّميري:

كَأنَّ بَيضَ نَعامٍ في مَلاحِفِها إذا اجْتَلاهُنَّ قيظٌ ليلُهُ وَمِدُ[2]

وأنا رجل مِهيافٌ أي سريعُ العطش، ففكّرتُ، فرأيت أمراً لا قُدرة لمثلي عليه. ولقِيَني المَلَك المُوَكّلُ بي، وأظهرَ لي ما كتب من فعل الخير، فوجدت حسناتي قليلة كالنُّفَإِ في العام الأرْمَل، والنُّفَأُ الرياض، والأرمل قليلُ المطر. إلا أن التوبةَ في آخرِها كأنّها مصباحُ راهبٍ جليلٍ، رُفِعَ لسالكِ السبيل. فلمَّا أقمت في الموقف زُهاءَ شهرٍ أو شهرين، وخِفت في عَرقي من غرقي، زيَّنتْ لي النفس الكاذبة أن أنظُم أبياتاً في رِضوان، خازنِ الجنان، عملتها في وزن:

قِفا نبْكِ من ذِكرى حبيبٍ وعِرفانِ[3]

ووسمتُها برضوان. ثمّ زاحمتُ الناس، حتى وقفت منه بحيث يسمعُ ويرى، فما أعارني انتباهاً، ولا أظنُّه اهتم بما أقول. فانقضت برهة، نحو عشرة أيام من أيّام الفانية، ثم عملت أبياتاً في وزن:

بان الخليط ولو طُووِعتُ ما بانا وقطَّعوا من حبال الوصل أقرانا[4]

ووسمتها برضوان، ثمّ دنوت منه، ففعلت كفعلي الأوَّل، فكأني أحرك الأطواد، وألتمس من

---

١ – الآيتان ٤و٥ سورة المعارج

٢ – الراعي النميري: سبق شرحه، وورد الشطر الثاني: جلاه طلٌّ وقيظٌ ليلُه وَمِدُ

٣ – على وزن مطلع معلقة امرئ القيس:

قِفا نَبكِ مِن ذِكرى حَبيبٍ وَمَنزِلِ بِسِقطِ اللِوى بَينَ الدَخولِ فَحَومَلِ

٤ – مطلع قصيدة لجرير هجا فيها الأخطل، تبلغ ثمانية وستين بيتاً، ستة وخمسون منها في الغزل، وثلاثة عشر بيتاً في الفخر والهجاء، والغزل فيها من أجمل ما قال الشعراء، مثل البيت الشهير: إنَّ العُيونَ الَّتي في طَرفِها حَوَرٌ قتلنَنا ثُمَّ لَم يُحيِينَ قتلانا

الغِضْرِم قدحَ الزناد، والغِضْرِم: تراب يشبه الجصَّ، فلم أزل أتتبع الأوزانَ التي يُمكن أن يُوسَم بها رضوان حتى أفنيتها، وأنا لا أجدُ عنده غوثاً في كثير أو قليل، ولا ظننتُه فهم ما أقول، فلمّا أدركت أني ما نجحت، دعوتُ بأعلى صوتي: يا رضوان، يا أمينَ الجبَّارِ الأعظم على الفردوس، ألم تسمع ندائي بك واستغاثتي إليك؟ فقال: لقد سمعتُك تذكر رضوان، وما علمتُ ما مقصدُك، فما الذي تطلب أيها المسكين؟ فأقول: أنا رجل لا صبر لي على اللّـواب أي العطش وقد طالتْ مدَّة الحســاب، ومعي صكٌّ بالتوبـة، والتوبة تمحو الذنّـوب كلـَّهـا ، وقد مدَحتك بأشعارٍ كثيرة ووسمتُها باسْمك. فقال: وما الأشعار؟ فإني لم أسمع بهذه الكلمة من قبل. فقلت: الأشعارُ جمع شعرٍ، والشعرُ كلامٌ موزون تقبله الغريزة ، إن زادَ أو نقص أبانه الحسُّ، وكان أهلُ العاجلة يتقرَّبُون به إلى الملوك والسادات، فجئتُ بشيء منه إليك لعلـَّك تأذن لي بالدُّخول إلى الجنة في هذا الباب، فقد استطلت ما الناس فيه، وأنا رجلٌ ضعيف ، ولا ريب أنّي ممن يرجو المغفرة، وتصحُّ له بمشيئة الله تعالى. فقال: إنك لذو رأيٍ غير رشيد، أتأمَـلُ أن آذن لك بغير إذنٍ من ربِّ العزة؟ هيهات هيهات! "وأنَّى لهُـمُ التناوُشُ من مكانٍ بعيدٍ"[١].

١ - الآية ٥٢ سورة سبأ

مدح زُفَـر

فتركته وانصرفت بأملي إلى خازنٍ آخر يقال له زُفَـر، فعملتُ كلمة ًووسمتها باسمه في وزن قول لبيد:

تمنّى ابنتايَ أن يعـيشَ أبوهُـمـا وهـلْ أنـا إلاّ مِـنْ ربيعة َأو مُـضَرْ

وقرُبتُ منه فأنـشدتها، فكأني إنّما أخاطبُ صخرة ًصمّاء، لأستنزل منها الماء. ولم أترك وزناً مُقيّداً ولا مطلقاً يجوزُ أن يوسَم بزُفَـر إلا وسَمْته به، فما أفاد ولا غيَّر. فقلت: رحمك الله! كنَّا في الدار الذاهبة نتقرّب إلى الرئيس والملك بالبيـتيـن أو الثلاثة، فنجد عنده ما نحب، وقد نظمت فيك ما لو جُمع لكان ديواناً، وكأنّك ما سمعت لي زجْمَةً أي كلمة. فقال: لا أشعرُ بالذي حَمَمْت أي قصدت، وأحسَبُ هذا الذي تجيئني به قرآنَ إبليسَ المارد، ولا ينفـُقُ على الملائكة، إنّما هو للجان وعلـَّموه ولـَدَ آدم، فما بُغيتك؟ فذكرتُ له ما أريد، فقال: والله ما أقدر على أن أنفع، ولا أملِكُ لك ولغيرِك أن أشفع، فمِن أيِّ الأمم أنت؟ فقلت: من أمة محمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب. فقال: صدقت، ذلك نبيُّ العرب، ومن تلك الجهة أتيتني بالشـِّعر، لأنّ إبليسَ اللعين نفـثـَه في إقليم العرب فتعلـَّمه رجالـُهم ونساؤهم. وقد وجَب عليّ نُصحُك، فعليك بصاحبك لعلـَّه يتوصّلُ إلى ما ابتغيت.

حمزة بن عبد المطّـلب

فيئِسْتُ ممّا عنده، فجعلت أتفرَّس في الناس، فإذا أنا برجل عليه نورٌ يتلألأ، وحواليه رجال تأتلق منهم أنوار. فقلت: مَن هذا الرجل؟ فقيل: هذا حمزة بن عبد المطّـلب صريعُ وحْشيٍّ، وهؤلاء الذين حوله مَن استُشهـدِ من المسلمين في أحُدٍ. فقلت لنفسي الكذوب: الشِّعر عند هذا أنفقُ منه عند خازن الجنان، لأنَّه شاعر، وإخوتُه شعراء، وكذلك أبوه وجدُّه، ولعلَّه ليس بينه وبين مَـعَـدٍّ بن عـدنان إلا من قد نـظم شـيئاً من موزون، فعملـت أبياتاً على منهج أبيات كعب بن مالكٍ[1] التي رثى بها حمزة، وأوّلها:

صَفِيَّةُ قُومي ولا تَـعْـجَـزي وبَـكّي النّسـاءَ عـلى حَـمْـزَةِ

وجئتُ حتى اقتربت منه فناديت: يا سيّدَ الشهداء، يا عمَّ رسول الله صلَّى الله عليه سلّم، يا ابنَ عبد المطَّلب! فلمّا أقبل عليّ بوجهه أنشدتُه الأبيات. فقال: ويحك! أفي مثل هذا الموقف تجيئُني بالمديح؟ أما سمعت الآية: "لكلِّ امْرِىءٍ منهم يومَـئـذٍ شأنٌ يُغنيه" فقلت: بلى قد سمعتها، وسمعت ما بعدها: " وُجوهٌ يومئذ مُسفِرةٌ، ضاحِكةٌ مُستَـبشِرةٌ، ووجوهٌ يومئذٍ عليها غَـبَـرةٌ، تُرهِقها قَـتَـرةٌ، أولئك هم الكَـفَـرة الفَـجَـرة "[2]. فقال: إنِّي لا أقدِرُ على ما تطلب، ولكني أرْسِل معك رسولاً إلى ابْن أخي عليّ بن أبي طالبٍ، ليخاطبَ النبيَّ صلّى الله عليه وسلَّم في أمرك. فبعث معي رجلاً، فلمّا قصَّ قصتّي على أمير المؤمنين، قال: أين بَيِّـنتُك؟ يعني صحيفةَ حسناتي. وكنت قد رأيت في المحشر شيخاً لنا كان يدرِّس النحوَ في الدار العاجلة، يُعرَف بأبي عليّ الفارسيّ، وقد أحاط به قومٌ يُجادلونه، ويقولون: تأوَّلتَ علينا وظلمتنا. فلمّا رآني أشارَ إليّ بيده ، فجئتُه فإذا عنده طبقةٌ، منهم يزيد بن الحكم الكِلابيُّ[3]، وهو يقول: ويحك، أنشدت عني هذا البيت برفع الماء، يعني قوله:

فـليتَ كَـفـافـاً كان خيـرُكَ كُلُّـهُ وشَرُّكَ عَنّي ما ارتـوى الماءُ مُرتَـوي

---

١ – كعب بن مالك بن عمرو الأنصاري (٢٧ ق.هـ – ٥٠ هـ / ٦٧٠– ٥٩٦ م) صحابي من شعراء النبي صلى الله عليه وسلم وشهد أكثر الوقائع.

٢ – الآيات ٣٧– ٤٢ سورة عبس

٣ – يزيد بن الحكم بن أبي العاص الثقفي المتوفى ١٠٥ هـ / ٧٢٣ م شاعر عالي الطبقة، من أعيان العصر الأموي، كان أبي النفس شريفاً من حكماء الشعراء. ولم يرد نسبه على أنه « كلابي « إلا عند أبي العلاء.

ولم أقل إلا الماءَ. وكذلك زعمت أنِّي فتحت الميم في قولي:

تبَدَّلْ خليلاً بي كشَكْلِكَ شَكلُهُ   فإنّي خليلاً صالِحاً بكَ مَقْتَوي

وإنّما قلت: مُقتوي بضمِّ الميم.

وإذا هناك راجزٌ [1] يقول: تأوّلت عليّ أنّي قلت:

يا إبِلي ما ذامُهُ فتأبِيَه   ماءٌ رَواءٌ ونَصِيٌّ حَولِيَه

فحرَّكت الياء في تأبيه، ووالله ما فعلت ولا غيري من العرب.

وإذا جماعةٌ من هذا الجنس كلهم يلومونه على تأويله. فقلت: يا قومُ، إن هذه أمورٌهيِّنةٌ، فلا تُعَنِّفوا هذا الشيخ، فإنّه يمُتُّ بكتابه في القرآن المعروف المعروف بكتاب «الحجَّة»، وإنه ما سَفَك لكم دماً،ولا أخذ لكم مالاً، فتفرَّقوا عنه.

وشُغلت بخطابهم والنَّظر في جوابهم، فسقط مِنّي الكتابُ الذي فيه ذِكرُ التَّوبة، فرَجَعْت أطلبُه فما وجدْتُه، فأظهرْتُ الجَزع، فقال أميرُ المؤمنين: لا عليك، ألك شاهدٌ بالتَّوبة؟ فقلت: نعم، قاضي حلب. فقال: ما اسْمُ ذلك الرجل؟ فقلت: عبد المنعم بن عبد الكريم قاضي حلب، حرَسها الله، في أيَّام شِبل الدَّولة، فأقام هاتفاً يهتف في الموقف: يا عبدَ المنعم بنَ عبد الكريم قاضي حلب في زمان شبل الدَّولة، هل معك عِلمٌ من توبة عليّ بن منصور بن طالب الحلبيِّ الأديب؟ فلم يُجبه أحد، فأخذني الهلع والقِلُّ، أي الرَّعْدة. ثم هتف الثانية، فلم يجبه مجيب، فلِيح بي عند ذلك أي صُرِعْت إلى الأرض، ثمّ نادى الثالثة، فأجابه قائلٌيقول: نعم، قد شهدتُ توبةَعليِّ بن منصور، وحضرت ذلك عندي جماعةٌمن العدول، وأنا يومئذٍ قاضي حلب وأعمالِها، والله المُستعان. فعندها نهضتُ وقد رُدَّت إلي روحي، فذكرتُ لأميرالمؤمنين، عليه السَّلام، ما ألتمِس، فأعرَض عنَّي وقال: إنَّك لترومُ منكراً مُمتنِعاً، ولك أسوةٌ بولَد أبيك آدم. وهممت بالحوض، فكِدتُ لا أصل إليه، ثمّ شرِبتُ منه جُرعاتٍ لا ظمأ بعدها، وإذا الكفَرَة يحمِلونَ أنفسَهم على أن يَردوه، فتدفعُهم الزَّبانية بعِصيٍّ تضطرم ناراً، فيرجعُ أحدُهم وقد احترق وجهُه أو يدُه، وهو يدعو بوَيلٍ وثُبور.

١ - هو عطاء بن أسيد السعدي، راجز من بني عوانة من زيد مناة بن تميم.

مع فاطمة الزهراء

فطُفْتُ على آل بيتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكرام المُختارين، فقلت: إنّي كنتُ في الدار الذاهبة إذا كتبتُ كتاباً وفرَغْت منه، قلت في آخره: وصَّلى الله على سيّدنا محمّد خاتم النّبـيِّـيـن، وعلى عِترتِه الأخيار الطَّيبين. وهذه حرمةٌ لي ووسيلةٌ، فقالوا:ما نصنع بك؟ فقلت: إنَّ مولاتنا فاطمة، عليها السلام، قد دخلت الجنَّة منذ دهرٍ، وإنَّها تخرج في كلِّ حينٍ مقداره أربعٌ وعشرون ساعةً من الدُّنيا الفانية فتُسلِّم على أبيها، وهو قائمٌ لشهادة القضاء، ثمّ تعودُ إلى مُستقرِّها من الجنان، فإذا هي خرجَت كالعادة، فاسألوا في أمري بأجمعِكم، فلعلها تسأل أباها فيَّ، فلمّا حان خروجُها ونادى المنادي: أن غُضُّوا أبصارَكم يا أهلَ الموقف حتى تعبُرَ فاطمة بنت محمد، صلّى الله عليه وسلم، اجتمع من آل أبي طالبٍ خَلْقٌ كثيرٌ، من ذكورٍ وإناثٍ، ممّن لم يشربْ خمراً، ولا عرَف قطُّ منكراً. فلقُوها في بعض السّبيل، فلمّا رأتهم قالت: ما بالُ هذا الحشد؟ ألكم حالٌ تذكر؟ فقالوا: نحن بخيرٍ، إنّا نلتذُّ بتُحف أهل الجنّة، غيرَ أنَّا محبوسون للكلمة السابقة، ولا نريدُ أن نتسرَّع إلى الجنّة من قبلِ الميقات، إذ كنّا آمنين ناعمين بدليل قوله: "إنَّ الذين سَبَـقَـتْ لهم منّا الحُسنى أولئكَ عنها مُـبعَـدون. لا يَسمَعون حسيسَها وهم في ما اشْتهَت أنفُـسُهم خالِـدون. لا يَـحْزُنُهم الفَـزعُ الأكبرُ، وتـتـلـَـقَّـاهُمُ الملائكة هذا يومُكُمُ الذي كُـنتُم تُوعَدون"[1]

وكان فيهم عليُّ بن الحسين وابناه محمّدٌ وزيدٌ، وغيرُهم من الأبرار الصالحين. ومع فاطمة، عليها السّلام، امرأةٌ أخرى تجري مَجراها في الشرف والجلالة، فقال: من هذه؟ فقيل: خديجة ُابنة ُخويلد بنِ أسَد بنِ عبد العُزَّى، ومعها شبابٌ على أفراسٍ من نورٍ. فقيل: عبد الله، والقاسم، والطـَّيِّـب، والطاهر، وإبراهيم: بنو محمدٍ، صلّى الله عليه وسلم. فقالت تلك الجماعة التي سألتُ: هذا وليٌّ من أوليائِنا، قد صحّت توبتُه، ولا ريبَ أنَّه من أهل الجنَّة، وقد توسَّل بنا إليك، سلامُ الله عليك، في أن يُراح من أهوالِ الموقف، ويصيرَ إلى الجنّة فيتعجلَّ الفوز. فقالت لأخيها إبراهيم، سلامُ الله عليه: دونَك الرجل. فقال لي: تعلـَّـق بركابي. وجعلت تلك الخيلُ تخترق المجال، وتنكشف لها الأمم والأجيال، فلما عَظـُم الزِّحام طارت في الهواء، وأنا متعلّق بالرِّكاب، فوقفتُ عند محمّدٍ، صلّى الله

---

[1] - الآيات ١٠١-١٠٣ سورة الأنبياء

عليه وسلم، فقال: من هذا الغريب؟ فقالت له: هذا رجلٌ سأل فيه فلانٌ وفلانٌ - وسمَّت جماعةً من الأئمة الطاهرين- فقال: حتَّى يُنظر في عمله. فسأل عن عملي فوجَد في الدّيوان الأعظم وقد خُتِم بالتوبة، فـشـَفَع لي، فأذِنوا لي بالدُّخول. ولمَّا انصرفت الزَّهراء، عليها السلام، تعلَّقت بركابِ إبراهيم، صلّى الله عليه. فلمّا خلصت من ذلك الزِّحام، قيل لي: هذا الصِّراط فاعْـبُر عليه. فوجدتُه خالياً لا أحدَ عنده، فأردت العُبور، فوجدتُني لا أستمسك. فقالت الزَّهراء، سلام الله عليها، لجاريةٍ من جواريها: فلانة أجيزيه. فجعلت تُمارسني وأنا أترنَّح يميناً وشمالاً، فقلت: يا هذه، إن أردْتِ سلامتي فاسْتعمِلي معي قولَ القائل في الدار العاجلة:

ســتِّ إن أعـيـاك أمـــــري فــاحْــمِــلــيــنــي زقْــفــونَــةْ

فقالت: وما زقفونة؟ قلت: أن يضعَ الإنسانُ يديه على كتفي الآخر، ويمسكه الحاملُ بيديه، ويحملـُه وبطنُه إلى ظهرِه، أما سمعتِ قول الجَحْجَلول من أهلِ كـَفْـرِطابٍ:

صلـُحَت حالتي إلى الخلفِ حتـى صِرتُ أمـشي إلى الـورى زقـْفـونـةْ

فقالت: ما سمعتُ بزَقـْفـونـة، ولا الجَحْجَلول، ولا كـَفـْرِطابٍ إلاّ الساعة. فتحملـُـني وتعبر كالبرق الخاطف. فلمّا عبرت، قالتِ الزَّهراء، عليها السلام: قد وهبنا لك هذه الجارية، فخُذْها كي تخدمك في الجنان. فلمّا وصلت إلى باب الجنّة، قال لي رضوان: هل معك من جوازٍ؟ فقلت: لا. فقال لا سبيل لك إلى الدخول إلّا به فاحترت بالأمر، وعلى باب الجنَة من داخلٍ شجرة صفصافٍ، فقلت: أعطني ورقةً من هذه الصَّفصافة حتى أرجع إلى الموقف فآخذ عليها جوازاً، فقال: لا أخرج شيئاً من الجنَّة إلاّ بإذنٍ من العليِّ الأعلى، تقدَّس وتبارك. فلمّا ذُهلت بالنازلة، قلت: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون! لو أن للأميرِ أبي المُرَجّى خازناً مثلَك، لما وصلت أنا ولا غيري إلى درهم من خزانته. والتفت إبراهيم، سلام الله عليه، فرآني وقد تخلفت عنه، فرجع إليَّ فجذبني جذبة قذفني بها إلى الجنة. وكان مُقامي في الموقف مدَّة ستَّةِ أشـهرٍ من شُهـور العاجلة، فـلذلك بقي عليَّ حفظي ما قـلَّلَتْه الأهوال، ولا أنهكه تدقيق الحساب.

في الجنة مجدداً

فأيكم راعي الإبل؟ فيقولون: هذا. فيسلّم عليه الشيخ ويقول: أرجو أن لا أجدَك مثلَ أصحابك وقد نسيت كلَّ شيء. فيقول: أرجو ذلك، فاسألْني ولا تُطل. فيقول: أحقٌّ ما روى عنك سيبويه في قصيدتِك التي تمدح بها عبد الملك بن مروان من أنَّك تنصِبُ الجماعة في قولك:

أَيـامَ قومي وَالجَـماعَـة كالـذي ... لـزِمَ الرِحالَـة أن تَـميلَ مَـميلا

فيقول: حقٌّ ذلك.

حميد بن ثور

وينصرف عنه راشداً إلى حُـمَـيد بنِ ثور فيقول: إيه يا حميد! لقد أحسنت في قولك:

أرى بَـصَري قـد رابَـني بَعـدَ حِـدَّةٍ   وَحَـسْـبُك داءً أن تَـصِحَّ وتَـسْـلَـما
وَلن يَـلبَـثَ العَـصرانِ يَـومٌ وَلـيـلـةٌ   إذا طَـلَـبـا أَن يُـدرِكا ما تـيَـمّـمَـا

فكيف بصرُك اليوم؟ فيقول: إنِّي لأكون في مغاربِ الجنَّة، فألمحُ الصَّديقَ من أصدقائي وهو بمشارقِها، وبيني وبينه مسيرةُ ألوفِ أعْوامٍ للشمس التي عَـرفـنا سُرعةَ مَسيرِها في العاجلة! فتعالى الله القادر على كلّ بديع. فيقول: لقد أحسنت في الدالية التي تقول فيها:

تتابَـعَ أعـــوامٌ عـليها هَـزَلْـنها   وأقـبَل عامٌ يُـنعِـشُ النّاسَ واحِدُ

فيقول حميدٌ: لقد ذُهِـلتُ عن كلّ ميمٍ وسين، وشُغلت بملاعبة الحورالعين عن النساء، وعن طرَدِ البيض من الظباء، بما وهب ربِّي الكريم، ولا خوفَ عليَّ ولا حزن، ولقد كان الرجل مِنّا يُعمِل فكرَه السَّنةَ أو الأشهُرَ في الرَّجل قد آتاه الله الشَّرف والمال، فربّما رجَع بالخيبة، وإن نال فنوال زهيدٌ، ولكنَّ النّظْمَ فضيلة العرب.

ويعرِض لهم لبيدُ بن ربيعة فيدعوهم إلى منزله بالقيسيَّة، ويُقسم عليهم أن يذهبوا معه، ويتمشون قليلاً، فإذا هم بأبياتٍ ثلاثةٍ ليس في الجنَّة نظيرُها بهاءً وحُسناً، فيقول لبيدٌ: أتعرف أيُّها الأديبُ الحلبيُّ هذه الأبيات؟ فيقول: لا والذي حجَّت القبائلُ كعبتَـه! فيقول: أمَّا الأول فقولي:

إنَّ تـقوى رَبِّنا خَـيرُ نَـفَـلْ   وبـإِذنِ اللـّهِ رَيْـثي وَعَـجَـــلْ

وأمّا الثاني فهو قولي:

أحْـمَـدُ اللـّـه َ، فلا نِـدَّ لَـهُ   بيدَيهِ الخـيْـرُ ما شـاءَ فـعَـلْ

وأمّا الثالث فقولي:

مَن هَـداهُ سُبُلَ الخيرِ اهْتدى ناعمَ البال، ومَن شاءَ أضَلّ

صيَّرها ربِّي اللّطيف الخبيرُ أبياتاً في الجنـّة، أسكُنها إلى الأبد، وأنعَـُم نعيم من خلـد. فيعجب هو وأولئك القوم ويقولون: إنَّ الله قديرٌ على ما أراد.

ويبدو له، أيَّد اللهُ مجدَه بالتأييد، أن يصنع مأدبةً في الجنان، يجمع فيها من أمكن من الشعراء المخضرمين وشعراء الإسلام، والذين أصَّلوا كلامَ العرب، وجعلوه محفوظاً في الكتب، وغيرَهم ممّن يأنسُ بالأدب وإن كان قليلاً. فيخطر له أن تكونَ كمآدب الدار العاجلة، إذ كان الباريء، جلَّت عظمته، لا يُعْجزُه أن يأتيَهم بجميع الأغراض، من غير كُلفةٍ ولا إبطاءٍ، فتنشأ رَحَاً هنا ورحَاً على الكوثر، تُجَعْجِع لطحْنِ بُـرٍّ من بُـرّ الجنّة، وتذكَّرَ بُرَّ الهذليِّ الذي قال فيه:[1]

لا دَرَّ دَرِّيَ إن أَطعَمْتُ نازِلَكُمْ قِرْفَ الحَتِيِّ وَعِندي البُرُّ مَكْنوزُ

لكن بُـرَّ الجنة يفضُلُ ذاك البُـرَّ بمقدارِ ما تفضل به السموات الأرض، فيقترح، أمضى القادرُ له اقتراحَه، أن تحضُرَ بين يديه جوارٍ من الحُورِ العين، يطحَنَّ بأرْحاء اليَـد ممّا كانت النساء يطحنَّ بها في الحياة الفانية: فرحىً من دُرٍّ، ورحىً من عَسْجدٍ، وأرحاءٌ لم يَـرَ أهلُ العاجلة شيئاً من شكلِ جواهرِهنّ. فإذا نظر إليهنّ، حمد الله سبحانه على ما مَنح، وذكـر قول الرّاجزيصفُ رحى اليد:

أعْـدَدتُ للضَّيفِ وللجيرانِ جَـريَّتَـينِ تـتَـعـاورانِ
لا تـَرْأمـانِ وهُـما ظِـئْـرانِ

ويبتسمُ إليهِـنَّ ويقول: اطْحَـنَّ شـَزْراً وبَـتّاً. فيقلـن: ما شَـزْرٌ وما بَـتٌّ؟ فيقول: الشَّزْرُ على أيمانِكُنَّ، والبَتُّ على شمائِـلكُنَّ، أما سمعْـتُـنَّ قول القائل:

ونُـصْبِـح بالغَـداةِ أتـَرَّ شـيءٍ ونُمسي بالعَشيِّ طَلَنْفحِينا
ونَطْحَنُ بالرَّحى شَـزْراً وبَـتّـاً ولوْ نُعْطى المَغازِلَ ما عَيِينا

ويقال: إن هذا الشَّعرَ لرجل أسِرَ فكتب إلى قومه بذلك يستعجلهم فَكاكه.

---

١ - مالك بن عويمر بن عثمان الهُذلي ويلقب المتنخّل.

ويخطر في بالـه، عمَّره الله بالسُّرور، ذكرُ أرحاءٍ تدور فيها البهائم، فيمثل بين يديه ما شاء الله من البيوت، فيها أحجارٌ من جواهرِ الجنّة، تُدير بعضها جِمالٌ ترعى ما خلق الله لها من نبات المرعى في الفردوس، ونوق وصنوفٌ من البغال والبقر والحمير، فإذا اجتمع من الطَّحْنِ ما يظنُّ أنَّه كافٍ للمأدبة، تفرَّق خدَمُه من الوِلدان المخَـلـَّدين فجاؤوا بالجِداء وضُروب الطير التي جرت العادة بأكلها، والسَّمين من دَجاج الرَّحْمَة وفراريج الخلد، وسيقت البقر والغنم والإبل لتذبح وتُنحر، وذلك كلُّه، بحمد الله، لا ألمَ فيه، وإنَّما هو جِـدٌّ مثلُ اللَّعب، فلا إله إلاّ الله الذي ابتدع خلقَـه من غير رويّةٍ، وصوَّره بلا مثال. فإذا وُضِعت اللحوم فوق الموائد، قال، زاد الله أمرَه من النَّفاذ: أحضِروا من في الجنَّة من الطُّهاة السّاكنين بحلب على مرِّ الأزمان، فتحضر جماعةٌ كثيرةٌ، فيأمُرُهم باتِّخاذ الأطعمة، وتلك لذِّةٌ يهبها الله، عزَّ سلطانُه، بدليل قوله: " يُطافُ عَـليْهِم بِصِحافٍ من ذَهبٍ وَأَكْوابٍ وفِيها مَا تَـشْـتـهِـيهِ الأَنـفُـسُ وَتَـلَـذُّالأعْيُـنُ وأنـتُـمْ فـيها خالِـدونَ،وتِـلـكَ الجَـنـَّـةُ التي أُورِثْـتُـمُوها بمَا كُـنْـتُـمْ تَعْـمَلـونَ، لكُمْ فيها فـاكِـهَـةٌ كَـثِـيـرَةٌ مِـنْها تَـأْكُـلونَ "[1]

فإذا أتت الأطعمة، افترق غِلمانُه الذين كأنَّهم اللُّؤلؤ المكنونُ لإحضار المَدعوِّين، فلا يتركون في الجنَّة شاعراً إسلامياً، ولا مُخضرماً، ولا عالِـماً بشيءٍ من أصناف العلوم، ولا مُتأدِّباً إلّا أحضّروه، فيجتمع بَـجْـدٌ عظيمٌ، والبَجْدُ: الخَـلْـق الكثير، قال الشاعر:[2]

تَـلُـــوذُ الـبُـجُـودُ بـأَذْرَائِـنَـــا   مِن الضُّرِّ في أزَمَاتِ السِّـنِـينـا

فتوضع الموائد من الذهب، والصِحاف من الفضة، ويجلس عليها الآكلون، وتنقل إليهم الصُّحون، فإذا قضوا الأرَبَ من الطعام، جاءت السُّقاة بأصناف الأشربة، والمغنيات بالأصوات المطربة.

١ - الآيات ٧١- ٧٣ سورة الزخرف

٢ - كعب بن مالك الأنصاري

مجلس الغناء

ويقول، لا فتىء ناطقاً بالصواب: عليَّ بمن في الجنة من المغنِّين والمغنِّيات ممّن كان في الدارالعاجلة، فقُضيت له التّوبة، فتحضر جماعةٌ كثيرةٌ من رجالٍ ونساءٍ: فيهم الغَريض، ومَعْبدٌ وابنُ مِسْجَحٍ، وابن سُرَيجٍ، إلى أن يحضر إبراهيم المَوصِليُّ وابنه إسحاق. فيقول قائلٌ من الجماعة، وقد رأى أسراب قيانٍ قد حضرن مثل بَصْبَص ودنانير وعِنان [1]: إن الجرادتين في أقاصي الجنة.

فإذا سمع ذلك لا برِحَ سمعُه مطروقاً بما يُبهجه، قال: لابدَّ من حضورهما. فيركبُ بعض الخدم ناقة من نوق الجنَّة، ويذهب إليهما على بعد مكانهما، فتقبلان

على نجيبين أسرع َمن البرقِ اللامع. فإذا صارتا في المجلس، حيَاهما وبشَّ بهما وقال: كيف خلصْتما إلى دارِ الرحمة بعدما خبَطْتُما في الضلال؟ فتقولان: قُدِّرت لنا التَّوبة، ومُتنا على دين الأنبياء المرسلين.

فيقول: أحسن اللهُ إليكما، أسمعانا شيئاً من التي تروى لعُبيد مرة ولأوس أخرى[2]، وما سمعتا قطُّ بعُبَيدٍ ولا أوْسٍ، فتُلهَمان أن تغنِّيا بالمطلوب، فتلحِّنان:

ودِّعْ لمِيسَ وَداعَ الصَّارِمِ اللّاحي — قد فنَّكتَ في فَسادٍ بعد إصلاحِ

إذ تستَبيكَ بمَصْقولٍ عَوارِضُهُ — حَمْشِ اللِثاتِ عِذابٍ غيرِ مِمْلاحِ

قاتلها اللهُ تَلْحاني وقدْ عَلِمتْ — أَنِّي لِنفْسيَ إفسادي وإِصْلاحي

كأنَّ ريقَتَها بعد الكرَى اغْتَبَقتْ — مِنْ ماءِ أَدْكَنَ في الحانوت نضَّاحِ

أَوْ مِن مُشَعْشَعَةٍ وَرْهَاءَ نَشْوَتُها — أَوْ من أنابيبِ رُمَّانٍ وتُفَّاحِ

ولا مَحالَة مِنْ قبْرٍ بِمَحْنِيَةٍ — أو في مَليعٍ كظَهْرِ التُّرسِ وضَّاحِ

---

١ – أشهر المغنين والمغنيات من الجاهلية إلى العصر العباسي

٢ – عبيد بن الأبرص، وأوس: أوس بن حَجَر بن مالك التميمي. (٩٥ – ٢ ق. هـ / ٥٣٠ – ٦٢٠ م) ، من كبار شعراء تميم في الجاهلية. عُمّر طويلاً ولم يدرك الإسلام. في شعره حكمة ورقة، وكان غزلاً مغرماً بالنساء. ولم يقل أحد غير المعري إن الأشعار قد تكون لعبيد، بل تجمع المصادر على أنها لأوس.

فتُطرِبان من سمع، وتستفِزَّان الأفئدةَ بالسُّرور، ويكثر حمدُ الله سبحانه، كما أنعم على المؤمنين والتّائبين، وخلَّصهم من دار الشّقوة إلى محلِّ النَّعيم.

ويعرض له، أدامَ اللهُ الجمالَ ببقائِه، الشَّوقُ إلى نظرِ سَحابٍ كالسحاب الذي وصفه قائل هذه القصيدة في قوله:

إنّي أرِقْتُ وَلم تأرَقْ مَعي صاحِ ... لِمُسْتَكِفٍّ بُعَيدَ النومِ لَوّاحِ
قد نِمتَ عَنّي وَباتَ البَرْقُ يُسْهِرُني ... كما اسْتضاءَ يَهودِيٌّ بِمِصباحِ
يا مَنْ لبَرقٍ أبيتُ الليلَ أرقُبُهُ ... في عارضٍ كمُضيءِ الصُّبْحِ لمَّاحِ
دانٍ مُسِفٌّ فُوَيقَ الأرضِ هَيدَبُهُ ... يكادُ يدفعُهُ مَنْ قامَ بالرَّاحِ
كأنَّ رَيِّقَهُ لمَّا علا شَطِباً ... أقْرابُ أبْلَقَ ينْفي الخيلَ رمَّاحِ
كَأنَّما بَينَ أَعْلاهُ وَأَسْفَلِهِ ... رَيْطٌ مُنَشَّرَةٌ أَو ضَوءُ مِصباحِ
فمَن بِنَجْوَتِهِ كمَنْ بِمَحْفِلِهِ ... وَالمُسْتكِنُّ كمَن يَمشي بِقِرواحِ
فَأصبَحَ الرَوضُ وَالقيعانُ مُمْرِعَةً ... مِن بَذينِ مُرتَفِقٍ مِنها وَمُنطاحِ

فينشيء الله، تعالت آلاؤه، سَحابةً كأحسنِ ما يكون من السُّحب، من نظر إليها شهد أنَّه لم ير قطُّ شيئاً أحسنَ منها، محلاّةً بالبرقِ في وسطها وأطرافها، تمطر بماء ورد الجنَّة من طلٍّ وطشٍّ ، وتنثر حصى الكافور كأنَّه صغارُ البَرَد، فعزَّ إلهنا القدير الذي لا يعجزه تصوير الأمانيّ وتكوين الهواجس من الظُنون.

ويلتفت فإذا هو بجِران العَوْدِ النُّمَيريّ،[1] فيُحَيِّيه، ويقول لبعض القيان :

فتصيب تلك القينة وتجيد. فإذا عجبت الجماعة من إحسانها وإصابتها قالت: أتدرون من أنا؟ فيقولون: لا والله المحمود! فتقول: أنا أمُّ عمروٍ التي يقول فيها القائل:

تصُدُّ الكأسَ عنَّا أمُّ عَمْروٍ ... وكان الكأسُ مَجراها اليمينا

---

١ - جران العود عامر بن الحارث النميري المتوفى ٦٨ هـ / ٦٨٧ م، شاعر وصاف. وجران العَود معناه (مقدم عنق البعير المسن). ولُقِّب بذلك لقوله:

خُذا حَذراً يا جارَتيَّ فإنَّني ... رأَيتُ جِرانَ العَوْدِ قد كادَ يَصْلحُ

أَراد بِجران العَوْد سوطاً قدَّه من جِران عَوْدٍ نَحَره وهو أَصلب ما يكون.

وما شــرُّ الـثـلاثـةِ أمَّ عَـمْـروٍ بصاحِبك الـذي لا تُـصبحـيـنـا

أسمعينا قول هذا المحسن:

حمَلْنَ جران العَودِ حتى وضَعْنَه بعَـلـياءَ في أرجائِها الجِـنُّ تعْـزِفُ
وأحْـرَزْنَ مـنَّـا كلَّ حُـجْـزَة مِـئْـزَرٍ لـهُـنَّ وطاحَ النَّـوفَـليُّ المُزَخْـرَفُ
وقُـلْنَ تَـمَـتـَّعْ لـيـلـةَ الـنـأيِ هَـذه فـإِنـَّكَ مَـرْجـومٌ غـداً أَو مُـسَـيَّـفُ

فيزدادون بها عجباً، ولها إكراماً، ويقولون: لمن هذا الشعر؟ ألِعَمرو بن عديٍّ اللَّخْمي؟ أم لعمرو بنِ كُلثوم التغْـلبيِّ؟ فتقول: أنا شهدت نَدْمانَي جذيمة: مالكاً وعقيلاً، وصَبَحتُهما الخمرَ المُـشـعْـشَعة، لمّا وجدا عمرَو بن عديٍّ، فكنت أصرِف

الكأس عنه، فقال هذين البيتين، فلعلَّ عمرو بن كلثومٍ حسَّن بهما كلامَه واستزادهما في أبياته.

رقص الجواري

ويذكر، أذكره الله بالصّالحات، الأبيات التي تُنسب إلى الخليل بن أحمد، والخليل يومئذٍ في الجماعة، وأنها تصلح لأن يُرقَـص عليها، فينشىء الله، القادر بلطف حكمته، شجرةً من الجَوز فتونع لوقتِها، ثمّ تنفض عدداً لا يحصيه إلاّ الله سبحانه، وتنشقُّ كلُّ واحدةٍ من ثمارها عن أربع جوارٍ يرُقْنَ الناظرين، ممَّن قَرُب والنّائين، يرقصن على الأبيات المنسوبة إلى الخليل، وأوّلها:

إنَّ الخَـليـطَ تَـصَـدَّعْ فـطِـرْ بِـدائِـكَ أو قَـعْ

لـولا جَـوارٍ حِسـانٌ مـثْـلُ الـجـآذِرِ أرْبَـعْ

أمُّ الـرَّبـابِ وأسْـمـا ءُ والـبَـغُـومُ وبَـوزَعْ

لـقُـلـتُ للظّاعِـنِ اظْـعَـنْ إذا بَـدا لـكَ، أو دَعْ

فتهتزّ أرجاء الجنَّة، ويقول، لا زال مُنطَـقاً بالسَّداد: لمن هذه الأبيات يا أبا عبد الرحمن؟ فيقول الخليل: لا أعلم. فيقول: إنّا كنّا في الدار العاجلة نروي هذه الأبيات لك. فيقول الخليل: لا أذكُر شيئاً من ذلك، ويجوز أن يكون ما قيل حقّاً. فيقول: أفنسيت يا أبا عبدِ الرحمن وأنتَ أذكرُ العربِ في عصرك؟ فيقول الخليل: إنّ عُبورَ السِّراط ينفُض العقل ممّا اسْتُودِع. ويخطرُ له ذِكرُ الفُـقّاع الذي كان يُعمَل في الدار الخادعة، فيُجري الله بقدرتِه أنهاراً من فُقّـاعٍ، الجرعة منها لو قورنت بلذَّات الفانية، منذ خلق السمواتِ والأرضَ إلى يومٍ تطوي الآخرةُ الأمم ، لكانت أفضلَ وأشفَّ. فيقول في نفسه: قد علمتُ أنَّ الله قديرٌ، والذي أريد، نحو ما كنت أراه في الدار الذاهبة. فلا تكمل هذه المقالة، حتى يجمع الله كلَّ فُـقّاعيٍّ في الجنَّة من أهل العراق والشام وغيرِهما من البلاد، بين أيديهم الوِلدان المخلَّدون يحملون السَّلال إلى أهل ذلك المجلس. فيقول، حفظ الله على أهل الأدب نفسَه وعقله، لمن حضره من أهل العلم: ما تُسمَّى هذه السِّلالُ بالعربيَّة؟ فيسكتون، ويقول بعضهم: هذه تُسمَّى البَواسِنَ، واحدتُها باسِنةٌ، فيقول قائلٌ من الحاضرين: من ذكر هذا من أهل اللغة؟ فيقول، لا انْفكَّت الفوائدُ واصلةً منه إلى الجلساء: قد ذكرها ابن دَرَسْتَـوَيْه، وهو يومئذٍ في الحضرة. فيقول له الخليل:

من أين جئتَ بهذا ؟ فيقول ابنُ درستويه [1]: وجدته في كتب النَّضْرِ بنِ شُمَيل[2]: فيقول الخليل: أحَقٌّ هذا يا نضِر، فأنت عندنا الثِّـقة؟ فيقول النضر: قد التبس الأمر عليَّ، ولم يحكِ الرجل إن شاء الله، إلا حقاً.

١ - ابن درستويه: عبد الله بن جعفر بن درستويه النحوي (٢٥٨- ٣٧٤هـ/ ٨٧١- ٩٥٦م). وكان جيد التصنيف، مليح التأليف. وكان شديد الانتصار للبصريين في النحو واللغة، ترك كثيراً من المؤلفات.

٢ - النضر بن شُمَيل بن خرَشَة التميمي المازني النحوي البصري، كان عالماً بفنون من العلم، صدوقاً ثقةً، صاحب غريب وفقه وشعر ومعرفة بأيام العرب ورواية الحديث، وقال العباس: كان إماماً ثقة في العربية والحديث.

طاووس الجنة

ويعبر بين تلك الجماعات طاووسٌ من طواويس الجنَّة يروق حسنه من يراه ، فيشتهيه أبو عبيدة مطبوخاً بعد نقعه بالخل، فيتكون ذلك في صفحةٍ من الذَّهب. فإذا

قُضي منه الوطَرُ انضمَّت عظامُه بعضُها إلى بعضٍ، ثمَّ تصيرُ طاووساً كما بدأ. فتقول الجماعة: سبحان من يحيى العظام وهي رميم. هذا كما جاء في الكتاب: "وإِذ قالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أرِنِي كَيْفَ تُحْيِي المَوْتى ○ قالَ أوَلَمْ تُؤْمِن قالَ بَلى ○ وَلكِن لِيَطْمَئِنَّ قلبي قالَ فخُذ أرْبَعَةً مِن الطَّيْرِ فصُرْهُنَّ إِليْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلى ○ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" [1]

ويقول هو، آنسَ اللهُ بحياته، لمَن حضَر: ما موضعُ يطمئنّ؟ فيقولون: نصبٌ بلام كي. فيقول: هل يجوزُ غيرُ ذلك؟ فيقولون لا يحضُرُنا شيءٌ. فيقول: يجوز أن يكون في موضع جزمٍ بلام الأمر، ويكون مخرج الدُّعاء، كما يقال: يا ربِّ اغْفِر لي، ولتغفر لي. وأمّا قوله في الحكاية عن عازار: « قال أعلمُ أنَّ اللهَ على كلِّ شيء قديرٌ »[2] فقد قُرِئَ برفع الميم وسكونها، فالرفع على الخبر، والسكون على أنَّه أمرٌ من اللهِ جلَّ سلطانُه. وأجاز أبو عليٍّ الفارسيُّ أن يكون أعلم مخاطبةً من عازر لنفسه، لأن مثل هذا معروفٌ. يقول القائل، وهو يعني نفسه: ويحك ما فعلت وما صنعت! ومنه قول الحادرة الذُّبيانيّ:[3]

بكَرتْ سُميَّةُ غُدوةً فتمَتَّعِ وغدت غُدُوَّ مُفارِقٍ لم يَرْبَعِ

وتمرُّ إوزَّةٌ مثل البختية، فيتمنّاها بعض القوم شِواءً، فتتمثَّل على خوانٍ من الزُمردُ، فإذا قُضيت منها الحاجة، عادت إلى هيئة ذوات الجناح، ويختارُها بعض الحاضرين كباباً، وبعضُهم معمولةً بسُمّاقٍ، وبعضهم معمولةً بلبنٍ وخلّ، وغير ذلك، وهي تكون على ما يريدون. فإذا تكرَّرت بينهم قال أبو عثمان المازنيُّ لعبد الملك بن قريب الأصمعيّ: يا أبا سعيدٍ، ما وزن إوزَّة؟ فيقول الأصمعيُّ:

١ - الآية ٢٦٠ سورة البقرة

٢ - الآية ٢٥٩ سورة البقرة

٣ - قطبة بن أوس بن محصن بن جرول المتوفى ٥ هـ / ٦٢٦ م شاعر مخضرم مقل، يلقب بالحادرة أي الضخم.

ألي تُعرِّض بهذا يا فُصْعُل، والفصعل صغير العقرب، وطالما جئتَ مجلسي بالبصرة وأنت لا يُرفَع بك رأسٌ؟! وزن إوزَّة في الموجود إفَعْلَةٌ، ووزنُها في الأصل إفْعَلةٌ. فيقول المازنيَّ: ما الدَّليل على أنّ الهمزة فيها زائدةٌ، وأنّها ليست بأصليَّةٍ ووزنها ليس فِعَلَّةً؟ فيقول الأصمعيُّ: أمَّا زيادة الهمزة في أوَّلها، فيدلُّ عليه قولهم وَزٌّ. فيقول أبو عثمان: ليس ذلك بدليلٍ على أنّ الهمزة زائدةٌ، لأنَّهم قد قالوا ناسٌ، واصله أناٌس، ومِيهَةٌ لجُدَريِّ الغنم، وإنَّما هو أُمِيهَةٌ، فيقول الأصمعيُّ: أليس أصحابك من أهل القياس يزعمون أنَّها إفْعَلةٌ، وإذا بَنَوا من أوَى اسماً على وزن إوَزَّةٍ قالوا: إيَّاةٌ؟ ولو أنَّها فِعَلَّةٌ قالوا: إوَيَّةٌ، ولو جاؤوا بها على إفَعْلة، بسكون العين، قالوا: إيَيَّةٌ، والياء التي بعد الهمزة، وهي همزة أوَى، جُعِلت ياءً لاجتماع الهمزتين، ولأنَّ قبلها مكسور وهي مفتوحةٌ. وإذا خففَّت همزة مِئْزَر، جعلتها ياءً خالصةً. فيقول المازنيُّ: تأوُّل من أصحابنا وادِّعاءٌ، لأنِّ إوزة لم يثبت أنَّ الهمزة فيها زائدةٌ. فيقول الأصمعيُّ:

رَيَّشَتْ جُرْهُمُ نبْلاً فرَمى جُرْهُماً منهُنَّ فُوقٌ وغِرارُ

تبعتَهُم مستفيداً، ثمّ طعنتَ فيما قالوه مُعِيداً، وما أنت إلاّ كما قال الأوَل:[1]

وينهضُ كالمُغضب، ويفترق أهل ذلك المجلس وهم ناعمون.

١ – مالك بن فهم بن غنم بن مالك بن الأزد المتوفى ٤٨٠ ق. هـ / ١٥٧ م أول من مُلِّك على العرب بأرض الحيرة، ويلي هذا البيتَ بيتٌ آخر شهير أيضاً:

وَكم عَلَّمْتُه نظْمَ القوافي فلمّا قالَ قافِيَةً هَجاني

أعَلِّمُهُ الرِّمايةَ كلَّ يومٍ فلمَّا اشتَدَّ ساعِدُه رماني

مع الحـُور العِين

ويخلو، لا أخلاه الله من الإحسان، بحوريَّـتين له من الحور العين، فإذا بهره ما يراه من الجمال قال: أعزز عليَّ بهلاك الكِندي[1]، إني لأذكر بكما قوله:

كَدَأبِـكَ مِن أمِّ الحُـوَيـرِثِ قبْـلَـهـا وَجـارَتِـهـــا أمِّ الـرَبـابِ بِـمَـأسَــلِ
إذا قـامَـتا تضَوَّع َالمِـسْـكُ مِنهُـمـا نسيمَ الصَّبا جاءتْ برَيّا القـَرَنْـفُـلِ

وقوله أيضاً:

كعاطِـفَـتـيَـنِ مِن نِـعـاجِ تَـبـالَـةِ على جُؤذُرَيـنِ أَو كبَعضِ دُمى هَـكِـرْ
إِذا قامَتا تَـضَوَّع َالمِسْكُ مِنهُـما نَسيـمَ الصَّبا جاءَت بِريحٍ مِنَ القُـطُـرْ

وأين صاحبتاه منكما لا كرامة لهما ولا نُعْـمَة ُعينٍ؟ لجَـلسةٌ معكما بمقدار دقيقةٍ من دقائق ساعات الدُّنيا، خيرٌ من مُلكِ بني آكل المرار وبني نصْرٍ بالحيرة وآل جَـفْـنَـة مُلوك الشَّام. ويقبل على كلٍّ واحدةٍ منهما يترشَّف رُضابَها ويقول: إنَّ امرأ القيس لمسكينٌ مسكينٌ! تحترق عظامه في السَّعير وأنا أتمثَّل بقوله:

كـأنّ المُـــدامَ وصَـــوْب الغَـمـامِ وريحَ الخُزامى ونَـشْـرَ القُـطُرْ
يُـعَـلُّ بِـهِ بَرْدُ أنْيـابِـهـــا إذا غـرَّد الطَّـائِرُ المُـسْـتَحِــرْ

وقوله:

أيَّـام فُـوهــا كُلَّـمـا نَـبَّـهْـتُـهــا كالمِـسْـكِ باتَ وظلَّ في الفَـدَّامِ
أنُـفٌ كلَـونِ دمِ الغـزالِ مُـعَـتَّـقٌ مِن خمرِ عانَـة َأَو كُـرومِ شَـبـامِ

1 - امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي (١٣٠ - ٨٠ ق. هـ / ٤٩٦ - ٥٤٤ م) أشهر شعراء العرب ، يماني الأصل، مولده بنجد، كان أبوه ملك أسد وغطفان، وأمُّه أختُ المُهلهِل الشاعر. أمضى شبابه في اللهو والغزل، فبلغ ذلك أباه، فنهاه عن سيرته فلم ينته، فأبعده إلى حضرموت ، إلى أن ثار بنو أسد على أبيه فقتلوه، فقال: اليوم خمر وغداً أمر. فلم يزل حتى ثأر لأبيه من بني أسد، وقال في ذلك شعراً كثيراً. ثم قصد قيصر الروم فوعده وماطله ثم ولاه إمارة فلسطين، فرحل إليها، ولما كان بأنقرة ظهرت في جسمه قروح، فأقام فيها إلى أن مات.

فتستغرب إحداهما ضحكاً. فيقول: ممَّ تضحكين؟ فتقول: فرحاً بتفضُّلِ الله الذي وهب نعيماً، وكان بالمغفرة كريماً، أتدري من أنا يا عليَّ بن منصور؟ فيقول: أنت من حورالجنان اللَّواتي خلقكُنَّ الله جزاءً للمتَّقين، وقال فيكنَّ: «كأنَّهُنَّ الياقوتُ والمَرجان»[1] فتقول: أنا كذلك بإنعام الله العظيم، على أنّي كنت في الدار العاجلة أعْرَفُ بحَمْدونة، وأسكنُ في باب العراق بحلب، وأبي صاحبُ رحىً يَطحَن فيها لعامة الناس، وتزوَّجني رجلٌ يبيع السَّـقَـط الذي يرميه الجزّارون، فطلَّقني لرائحةٍ كرهها من فمي، وكنت من أقبح نساء حلب، فلمَّا عرفتُ ذلك زهِدت في الدنيا الغرَّارة، وانقطعت إلى العبادة، وأكلتُ من مِغْـزلي ، فصيَّرني ذلك إلى ما ترى، وتقول الأخرى: أتدري من أنا يا عليَّ بنَ منصور؟ أنا توفيق السَّوداء التي كانت تخدم في دار العلم ببغداد على زمان أبي منصورٍ محمَّد بن عليٍّ الخازن، وكنت أخرِجُ الكتب إلى النُّساخ. فيقول: لا إله إلا الله، لقد كنت سوداء فصرت أنصع من الكافور. فتقول: أتعجب من هذا، والشاعر يقول عن أحد المخلوقين:

لوْ أَنَّ مِنْ نُورِهِ مِـثْـقـالَ خـَرْدَلَـةٍ　　　في السُّودِ طـُرّاً إذاً لابْيَضَّـتِ السُّـودُ[2]

ويمرُّ مَـلَـكٌ من الملائكة، فيقول: يا عبدَ الـلـه، أخبرني عن الحُور العِين، أليس في الكتاب الكريم: " إنَّا أنْشأناهُنَّ إنـشاءً، فجعلناهُـنَّ أبكاراً، عُـرُباً أتراباً، لأصحابِ اليمين"[3]. فيقول الملك: هنَّ على ضربين: ضربٌ خلقه الله في الجنَّة لم يعرف غيرها، وضربٌ نقله الله من الدار العاجلة لمَّا عمل الأعمال الصالحة.

فيقول، وقدعجِبَ ممَّا سمعَ أي عجَب: فأين اللـّواتي لم يكُنَّ في الدار الفانية؟ وكيف يتميَّزْنَ من غيرِهـنَّ؟ فيقول المَلـَك: اتبع أثري لترى العجيب من قـدرة الله. فيتبعُه، فيجيءُ به إلى حدائقَ لا يعرف كُنْهَـها إلاّ الله، فيقول الملك: خُذْ ثمرةً من هذا الثمر فاكسِرها، فإنَّ هذا الشجر يُعرفُ بشجر الحُور. فيأخذ سفرجلةً، أو رمَّانةً، أو تفَّاحةً، أو ما شاء الله من الثمار، فيكسِرُها، فتخرج منها جاريةٌ حوراء عيناء تُذهِل بحُسنِها حوريّات الجنان، فتقول: من أنت يا عبد الله؟ فيقول: أنا فلان بن فلانٍ. فتقول: إنِّي أمَنَّى بلقائك قبل أن يخلـُقَ الله الدُّنيا بأربعة آلاف سنة. فعند ذلك يسجدُ إعظاماً لله القدير ويقول: هذا كما جاءَ في الحديث: أعددت لعبادي المؤمنين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولم يخطر في قلب بشر. ويخطر في نفسه، وهو ساجدٌ، أنَّ تلك الجارية، على حُسنها، ضاويةٌ نحيلة، فيرفعُ رأسه من السُّجود وقد صارَ من ورائها رِدفٌ يُضاهي كثبان عالجٍ والدَّهناء، ورمال يَبرين وبني

١ - الآية ٥٩ سورة الرحمن

٢ - الحسين بن مطير الأسدي المتوفى ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م ،شاعر متقدم في القصيد والرجز، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. وكان زيه وكلامه كزي أهل البادية وكلامهم. وفد على معن بن زائدة لما ولي اليمن، فمدحه، وهذا البيت من مدائحه.

٣ - الآيات ٣٥-٣٨ سورة الواقعة

سعد، فيُذهل إلى حدٍّ الخوف من قدرة اللّطيف الخبير ويقول: يا رازق الشمس المشرقة السنا، ومُبلِغ السائلين المنى، والذي فعل ما أعجز وهال، ودعا إلى الحلم الجُهَّال، أسألك أن تقصُرَ عَجِيزة هذه الحوريَّة على ميلٍ في ميل، فقد جاز بها قدرُك حدَّ التأميل. فيقال له: أنت مُخيَّرٌ في تكوين هذه الجارية كما تشاء. فيَـقْتـصِرُ من ذلك على الإرادة.

أهـل النـار

ويبدو له أن يطَّـلِع إلى أهل النّار فينظرَ إلى ما هم فيه، ليعظـُم شكرُه على النِّعم، بدليل قوله تعالى: "قال قائِلٌ منهم: إنّي كانَ لي قرينٌ، يقولُ أئِـنَّـك لـَمِن المُصَدِّقين، أئِذا متنا وكُنـّا تُراباً وعظاماً أئـنّا لـَمَـدينون. قال هلْ أنتم مُطـَّـلِعـون. فاطـَّـلعَ فرآهُ في سَواءِ الجحيم، قال: تالـلـّهِ إن كِـدْتَ لـَتُـرْدينِ، ولولا نِعمةُ ربِّي لكُـنْتُ مِن المُحْضَرين".[1]

فيركب بعضَ دوابِّ الجنَّة ويسير، فإذا هو بمدائنَ ليست كمدائن الجنَّة، ولا عليها النـُّورالشّعشعانيُّ، وهي ذاتُ أنفاق ودهاليز وأودية ضيقة. فيقول لبعض الملائكة: ما هذه يا عبد الله؟ فيقول: هذه جنَّة العفاريت الذين آمنوا بمحمَّد، صلَّى الله عليه وسلَّم، وذُكِروا في سورة الأحقاف، وفي سورة الجنَّ، وهم عددٌ كثيرٌ. فيقول: لأعْـدِلنَّ إلى هؤلاء، فلن أخْلـُوَ لديهم من أعجوبةٍ. فيُعرِّج عليهم، فإذا هو بشيخٍ جالسٍ على باب مغارةٍ، فيسلـِّمُ عليه، فيحسنُ الرَّدَّ ويقول: ما جاء بك يا إنسيُّ؟ إنَّك بخيرٍ لجدير، مالـَكَ من القوم نظير! فيقول: سمعت أنَّكم جِنٌّ مؤمنون، فجئت ألتمِسُ عندكم أخبارَ الجِنَّان، وما لعلـّه لديكم من أشعار المِردة. فيقول ذلك الشيخ: لقد أصبت العالِمَ بحقيقة الأمر، ومن هـو منه كالقَمَر من الهالة ، فسَلْ عمّا بدا لك. فيقول: ما اسمك أيّها الشيخ؟ فيقول: أنا الخَيثَعُور أحدُ بني الشـَّيصَبان، ولسنا من ولد إبليس ولكنَّا من الجِنّ الذين كانوا يسكنون الأرض قبل ولد آدم، صلّى الله عليه.

فيقول: أخبرْني عن أشعار الجنِّ، فقد جمع منها المعروف بالمرزبانيّ قطعةً صالحة. فيقول ذلك الشيخ: إنّما ذلك هذيانٌ لا يُعتمَدُ عليه، وهل يعرف البشرُ من النَّظيم إلاّ كما تعرِفُ البقر من علم الهيئة ومساحة الأرض؟ وإنَّما لهم خمسةَ عشر جنساً من الموزون قلَّ ما يعدوها القائلون، وإنَّ لنا لآلافِ أوزانٍ ما سمع بها إنس، وإنَّما كانت يلهو بهم أطفالٌ منَّا شرسون، فيَـنفـُثون إليهم مِقدارَ السِّواك من شجر الأراك. ولقد نظمت الرّجز والقصيد قبل أن يخلق الله آدمَ بثلاثمائة من السنين. وقد بلغني أنّكُم معشرَ الإنس تلهجون بقصيدةِ امريء القيس التي مطلعها:

قِـفا نـَبْـكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ

---

١ - الآيات ٥١- ٥٧ سورة الصافات

وتُحَـفـِّظونها الغلمانَ في المكاتب، وإن شئتَ أمليتُ عليك ألفَ قصيدةٍ على هذا الوزن على مثل: مَنزِلٍ وحَومَلِ، وألفاً على ذلك الرويّ يجيء على مَنزِلٌ وحَومَلُ، وألفاً على مَنزلاً وحَومَلاً، وألفاً على: منزِله وحومَـله، وألفاً على: منزلـُه وحوملـُه، وألفاً على: منزلـَه وحوملـَه، وكلُّ ذلك لشاعرٍ واحدٍ منَّا هَـلـَكَ وهو كافرٌ، وهو الآن يشتعل في أطباق الجحيم. فيقول، وصلَ الله أوقاتـَه بالسعادة: أيُّها الشيخ، لقد بقي عليك حِفظـُك! فيقول: لسنا مثلكم يا بني آدم يغلِب علينا النِّسيان والرُّطوبة، لأنّكم خُلِقتم من حَمإٍ مَسنونٍ، وهل الحَمأ سوى طينٍ أسودَ مُنتن؟ وهل المَسنونُ إلا ما صُـقِل؟ وخُلقنا من مارِجٍ من نار، والمارجُ شعلة متقدة ساطعة، فهل من مقارنة؟ فتحمله الرَّغبة في الأدب أن يقول لذلك الشَّيخ: أفتُمْلي عليَّ شيئاً من تلك الأشعار؟ فيقول الشيخ: فإذا شئت أمْلـَلـْتـُك ما لا تحمِله المطايا، ولا تسعُه صحُف دنياك.

فيهمُّ الشّيخ، لا زالت همتـُّه عاليةً، بأن يكتتب منه، ثمَّ يقول: لقد شـقِـيـتُ في الدار العاجلة بجَمع الأدب، ولم أحْظ منه بطائلٍ، وإنَّما كنت أتقرَّبُ به إلى الرؤساء، فأحتلبُ منهم قـطرات، فكأني أعصُرُ ضَرْع ناقةٍ جفَّ لبنها، ولست بموفـَّقٍ إن تركتُ لذَّات الجنَّة وأقبلتُ أنسَخُ آدابَ الجنِّ ومعي من الأدب ما هو كافٍ، لاسيما وقد شاع النِسيانُ في أهلِ الأدب في الجنة، فصرتُ من أكثرهم رواية وأوسعهم حفظاً، ولله الحمد.

الشقاء بالأدب

ويقول لذلك الشيخ: ما كُنْيَـتُك لأكْرِمَك بالتَّـكْنـيـة؟ فيقول: أبو هَدْرَش، أنجبت من الأولاد ما شاء الله، فهم قبائل: بعضُهم في النّارِ الموقدة، وبعضهم في الجنان. فيقول: يا أبا هَـدْرَشَ، مالي أراك أشيبَ وأهلُ الجنّة شبابٌ؟ فيقول: إنَّ الإنسَ أكْرِموا بذلك وحُرِمنا منه، لأنّا أعْـطينا القدرةَ على التحول في الدار الماضية، فكان أحدُنا إن شاءَ صار حيَّةً، وإن شاء صار عصفوراً، وإن شاء صار حمامة، فمُنِعْنا التصَـوُّر في الدارِ الآخرة، وتُرِكنا على خلقنا لا نتغـيَّـر، وكان عوض بني آدم ما حَسُن من الصور. وكان قائلُ الإنسِ يقول في الدار الذاهبة: أعْـطِـينا التَّـفَـكُّـرَ، وأعطي الجنُّ التغَـيُّـرَ.

ولقد لقِيتُ من بني آدم شرّاً، ولقـوا منّي كذلك. دخلت مرَةً دار أناسٍ أريد أن أصرَع فتاةً لهم، فتصوَّرتُ في صورة جُرذٍ فدعوا لي القطط، فلمَّا أرهقتني تحوَّلتُ ثعباناً ودخلت في جِذعِ نخلة أجوف، فلمَّا علموا ذلك كشفوه عني، فلمَّا خِفتُ القتلَ صرت ريحاً هَفَّافةً، فلحِقْتُ بخشب السقف، ونقضوا تلك الخُشُب وبقايا جذوع الأشجار الضخمة، فلم يروا شيئاً، وأغاظني أنهم كذبوا على أنفسِهم وبعضُهم على بعض، وقالوا: ليس هاهنا مكانٌ يمكنُ أن يَستـتِـرَ فيه. فبيناهم يتذاكرون ذلك عمدت إلى أطراف الكِلَّة فوق فراشها، فلمَّا رأتني أصابَها الصَّرَع، واجتمع أهلـُها من كلِّ صوبٍ، وجمعوا لها الرُّقاةَ يرقونها بكل ما يعرفون، وجاؤوا بالأطِبَّاء المُداوين، وبذلوا النفيس والثمين، فما ترك راقٍ رُقْـيَـةً إلا جرَّبها عليها، وأنا لا أجُيب، وتعاون الأطباء يسقونها الأشربة، وأنا مُلازمٌ لها لا أزول، فلمَّا أصابها الحِمامُ طلبتُ لي سواها صاحبةً، ثمّ كذلك مع الثانية، حتى رزقني الله التوبةَ والثواب الجزيل، فلا أفتأ له من الحامدين الشاكرين:

حَـمِـدتُ من حطِّ أوزاري ومَـزَّقـهـا ... عـنِّي، فأصـبـح ذنبي اليـومَ مغْـفـورا

وكـنـتُ آلَـفُ مِـن أتـراب قُـرطُـبَـةٍ ... خَوْداً وبالصِّيـن أخـرى بنتَ يغْـبُـورا

أزورُ تـلـك وهـذي غـيْـرَ مُكْـتَـرِثٍ ... في لـيـلةٍ قـبـلَ أن أسْـتَـوضِحَ الـنـُّورا

ولا أمُـرُّ بـوحْـشِــيٍّ ولا بَـشَـــرٍ ... إلاّ وغـادرْتُـه ولـهـانَ مَـذعُـورا

أرَوِّعُ الـزَّنْـجَ إلْـمـامـاً بِـنِـسْـوَتِـهـا ... والرُّومَ والتُّركَ والسِّقلابَ والغُـورا

وأحـضُـرُ الشـَّـرْبَ أعْـروهُــم بآبــدةٍ يُزجُـون عُـوداً ومِزماراً وطـُـنْـبـورا

فـلا أفارِقُـهُــمْ حَـتَّى يَـكونَ لـهُــمْ فِـعْـلٌ يَـظـلُّ بِـه إبْـلـيـسُ مَـسْــرورا

وأصْرِفُ العَـدْلَ خـتْـلاً عَـن أمانـتِــهِ حـتّى يخونَ وحـتى يَـشْـهَـدَ الـزُورا

وطِرْتُ في زمَن الطـوفـان مـعـتـلـيـاً في الجوِّ حتى رأيتُ الماءَ مَحْسـورا

أضْلَـلْـتُ رأيَ أبي ساسانَ عن رَشَـدٍ وسِـرتُ مُستخْـفِـياً في جيشِ سـابورا

فـتــارةً أنـا صِــلٌّ في نَـكـارتِــــــه وربَّـما أبْصَـرتـني العَـيـنُ عُـصـفـورا

تلوحُ لي الإنسُ عُـوراً أو ذوي حَوَلٍ ولـم تـكـنْ قـطـٌّ لا حُــولاً ولا عُـــورا

ثم اتـَّعَـظْـتُ وصارتْ تَـوبـتي مَـثـلاً مِنْ بعْدِ ما عِشْتُ بالعِصيانِ مَشهورا

حتّى إذا انْفـضَّتِ الدُّنيا ونُودِي: إسـ ـرافـيـلُ ويحَـكَ هـلّا تَـنْـفُـخِ الصُّـورا

أماتـني اللهُ شـــيـئـاً ثـمّ أيْـقـظـنـي لِـمَـبعَـثي، فـرُزِقْتُ الخُـلـدَ مَـبْـرورا

فيقول: لله درُّك يا أبا هدرش؟ لقد كنت تمارسُ أفعالاً يندى لها الجبين، فكيف ألسنتُكم؟ أيكون فيكم عربٌ لا يفهمون عن الروم، ورومٌ لا يفهمون عن العرب كما نجد في أجيالِ الإنس؟ فيقول: هيهاتَ أيّها المرحوم، إنَّا أهلُ ذكاءٌ وفِطنة، ولابدَّ لأحدنا أن يكون عارفاً بجميع الألسن الإنسيَّة، ولنا بعد ذلك لسانٌ لا يعرفه الأنيس. وانا الذي أنذرت الجنَّ بالكتاب المُنزل: سريت في رفقةٍ من الجنّ نريد اليمن، مررنا بيثرب في زمان الرُطَـب، ف "سَمِعنا قُرآناً عجَباً يَهدي إلى الرُّشْـدِ فآمَنَّا بهِ ولن نُـشْـرِكَ بربِّـنـا أحَـداً "[1] وعدت إلى قومي فذكرت لهم ذلك، فتسرَّعَت منهم طوائفُ إلى الإيمان، وحثَّهم على ما فعلوه أنّهم رُجِـموا عن اسْتراقِ السَّمع بكواكبَ محرقاتٍ. فيقول: يا أبا هدرش، أخبرني، وأنت الخبير، هل كان رجْمُ النُّجوم في الجاهليَّة؟ فإنَّ بعض النَّاس يقول إنَّه حَدَثَ في الإسلام. فيقول: هيهات أما سمعت قول الأوْدِيِّ:[2]

كـشِهـابِ القَـذْفِ يَـرْمِـيـكُـمْ بهِ فـارِسٌ في كَـفـِّـهِ لـلحَـرْبِ نـارُ

وقولَ ابْنِ حَجَرٍ:[3]

وَانْـقـَـضَّ كالـدُّرِّيِّ يَـتـبَـعُــهُ نَـقْـعٌ يَـثـورُ تَـخالُـهُ طـُـنُـبـا

١ - الآيتان ١و٢ سورة الجن

٢ - صَلاءة بن عمرو بن مالك من بني أوْد، المتوفى ٥٤ ق. هـ / ٥٧٠ م شاعر يماني جاهلي، لقب بالأفوه لأنه كان غليظ الشفتين ظاهر الأسنان. كان سيد قومه وقائدهم في حروبهم وهو أحد الشعراء الحكماء في عصره

٣ - أوس بن حجر: سبقت ترجمته

ولكنَّ الرَجْمَ زاد في أوان المبعث، وإنَّ النفاقَ لكثيرٌ في الإنس والجنِّ، وإنَّ الصِّدق لقليلٌ، وهنيئاً في العاقبة للصَّادقين. وفي قصِة الرَّجم أقول:

مَكَّةُ أقْوَت من بني الدَّردَبيسِ فما لِجنِّيٍّ بها من حَسيسِ
وقامَ في الصَّفْوَةِ من هاشمٍ أزهَرُ لا يُغْفِلُ حقَّ الجَليسِ
يَسْمعُ ما أنْزِلَ مِن ربِّه الـ ـقُدُّوسِ وحْياً مثلَ قرْعِ الطَّسيسِ[1]

فيعجبٌ، لا زال في الغبطة والسُّرور، لما سمعه من ذلك الجنيِّ، ويكره الإطالة عنده فيودِّعه.

١ - القصيدة طويلة جداً، إذ تبلغ ثمانية وخمسين بيتاً، وهي من شعر المعري ولا شك، لكنها وعرة الألفاظ جداً، وهي جزء من استعراض أبي العلاء ثقافته اللغوية والنحوية والشعرية، ولا فائدة فيما نحن فيه من إيرادها كاملة.

حيوانات الجنة

فإذا هو بأسدٍ يفترس من قِطعان الجنّة فلا تكفيه مائة ولا مائتان فيقول في نفسه: لقد كان الأسدُ يفترس الشاة الهزيلة، فيُقيم عليها الأيَّام لا يطعَم سواها شيئاً. فيُلهِم الله الأسد أن يتكلّم، وقد عرَف ما في نفسه، فيقول: يا عبدَ الله، أليس أحدُكم في الجنَّة تُـقـدَّمُ له الصِّحـفة وفيها الرز وما طـُهي بالسـمن أو الـلبن، فيأكلُ مـنهـا مثـلَ عُـمر السّموات والأرض، يلتذّ بما أصاب فلا هو مُكتفٍ، ولا هي الفانية؟ وكذلك أنا أفترس ما شاء الله، فلا يُصيب الفريسة الأذى بظفرٍ ولا نابٍ، ولكن تجدُ من اللَّذِة كما أجدُ بلـُطف ربِّها العزيز. أتدري من أنا أيُّها السيد الشريف؟ أنا أسدُ "القاصرة" التي كانت في طريق مصر، فلمَّا سافرَ عُتبة بنُ أبي لهب يريدُ تلك الجهة، وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: " اللهمَّ سلـِّط عليه كلباً من كلابك"، ألـْهِـمْـتُ أن أتجوَّعَ له أيَّاماً، وجئتُ وهو نائمٌ بين رفاقِه، فَتـركت الجماعةَ إليه وافترسته، وأدْخِلت الجنَّة بما فعلت.

ويمرُّ بذئبٍ يقتنص ظباءً فيُفني القطيع بعد القطيع، وكلَّما فرغ من ظبيٍ أو ظبية، عادت بالقدرة إلى الحال المعهودة، فيعلم أنَّ أمرَه كأمر الأسد، فيقول: ما خبرك يا عبدَ الله؟ فيقول: أنا الذئبُ الذي كلَّم الأسلمي[1] على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم، كنتُ أقيم لياليَ كثيرة، لا أقدِرُ حتى على الأرنب، وإذا اقتربت من الغنم أو المَعيز، أطلق الراعي عليَّ الكلاب، فرجَعْت إلى أم صغاري مُصاباً بالجروح.

فتقول: لقد أخطأتَ في أفكارِك، وما لكَ خيرٌ في ابتكارك. وقد أرْمى بالسهمِ في خاصرتي، فأبيت ليلتي مُتألـِّماً حتى تنتزع ذئبتي السهم وأنا بآخر رمَق، فلحقتني بركة محمّد صلى الله عليه وسلم.

---

١ – هو أهبان بن الأكوع كان يرعى غنماً فوثب الذئب على شاةٍ منها فأخذها منه، فتنحى الذئب وأقعى على ذنبه وقال: ويحك لم تمنع مني رزقاً رزقنيه اللّه؟ فجعل أهبان يصفق بيديه ويقول: تاللّه، ما رأيتُ أعجبَ من هذا! فقال الذئب: إن أعجب من هذا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بين هذه النخلات، وأومأ إلى المدينة. فحَدَر أهبان غنمَه إلى المدينة وأتى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فحدَّثه الحديث، فعجب لذلك، وأمرَه إذا صلى العصر أن يحدِّث به أصحابَه. وأسلم أهبان وصحب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وتوفي في خلافة معاوية.

الحطيئة

فيذهب، عرِّفه الله الغبطة في كلِّ سبيل، فإذا هو ببيتٍ في أقصى الجَنة، كأنَّه كوخ أمَةٍ راعيةٍ، وفيه رجلٌ ليسَ عليه نورُ أهل الجنّة، وعنده شجرةٌ قبيحةُ المنظر، ثمرُها ليس شهياً. فيقول: يا عبدَ الله، لقد رضيت بحقيرٍ قليل. فيقول: والله ما وصلت إليه إلاَّ بعد جلبة وصياح وعرَقٍ من شقاء، وشفاعةٍ من قريشٍ ودِدت أنها لم تكن: فيقـول: من أنت؟ فيقـول أنا الحـطيئة العـبـسـي[1] فيقـول: بم وصلت إلى

الشّفاعة؟ فيقول بالصِّدق. فيقول: في أيِّ شيءٍ؟ فيقول: في قولي:

أبَـتْ شـفـتاي الـيـومَ إلا تـكَـلـُّـماً   بهْجرٍ، فـما أدري لِـمَـنْ أنا قائِـلـُهْ

أرى ليَ وجْهاً شـوَّه الـلـهُ خـَلـْقـَهُ   فـقـُبِّـحَ مـن وجْـهٍ وقـُبِّحَ حامِـلـُـهْ

فيقول: ما بال قولك:

مَن يَفعَـلِ الخيرَ لا يَعْدَمْ جَوازِيَـهُ   لا يَـذهَـبُ العُرْفُ بينَ الـلـهِ والنّاسِ

لم يُغفر لك به؟ فيقول: سبقني إلى معناه الصّالحون، ونظمتُه ولم أعملْ بهِ، فحُرِمت الأجرَعليه. فيقول: ما شأنُ الزِّبْرِقان بنِ بدرٍ[2]؟ فيقول الحطيئة: هو رئيسٌ في الدُّنيا والآخرة، انتفع بهجائي ولم ينتفع غيرُه بمديحي.

---

١ – هو جرول بن أوس بن مالك من بني عبس المتوفى ٤٥هـ/٦٦٥م، لقب الحطيئة لقربه من الأرض فإنه كان قصيراً. وهو من فحول الشعراء وفصحائهم وكان ذا شر وسفه، لم يسلم أحد من لسانه، حتى إنه هجا زوجه وأمه وأباه وأخيراً نفسه. وهو مخضرم أدرك الإسلام فأسلم ثم ارتد ثم تاب. قال الأصمعي: كان الحطيئة جشعاً سؤولاً مُلحفاً دنيءَ النفس، كثيرَ الشر، قليلَ الخير بخيلاً، قبيح المنظر، رثّ الهيئة مغموزَ النسب فاسدَ الدين.

٢ – حصين بن بدر بن خلف من تميم المتوفى ٤٥ هـ / ٦٦٥ م شاعر صحابي مخضرم، وسمي بالزبرقان لجماله الشبيه بالقمر، وقيل لأنه كان يصبغ عمامته بالزعفران. وهو من سادات قومه وأحد رؤساء تميم المشهورين. ويمتاز شعره بحسن العبارة وجودة المعنى ومتانة السبك، وقد حارب الزبرقان في صفوف جيش خالد بن الوليد وعاش إلى خلافة معاوية بن أبي سفيان.

الخنساء السُّلميّة

فيخلـِّفه ويمضي، فإذا هو بامرأةٍ في أقصى الجنَّة، قريبةٍ من المُطـَّـلـَع إلى النار. فيقول: من أنت؟ فتقول: أنا الخنساء السُّلـَميّة، أحببتُ أن أنظر إلى صخرٍ فاطـَّلعْت فرأيته كالجبـل الشّــامخِ والنار تضطرم في رأسـه، فقال لي: لقد صحَّ مَزعَمُك فيَّ، يعني قولي:

وإنَّ صخراً لتـَأتـمُّ الـهُــداة بـــه … كـأنـَّه عَـلـمٌ في رأسِـه نـــارُ[1]

١ - هذا البيت من أشهر قصائد الخنساء في رثاء أخيها صخر، وقد صار الشطر الثاني مثلاً يضرب. والخنساء لقب أشهر شاعرات العرب وأشعرهن واسمها تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد من بني سُليم المتوفاة ٢٤ هـ / ٦٤٤ م.
أدركت الإسلام فأسلمت. ووفدت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مع قومها بني سليم. فكان رسول الله يستنشدها ويعجبه شعرها.
أكثر شعرها وأجوده رثاؤها لأخويها صخر ومعاوية في الجاهلية. وكان لها أربعة بنين شهدوا القادسية، فجعلت تحرضهم على الثبات حتى استشهدوا جميعاً، فقالت: الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم.

إبـلـيـس وبـشـّـار

ويَطَّلِعُ فيرى إبليس، لعنه الله، وهو يضطرب في الأغلالِ والسّلاسلِ، وأعمدة الحديد تضربه بها الزبانية. فيقول: الحمدُ لله الذي أمكن منك يا عدوَّ الله وعدوَّ أوليائه! لقد أهْلكت من بني آدم طوائفَ لا يعلم عددها إلاّ الله. فيقول: من الرجل؟ فيقول: أنا فلان بن فلانٍ من أهل حلب، كانت صناعتي الأدب، أتقرَّبُ به إلى الملوك. فيقول: بئس الصناعة، لا يجني بها صاحبُها رغداً من العيش، وقد لا تكفي قوت العيال، وكم أذلت أصحابها، وكم أهلكتُ مثلك، فهنيئاً لك إذ نجوت، وإنَّ لي إليك حاجةً، فإن قضيتـَها شكرتُك أبدَ الدُهور، فيقول: إنّي لا أقدر لك على نفعٍ، فإن الآية سبقت في أهل النّار، أعني قولـَه تعالى: «ونادى أصحابُ النَّار أصحابَ الجنَّة أن أفِيضوا علينا من الماءِ أو ممّا رزقـَكُم اللهُ، قالوا إنَّ الله حرَّمَهُما على الكافرين»[1].

فيقول: إنِّي لاأسألك في شيءٍ من ذلك، ولكن أسألك عن خبرٍ تخبرنيه: إنَّ الخمر حُرِّمت عليكم في الدُّنيا وأحِلـَّت لكم في الآخرة، فهل يفعل أهلُ الجنَّة بالوِلدان المُخَلـَّـدين فعلَ أهلِ القرى؟ فيقول: عليك الغضبُ واللعنة! أما شغلك ما أنت فيه؟ أما سمعت قوله تعالى: "ولهم فيها أزواجٌ مطهَّرةٌ وهم فيه خالدون"؟[2] فيقول: وإنَّ في الجنَّة لأشربةً كثيرةً غيرَ الخمر، فما فعل بشَّار بن بردٍ؟[3] فإنَّ له عندي يداً ليست لغيرِه من ولد آدم، كان يفضِّلني دون الشعراء، وهو القائل:

إبليسُ أفضـــلُ من أبِيكــم آدَمٍ ... فـتـَبَـيَّـنُـوا يا مَـعْـشرَ الأشـْـرارِ

الـنّـــارُ عـنـصرُه، وآدمُ طِــيـنـــةٌ ... والـطِّـيـنُ لا يَسْـمـو سُـمُوَّ النّارِ

لقد قال الحقَّ، ولم يزل قائلُ الحقِّ من الممقوتين.

فلا يسكت من كلامه، إلاَّ ورجلٌ في أصنافِ العذاب يُغمِّضُ عينيه حتى لا ينظرَ إلى ما نزلَ به من النِّـقـَم، فيفتحُهما الزَّبانية بكلاليبَ من نارٍ، وإذا هو بشَّارُ بنُ بردٍ قد صاربصيراًبعد العمى،

١ الآية ٥٠ سورة الأعراف

٢ - الآية ٢٥ سورة البقرة

٣ - أبو معاذ بشار بن برد العقيلي بالولاء الضرير الشاعر المشهور(٩٥- ١٦٧هـ/٧١٣- ٧٨٣م)، بصري قدم بغداد، وهو في أول مرتبة المحدثين من الشعراء المجيدين فيه، وكان يمدح المهدي ، ورمي عنده بالزندقة، فأمر بضربه فضرب حتى مات.

لينظرَ إلى ما نزل به من العذاب. فيقول له، أعلى الله درجته: يا أبا مُعاذ، لقد أحسنتَ في مقالِك، وأسأت في مُعتقدِك، ولقد كنتُ في الدّار العاجلةِ أذكرُ بعضَ قولك فأترحَّمُ عليك، ظنًّا أنَّ التـَوبةَ ستلحقـُك، مثل قولك:

ارْجِــعْ إلى سَـكَـنٍ تَـعِيشُ به ذهَـبَ الـزَمـانُ وأنـتَ مُـنْـفَـرِدُ
تـَرْجو غــداً، وغَـدٌ كحامِلَـةٍ في الـحَـيِّ لا يَـــدْرون ما تَـلِـدُ

وقولك:

واهـاً لأسْـماءَ ابْـنـةِ الأشَـــدِّ قامتْ تَـراءى إذْ رأتْني وحْـدي
كالشَّمسِ بين الـزِّبـرِجِ المُنْـقَــدِّ ضَنَّتْ بخَـدٍّ، وجَـلَـتْ عَـن خَـدِّ
أرقبُ منه مثـلَ حُـمَّى الـوِرْدِ حَـمَـلْـتُـهُ في رُقْـعَـةٍ من جِـلْـدي
الحُـرُّ يُـلحى، والعَـصا لـلعَـبْـدِ وليـسَ لـلمُـلْـحِــفِ مِـثـلُ الـرَّدِّ

الآن وقع منك اليأس! وقلت في هذه القصيدة: السُّبْـدِ، فإن كنتَ جعلته جمعَ سُبَدٍ، وهو طائرٌ، فإنّ فُعَلاً لا يجمع على ذلك، وإن كنت سكَّنْت الباء فقد أسأت،لأنَّ تسكين الفتحة غير معروفٍ، ولا حجَّة لك في قول الأخطل[1]:

وما كلُّ مَغْبـونٍ إذا سَـلْـفَ صفـقـةً بـراجِـعِ ما قـدْ فـاتَـــهُ بِـرِداد

ولا في قول الآخر:

وقالوا: تُـرابِيٌّ، فـقُـلتُ: صَـدَقْـتُمُ أبي مِـن تُـرابٍ خَـلْـقَـهُ اللهُ آدَمـا

لأنَّ هذه شواذٌّ، فأمَّا قول، جميل[2]:

وصـاحَ بِـبَـيْـنٍ من بُـثـَيْـنة والنَّـوى جميعٌ بذاتِ الرَضْمِ صَرْدٌ مُحَجَّلُ

فإنَّ من أنشده بضمِّ الصَاد مخطىء، لأنَّه يذهبُ إلى أنَّه أراد الصُّرَدَ فسكـَّن الراء، وإنَّما هو صَرْدٌ أي خالصٌ من قولهم: أحِبُّك حبّاً صَرْداً، أي خالصاً، يعني غُراباً أسودَ ليس فيه بياضٌ، وقوله: محجَّلٌ أي

١ – غياث بن غوث التغلبي (١٩ – ٩٠ هـ / ٦٤٠ – ٧٠٨ م) شاعر مصقول الألفاظ، حسن الديباجة، في شعره إبداع. وهو أحد الثلاثة المتفق على أنهم أشعر أهل عصرهم: جرير والفرزدق والأخطل.

٢ – جميل بن عبد الله بن معمر العذري المتوفى ٨٢ هـ / ٧٠١ م شاعر من عشاق العرب، افتتن ببثينة من فتيات قومه، فتناقل الناس أخبارهما. شعره يذوب رقة، أقل ما فيه المدح، وأكثره في النسيب والغزل والفخر. قصد جميل مصر وافداً على عبد العزيز بن مروان، فأكرمه وأمر له بمنزل فأقام قليلاً ومات فيه.

مُـقـيَّـد، لأنَّ حَـلْـقَـة القـيْـدِ تسمَّى حِجْلاً، قال عديٌّ بن زيد:

أعاذِلَ قـد لاقـَـيْتُ ما يَزَعُ الفَتى   وَطابَقْتُ في الحِجْلَينِ مَشْيَ المُقَيَّدِ

والغرابُ يُوصفُ بالتَّـقْـيـيـد لقِصَرِ نـَـسَاه، وهو العرق من الورك إلى الكعب، قال الشاعر:

ومُـقـيَّــدٍ بيـنَ الدِّيـار كأنَّـه   حَـبَـشِيٌّ داجِنـَةٍ يخِـرُّ ويَعْـتلي

فيقول بشَّارٌ: يا هذا! دعْني من أباطيلِك فإنِّي لمشغولٌ عنك.

امرؤ القيس

ويسألُ عن امرىء القيس بن حُجْرٍ، فيقال: ها هو ذا يسمعُـك. فيقول: يا أبا هندٍ إنَّ رُواة البغداديين ينشدون في " قفا نبك "، هذه الأبيات بزيادة الواو في أوَّلها، أعني قولك:

وكأنَّ ذُرى رَأسِ المُجَيمِرِ غُدوَةً

وكذلك:

وكأنَّ مَكـــاكِـيَّ الـجِــــواءِ

وكذلك

وكأنَّ السِّــبـاعَ فـيـــهِ غـَرقـى

فيقول: أبْعَـد الله أولئك! لقد أساؤوا الرِواية، وإذا فعلوا ذلك فأيُّ فـرقٍ يقعُ بينَ النّظْـم والنّثر؟ وإنما ذلك شيءٌ فعَله مَن لا غريزةَ له في معرفة وَزْنِ القريض، فظنَّه المتأخِّرون أصلاً في المنظوم، وهيهات هيهات! فيقول: أخبرني عن قولك:

كَـبِكْـرِ المُـقـاناةِ البـَيـاضِ بصُفـْرَةٍ

ماذا أردتَ بالبِكْـرِ؟ فقد اختلف المتأوِّلون في ذلك فقالوا: البيضةُ، وقالوا: الدُّرَّة، وقالوا: الرّوضَةُ، وقالوا الزّهْـرةُ، وقالوا: البَـرْدِيَّةُ التي هي باطن النبات المعروف. وكيف تُـنْـشَـدُ: البَياضِ، أم البَياضَ، أم البَياضُ؟

فيقول: كلُّ ذلك حسنٌ، وأختار البياضِ، فيقول: فرَّغ الله ذهنـَه للآداب: لو شرحت لك ما قال النحويّونَ في ذلك لعَجِبْـتَ. وبعض المُعلـّمين ينشد قولك:

من السِّـيْـلِ والغُـثـاءِ فَـلْـكَـةُ مِـغْـزَلِ

فيشدِّد الثاءَ. فيقول: إنّ هذا لجَهُـولٌ، وهو نقيضُ الذين زادوا الواوَ في أوائل الأبيات: أولئك أرادوا

النَّسَقَ، فأفْسدوا الوَزْنَ، وهذا البائسُ أراد أن يُصَحّح الوزنَ فأفسَد اللّفظ، وكذلك قولي:

فجِئْتُ وقد نَضَّتْ لنَومٍ ثيابَها

منهم من يُشدِّدُ الضاد، ومنهُم من يُنشِدُ بالتخفيف، والوجْهانِ من قولك: نضَوْتُ الثَّوب. إلاّ أنك إذا شدَّدْت الضادَ، صار مشابهاً للفِعل مِن النّضِيض، يقال: هذه نَضيضَةٌ من المَطر أي قليلٌ، والتخفيف أحبُّ إليَّ، وإنما حَمَلَهم على التشديد كراهَةُ الزِّحاف، وليس عندنا بمكروه.

فيقول: لا بَرِحَ مُنطَقاً بالحِكَم: فأخبرني عن كلمتِك الصادِيِّة والضادِيّة والنُّونيّة التي أوَّلُها:

لِمَن طَلَلٌ أبْصرْتُهُ فشَجاني كَخَطِّ زَبُورٍ في عَسيبِ يَمانِ

لقد جئت فيها بأشياءَ يُنكرِها السَّمْعُ، كقولك:

فإنْ أمْسِ مَكْروباً فيا رُبَّ غارَةٍ شَهِدْتُ على أقبِّ رَخْوِ اللَّبانِ

وكذلك قولك في القصيدة الصاديَّة:

على نِقْنِقٍ هَيْقٍ لهُ ولِعِرْسِهِ بِمُنْقَطَعِ الوَعْساءِ بَيضٌ رَصِيصُ

وقولك:

فأسْقي بِهِ أخْتي ضَعِيفَة، إذْ نأتْ وإذْ بَعُدَ المُزْدارُ غيرَ القَريضِ

في أشباهٍ لذلك، هل كانت غرائزُكم لا تُحسُّ بهذه الزِّيادة؟ أم كُنْتُم مَطْبوعين على أن تأتوا غامضَ الكلام وأنتم عالمون بما يقعُ فيه؟ كما أنَّ زهيراً لا ريبَ كان يعرفُ مكانَ الزّحاف في قوله:

يَطْلُبُ شَأوَ امْرَأيْنِ قَدَّما حَسَباً نالا المُلوكَ، وبَذَّا هذه السُّوقا

فإنَّ الغرائزَ تُحِسُّ بهذه المواضع، فتبارك اللهُ أحسنُ الخالقين. فيقول امرؤ القيس: أدْرَكْنا الأوَّلين من العربِ لا يحفِلون بمجيءِ ذلك، فأمَّا أنا وطبقتي فكنّا نقولُ البيتَ حتى نأتي إلى آخرِه، فإذا انتهى أو قاربَ تبيَّنَ أمرُه للسامع. فيقول، ثبت الله تعالى الإحسان عليه: أخبرني عن التسْميطِ[1] المنسوبِ إليك، أصحيح هو عنك؟:

يا صَحْبَنا عَرِّجُوا تَقِفْ بِكُمْ أسُجُ

١ - التسميط: شكل من النظم الشعري متعدد القوافي، وقد يكون خماسياً وقد يكون سباعياً، وتسمى القصيدة " مُسَمَّطاً "وهو البدايات المشرقية المبكرة لما ابتكر الأندلسيون من المُوشّح.

مَــهْــرِيَّــــــــــةٌ دُلُــــــجُ   فــي سَـــــيْـرِهــا مُــعُـــجُ

طـــالَــتْ بــهــا الـرِّحَــــلُ

فــعـــرَّجــوا كُــلُّــهُــــــمْ   والـهَـــمُّ يَـشْـغَـلُـهــمْ

والعِــيـسُ تـحْـمِـلُـهُـــمْ   لـيـسَــتْ تُـعَـلِّــلُـهُـــــمْ

وعـــاجَـــــتِ الـــرُّمُــــــلُ

يـــــا قـــــومُ إنَّ الـهـــوى   إذا أصــــــاب الــفـتـــــى

في الـقـــلـبِ ثـــمَّ ارْتــقــى   فـهَـــدَّ بـعـــضَ الـقُـــوى

فـقـــد هـــوى الــرَّجُــــــلُ

فيقول: لا والله ما سمعت هذا قطُّ، وإنّه لدربٌ لم أسلكه، وإنَّ الكذبَ لكثير، وأحسب هذا لبعض شعراءِ الإسلام، ولقد ظلمني وأساءَ إليَّ! أبعد كلمتي التي أوَّلُّها:

ألا أنْعِمْ صباحاً أيُّها الطَّلَلُ البالي   وهلْ ينعَمَنْ مَن كان في العُصُرِ الخالي؟

وبعد قولي:

خليـلَيَّ مُرَّا بي عـلى أمِّ جُنْدُبِ   لأقضيَ حاجاتِ الـفُـؤادِ المُـعَـذَّبِ

يُقال لي مثلُ ذلك؟ والرَّجَـزُ من أضعفِ الشِّعر، وهذا الوزنُ من أضعفِ الرَّجَز. فيعجبُ، ملأ الله فؤادَه بالسُّرورِ، لما سمعَه من امرىءِ القيس ويقول: كيف يُنشَـدُ:

جالَـتْ لتصرَعَني فقلتُ لها: قِري   إنّي امــرؤٌ صَرعــي عَـليكِ حـرامُ

أتقول: حرامُ، فتُـقْـوي؟ أم تقول: حرام، فتُخرجُه مخرجَ حَذامِ وقَطامِ؟ وقد كان بعض علماء الدَّولة الثانية يجعلُك لا يجوزُ الإقواءُ[1] عليك. فيقول امرؤُ القيس: ليس الإقواء عندنا مستنكراً، أما سمعت البيت في هذه القصيدة:

فكأنّـما بَـدرٌ وَصيلُ كَـتيـفَةٍ   وكـأنَّــما مِـن عـاقِـلٍ إرْمــــامِ

فيقول: لقد صدقت يا أبا هند، لأنَّ إرماماً هاهنا، ليس واقعاً موقعَ الصِّفة فيُحمل على المجاورة، لأنَّه محمول على كأنَّما، وإضافته إلى ياء النَّـفْـس تُضَـعِّـفُ الغرض.

١ - الإقواء: تغيير حركة الروي بين الكسر والضم، وورد في أشعار كثير من الفحول كالنابغة والفرزدق، أما التغيير من الكسر أو من الضم إلى الفتح فهو الإصراف، وهوأقبح من الإقواء.

عنترة بن شداد

وينظر فإذا عنترة العبسيُّ مُتحَـيِّرٌ في السَّعير، فيقول: ما لك يا أخا عبسٍ؟ كأنَّك لم تنطق بقولك:

ولقد شَـرِبتُ مِن المُـدامَــةِ بَـعْـدَما　　　رَكَـدَ الهَـواجِـرُ بِالمَـشـوفِ المُـعْـلَـمِ

بِـزُجاجَــةٍ صَـفْـراءَ ذاتِ أسِـــرَّةٍ　　　قُـرِنَـت بِأَزْهَـرَ في الشَـمالِ مُـفَـدَّمِ

وإنِّي إذا ذكرتُ قولك:

هَـل غادَرَ الشُعَـراءُ مِن مُتَـرَدَّمِ　　　أَمْ هَـل عَـرَفْـتَ الدارَ بَعْـدَ تَـوَهُّـمِ

أقول: إنَّما قيل ذلك وديوان الشِّعر قليلٌ محفوظٌ، فأمَّا الآن، فقد كثرت على الصائد الطرائد. ولو سمعت ما قيل بعد مبعث النّبي، صلى الله عليه وسلّم، لعتبت نفسك على ما قلت، وعلمت أنّ الأمر كما قال حبيبُ بنُ أوس[1]:

وَلو كانَ يَـفنى الشِعـرُ أَفـناهُ ما قَرَتْ　　　حِياضُكَ مِنهُ في العُصورِ الذواهِبِ

وَلكِنـَّهُ صَـوبُ العُـقـولِ إِذا انْـجَـلَــتْ　　　سَـحائِـبُ مِـنـهُ أُعْـقِـبَـت بِـسَـحـائِـبِ

فيقول: وما حبيبُكم هذا؟ فيقول: شاعرٌ ظهرَ في الإسلام، ويُنشده شيئاً من نظمه، فيقول: أمّاالأصل فعربيٌّ، وأمّا الفرع فنطَـقَ به غبيٌّ، وليس هذا المذهب على ما تعرف قبائل العرب. فيقول وهو ضاحكٌ مستبشرٌ: إنَّما يُـنكـَر عليه المستعار، وقد جاءت الاستعارات في أشعار كثيرٍ من المتقدِّمين، إلا إنها لاتجتمع كاجتماعها فيما نظـمه حبيب بن أوسٍ. فما أردت بالمَشـوفِ المُعْـلَـم؟ الدِّينار أم الـرِّداء؟ فيقـول: أيُّ الوجهين أردتَ، فهو حسنٌ. فيقول، جعل الله سمعه مستودَعاً لكل الصالحات: لقد شقَّ عليَّ دخولُ مثلك إلى الجحيم، وكأنَّ أذني مصغيةٌ إلى قيان الفُسطاط وهنَّ يُغـَرِّدن بقولك:

أمِنْ سُـمَـيَّـةَ دَمْعُ العـيـنِ تَـذْريـفُ؟　　　لَـو أنَّ ذا مِنْـكِ قبلَ اليومِ مَعْروفُ

تجَلَّـلَـتْـنيَ إذْ أهْـوى العَـصا قِـبَلي　　　كأنـّها رشَـأٌ في الـبـيـتِ مَـطْـروفُ

---

١ - أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (١٨٨ - ٢٣١ هـ / ٨٠٣ - ٨٤٥ م) أحد أمراء البيان، استقدمه المعتصم إلى بغداد فقدمه على شعراء وقته، ثم وليَ بريد الموصل، فلم يتم سنتين حتى توفي بها. كان أسمر طويلاً فصيحاً حلو الكلام، في شعره قوة وجزالة، واختلف في التفضيل بينه وبين المتنبي والبحتري، له تصانيف، منها: فحول الشعراء، وديوان الحماسة، ومختار أشعار القبائل، ونقائض جرير والأخطل.

العبـدُ عَـبـدُكـُـمُ، والمـالُ مالـُكـُـمُ   فهلْ عذابُـكِ عنِّي اليومَ مَـصـروفُ

وإنِّي لأتمثـَّلُ بقولك:

وَلـقـد نَـزَلـتِ فـلا تـظـُنّي غـَـيـرَهُ   مِـنّي بِـمَـنـزِلـةِ الـمُـحَـبِّ المـُكـْرَمِ

ولقد وُفـِّـقـْـتَ في قولك: المُحَـبِّ، لأنـَّـك جئتَ باللَّـفـظ على ما يجبُ في أحْـبَـبْـتُ، وعامّةُ الشـُّعـراء يقولون: أحْـبَـبْـتُ، فإذا صاروا إلى المفعولِ قالوا: مَحْبوبٌ. قال زهير بن مسعودٍ الضَّبِّيُّ:

واضِـــحـــةُ الـــغـــرَّة مَـحـبـوبـةٌ   والـفـَــــرَس الـصّـالِـحُ مَحْـبـوبُ

وقال بعض العلماء: لم يُسمع بمُحَبٍّ إلا في بيت عنترة. وإنَّ الذي قال: أحببتُ، يجبُ عليه أن يقول: مُـحَـبُّ، إلا أنَّ العربَ اختارت: أحبَّ في الفعل، وقالت في المفعول: محبوب.

علقمة بن عبيدة

وينظر فإذا علقمة بن عبيدة فيقول: يعز عليَّ أن أراك في مكانك! ما أغنت عنكَ عقودُ اللؤلؤ التي صُغتـَها، يعني قصيدَته التي على الباء:

طحا بكَ قـلبٌ في الحـسـانِ طـَروبُ   بُـعَـيـدَ الشَـبابِ عَـصْرَ حانَ مَـشـيبُ

والتي على الميم:

هَل ما عَلِمتَ وَما استودِعَت مَكتومُ   أم حَـبـلـُها إذ نَـأتـْكَ اليَـومَ مَـصْـرومُ

فبالذي يقدِرُ على تخليصك، ما أردت بقولك:

فلا تـَعْـدلي بـيـني وبـيـنَ مُغـَـمَّــرٍ   سَـقـَتـْكِ روايا المُزْنِ حينَ تـَصوبُ

وما القـلـبُ، أمْ ما ذِكرها رَبَعِيَّـةٌ   يُـخـَـطُّ لها مِـن ثـَرْمَــداءَ قـَلـيـبُ

أعَنيتَ بالقليب البئر التي يَرِدُها الناس أم القبر؟ ولكلٍ وجهٌ حسنٌ.

فيقول علقمة[1]: إنـّك تريد أن تُضحِك عابساً، وتريد أن تجني الثـّمرَ يابساً، فعليك شُغلـُك أيُّها السَّليم! فيقول: لو شفعتْ لأحدٍ أبياتٌ صادقةٌ ليس فيها ذكرُ الله سبحانه، لشفعت لك أبياتك في وصف النَّساء، أعني قولك:

فـإنْ تـسْــألـوني بـالنِّـسـاء فـإنَّـني   بَـصِـيـرٌ بـأدواء الـنِّـســاءِ طـبـيـبُ

إذا شابَ رأسُ المَرءِ أو قـَلَّ مـالـُهُ   فـلـيـسَ لَــهُ فـي وُدِّهِــنَّ نـصـيـبُ

يُرِدْنَ ثـراءَ الـمـالِ حـيـثُ عَـلِـمْـنَـه   وشَــرْخُ الشِّبابِ عِـنْدَهُـنَّ عَـجـيـبُ

ولو صادفتُ منك راحةً لسألتُـكَ عن قولك:

وفي كُلِّ حَـيٍّ قـد خـَبَـطَّ بـنِعْـمَــةٍ   فـحُـقَّ لـشـــاسٍ مِـن نـَداكَ ذُنــوبُ

---

١ – علقمة بن عَبدة بن ناشرة بن قيس، من بني تميم المتوفى ٢٠ ق. هـ / ٦٠٣ م ولقبه" علقمة الفحل "، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، كان معاصراً لامرئ القيس وله معه مساجلات. وقيل إن لقبه هذا كان لتمييزه من علقمة بن سهيل الذي كان يلقب" علقمة الخصيّ "، وقيل بل لأنه احتكم مع امرئ القيس إلى زوجة هذا، فحكمت لعلقمة بأنه أشعر، فاتهمها امرؤ القيس بأنها تعشق علقمة وطلّقها، فتزوجها علقمة.

أهكذ نطقت بها طاءً مشدّدةً، أم قالها كذلك عربيٌّ سواك؟ فقد يجوز أن يقول الشاعر الكلمة، فيغيِّرها عن تلك الحال الرواة. وإنَّ في نفسي لحاجةً من قولك:

كأسٌ عزيزٌ من الأعْنابِ عَتَّقها لبَعْضِ أرْبابِها حانيَّةٌ حُومُ

فقد اختلف النَّاس في قولك حُومُ، فقيل: أراد حُمَّاً، أي سوداً، فأبدل من إحدى الميمين واواً. وقيل: أراد حَوْماً أي كثيراً، فضمَّ الحاء للضَّرورة، وقيل: حُومٌ، يحام بها على الشُّرب أي يطاف. وكذلك قولك:

يَهدي بها أكْلَفُ الخدَّينِ مُخْتبِرٌ مِن الجمالِ كثيرُ اللّحْمِ عَيْثومُ

فروي: يَهدي، بالدَّال ، ويهذي بالذال. وقيل: مختبِرٌ، من اختبارِ النوق التي لم تلقح من اللواقح، وقيل: هو من الخبير أي الزُّبَد، وقيل: الخبيرالوَبَر.

عمرو بن كلثوم[١]

(ألا هبي بصحنك فاصبحينا ......)

ويقول: ليت شعري ما فعل عمرو بن كلثوم، فيقال: ها هوذا من تحتك، إن شئت أن تحاورَه فافعل. فيقول: كيف أنت أيُّها الشارب صُبحاً بصحن الغانية، ومساءً في الدُّنيا الفانية؟ لوددت أنَّك لم تُسانِد في قولك:

كـأنَّ مُـتـونَـهُـنَّ مُـتـونُ غُـدْرٍ   تُـصـفِّـقُـهـا الـرِّيـاح إذا جَـرَيْـنا

فيقول عمرٌو: إنك لقريرُ العين لا تشعر بما نحن فيه، فاشْغَلْ نفسك بتمجيد الله واترك ما ذهب فإنّه لا يعود. وأمّا ذكرك سنادي[٢]، فإنَّ الإخوة ليكونون ثلاثةً أو أربعةً، ويكون فيهم الأعرج أو الأعور، فلا يعابون بذلك، فكيف إذا بلغوا المائة في العدد، وأرهقهم المدد؟

فيقول: يعِزّ عليَّ أنَّك اقتصرت على شُرب ماء الجحيم الذي قال عنه القرآن: حميم، وأخذت بعَملِك الذّميم، من بعد ماكنت تُشترى لك الخمرة من كل تاجر دهقان، فتأتيك بلون الزعفران. وقالوا في قولك:

مُـشَعْـشَعَةً كـأنَّ الـحُـصَّ فـيها   إذا ما المـاءُ خالَـطَـها سَخينا

إنَّ سخيناً: فِـعْـلُـنا من السّخاء، والنون نون المتكلمين، وقال آخرون إنّه من الماء السّاخن، لأنَّ الأندرين وقاصرين كانتا للرُّوم، ومن شأنهم أن يشربوا الخمرَ بالماء السَّخين في صيفٍ وشتاءٍ. ولقد سُئِلَ بعض الأدباء ببغداد عن قولك:

فما وَجَـدتْ كوَجْدي أمُّ سَـقْـبٍ   أضَـلَّـتْـهُ فـرَجَّعَـتِ الحنينا
ولا شـمـطاءُ لم يـتركْ شَقاها   لهـا مِـن تِـسعـةٍ إلا جَـنـيـنـا

---

١ - عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتّاب التغلبي المتوفى ٣٩ ق. هـ / ٥٨٤ م شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى، كان من أعز الناس نفساً، وهو من الفتاك الشجعان، ساد قومه (تغلب) وهو فتىً وعمّر طويلاً وهو الذي قتل الملك عمرو بن هند. أشهر شعره معلقته التي مطلعها

٢ - السِّناد: تغير حركة الحرف قبل الرويّ، ومنه ما هو مكروه، ومنه غير مكروه، مثل: أبادِر والمظاهَر، وخموشا وقريشا،وعليّا وكمِيّا هل يجوز نصب شمطاء؟ فلم يجب بشيء، وذلك يجوز عندي من وجهين: أحدهما على إضمار فعلٍ دلَّ عليه السامع معرفته به، كأنَّك قلت: ولا أذكرُ شمطاء، اي إنَّ حنينها شديدٌ، ويجوز أن يكون على قولك: ولا تنسَ شمطاء، أو نحو ذلك من الأفعال.

الحارث اليشكري

وينظر فإذا الحارث اليشكريُ[1] فيقول: لقد أتعبت الرُّواة في تفسير قولك:

زعَـموا أنَّ كلَّ مَن ضرَبَ العَيْـ ـرَ مُـوالٍ لنـا، وأنَّـا الـولاءُ

وما أحسبك أردت بالعير إلا الحمار. ولقد أحسنت في قولك:

لا تكْسَـعِ الـشَّـوْلَ بأغبارِها إنّـك لا تـدري مَـنِ النّاتِجُ

وقد كانوا في الجاهليَّة يعكسون ناقة الميت على قبره، ويزعمون أنَّه إذا نهض لحَشره، وجدها قد بعثت له فيركبها، فليته لا يكسر بثقله مَنكِبَها. وهيهات! بل حُشروا عراةً حفاةً بُهْماً لم يُخْتنوا، وقد ذكَرتَ تلك الناقة في قولك:

أتلَهَّى بها الهواجِرَ إذ كُـ ـلُّ ابْنِ هَمٍّ بَلِيَّةٌ عَمْياءُ

١ - الحارث بن حِلِّزَة بنِ مكروه اليشكُري الوائلي المتوفى٥٤ ق. هـ / ٥٧٠ م، أحد أصحاب المعلقات. كان أبرص فخوراً، ارتجل معلقته بين يدي عمرو بن هند ملك الحيرة، جمع بها كثيراً من أخبار العرب ووقائعهم حتى صار مضرب المثل في الافتخار، فقيل: أفخر من الحارث بن حلّزة.

طرفة بن العبد

ويعمد لسؤال طرفة بن العبد[1] فيقول: يا ابن أخي يا طرفة خفَّف الله عنك، أتذكر قولك:

كريـمٌ يُـرَوِّي نفسَـه في حياتِـهِ ستعْلمُ إن مُتـنا غـداً أيُّـنـا الصَّدي

وقولك:

أرى قبـرَ نحّـامٍ بخيـلٍ بمالِـهِ كقبْـرِ غـَوِيٍّ في البطالة مُـفْـسِـدِ

وقولك:

متى تأتِني أصْبِحْـكَ كأساً رَوِيَّـةً وإنْ كنتَ عَنها غانياً فاغْـنَ وازْدَدِ

فكيف صَبُوحُكَ الآن وغُبوقُـك في الصبح والعشية؟ إنّي لأحسبُهما من نار جهنم حميماً، لا يفتأ مَن شَربَهما ذميماً. وهذا البيت مُتنازَع فيه: فينسُبُه إليك قومٌ، وينسُبُه آخرون إلى عديّ بن زيدٍ، وهو بكلامك أشبه:

وَأصْـفَـرَ مَـضْبـوحٍ نَـظَـرتُ حِـوارَهُ عَلى النارِ وَاستَودَعْـتُـهُ كفَّ مُـجْمِدِ

وشدَّ ما اختلف النُّحاة في قولك:

شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، كان هجّاءاً غير فاحش القول، تفيضُ الحكمة على لسانه في أكثرِ شعره. اتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه، ثم أرسله بكتاب إلى المُكَعْبِـرِ عامله على البحرين وعُمان يأمرُه فيه بقتله، لأبيات بلغ الملك أن طرفة هجاه بها، فقتله المُكَعْـبِـرُ شاباً.

ألا أيُّـهـذا الزَّاجِـري أحْـضُـرَ الوَغى وأن أشْهَدَ اللَّذّاتِ، هل أنتَ مُخْلِدي؟

وأمّا سيبويه فيكره نصبَ أحْضُرَ، لأنّه يعتقد أنَّ عواملَ الأفعالِ لا تُضمَر. وكان الكوفيُّون ينصِبون أحضرَ بالحرفِ المقدَّر، ويُـقوِّي ذلك: وأن أشهدَ اللَّذات، فجئت بأن. ولقد جئتَ بأعجوبةٍ في قولك:

---

١ - طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري (٨٦ - ٦٠ ق. هـ / ٥٣٩ - ٥٦٤ م)

لــو كان فِي أمْلاكِنــــا مَـلِـكٌ يَـعْـصِـر فـينا كالـذي تعْـصِـرْ

لاجْتَـبْتُ صَحْنَـيِّ العِراقِ على حَــرْفٍ أمــــونٍ، دَفــُّها أزْوَرْ

مَـتَّعَـني يَـومَ الرَّحـيـلِ بـِهــــا فـَـرْعٌ تـنَـقـّـاهُ الـقِـداحُ يَـسَــرْ

ولقد كثرت في أمرك أقاويل النَّاس: فمنهم من يزعم أنَّك في ملك النُّعمان اعتقلت، وقال قومٌ: بل الذي فعل بك ما فعل عمرو بن هندٍ. ولو لم يكن لك أثرٌ في العاجلة إلا قصيدُتك التي على الدال، لكنت قد أبقيت أثراً حسناً.

فيقول طرفة: وددت أنّي لم أنطق شطراً من بيت، وعدمت في الدار الزّائلة كل ما أنفقت وأفنيت، ودخلت الجنَّة مع الرعاع والعبيد، ولم يعمدوا إلى التنكيل بي بالنار والحديد، وكيف لي بهدءٍ وسكون، أركن إليه بعض الركون؟ «وأمّا القاسطون فكانوا لجهنِّم حطباً».[1]

ويلفت عنقه يتأمّل، فإذا هو بأوس بن حجر، فيقول: يا أوس، إنَّ أصحابك لا يجيبون السائل، فهل لي عندك من جوابٍ؟ فإنِّي أريد أن أسألك عن هذا البيت:

وقارَفـتْ وهي لمْ تَـجْـرَبْ وبـــاعَ لها مِـن الفَـصـافِـصِ بالنُّـمِّـيِّ سِفْسيــرُ

فإنّه في قصيدتك التي أوّلها:

هَل عاجِلٌ مِن مَـتاعِ الحيِّ مَنظـورُ أَم بَيـتُ دَومَـة َ بَعدَ الإلْـفِ مَهْجورُ

ويُروى في قصيدة النَّابغة التي أوَّلها:

ودِّع أمـامَـــة َوالـتّـوديـعُ تـعْـذيــرُ وما وداعُـك مَـن قَـفـتَّـتْ بـهِ العِـيـرُ

وكذلك البيت الذي قبله:

قدعُـرِّيتْ نِصـفَ حَولٍ أشْهُـراً جُـدُداً يَسْـفي عـلى رَحْـلِـهـا في الحـِيرةِ المُورُ

وكذلك قوله:

إنّ الرَّحـيـلَ إلى قـومٍ وإن بَـعُــدوا أمْسَوا ومن دُونهم ثـَهْلانُ فـالـنِّـيـرُ

وكلاكما معدودٌ في الفحول، فعلى أيِّ شيءٍ يُحمَل ذلك؟ وتعجبني لامِـيَّـتُـك التي ذكرت فيها

١ - الآية ١٥ سورة الجن

الجُرجَة وهي الخريطة ُمن الجلد كالخُرج، فقلت لمّا وصفت القوس:

فجِئتُ ببَيْعي مُولِياً لا أزيدُه عَليهِ بها حتى يَؤُوبَ المُنَخَّلُ

ثلاثةُ أبْرادٍ جِيادٍ وجُرْجَةٌ وأدْكَنُ مِن أرْيِ الدَّبُور مُعَسَّلُ

فيقول أوسٌ: قد بلغني أنَّ نابغة بني ذبيان في الجنَّة، فأسأله عمَا بدا لك فلعلَّه يخبرك، فإنَّه أجدر بأن يعيَ هذه الأشياء، فأمَّا أنا فقد ذُهلت: نارٌ توقد، ولكل منا في النار مَقعد، إذا غلب عليَّ الظَّمأ، رفع لي شيءٌ كالنّهر، فإذا اغترفت منه لأشرب، وجدته سعيراً مضطرماً، فليتني أصبحت دَرِماً، وهو الذي يقال فيه: أودى دَرِمٌ[1]. ولقد دخل الجنَّة من هو شرٌّ منِّي، ولكنَّ المغفرة أرزاقٌ، كأنَّها المال في الدارالعاجلة. فيقول، صار وَلِيُّهُ من المتبوعين، ومبغضه بالسَّفَّه من المذعورين: إنّما أردتُ أن آخذ عنك هذه الألفاظ، فأتحِفَ بها أهلَ الجنَّة فأقول: قال لي أوسٌ، وأخبرني أبو شريح. وإنّي لكارهٌ قولك:

والخيلُ خارجةٌ مِن القَسْطال[2]

أخرجت الاسم إلى مثالٍ قليلٍ، لأنَّ فعلالاً لم يجئ في غيرِ المضاعَف، وقد حكي: ناقةٌ بها خَزْعالٌ، أي بها ظَلْعٌ.

١ - هو دَرِمُ بن دُبٌّ بنِ مُرَّةَ بْنِ ذُهْل بن شيبان، وكان النعمان يطلبه، فظفر به رجاله، فأرادوا حمله إليه، فمات في أيديهم، فلما رآهم سألهم عنه، فقالوا: "أودى درم"، أي هلك، فذهبت مثلا في كل شيء يهلك ويذهب.

٢ - والقسطال هو الغبار

أبو كبير الهـُذلي

ويرى رجلاً في النَّار لا يميّزه من غيره، فيقول: من أنت أيُّها الشَّقيُّ؟ فيقول: أنا أبو كبيرٍالهذلي، عامرُ بنُ الحُلـَيس،[1] فيقول: إنَّك لمن أعلام هذيلٍ، ولكني لم أوثِرْ قولك:

أزُهيرُ هَـل عن شَـيبَـةٍ مِـن مَـعْـدِلِ　　　أم لا سَـبـيـلَ إلى الشَـبـابِ الأوَّلِ

وقلت في الأخرى:

ولـَنِعْمَ مَأوى المُستَضيفِ إذا دَعا　　　وَالخَـيْـلُ خارِجَـةٌ مِنَ القَـسْـطالِ

أزُهَيرُ هَـل عَـن شَيبَةٍ مِن مَصرِفِ　　　أَم لا خُـلـودَ لِـعاجِــزٍ مُـتـكَـلـِّـفِ

وقلت في الثالثة:

أزهـيـرُ هلْ عَـن شَـيـبَـةٍ مِن مَـعْكِـمِ　　　أَم لا خُــلــودَ لِـعاجِــزٍ مُـتَـكَــرِّمِ

أي من مَحْبِس، فهذا يدلُّ على قِصَرِ باعِـك بالقَـريض، فهلّا ابتدأتَ كلَّ قصيدة بفنٍّ؟

والأصمعيُّ لم يَـرْوِ لك إلاّ هذه القصائد الثلاث، وقد حُكي أنّه يروي عنك الرائية التي أوَّلها:

أَزُهَيرُ هَـل عَـن شَـيـبَـةٍ مِن مَـقْـصَرِ　　　أَم لا سَـبـيـلَ إِلى الشَّبّابِ المُـدْبِـرِ

فيقول أبو كبيرٍ الهذليّ: كيف لي أن أردَّ كلماتٍ عذاباً مُغدِقاتٍ، وأنا أقضمُ جَمَراتٍ محرقاتٍ ؟ وإنَّما كلام أهل سَـقَـرٍ ويلٌ وعَـويلٌ، وعذابهم فيها طويلٌ، فاذهب لحاجتك، واحذر أن تنشغل عن راحلتك. فيقول، بلَّغه الله أقاصي الأمل: كيف لا أسعَدُ وقد ضُمنت لي الرَّحمة الدائمة، ضَمِنَها من يصدق ضمانُه، ويعمُّ أهلَ الخوف أمانُه؟

---

١ – شاعر فحل، من شعراء الحماسة قيل: أدرك الإسلام وأسلم، وله خبر مع النبي صلى الله عليه وسلم. ويروى أنه تزوج أم تأبط شراً وكان غلاما صغيراً. وله أربع قصائد تبدأ بقوله: أزهير هل عن شيبة من...

الأخطل التغلبي

وإذا هو برجلٍ يصيح ألماً، فيقول: من هذا؟ فيقال: الأخطل التَّغلبيّ، فيقول له: ما زلتَ تتباهى بوصفِ الخمر، حتى صرت طعاماً للنار وللجمر، كم طرِبَ السَّادات على قولك:

أَناخُوا فجَرُّوا شاصِيَاتٍ كأنَّها   رِجالٌ منَ السُّودَانِ لم يَتسَرْبَلوا
فقلتُ اصْبِحُوني لا أَبَا لأبِيكُمُ   وما وضَعُوا الأثْقالَ إلا لِيَفْعَلوا
فصَبُّوا عُقاراً في الإناءِ كأنَّها   إذا لمَحوها جَذوةٌ تتأكَّلُ
وجاؤوا بِبَيسانِيَّةٍ هيَ بَعْدما   يَعُلُّ بها الساقي ألذُّ وأسْهلُ
وتُوقَفُ أحياناً فيَفصِلُ بيننا   غناءُ مُغَنٍّ أو شِواءٌ مُرَعْبَلُ
فلَذّتْ لمُرْتاحٍ وطابَتْ لشاربٍ   وراجَعَنِي مِنها مِراحٌ وأخْيَلُ
فما ألْبَثَتْنا نشوَةٌ لحِقتْ بِنا   توابِعُها مِمّا نُعَلُّ ونُنْهَلُ
تدِبُّ دَبيباً في العِظامِ كأنَّه   دَبيبُ نِمالٍ في نَقاً يَتهَيَّلُ
ربَتْ ورَبا في كَرْمِها ابنُ مَدينةٍ   مُكِبٌّ على مِسحاتِهِ يَتَرَكَّلُ
إذا خافَ من نَجْمٍ عَليها ظَماءَةً   أدَبَّ إليها جدولاً يَتَسَلْسَلُ
فقُلْتُ اقْتُلوها عَنكُمُ بِمِزاجِها   وحُبَّ بِها مَقتولةً حينَ تُقْتَلُ

فقال التَّغلبيّ: إنّي جرَرتُ الدِّنان، ولقيتُ الفرسان، وهجرت كلَّ فعلٍ مُنكر، ورجوت أن تُدعى النَّفس إلى ما تُؤمر، ولكن أبت الأقضية.

فيقول، أحلَّ الله الهلَكَة بمبغضيه: أخطأتَ في أمرين: جاء الإسلام فأبيتَ أن تدخل فيه، ولزمت أخلاق سفيه، وعاشرت ابن معاوية يزيد[1]، وأطعت نفسك الغاوية فيما تريد، وآثرت ما يَفنى على ما يبقى، فكيف إلى المغفرة ترقى؟

١ - يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي(٢٥ - ٦٤ هـ / ٦٤٥ - ٦٨٣ م) ثاني ملوك الدولة الأموية في الشام، ولد بالماطرون، ونشأ في دمشق. ولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٦٠ هـ وفي أيامه كانت فاجعة الشهيد (الحسين بن علي) في كربلاء ٦١هـ. وخلع أهل المدينة طاعته سنة (٦٣ هـ) فأمر باستباحتها ثلاثة أيام، وأن يبايع أهلها على أنهم خول وعبيد ليزيد، فقتل فيها الكثير من الصحابة والتابعين.

وكان نزوعاً إلى اللهو، وينسب له شعر رقيق وإليه ينسب (نهر يزيد) في دمشق.

فيزفرُ الأخطلُ زفرةً تعجب لها الزَّبانية، ويقول: آه على أيّام يزيد، لا أشمُّ عنده إلاعنبراً ومن العود دخاناً، ولاأعدَمُ لديه ريحاناً، وأمزح معه مزح خليل، فيحتملني احتمال الجليل، وكم ألبسني من مُوشّى الرداء، فأسحب الذيل في الصبح والعِشاء، وكأنّي بالقيان الصّادحات بين يديه يُغنّيـنهُ بقوله:

ولَهـا بالمـاطِـرون إذا أنْفَـدَ النَّمْلُ الذي جَمَعا
خِلْفَـةٌ حتّى إذا ظهَـرَتْ سَكَنَتْ مِنْ جِلَّقٍ بِيَعا
في قِباب حَـولَ دَسْكَرَةٍ حَولَها الزّيتونُ قد يَنَعا
وقَفَتْ للبَدْرِ ترْقُبُه فإذا بالبَدْرِ قد طَلَعا

ولقد فاكهته في بعض الأيَّام والسكرُ قد تمكّن مني، فقلت:

اسْلَمْ سَلِمْتَ أبا خالدٍ وحَيَّاكَ ربُّكَ بالعَنْقَزِ
أكلتَ الدَّجاجَ فأفْنَيْتَهـا فهلْ في الخَنانِيصِ من مَغْمَزِ

فما زادني عن ابتسام، واهتزَّ للصِّلة اهتزازَ الحُسام. والخنانيص الخنازير، وهي محرمة في الإسلام فيقول، أدام الله تمكينه: أما علمتَ أنّ ذلك الرجلَ ظالم جائر، وفي دروب المعصية والغيّ سائر؟ فعلام اطَّلعْتَ من مذهبِه: أكان موحِّداً، أم وجدته ملحداً؟ فيقول الأخطل: كانت هذه الأبيات تعجبه:

أخالدَ هاتي خبِّريني وأعْلِني حَديثَك، إنِّي لا أسِرُّ التّناجيا
حَديث أبي سُفيانَ لمّا سَما بها إلى أحُدٍ حَتّى أقامَ البَواكِيا
وكيفَ بغى أمْراً عَليٌّ ففاتَهُ وأوْرَثَه الجدُّ السَّعيدُ مُعاويا
وقُومي فعُلِّيني على ذاك قهْوةً تحَلَّبها العِيسِيُّ كرْماً شآميا
إذا ما نظرنا في أمورٍ قديمةٍ وجَدْنا حلالاً شُربَها المُتواليا
فلا خُلفَ بينَ النَّاسِ أنَّ مُحَمّداً تبَوّأ رَمْساً في المَدينةِ ثاويا[1]

فيقول، جعل اللهُ أوقاته كلَّها سعيدةً: عليك اللعنة! قد ذهَلَتِ الشّعراءُ من أهل الجنّة والنَّار

١ - لم أجد ذكراً لهذه الأبيات، لا في شعر الأخطل ولا في أشعار يزيد، حتى إنها لم ترد في أي كتاب من كتب التراث.

عن المدحِ والنَّسـيب، وما شُـدِهْت عن كُفرك ولا إساءتك. وإبليس يسـمع ذلك الخطاب كلُّه فيقول للزَّبانية: ما رأيت أعجزَ منكم إخوانَ مالكٍ[١]! فيقولون: كيف زعمت ذلك يا أبا مُرّة[٢]؟ فيقول: ألا تسمعون هذا المتكلِّمَ بما لا يعنيه؟ قد شغلكم وشغل غيركم عمّا هو فيه! فلو أنَّ فيكم صاحب طبيعةٍ قويَّةٍ، لوثب وثبةً حتى يلحق به، فيجذبه إلى سقر. فيقولون: لم تصنع شيئاً يا أبا زوبعة! ليس لنا على أهل الجنَّة سبيلٌ.

فإذا سمع، أسمعه الله ما يحب، ما يقول إبليس، أخذ في شتمه ولعنه وإظهار الشَّماتة به. فيقول، عليه اللَّعنة: ألم تُنهَوا عن الشَّماتة يا بني آدم؟ ولكنَّكم، بحمد الله، ما زجرتم عن شيءٍ إلاّ وركبتموه. فيقول، واصل الله الإحسان إليه: أنت بدأتَ آدم بالشَّماتة، والبادئُ أظلم: ثمَّ يعود إلى كلام الأخطل فيقول: أأنت القائل هذه الأبيات:

ولسْـتُ بصائِـمٍ رمَـضانَ طـَوعـاً — ولـسْـتُ بـآكِلٍ لـحْـمَ الأضـاحي
ولـسْـتُ بـقـائِـمٍ كالعِيـــرِ أدْعــو — قُبَيلَ الصُّبحِ: حـيَّ عـلى الفلاحِ
ولـكِـنّي سـأشْـربُـها شَـــمولاً — وأسْـجُـدُ عِـند مُـنْبَـلَـجِ الصِّباحِ

فيقول: أجلْ، وإنِّي لنادمٌ أشدَّ الندم ، وهل أغْنت النَّدامة عن أخي كُسَعٍ؟[٣]

١ – مالك: خازن النار.

٢ – أبو مُرّة: كنية إبليس.

زَوْبَعةُ: اسم شيطان مارد أَو رئيس من رؤساء الجن؛ ومنه سمي الإِعصار زوبعة. وأبو زوبعة: إبليس اللعين.

٣ – هذا مثل عند العرب، إذ يقولون: أندم من الكُسَعي. واسمه مُحارب بن قيس، وكان أرمى الناس، لا يخطئ له سهم، فخرج فرمى صيداً في الليل، فأصاب سهمه ونفذ، فوقع في الحجر فقدح ناراً. ثم رمى كذلك حتى استنفد السِّهام. وهو يظن أنه أخطأ في الجميع، فكسر قوسه. فلما أصبح رأى رميَّته، فندم على فعله، وعض على إصبعه حتى قطعها.

المهلهل التغلبي[١]

ويمَلُّ من خطاب أهل النَّار، فينصرف إلى قصرِه المُشيَّد، فإذا صار على ميلٍ أو ميلين، ذكر أنَّه ما سأل عن مُهَلْهِـل التَّغلبيَّ ولا عن المرَقّـشين وأنَّه أغفلَ الشَّنفرى وتأبَّط شرّاً، فيرجع أدراجَه، فيقف بذلك الموقف ينادي: أين عديُّ بنُ ربيعة؟ فيقال:

زد في البيان. فيقول: الذي يستشهد النُّحويُّون بقوله:

ضـربَـتْ صـدْرَهــا إليَّ وقـالـت: يا عَـدِيّــاً لـقـد وَقـَـتْـكَ الأواقـي

وقد استشهدوا له بأشياء كقوله:

ولقـد خبطـْنَ بيوتَ يَشكُرَ خبْطةً أخْوالُـنـا، وهُـمُ بَـنـو الأعْـمـامِ

وقوله:

مـا أرَجِّـي بالعَـيْـش بعْـدَ نَـدامى كُلُّـهُـــمْ قـد سُـقـوا بكأسِ حَــلاقِ

فيقال: إنّك لتُعرِّف صاحبَك بأمرٍ لا معرفة َعندنا به، ما النّحويّون؟ وما الاسْتشهاد؟ وما هذا الهذيان؟ نحن خزَنةُ النَّار، فبيِّنْ غرضَكَ تُجب إليه. فيقول: أريد المعروفَ بمُهلهِلٍ التَّغلبيِّ، أخي كُليبِ وائلٍ الذي كان يُضرَب به المثل.[٢]

فيقال: ها هو ذا يسمعُ حوارك، فقل ماتشاء. فيقول: يا عديَّ بن ربيعة، يَعِز عليَّ أن أراك في هذا المقام، لو لم آسف عليك إلا لأجل قصيدتك التي أوَّلها:

ألَـيْـلَـتَـنـا بذي حُـسُـمٍ أنِـيـري إذا أنتِ انْـقـَضَـيـتِ فـلا تَـحـوري

١ – المهلهل عدي بن ربيعة بن مرّة من تغلب المتوفى ٩٤ ق. هـ / ٥٣١ م. وهو خال الشاعر امرئ القيس. قيل: لقب مهلهِلاً، لأنه أول من هلهل الشعر، أي رققه. وكان من أصبح الناس وجهاً وأفصحهم لساناً. انشغل باللهو والنساء، فسماه أخوه كليب (زير النساء) أي جليسهن. ولما قتلَ جساسُ بن مرة كُليباً انقطع عن الشراب واللهو إلى أن يثأر لأخيه، فكانت وقائع بكر وتغلب، التي عرفت بحرب البسوس ودامت أربعين سنة، وكانت للمهلهل فيها العجائب والأخبار الكثيرة.

٢ – هو كليب بن ربيعة بن الحرث بن زهير، وكان سيد ربيعة في زمانه، وقد بلغ من عزه أنه كان يحمي الكلأ فلا يقربه أحد، ويُجير الصيدَ فلا يُهاج، وكان من عزه لا يتكلم أحد في مجلسه.

لكانت جديرةً أن تُطيلَ الأسفَ عليك، وقد كنتُ إذا أنشدتُ أبياتك في ابنتك المُزوَّجَةِ في "جَنبٍ" تغرورق من الحزن عيناي، فأخبرني لِمَ سُمِّيتَ مُهلهِلاً؟ فقد قيل: إنّك سُمَّيت بذلك لأنَّك أوَّلُ من هلهلَ الشِّعرَ أيّ رقّقه.

فيقول: إنَّ الكذبَ لكثيرٌ، وإنَّما كان لي أخٌ يقال له امرؤُ القيس فأغارَ علينا زهير بن جنابٍ الكلبيُّ، فتبعه أخي في زُرافةٍ من قومه، فقال في ذلك:

لمّا توَقّل في الكُراعِ هَجينُهُمْ هَلهَلْتُ أثأرُ مالِكاً أو صِنْبِلا
وكأنَّه بازٌ عَلَتْهُ كَبْرَةٌ يَهْدي بِشَكَّتِه الرَّعيلَ الأوَّلا

هلهلت: أي قاربت، ويقال: توقّفت، يعني بالهجين زهير بن جنابٍ. فسُمِّي مهلهلاً فلمَّا هلك شُبِّهتُ به فقيل لي: مُهلهِل. فيقول: الآن شفيت صدري بحقيقة اليقين. فأخبرني عن هذا البيت الذي يُروى لك:

أرْعَدوا ساعةَ الهِياجِ وأبْرَقْ نا كما تُوعِدُ الفُحولُ الفُحولا

فإنَّ الأصمعيَّ كان يُنكره ويقول: إنّه مُوَلَّدٌ، وكان أبو زيدٍ يستشهدُ به ويثبته. فيقول: لقد نسيت ما قلت في الدار الفانية، فما الذي أنكر منه؟ فيقول: زعم الأصمعيُّ أنَّه لا يُقالُ أرعَدَ وأبرقَ في الوعيد ولا في السّحاب. فيقول: إنَّ ذلك لخطأٌ من القول، وإنَّ هذا البيت لم يقله إلاّ رجلٌ من نبع الفصاحة، إما أنا وإمَّا سواي، فخذ به وأعرض عن قول السُّفهاء.

مع المُرقِّـشَـين [1]

ويسأل عن المرقِّش الأكبر، فإذا هو به في أطباق العذاب، فيقول: خفَّف الله عنك أيُّها الشَّاب المُغتصَب، فلم أزل في الدار العاجلة حزيناً لما أصابك به الرّجل الغفُليُّ، أحد بني غفيلة بن قاسطٍ، فعليه لعنة الله![2] وإنّ قوماً من أهل الإسلام كانوا يُزرون بقصيدتك الميميَّة التي أوّلها:

هـلْ بالدِّيارِ أنْ تُجِيبَ صَمَمْ ... لـو كانَ رَسْمٌ نـاطِـقـاً كَـلَّـمْ

وإنّها عندي لمن المفردات، وكان بعض الأدباء يرى أنَّها والميميَّة التي قالها المرَقِّـشُ الأصغر ناقصتان عن القصائد المُفضَّلِيَّات[3]، ولقد وهم صاحب هذه المقالة. وبعض النّاس يروي هذا الشّعر لك:

تخيَّـرتُ من نَـعـمـانَ عــودَ أراكــةٍ ... لِـهـنـدٍ، ولكـن مَـن يُـبَـلِّــغُـه هِـنـدا

خـلـيـلـي ّجُـوراً باركَ الـلـهُ فـيكـمـا ... وإن لمْ تكنْ هندٌ لأرضِكـمـا قـصدا

وقـولا لهـا: ليس الضّلالُ أجارنـا ... ولكنـنـا جُـرنـا لـنـلـقـاكُــمُ عَـمْــدا

ولم أجدها في ديوانك، فهل ما حُكي صحيحٌ عنك؟ فيقول: لقد قلت أشياءَ كثيرةً، منها ما نُقل إليكم ومنها ما لم يُنقل، وقد يجوز أن أكون قلت هذه الأبيات ولكني نسيتها لطول الأمد، ولعلَّك تستنكر أنّها في هندٍ، وأنَّ صاحبتي أسماء، فلا تنفر من ذلك، فقد ينتقل المُشبِّبُ من الاسم إلى الاسم، ويكون في بعض عُمره مُستهتراً بشخصٍ من النّاس، ثمّ ينصرف إلى شخصٍ آخر، ألا تسمع إلى قولي:

سَـفَـهٌ تَـذَكُّرُهُ خُوَيـلـة َبعـدما ... حالـت ذُرا نجْـران دُونَ لِـقـائِـهـا

---

١ – المرقش الأكبرعوف بن سعد بن مالك المتوفى ٧٢ ق. هـ / ٥٥٢ م، شاعر من المتيمين الشجعان، عشق ابنة عمه (أسماء) وقال فيها شعراً كثيراً ضاع أكثره، وشعره من الطبقة الأولى ، وتزوجت أسماء برجل من بني مراد، فمرض المرقش زمناً ثم قصدها فمات عندها. وهو عم المرقش الأصغر ربيعة بن سفيان بن سعد بن مالك المتوفى ٥٤ ق. هـ / ٥٧٠ م شاعر جاهلي من أهل نجد، أشعرُ المرقشين، وكان من أجمل الناس وجهاً وأحسنهم شعراً، كلف بفاطمة بنت الملك المنذر وأكثر من ذكرها في شعره، وهو عمُّ طرفة بن العبد.

٢ – يُروى أن خادمَ المرقّش الغفليَّ تركه في غارٍ بين الحياة والموت، وأن المرقش كتب على رحل الناقة أبياتاً فهم منها أخوه ما حدث، فقتل الغفلي بعد أن عرف منه مكان المرقش.

٣ – المفضليات: أقدم المجموعات الشعرية، نسبة إلى مؤلفها المفضَّل الضبِّيّ المتوفى ١٦٨هـ/٧٨٤م.

وينعطف إلى المُرقّش الأصغر فيسأله عن شأنه مع بنت المنذر وبنت عجلان فيجده غير خبيرٍ، قد نسي لتعاقب الأزمان، فيقول: ألا تذكر ما صنع بك جَنابٌ الذي تقول فيه:

وآلى جَنابٌ حِلْفَةً فأَطَعْتَهُ فَنفْسَكَ وَلِّ اللَّوْمَ إِنْ كُنْتَ لائِما

فيقول: وما صنع جَناب؟ لقد لقيت من العذاب الأكبرين، وسُقيتُ الأمرَّين، وكيف لي بتذكر ما لقيت في الدَّار العاجلة.

تأبط شـرّاً والشّـَنـفـرى[1]

فإذا لم يجد عنده طائلاً تركه، وسأل عن الشَّنفرى الأزْديِّ فألفاه قليل التَشَـكـِّي والتـألـُّم لما هو فيه، فيقول: إنَّي لا أراك قِلقاً مثل قلـَقِ أصحابك. فيقول: أجل، إنَّي قلت بيتاً في الدّار الخادعة، فأنا أتأدَّبُ به مدى الدهر، وذلك قولي:

غوى فغوتْ ثمَّ ارْعَوى بعدُ وارْعَوتْ ولـَلصَّبْـرُ إنْ لمْ يَنفعِ الشـَّكْـوُ أجْمَـلُ

وإذا هو قرينٌ مع تأبَّط شرّاً، كما كانا في الدَّار الغرَّارة. فيقول، أسنى الله حظـَّه من المغفرة، لتأبّط شرّاً: أحق ٌما روي عنك من نِكاح الغِيلان؟ فيقول: لقد كنَّا في الجاهليَّة نتقوَّلُ ونخترع الأحاديث، فما جاءك عنَّا ممّا تُنكره العقول فإنّه من الأكاذيب، والزَّمن كله على سجيَّةٍ واحدةٍ، فالذي شاهده معدُّ بن عدنان كالذي شاهد نضاضة ولـَدُ آدم. والنُّضاضة آخرُ ولد الرَّجل.

فيقول، أجزل الله عطاءه من الغفران: نّقلت إلينا أبياتٌ تنُسب إليك:

أنـا الـذي نـكـحَ الغِـيـلان في بَلـــدٍ مـا طـَـلَّ فـيــه سِـــمـاكيُّ ولا جـادا

في حيثُ لا يَعْمِتُ الغادي عَـمايَتـَهُ ولاالـظـَّـلـيـــمُ بـه يَـبـغي تِـهـبّــادا

وقد لهَـوتُ بمَصـقـولٍ عَـوارِضُهـا بِـكـْرٍ تُـنـازعُـني كأسـاً وعِـنـقــادا

ثمّ انْـقضى عصرُها عنِّي وأعْـقبَـه عصرُ المشـيـبِ فقُـلْ في صالحٍ: بادا

فاستدللت على أنّها لك لمَّا قلت: تهبّادا، مصدر تهبَّدَ الظليم إذا أكل الهبيد،[2] فقلت: هذا مثل قوله في القافيَّة:

---

١ – ثابت بن جابر بن سفيان الفهمي من مضر المتوفى ٨٥ ق. هـ / ٥٤٠ م، شاعر عدّاء، من فتاك العرب في الجاهلية، كان من أهل تهامة، قتل في بلاد هذيل.

الشنفرى عمرو بن مالك الأزدي، من قحطان المتوفى ٧٠ ق. هـ / ٥٥٤ م شاعر جاهلي يماني، من فحول الطبقة الثانية، وكان من فتاك العرب وعدائيهم، وهو أحد الخلعاء الذين تبرأت منهم عشائرهم ، وهو صاحب لامية العرب.

٢ – الظليم: ذكر النعام. الهبيد: الحنظل

طيفُ ابْنـةِ الحُـرِّ إذ كُنَّا نُـواصِلـُهـا   ثمّ اجْـتُـنِـنْـتُ بـهـا بعْدَ التِّـفِـرّاق

مصدر تفرَّقوا تِـفِـرّاقاً، وهذا مطـَّرِدٌ في تفعَّل، وإن كان قليلاً في الشعر، كما قال أبو زبيدٍ:

فـثارَ الـزَّاجــِـرون فــزادَ مِنهـم   تِـقِـرّابـاً، وصـادفَـهُ ضَـبـيـسُ

فلا يظفر من تأبَّط شراً بطائلٍ.

عودة إلى الجِنان

آدم

فإذا رأى قلة الفوائد لديهم، تركهم في الشَّقاء السّرْمَد، وعمَد لمحلّه في الجنان، فيلقى آدم عليه السّلام في الطّريق فيقول: يا أبانا، صلَّى الله عليك، قد روي لنا عنك شعرٌ، منه قولك:

نحنُ بَنو الأرضِ وسُكّانُها مِنها خُلِقْنا، وإليها نَعودُ

والسَّعْدُ لا يَبقى لأصْحابِهِ والنَّحْسُ تمحوه ليالي السُّعودُ

فيقول: إنَّ هذا القول حقٌّ، وما نطقه إلاّ بعض الحكماء، ولكنِّي لم أسمع به حتى السّاعة. فيقول: وفَّرَ الله قِسْمَه في الثَّواب: فلعلَّك يا أبانا قُلتَه ثمَّ نسيت، فقد علمتُ أنَّ النِّسيان متسرّعٌ إليك، وحسبك شهيداً على ذلك الآية المتلُوَّة في فرقان محمَّدٍ، صلّى الله عليه وسلم: "ولقد عَهِدْنا إلى آدمَ مِن قَبْلُ فنَسيَ ولم نجِدْ له عَزْماً "[١] وقد زعم بعض العلماء أنّك إنّما سمِّيت إنساناً لنسيانك، واحتجَّ على ذلك بقولهم في التَّصغير: أنيسيان، وفي الجمع: أناسيّ، وقد روي عن ابن عبَّاس[٢] أنَّ الإنسان من النِّسيان ، وقال الطائيّ[٣]:

لا تنْسَيَنْ تلكَ العُهودَ وإنَّما سُمِّيتَ إنساناً لأنّك ناسِ

وقرأ بعضهم: "ثمَّ أفيضوا مِن حيثُ أفاضَ النَّاسُ"[٤] بكسر السِّين، يريد النّاسي، فحذف الياء، كما حُذفت في قوله تعالى: "سَواءً العاكِفُ فيهِ والبادِ"[٥]. فأمّا البصريُّون فيعتقدون أنَّ الإنسان من الأنس، وأنَّ قولهم في التَّصغير: "أنيسيان" شاذ، وقولهم في الجمع: أناسيُّ، أصله أناسين، فأبدلت الياء من النون. والقول الأوَّل أحسن.

---

١ – الآية ١١٥ سورة طه.

٢ – عبد الله بن العباس رضي الله عنهما: حَبْرُ الأمة.

٣ – أبو تمام حبيب بن أوس الطائي.

٤ – الآية ١٩٩ سورة البقرة.

٥ – الآية ٢٥ سورة الحج

فيقول آدم، صلَّى الله عليه: أبيتُم إلاَّ عقوقاً وأذيَّةً، إنّما كنت في الجنَّة أتكلَّم بالعربيَّة، فلمّا هبطت إلى الأرض نُقل لساني إلى السُّريانيَّة، فلم أنطق بغيرها إلى أن هلكت، فلمَّا ردَّني الله سبحانه وتعالى، عادت عليَّ العربيَّة، فأيُّ حينٍ نظمت هذا الشعر: في العاجلة أم الآجلة؟ والذي قال ذلك يجب أن يكون قاله وهو في الدار الماكرة، ألا ترى قوله:

مِنها خُلِـقْـنـا وإلـيهـا نعـودُ

فكيف أقول هذا المقال ولساني سُريانيُّ؟ وأمَّا الجنّة قبل أن أخرج منها فلم أكن أدري بالموت فيها، وأنّه ممّا حُكِم على العباد، لا فكاك منه كأطواق حَمام، وما رعى لأحدٍ من ذِمام، وأمّا بعد رجوعي إليها، فلا معنى لقولي: وإليها نعود، لأنَّه كذبٌ لا محالة، ونحن معاشرَ أهلِ الجنَّة خالدون مُخَلَّدون.

فيقول، قُضيَ له بالسَّعد المؤرَّب: إن بعضَ أهل السِّيَر يزعم أنَّ هذا الشّعر وجَدَه جدُّنا يَعْـرُبُ بن قحطان في الصُّحف القديمة بالسُّريانيَّة، فنقله إلى لسانه، وهذا لا يمتنع أن يكون. وكذلك يروون لك، صلَّى الله عليك، لمّا قتل قابيلُ هابيلَ:

تَغيَّرتِ البـلادُ ومَن عَليـها ... فـوَجْـهُ الأرضِ مُغـبَـرٌّ قـبيـحُ
وأودى رَبْــعُ أهْـلـيـهـا فـبـانـوا ... وغُـودِرَ في الـثَّـرى الوجـهُ المَـليـحُ

وبعضُهم يُنشد:

وزال بَـشـاشــةُ الوجـهِ المَـليـحُ

على الإقواء. وفي حكايةٍ معناها على ما أذكر أنَّ رجُلاً من بعضِ ولدِك يُعرَف بابن دُرَيدٍ أنشد هذا الشعر، وكانت روايته: وزال بشاشةُ الوجهِ المليحُ فقال أوَّل ما قال: أقوى.

وكان في المجلس أبو سعيد السِّيرافيُّ فقال: يجوز أن يكونَ قال:

وزال بـشـاشــةَ الـوجـهُ المـليـحُ

بنصب بشاشةَ على التَّمييز، وبحذف التَّنوين لالتقاءِ السّاكنين، كما قال:[1]

عَمرُو الـذي هَـشمَ الثـريدَ لِـقـومِـهِ ... وَرِجــالُ مَـكَّــةَ مُسْـنِـتـونَ عِـجـافُ

---

١ - عبد الله بن الزِّبَعرى السهمي القرشي المتوفى ١٥ هـ / ٦٣٦ م. شاعر قريش في الجاهلية، وكان شديداً على المسلمين إلى أن فتحت مكة، ثم عاد إلى مكة فأسلم واعتذر ومدح النبي صلى الله عليه وسلم، فأمر له بحلة.

قلت أنا: هذا الوجه الذي قاله أبو سعيد شرٌّ من الإقواء عشرَ مراتٍ في القصيدة الواحدة. فيقول آدم، صلّى الله عليه: يعز عليَّ معشرَ بَـنِيَّ أنّكم في الضَّلالة غارقون متحيِّرون. آليت ما نطقت هذا الشعر، ولا نُطق في عصري، وإنَّما نظمه بعض الفارغين، فلا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله! كذبتم على خالقكم وربِّكم، ثمَّ على آدم أبيكم، ثمَّ على حَوّاءَ أمِّكم، وكذب بعضُكم على بعض، ومآلكم في ذلك إلى الأرض.

ذات الصفا

ثمّ يضرِب سائراً في الفردوس، فإذا هو بروضة يُعجِب حسنُها، وإذا هو بحيَّاتٍ يلعبن ، فيقول: لا إله إلاّ الله! وما تصنع حيّةٌ في الجنّة؟ فيُنطِقها الله، جلَّتْ عَـظَـمَتُه، فتقول: أما سمعت في عمرك بذات الصَّفا، الوافية لصاحبٍ ما وفى؟ كانت تنزل بوادٍ خصيب، يهفو إليه البعيد والقريب، وكانت تصنعُ الجميل لواحدٍ من بني آدمَ صُبحاً وعشيّاً ، ولكنه كان محتالاً غبياً، فلمّا زاد بصنيعها مالـه، ورجا أن يحقق آمالـه، ذكرعندها الثار، ونسي كم جنى من صحبتها الثمار، وأكبّ على فأسٍ ذاتِ حدٍّ أعجبه، يشحذها كي يقضي بها مأربَه، ووقف للسّاعية على الصخور، وهمَّ أن ينتقمَ منها بفجور، وكان أخوه ممَّن قتلته، جاهرته في الحادثة أو قيل خدعته، فضربها ضربةً قاتلة، لكنها كانت مخاتلة، فلمَّا توقت ضربة الفاس، والحقدُ يمسك منه بالأنفاس، ندمَ على ما صنع أشدَّ النّدم، وخاف منها أن تنتقم، فقال للحيّة مخادعاً، ولم يكن بما كتم مجاهراً وصادعاً: هل لكِ أن نعودَ خِلـَّين من الأخِلّاء، ونحفظ العهدَ حفظ الأوفياء؟ فقالت: لا أفعل وإن طالت دهور،[1] حتى إلى يوم النشور، إني أجدك فاجراً مسحوراً، وكيف آمن منك غدراً أو جوراً، تأبى ليَ صُلحَك ضربة فوق الهامة، ولن أصافيك إلى يوم القيامة، وما يدريني أنك لن تعود إلى الطبع الغدّار؟ وكيف آمنك في ليلٍ أو نهار؟ وقد وصف ذلك نابغة بني ذبيان فقال:

وإنِّي لألقى مِن ذوي الضِّغْن منهُمُ	وما أصبحَتْ تشكو من البَثّ ساهِـرَهْ
كما لقِـيَـتْ ذاتُ الصَّفا من خـليلها	وكانَـتْ تَـديـهِ المـالَ غِـبّـاً وظاهِـرَهْ
فـلـمّـا رأى أن ثـمَّـرَ اللـهُ مـالَـهُ	فـأصْبحَ مَـسْـروراً، وسَـدَّ مَـفـاقِـرَهْ
أكَـبَّ عـلى فـأسٍ يَـحُـدُّ غُـرابَـهـا	مُـذكَّـرةٍ، مِـن المَـعـاول، بـاتِـرةْ

١ – في الأمثال العربية " كيف أعاودك وهذا أثر فأسك" ويضرب لمن لا يفي بالعهد، وتقول الحكاية إن أخوين كانا في إبل لهما ، وكان قريباً منهما وادٍ فيه حية تحميه ، فقال أحدهما للآخر: لو أني أتيت هذا الوادي الخصيب فرعيت فيه إبلي وأصلحتها، فقال أخوه: أخاف عليك الحية، لكنه عاند وهبط الوادي فرعى فلدغته الحية فقتلته، فقال أخوه: ما في الحياة بعد أخي خير، و لأطلبن الحية فأقتلها أو لأتبعن أخي، فهبط الوادي وطلب الحية ليقتلها، فقالت: هل لك في الصلح؟ أدعك بهذا الوادي وأعطيك في كل يوم ديناراً، فوافق وحلف لها وأعطاها المواثيق، فكثر ماله، ثم ذكر أخاه، فعمد إلى فأس فأحدّها وضربها فأخطأها، ووقع الفأس بالصخر فأثّرفيه، فقطعت عنه الدينار، وتخوَّف شرَّها وندم، فقال لها: هل لك في أن نعود إلى ما كنا عليه، فقالت: كيف أعاودك وهذا أثر فأسك وانت فاجر لا تبالي العهد.

وقامَ على جُحْرٍ لها فوقَ صخرةٍ ... ليَقْتُلَها، أو تُخطِىءَ الكفُّ بادِرَهْ

فلمّا وقاها اللهُ ضربَةَ فأسِهِ ... ولِلبَرِّ عَينٌ لا تُغَمِّضُ ناظِرَهْ

فقال: تعالَيْ نجْعَلِ اللهَ بَيننا ... على مالِنا، أو تُنْجزي لِيَ آخِرَهْ

فقالتْ: مَعاذ اللهِ أفْعَلُ إنّني ... رَأيْتُكَ مَسْحوراً يَمينُكَ فاجِرَهْ

أبى لِيَ قبْرٌ لا يَزالُ مُقابِلي ... وضربَةُ فأسٍ فوقَ رأسي فاقِرَهْ

وتقول حيّةٌ أخرى: إنّي كنت أسكن في دار الحسن البصريِّ[1] فيتلو القرآن ليلاً، فتلقَّيت منه الكتاب من أوَّله إلى آخره. فيقول، لا زال الرُّشدُ قريناً لمنطقه: فكيف سمعته يقرأ: فالقُ الإصباح؟ فإنَّه يروى عنه بفتح الهمزة، كأنّه جمع صُبح، وكذلك: بالعَشِيِّ والإبْكار كأنّه جمع بَكَرٍ، من قولهم: لقيتُه بَكَراً، وإذا قلنا: إنَّ أنْعُماً جمع نعمةٍ وأشُدّاً جمع شِدَّة، على طرح الهاء، فيجوز أن تكون الأبكارُ جمع بُكَرةٍ، فتكون على قولنا: بُكَرٌ وأبْكارٌ، كما يقال جُندٌ وأجْناد. فتقول: لقد سمعته يقرأ هذه القراءة، وكنت عليها برهةً من الدَّهر، فلمّا توفَّي، رحمه الله، انتقلت إلى جدارٍ في دار أبي عمرو بن العلاء[2]، فسمعته يقرأ، فرغبت عن حروفٍ من قراءة الحسن كهذين الحرفين، وكقوله: الأنجيل بفتح الهمزة. فلمَّا تُوفِّي أبو عمرو كرهت المقام، فانتقلت إلى الكوفة، فأقمت في جوار حمزة بن حبيب[3]، فسمعته يقرأ بأشياء ينكرها عليه أصحاب العربيَّة، كخفضِ الأرحام في قوله تعالى: "واتَّقوا اللهَ الذّي تَساءَلُون بهِ والأرْحامَ "[4] وكسر الياء في قوله تعالى: "وما أنتُمْ بمُصْرِخيِّ"[5] وكذلك سكون الهمزة في قوله تعالى: "اسْتِكباراً في الأرضِ ومكرَ السَّيِّءِ"[6] وهذا إغلاقٌ لباب العربيَّة، لأنَّ الفرقان ليس بموضع ضرورةٍ، وإنّما حُكي مثل هذا في المنظوم. وقد رُوي أنَّ امرأ القيس قال:

فاليومَ أشربُ غيرَ مُستحْقِبٍ ... إثماً من اللهِ، ولا واغِل

وبعضهم يروي: فاليوم أُسْقى، وإذا رُوي: فاليومَ أشربُ، فيجوز أن يكون ثمَّ إشارةٌ إلى الضمَّ لا حكم لها في الوزن، فقد زعم سيبويه أنَّهم يفعلون ذلك في قول الراجز:

---

١ - الحسن بن يسار البصري (٢١- ١١٠هـ/٦٤٢- ٧٢٨م): كان من سادات التابعين وكبرائهم، وجمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة.

٢ - أبو عمرو بن العلاء بن عمار التميمي المازني البصري (٧٠- ١٥٤هـ/٦٨٩-٧٧٠م). كان أعلم الناس بالقرآن الكريم والعربية والشعر.

٣ - حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل (٨٠-١٥٦هـ/٦٩٩-٧٧٣م). الإمام العلم التَّيميّ الكوفي الزيَّات، أحد القراء السَّبعة. كان عديم النَّظير في وقته علماً وعملاً، وكان رأساً في الورع.

٤ - الآية ١ سورة النساء

٥ - الآية ٢٢ سورة ابراهيم

٦ - الآية ٤٣ سورة فاطر

متى أنامُ لا يؤرِّقُني الكرى ... ليلاً ولا أسمعُ أصواتَ المَطِيّْ

وهذا يدل على أنَّهم لم يكونوا يبالون بإهمال الإعراب، فأمّا قول الرَّاجز:

إذا اعْوَجَجْنَ قلتُ: صاحبْ قوِّمِ ... في الدَّوِّ، أمثالَ السَّفينِ العُوَّمِ

فإنَّه من عجيب ما جاء، وقدغفل قائله عن أن يقول: صاحِ قوِّم، فلا يكون بالوزن إخلالٌ،وهذا يشبه ما ادَّعوه في قول الهذلي[1]:

أبيتُ على معارِيَ فاخِراتٍ ... بِهِنَّ مُلَوَّبٌ كدَم العِباطِ

يزعم النّحويُّون أنَّ قوله: معارِيَ، حمله عليه كراهه الزِّحاف، وهذا قولٌ مردود، لأنَّ في هذه «الطائيَّة» أبياتاً كثيرةً لا تخلو من زحافٍ.

ويدهش، حشره الله مع الأبرار المتَّقين، لما سمع من تلك الحيَّة، فتقول هي: ألا تقيم عندنا برهةً من الدَّهر؟ فإنِّي إذا شئتَ انتفضتُ من جلدي فصرت مثل أحسن غواني الجنَّة، لو ترشَّفت رضابي لعلمت أنّه أفضلُ من الدِّرياقة التي ذكرها ابن مقبل في قوله:[2]

سَقتْني بصَهباء دِرْياقةٍ ... مَتى ما تُلَيِّنْ عِظامي تَلِنْ

ولو تنفَّست في وجهك لأعلمتك أنَّ صاحبة عنترة نَتِنَةٌ صدوفٌ والصَّدوف: الكريهة رائحة الفم، وإنّما تعني قوله:

وكأنَّ فارة َتاجِرٍ بقَسيمَةٍ ... سَبَقتْ عَوارِضَها إليكَ مِن الفَمِ

ولو أدنيت وِسادَك إلى وسادي، لـفـضَّلتني على التي يقول فيها الأوَّل:

باتتْ رَقوداً وسارَ الرَّكْبُ مُدَّلِجاً ... وما الأوانِسُ في فِكْرٍ لِسارينا

كأنَّ ريقَتَها مِسْكٌ على ضَرَبٍ ... شِيبَتْ بأصهَبَ مِن بَيعِ الشّآمينا

يا ربِّ، لا تسْلُبَنِّي حُبَّها أبَداً ... ويَرْحمُ اللهُ عَبْداً قالَ: آمينا

فيُذعَرُ منها، جعل الله أمنَه مَوفورُاً، وشانئه بالحسرات مغموراً، ويذهب مهرولاً في الجنَّة، ويقول في نفسه: كيف يُؤمَنُ جانب حيَّةٍ لعابُها السُّمُّ، وبالفتكة في كل ساعة تهمّ؟ فتناديه: هلُمَّ

١ - المُتَنَخِّل مالك بن عويمر بن عثمان الهذلي. قال الآمدي: شاعر محسن.

٢ - تميم بن أبيّ: سبقت ترجمته.

إن شئت اللَّذَّة، فإنَّي لأفضل من حيَّةِ ابنة مالكٍ التي ذكرها العبسيُّ[1] في قوله:

ما وَلَدَتْني حَيَّةُ ابْنــةِ مالكٍ سِفاحاً، ولا قَولي أحاديثُ كاذِبِ

وأفضل معاشرة من حيَّة ابْنةِ أزْهر التي يقول فيها القائل:

إذا ما شرِبنا ماءَ مُزنٍ بِقهْوَةٍ ذكرنا عليها حيَّة ابْنةِ أزهرا

ولو أقمت عندنا إلى أن تخْتبِرَ وُدَّنا وإنصافَنا، لندمت إن كنت في الدَّار العاجلة قتلت حّيةً أو ثعباناً. فيقول وهو يسمع خطابها الرَّائق: وهل ضيّقَ الله عليَّ رشفَ رُضاب الحُور الحسان، حتى أرضى بترشُّف هذه الحيَّة؟.

١ - المقصود عنترة بن شداد

العودة إلى الحور العين

فإذا ضرب في بساتين الجنَّة وحدائقها، لقيته الجارية التي خرجت من تلك الثّمرة فتقول: إنِّي لأنتظرك منذ حينٍ فما الذي عن العودة منعك؟ لم تطُلِ الإقامةُ معك، فأَمِّلْ بالمحاورةِ مسمعَك، قد كان يحقُّ لي أن أكون أثيرة عندك على حسب ما تنفرد به العروس، يخصُّها الرّجل بشيءٍ دون الأزواج.

فيقول: كانت في نفسي مآرب من مخاطبة أهل النّار، فلمّا حققت من ذلك مأربي عدت إليك، فاتبعيني بين كثبان العنبر والمسك. فيجول بها تلال الفردوس ورمال الجنان، فتقول: أيّها العبد المرحوم، أظنُّك تحتذي بي فِعالَ الكنديّ[1] في قوله:

فقُمْتُ بها أمْشي، تجُرُّ وراءَنا ... على إثْرنا أذْيالَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ
فلمّا أجَزْنا ساحَةَ الحَيِّ وانْتحى ... بنا بَطنُ خَبْتٍ ذي قِفافٍ عَقَنْقَلِ
هَصَرْتُ بفَوديَ رأسِها فتمايَلت ... عَليَّ هَضيمَ الكَشْحِ ريَّا المُخلْخَلِ

فيقول: العجبُ لقدرة الله! من أين لك عِلمٌ بالكِنديّ وإنَّما نشأت في ثمرةٍ تبعدك عن الجنِّ والناس؟ فتقول: إنَّ الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

ويعرض له حديث امرىء القيس في دارة جُلجلٍ، فينشىء اللهُ، جلّت عظمتُه، حُوراً عيناً يتمايلن في نهرٍ من أنهار الجنَّة، وفيهنَّ من تخفَّفهنّ من ملابسِهن كتخفف صاحبة امرىء القيس، فيترامين بالثَّرمد، وهو نبات مالح مُرّ، وإذا هو كأجلِّ ما في الجنَّة من طيب ، ويعقر لهنَّ الرَّاحلة، فيأكل ويأكلن من لحومها ما لا تكفي الكلمات لوصفه من إمتاعٍ ولذاذةٍ.

---

١ – امرؤ القيس وسبقت ترجمته

جنـّـة الرَّجَـز

ويمرُّ بأبياتٍ ليست عالية كأبيات الجنّة، فيسأل عنها فيقال: هذه جنِّة الرُّجز، يكون فيها: الأغلب العجلي والعجَّاجُ ورُؤبة وأبو النّجم وحُمَيدٌ الأرقط وعُذافِرُ بن أوسٍ وأبو نُخيلة وكلُّ من غُفر له من الرُّجاز، فيقول: تبارك العزيز الوَّهاب! لقد صدق الحديث المرويُّ "إنَّ الله يحبُّ معالي الأمور ويكره سفسافَها " وإنَّ الرّجز لمن سفساف القريض، قصّرتم أيّها النَّفَرُ فـقـصُرت بيوتكم عن بيوت الشعراء.

ويعرض له رؤبة فيقول: يا أبا الجَحّاف، كم كنت شغوفاً بقوافٍ لا تعجب، تصنع رجزاً على الغين ورجزاً على الطاء وعلى الظاء، وعلى غير ذلك من الحروف النّافرة، ولم تكن صاحب مثلٍ مذكورٍ، ولا لفظٍ عذبٍ مستحسن.

فيغضب رؤبة ويقول: ألي تقول هذا وعنِّي أخذ الخليل، وكذلك أبو عمرو بن العلاء، ألم تكن في الدّارِ السّالفة تفتخرُ باللَّفظة تقع إليك ممّا نقله أولئك عنِّي وعن أشباهي؟

فإذا رأى، لا زال خصمُه مُرغَـماً، ما في رؤبة من الفخْرِ والتكبُّر قال: لو جُمِعَ رجزك ورجز أبيك، لم تخرج منه قصيدةٌ مستحسنة، ولقد بلغني أنَّ أبا مسلم كلـَّمك بكلامٍ فيه ابنُ ثأداء، فـلم تعـرف أنها الـلـئيمـة الحـمـقاء حتى سألتَ بالحيِّ عنها ، ولقد كنت تأخذ جوائز الملوك بغير استحقاق، وإنّ غيرك أولى بالمنح والهبات.

فيقول رؤبة: أليس رئيسكم في القديم، والذي انتهت إليه المقاييس، كان يستشهد بقولي ويجعلني له كالإمام؟ فيقول، وهو بالقول مُـنـطـَـقٌ: لا فخر لك أنِ اسْتُشهِـد بكلامك، فقد وجدناهم يستشهدون بكلام أمَةٍ خرقاء، وخادم يحمل جذوع الشجر اليابسة إلى النّار الموقـَدة، في الليالي الباردة، كأن البرد نفض عليها ريشه، وهدم لها الشيخ المقرور في بيته العريشة، لتأخذ خشبَها فتحرقُه، عسى النار بالدفء تجود، وينعم المقرور بالرقود، وأجلُّ أيامها أن تجني كمْأة لا يهمُّها أن تكون بيضاء أو سوداء، فكله رزق من رب السماء، تكره على الفقر القعود، وترعى من الإبل كلَّ مطرود. وكم روى النُّحاة عن طفلٍ صغير، ماله في الأدب من علم غزير، وعن امرأةٍ من النساء، لم تخرج يوماً من بيتها إلى الفضاء.

فيقول رؤبة: أجئت لخصامِنا في هذا المنزل؟ فامْض لما تريد، فقد أخذت بكلامنا ما شاء الله. فيقول، أسكت الله مُجادله: أقسمت ما يَصلحُ كلامكم تطرَبُ له الآذان، وليس أفضل من القطران، تصُكّون مسامع الممدوح بالحجارة البيض والسود، وإنَّما يُطربُه السماع والمِسك والعود، فإذا خرجتم عن صفة جملٍ، ترثون له من طول العمر، إلى صفة فرسٍ سابحٍ، أو كلبٍ للقنص نابح، فإنَّكم غير الرّاشدين.

فيقول رؤبة: إنّ الله سبحانه وتعالى قال: "يَتنازعُون فيها كأساً لا لَغْوٌ فيها ولا تأثيمٌ "[1] وإن كلامك لمن لغو الحديث، ولست تسعى إلى الإنصاف السَعيَ الحثيث. فإذا طالت المخاطبة بينه وبين رؤبة، سمع العجاج، فجاء يسعى إلى المصالحة.

١ - الآية ٢٣ سورة الطور.

سرر أهل الجنة

ويذكر، أذكره الله بالصّالحات، ما كان يلحق النَّدامى من فتور في الأعضاء، إذا شعشعت بينهم الصهباء، فيشتهي ذلك من غيرٍ أن يذهب عقلـُه من سكرها، ولا يحتال عليه خدّاع بأمرها، فإذا هو يشعرُ في العظام النّاعمة فتوراً كدبيب نملٍ، أسرى في الليلة المقمرة على رملٍ، فيترنَّم بقول إياس بن الأرتّ[1]

أعاذلُ لو شربتِ الخمرَ حتى يَظَلَّ لكُلِّ أنْمُلَةٍ دَبيبُ
إذاً لعَذرْتِني وعَلِمْتِ أنِّي بما أتْلفْتُ من مالي مُصيبُ

ويتَّكىء على مفرشٍ من السُّندس، ويأمر الحُورَ العِين أن يحملن ذلك المفرش فيضعنه على سريرٍ من سُرُر أهل الجنَّة، وإنَّما هو زبرجدٌ أو عسجدٌ، ويكوِّن الباريء للسرير حلقاً من الذَّهب تَطيف به من كلِّ الأنحاء، حتى يأخذ كلُّ واحدٍ من الغلمان، وكلُّ واحدةٍ من الجواري شبيهاتٍ بالجمان، واحدةً من تلك الحلق، فيُنقل على تلك الحال إلى محلـّه المُشيَّد بدارالخلود، فكلَّما مرَّ بشجرةٍ نثرت عليه أغصانها ماء الورد قد خلط بماء الكافور مثقالاً بمثقال، وبمسكٍ ما جني من دماء الغزال بل هو بتقدير الله الكريم.

وتناديه الثمراتُ من كلِّ صوبٍ هو مستلقٍ على الظـّهر: هل لك يا أبا الحسن، هل لك؟ فإذا أرادَ عنقوداً من العنب أو غيرَه قُطع من الشَّجرة بمشيئة الله، وحملته القدرة الإلهية إلى فمِه، وأهل الجنَّة يلقونه بأصناف التَّحيَّة، وآخرُ دعواهم أن الحمدُ لله ربِّ العالمين: لا يزال كذلك أبداً سرمداً، ناعماً في الوقت المتطاول مُخلـَّداً،وكل باب قد تأتي منه الأحزان كان موصداً. وقد أطلت في هذا الفصل، ونعود الآن إلى الإجابة عن الرَّسالة.

---

١ - إياس بن قبيصة الطائي المتوفى ٤ ق. هـ / ٦١٨ م من أشراف طيء وفصحائها وشجعانها في الجاهلية. ولاه كسرى أبرويز الحيرة، ثم نحاه وولى النعمان وتعدى الروم تخوم العجم في أيام ابرويز فوجه إياساً لقتالهم فظفر بهم. ثم قتل أبرويز النعمان، وأعاد إياساً إلى ولاية الحيرة، وحدثت في أيامه وقعة ذي قار، وكان على العجم إياس، فانهزم وظل والياً على الحيرة إلى أن مات.

جواب رسالة ابن القارح

فهمت قوله: جعلني الله فداءه، لا يذهبُ به إلى النِّفاق، وبُعْدِ ابن آدم من الوفاق، وهذه غريزةٌ خُصَّ بها الشيخ دون غيره، وتعَايشَ العالم بخداع، وأضحَوا من الكذب في إبداع. لوقالت شيرين الملكة لكسرى: جعلني الله فداءك ما دام ماء في مَجرى، لخادعته في ذلك ونافقته، وإن راقه جمالها دون زينة ووافقته، على أنَّه أخذها من حالٍ أحسنُ منها حال الصعلوك، فرفعَها وجعلها تحيى حياة الملوك، وعتب عليه في ذلك الأحبَّاء، ونُقلت عنهم في ذلك قصصٌ وأنباءٌ، وقيل له، فيما ذُكِر، والله العالم بما يُعلن المرء أو يُسِرّ: كيف تطيبُ نفس الملك لهذه المومس، وهي الوالغة في البَغي وإن كانت تؤنس؟ فضربَ لهم المثلَ بالكوب، وإذا حظيت الغانية صارت عند عاشقها أجملَ من الحُلِيِّ والطُّيوب، فجعل في الإناء الشَّعرَ والدَّم، وقال للحاضر ولا ندِم: أتهفو نفسُك لشرب ما فيه؟ أم تشمئز مما فيه؟ ثم أراق ذلك الشيء من القدح وأمَر به فغُسِل، وهذَّب وعاءه ثمَّ طلاه بالعسل، وجعل فيه مُداما، وعرضها على النَّدامى، فكلّهم همّ بأن يشربَ ما في الإناء، ومن يعافُ لذيذ الصهباء؟ فقال: هذا مثل شيرين، فلا تكونوا في دروب السَّفه سائرين.

كم من شبلٍ نافق أسدَ العرين، وأضمر له حقداً وكان من الحاسدين؟ ولبؤةٍ تُداهن الليث الشديد، تُظهر له الحب وتُبغض أن تراه حتى من بعيد، وضيْغم نقم على فَرهود، وودَّ لو دفنه في أخدود، والفرهود ولد الأسد، وهو، آنسَ الله الإقليم بقربِه، أجلُّ من أن يُشرح له مثل ذلك، وإنَّما أفزع من وقوع هذه الرِّسالة في يد غلامٍ ما زال صغيراً، ليس بالفهم جديراً، فتستعجم عليه اللَّفظة، فيظلُّ معها كأنما كبلته قيود الحديد، لا يقدر على الإسراع ولا المشْي الوئيد.

وكم خادعت الذِّئاب السِّلَق، وفي الضّمائرِ تُضمرُ الفِلَق أي الدَّواهي، ومنه قول خلف: موت الإمام فِلْقَةٌ من الفِلَق[1]، والسَّلَق والسِّلَق جمع سِلقةٍ: وهي أنثى الذئب. وكم من ملكٍ رفع

١ – هو خلف الأحمر وسبقت ترجمته، وهذا القول شطر من ثلاثة من الرجز ولها حكاية، إذ جاء خلفُ الأحمر إلى حَلقة يونس النحوي(وسبقت ترجمته) فقال:

قَدْ طرَّقتْ ببكرِها بِنْتُ طَبَقْ — فقال يونس: ماذا؟ فقال:

فذمَّرُوها خَبَراً ضخْمَ العُنُقْ — فقال يونس: وماذا؟ فقال:

مَوتُ الإمامِ فِلقَةٌ من الفِلَقْ

ملكةً، ثمَّ صنعت له مهلكةً! يقول القائل: بأبي أنت، جاد عملك وأتقنت! ولو قدِرَ لقطع منه الوريد، وإنَّما من الخداع يستزيد . ولعل بعض الديوك يلفظ إلى الدجاجة حبَّة البُرِّ، ويأنس بها في حرٍّ وقرّ، وفي فؤاده من الحقد أعاجيب، وتكثر وتقلُّ المناجيب، والمناجيب ها هنا تحتمل أمرين: أحدهما من النَّجابة، والآخر من قولهم: مناجيب أي ضعافٌ، من قول الهذليّ[1]

بَعَـثْـتُهُ في سـوادِ اللَّيلِ يرقُبني إذْ آثرَ النَّومَ والـدِّفءَ المناجيبُ

والمعنى: أنَّ المناجيب من النَّجابة تقِـلُّ، والمناجيبُ من الوهْنِ تكثر.

ولعلّ ذلك الديك الذي لايعرف السكوت، يرقب الدجاجة يتمنى أن تموت، يقول: في النّفس المتحدِّثة: لو أنِّي جُعِـلت في قِـدْرٍ، أو ضربت فلحِقت بالهَدْر، لتزوَّجت هذه من الدِّيكة شابًّاً في مقتبل العمر، يُحسن لها حبًّاً ويغمرها بالقبل أيَّ غـَمْر. وأنا أذكـِّرْه بالكلمةِ العارِضة، إذ كان قد بدأ بالإيناس، وأغضى عن مكائد النّاس: ألا يَعجبَ من قول العرب: فداءٍ لك، بالكسر والتنوين، كما قال الرّاجز:[2]

وَيْـهـاً فــداءٍ لـكَ يا فـضالـَـهْ أجـِــرَّه الـرُّمـحَ، ولا تُـبـالـَـهْ

ويروى تِهالـه.

وذكر أحمد بن عبيد بن ناصحٍ، وهو المعروف بأبي عصيدة[3]، أنَّ قولهم فداءٍ لك بالكسر، إذا كان لها مرافع لم يجز فيها الكسرُ والتَّنوين. ولا ريب أنَّه يحكي ذلك عن العلماء الكوفيِّن. وعـيْنه في قول النّابغة:

مهْلاً فـداءٍ لكَ الأقــوامُ كلُّـهُـمُ ومـا أثـَـمِّـرُ مِـن مالٍ ومِـنْ وَلَـدِ

فأمّا البصريّون فقد رووا في هذا البيت: فداءٌ لك.

وكيف يقول الخليل الوفي، وهوبالعهود لا يفي: إنَّ حنينـَه حنين الوالهة من النُوق، وهي الذّاهلةُ إن حُمِل عليها حِملٌ إلى البيت أو السوق؟ فأما الحمامة الهاتفة فقد رزقها البارئ صيتاً شائعاً، وظلَّ

---

١ - أبو خراش خويلد بن مرة الهذلي المضري المتوفى ١٥ هـ / ٦٣٦ م شاعر مخضرم، وفارس فاتك مشهور، ومن العدّائين، إذ كان يسبق الخيل. أسلم وهو شيخ كبير، وعاش إلى زمن عمر، وله معه أخبار، نهشته أفعى فقتلته.

٢- هو قيس بن العيزارة الهذلي. وهو شاعر جاهلي، والعيزارة أمه واسمه قيس بن خويلد بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل. أسرته قبيلة «فَهْم» وأخذ تأبط شراً سلاحه ثم أفلت قيس.

٣- أحمد بن عبيد بن ناصح بن بلنجر الديلمي البغدادي المعروف بأبي عصيدة النحوي، كان من أئمة العربية، توفي سنة ٢٧٨هـ، وله من المصنفات: كتاب «المقصور والممدود»، كتاب «المذكر والمؤنث»، «عيون الأخبار والأشعار»، كتاب «الزيادات في معاني الشعر لابن السكيت في إصلاحه».

وصفها بالأسف ذائعاً، تنهض إلى التقاط حبٍّ، وتعود إلى أرض لها ذات عشب، فإن هي صادفت وليفَـها ظفر به بازٌ أو صقر من الصقور، أوغدا به مخلب شاهين، وهي، البائسة من اللاّهين، فماهي إلا مثل الحيوان، تملُّ حالها في أقصر زمان.

وقد زعم زاعمٌ، لا يُصَـدَّق، أنَّ الحمائم في هذا العصر، يبكين مقعداً هلك في عهد نوح، أبَـرَح له البارح أم رُمي بالسُّنوح، وإنَّ دوامَها على ذلك لدليل الوفاء، وما العوضُ عن خليل الصّفاء؟ لا عوض ولا نائب إلاَّ فيه، وكيف يعتب الزَّمن على تجافيه؟ وإنَّما حُشِيَ بشرٍّ وغـَدرٍ فظيع، ولكنه كـُتب له العِزُّ في القـَدْرِ الرفيع.

وأمّا الظَّبية فإنّها لا تكف عن الحنين النظيف، يحملها على ذلك قلبٌ ضعيف. ومَن لها بالغصـون اليانعة من شـجـرالأراك، وهو الذي يُـتـَّخذ منه المسـواك، ومن كان هواه يعدل عن الخُـلـد، فإنّه إذا مال إلى الوِلْد، فسوف تذره الدهور ناسياً غير مُـنْـطـَق، كأنَّه ما جزع آسِياً وأشفق.

وما أقلَّ صِدقَ الألاّف، ولو بيعوا من الذَّهب،لا الفضة، بآلاف:[1]

وليسَ خليلي بالمَلولِ، ولا الذّي   إذا غِـبتُ عنه، باعَـني بخليلِ

وأحسب كـُثيِّراً تفوَّه بهذه المقالة غافلاً، وكان بنشاط الشباب جاهلاً، فكيف يقدر على إخاء المَلـَك، أم كيف يرتفعُ إلى الفـَلك؟

وأمّا ما ذكره من حالي، حاشاه أن يلحظ بنواظرِ الغِـيَر، ومُتِّع من المال بِـحِـيَر أي كثير، قال الرَّاجز:

يا ربَّـنـا من سَـرَّه أن يكـبُـرا   فسُـــقْ لـهُ يــاربِّ مــالاً حِـيَّـرا

فطالما أعْطِيَ الوثن حظوظاً موفورة، فصار حضوره للجهلة وعوداً مشهورة! فإن سُرِرت بالباطل، فشُهرت بالخمرة دون طائل، وإنَّ الصابر مأجورٌ محمود، ولا ريب أن سيُـقـْدَرُ لمن ارتحل شربٌ مفقود.

وأحلف كيمين امرىء القيس لمَّا رغب في مقامه عند المحبوبة، ولم يفرق من الراغبة ولا المرغوبة، فقال:

فقـُلتُ: يَـميـنَ اللهِ، أبْـرحُ قاعـداً   ولو قطعوا رأسي لدَيكِ وأوصـالي

١- كـُثيِّر بن عبد الرحمن من خزاعة (٤٠ - ١٠٥ هـ / ٦٦٠ - ٧٢٣ م) . متيم مشهور، من أهل المدينة، سكن مصر حيث دار عزة بعد زواجها ووجد عند صديقه عبد العزيز بن مروان يسر العيش. وتوفي في الحجاز هو وعكرمة مولى ابن عباس في نفس اليوم فقيل: مات اليوم أفقه الناس وأشعر الناس.

والأخرى التي أقسم بها زهير الحكيم، إذ هبَّت ريح الصِّبا والنسيم، أعني قوله:

فأقسمتُ بالبيتِ الذي طافَ حولَه   رجالٌ بنَوهُ، من قُريشٍ وجُرهُمِ
يميناً لَنِعْمَ السَّيِّدان وُجِدْتُما   على كلِّ حالٍ من سَحيلٍ ومُبْرَمِ

وباليمين التي نطق بها ساعدة، والمهجة إلى ملكها صاعدةٌ، فقال:[1]

حَلِفَ امرىءٍ بَرٍّ سَرِفتِ يَمينَهُ   وَلِكُلِّ ما تُبدي النُفوسُ مُجَرَّبُ

وأقسم مع ذلك قسم الفرزدق[2] لمَّا رهِبَ وقوعَ انتقام، فاغتنم ما بين الكعبة والمُقام، ووصف ما صنع فقال:

أَلَم تَرَني عاهَدْتُ رَبّي وَإِنَّني   لَبَينَ رِتاجٍ قائِمٌ وَمُقامِ
عَلى حِلْفةٍ لا أَشْتُمُ الدَهْرَ مُسلِماً   وَلا خارِجاً مِن فِيَّ سُوءُ كلامِ

إنِّي لمكذوب عليه كما كذبت العرب على الغول، وإنَّها عمَّا يحكى عنها بالها مشغول، وكما تقوَّلتِ الأمثال السائرة على الضَّبِّ وكُنيتُه أبو الحِسْل، وهو عما تقوَّلوا في شغل. وكما تكلَّمتْ على لسان الضَّبع وهي خرساء، ما أطلق لسانها الصبح ولا المساء.

يُظنُّ أنَّني من أهل العلم الجليل، وما أنا له بالصاحب ولا الخليل. وتلك لعمري بلوى، تفتقد معها السلوى. والعلوم تحتاج إلى جَلَدٍ ومراس، ودارسٍ للكتب ينقطع للدراس.

ويقال إننَّي من أهل الدِّين الأبرار، ولو ظهر ما وراء السِّتار، ما اقتنع لي الواصف بالشتْم، وودَّ أن يسقيني السمّ، وكيف يُدّعى لحمار الوحش، وإنَّما أبد في الرّوض الحبشي، أن نهيقه في السَّحر أشعارٌ موزونةٌ، تفرح القلوب المحزونة؟

وهل يُصوَّر لعاقلٍ يتأمل، أنَّ الغراب النّاعق صدح بأحلى أشعار الغزل؟ وأنَّ العصافير الطّائرة في السماء، كعصافير المنذر يملأ تغريدها الفضاء؟ وكيف يظنُّ الظانُّ أن للغراب سجْعَ حمامة، وإنَّه لأخرس مع الدَّمامة؟ فبَعُد من زعم أنَّ الحجر يتكلَّم، وأنَّه عند الضَّرب يتألَّم. ومن الْتمس كسوة من زبد أفواه الإبل ، فإنَّه لا يجد من يوافقه بالعجل.

---

١ ساعدَة بن جُؤَيَّة بن كعب بن كاهل من سعد هذيل. من مخضرمي الجاهلية والإسلام، أسلم وليست له صحبة، شعره محشو بالغريب والمعاني الغامضة.

٢ الفَرَزدَق همام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي، (٣٨ - ١١٠ هـ / ٦٥٨ - ٧٢٨ م) شاعر من النبلاء. يشبَّه بزهير بن أبي سلمى وكلاهما من شعراء الطبقة الأولى، زهير في الجاهليين، والفرزدق في الإسلاميين. كان شريفاً في قومه، عزيز الجانب، يحمي من يستجير بقبر أبيه. لقب بالفرزدق لجهامة وجهه وغلظه.

ولو أنِّى لا أشعر بما يقال عني، لأرحت من إنكاري وظني، وكنت كالوثن: سواءٌ عليه إن وصفته الوقار، يبقى حجراً من الأحجار، وكالأرض السَّبْخة ما تحفِل أن قيل: هي مُريعة، أو قيل لها: بئست للزرع الطبيعة؛ وكالجدي المذبوح: ما يأبه لقول الآكل: إنّه لسمين، ولا قول القصاب: إنَّه يشبع البطون. والله المستنصَر على البروق الخادعة، ومتى كامن للسيل مانعة؟ وكيف أغتبط إذا تقوَّلوا عليَّ، ونسبوا المعرفةُ إليَّ؟ ولست آمناً في العاقبة، فضيحةً ونظرة لوم ثاقبة، ومَثَـلي، إن فرحتُ بذلك، مَثَـلُ من اتُّهم بمالٍ، فاعتقد أنَّ ما ذاع من الخبر يأتيه بجمال، فسرّه قولُ الجهلة: إنّه لأخو يسار. فطلب منه بعض السَّلاطين أن يحمل إليه ضريبة كبيرةً، فأنكر وكشف السريرة، وضربه كي يُقرَّ، وقُـتل في العقوبة لا في كرٍّ ولا في فرّ.

وقد شهد الله أنِّي أفرح بمن عابني، لأنّه صدق فيما رابني، ويركبني الهمُّ لثناءٍ يكذب، يتركني كالطَّريدة التي لا تأكل ولا تشرب، ولو نُطِحت بقرني جرادة، لامتنعتُ من كلِّ إرادة. فغفر الله لمن ظنَّ حسناً بمن ركبته السيئات، وجعله حجّة في القادمات. ولولا كراهتي حضوراً بين النّاس، وإيثاري أن أموت ميتة ظبيٍ في شجرٍ يباس، فاجتمع معي أولئك المتعاهدون، لصحَّ أنَّهم عن الرُّشِد يبتعدون، وأنار لهم الحقُّ في الجبال والوِهاد، وكانوا كمن خرَطَ القتاد.[1]

وأمّا وروده حلب، حرسها الله، فلو كانت تعقل لفرحت به فرح العجوزالشّمطاء تسعى، ليست من أصحاب الإبل ولا ترعى، غاب سليلها الواحد، وما هو لحقـِّها جاحدٌ. وقدِمَ بعد أعوام شقاء، ففرحت به فرح الظمآن بالماء، وكانت معه كالظبية معها وليدها، رتعت به في المدى ، تخاف عليه الردى، فلمّا رأت المكان آمناً، ولم تخش من السباع كامناً، انبسطت وخلَّفته في السهل الواسع، والتمست المرعى لا تخشى الموانع، لتملأ لغذائه الضُّروع، وتبعد عنه الجوع، فعادت المسكينة فلم تره، فقالت للصّمد: لا تُتعِبه إن كان وقع في مخالب الذِّيب، ومُني ببعض التَّعذيب، فأنت القادر عل تعويض الأطفال، والعالِم بعقبى الحَسن من الفال. فبينما هي تبكي يملؤها الأسى والوله، جاءها صوته من أصل كثيب اتخذ فيه مكمناً، ولم يرَ من الرُّماة من أعد قوسه وجنى، هدأ هناك لما امتلا، فما ساءه القدر ولا سباع الفلا. فغمر فؤادها

فرح وسرور، من بعد ما وضحت لها الأمور. ولو رجع القارظ[2] إلى عَنَزَة، ما بان فيها الطـرب لإيابه، وما قُدِر من زوالِ مُصابِه، إلا دون ما أنا مضمرٌمن المسرَّة بدُنوِّ الدِّيار. وإلقائه عصا التِّسيار،

١ القتاد: شجر له شوك كالإبر، والخرط: قشرك الورق عن الشجر اجتذاباً بكفك، وهوأن تقبض على أعلاه ثم تُمِرَّ يدَك عليه إلى أسفله. ولذلك قالوا في المثل: دونه خرْطُ القتاد.

٢ القرَظُ: شجر يُدْبَغُ به، والقارظُ: الذي يجمع القرَظَ ويجتنيه. ومن أَمثالهم: لا يكون ذلك حتى يَؤوبَ القارِظان، وهما رجلان من عَنَزَة،خرجا يَجْتَنِيان القرَظَ فلم يرجعا فضُرب بهما المثل.

فالحمد لله الذي أعاد البارق إلى غمام آخر الشتاء، وجعله بريقاً لحُليِّ السماء، وإنَّ حلبَ المنصورة لتحتاج إلى من يعرف قليلاً من علم، في أيَّام المحاربة والسِّلم، فما باله شيّد الله به الآداب، بأن يزيده في المدة، وأن يجعلها منفعة ممتدة.

وإني لأعجب من تمالؤ جماعة، على أمرٍ ليس بالحسن ولا الطاعة، ولا ثبت له يقينٌ، فيُخرِجُ جوهرَه الفعلُ المكين. قد كدت ألحقُ برهْطِ العَدم، من غير الأسف ولا النَّدَم، ولكنَّما أخشى قدومي على جبَّار السموات، ولم أصلح نخلي بإبرة أو غيرها من الأدوات. قيل لبعض الحكماء: إنَّ فلاناً قتل نفسه قبل أن يُـجَنّ، ولم يطق في الدّار الخالية أن يَـذلَّ ويُمتهن، وكره أن يمارِسَ الذنوب والشـُّرور، وأحبَّ الانتقال إلى منازل السُّرور، فقال الحكيم قولاً معناه: أخطأ ذلك الشابُّ وهو من العمر في مُقـْتـَبَل، ولهُ ولأمِّه الغباء والهبل، هلّا صبر على صُروف الزَّمان، وهل يعلمُ ما يخبئُ القدرُ إنسان؟ فإنَّه لا ُيشعر علامَ أقدَم، وكلُّ بيتٍ يُبنى ويُهدَم! ولولا حكمة الله جلَّت قدرته، وأنـَّه حجز الرَّجلَ عن الموت المُحتـَّم، بالخوف من الضُّرِّ والألم ، لرغِبَ كلُّ من احتدم به الغضب، وكلَّ عن ضريبة الحياة واجتنب، أن يُسقى من الموتِ كأساً، والله العالم بما يأسى.

أبو القطران الفقعسي

وأمَّا أبو القطِران الفقعسيّ،[1] وأيُّ البشرِ من الخطوب منسيّ، فصاحب غزلٍ ونسيب، منشغل بالنساء والتشبيب، وما أشكُّ أنّ الشّيخ، أقرّ الله عينَ الأدب بالزّيادة في عمره، أشدّ شوقاً إلى أحمد بن يحيى مع صممِهِ[2]، وأبي الحسن الأثرم مع انكسار سنِّه[3]، من المرّار بن سعيد عند رجاء العاقبة وخوف الوعيد، وهو ذلك المتهيّم إلى وحشيّة ابنة عمه، حتى صارت كل همِّه، يتذكر ثغراً كالياقوت، وخدّاً يظن مَن لثمه لن يموت، وإنَّما ودُّ الغانيات خلابٌ وخداعٌ، وللغمِّ في هواه ابتداعٌ. ولو هلكت تلك المرأة قبل المرّار ، لعاش العمر في ضيق ومَرار، لاسيما بعد التقدم في السِنّ، وما يعتري الجسمَ من الوهن.

ولعلّ ابا القطران لو مُتِّع بهذه المذكورة سنين بلا عدد، على غير خوف من رقابة من أحد ، لجاز أن يسأم الوصال، إذا علم أنَّ حبَّهما في اتِّصال. ولو نزل بها شيءٌ تتغيَّر به عن عهدها، لتمنَّى أنها ما فارقت مهدها، لأنَّ ابنَ آدمَ مَلول، تسري به إلى المنيَّة ناقة ذلول. ولو أصابها العَوَر، بعد أن سكن عينيها الحَوَر، لظنَّ أن ذلك نبأ لا يُغفَرُ ولا يُكْفَر، فكيف يعتب على الناسين، وينتقم من القوم السّاهين؟ والله سبحانه، قد رفع ذلك عن الساهي لأنه لا يعلم، والمتألم يشغله عن كل شيء ألم. ومن أين له، ما وهبه الله للشيخ من وفاءٍ لو علم به السّموءل[4] لاعترف أنَّه من الغادرين، أو الحارث ابن ظالم[5] لشهد أنَّه من السّادرين، من قولهم فعل كذا وكذا سادراً، أي لا يهتمُّ لشيء، وإنّما عاشر أبو القطران الأعْبُدَ في الإبل والإماء، ونظر إلى عقِب رِجلِه تغطيه الدماء، ممَّا يطأ على هَراسٍ، ومن له في المرعى بالفَراس؟ والهَراس جمع هَراسة، وهي شجرة ذات شوك، والفَراس التَّمْر الأسود،

١ المُرّار بن سعيد بن خالد بن نضلة الفقعسي الأسدي. شاعر من سكان البادية في العصر الأموي ، كان قصيراً مفرط القصر ، ولكنه كان شجاعاً كريماً، وكان من الشعراء اللصوص وقد سجن مرتين ، وكان كثير الشعر،ولكن أكثره فُقِد.

٢ أحمد بن يحيى بن زيد النحوي المعروف بثعلب(٢٠٠-٢٩١هـ/٨١٥-٩٠٤م)، كان إمام الكوفيين في النحو واللغة ، وكان ثقة حجة صالحاً مشهوراً بالحفظ وصدق اللهجة والمعرفة بالعربية ورواية الشعر القديم، ثقل سمعه في آخر أيامه.

٣ علي بن المُغيرة، أبو الحسن الأثرم، صاحب اللغة المتوفى ٢٣٢هـ/٨٤٧م، كان صاحب كتبٍ مصحَّحة، قد لقي بها العلماء، وضبطها؛ ولم يكن له حفظ. لقي أبا عُبيدة والأصمعي، وأخذ عنهما. وله من الكتب: كتاب النوادر، كتاب غريب الحديث.

٤ السموءل بن غريض بن عادياء الأزدي المتوفى٦٤ ق. هـ / ٥٦٠ م شاعر جاهلي حكيم ، وكان له حصن سماه الأبلق. أشهر شعره لاميته وهي من أجود الشعر، هو الذي أجار امرؤ القيس.

٥ الحارث بن ظالم المري المتوفى ٢٥ ق. هـ / ٥٩٨ م أشهر فتاك العرب في الجاهلية، نشأ يتيماً وآلت إليه سيادة غطفان ، ووفد على النعمان ملك الحيرة فالتقى بقاتل أبيه جعفر بن خالد ، فقتله في مبيته. ولم تحمه عشيرته. ثم قتل ابن النعمان. فطلبه النعمان، فلجأ إلى بني شيبان ثم طيء ثم بني دارم فحموه، فغزتهم بنو عامرفهزمتهم، وطاف الحارث في البلاد حتى أتى الشام، فقتل في حوران.

ومن أبيات المعاني:

إذا أكلوا الفَراسَ رأيتَ شاماً   على الأنباثِ منهم والغُيوبِ
فما تنفكُّ تسْمعُ قاصِفاتٍ   كصوتِ الرّعْدِ في العامِ الخصيبِ

ولعلّه لو صادف غانيةً تفوق وحشيّة جمالا، لسلاها وبهمها ما بالى، وإنَّما ديدن ذلك الرّجلِ ونظرائِه صفة الناقة الشاردة، وليست له شجرة في الأرض آبدة. إذا جنى الكمأة طار من الفرح، وخال أنَّه قد نجح! ولو حضر المآدب التي حضرها الشّيخ لعاد كما قال القائل:

فلو كنتَ عُذريَّ العلاقةِ لم تبِتْ   بَطيناً، وأنساكَ الهوى كثرة َالأكلِ

وهو، قدَّر الله له ما أحبَّ، قد جالس ملوك مصر التي قال فيها فرعون: «أَلَيسَ لي مُلْكُ مِصْرَ وَهذهِ الأنهَارُ تجْري مِنْ تَحْتِي أفلا تُبْصِرُون»[1] وقد أقام بالعراق زمناً مديداً، وانكب على الأدب انكباباً شديداً، وبالعراق مملكة فارس، وهم أهل الشَّرف والأخلاق، يوفي صرفهم في الأطعمة على كلِّ إنفاق، ولا ريب أنَّه قد جالس بقاياهم، واختبر في المعاشرة سجاياهم، وعاطوه الأكؤس من ذوات التّصاوير، كما يفعل منهم كل كبير، كما قال الحكميُّ:[2]

تدورُ علينا الكأسُ في عَسجَديَّةٍ   حَبَتها بأنواعِ التصاويرِ فارسُ
قرارتُها كسرى، وفي جنباتِها   مَهاً تَدَّريها بالقِسِيِّ الفوارسُ

وأبو القطران كان يستقي قليلَ الماء بحبل الألياف، ويجعلها في القدح أو العلبة ويخاف، وإذا طعِمَ فمن طعامٍ كالصخور الصَلدة، وإن أخصب تباهى بأكل الزبدة. وما أشكُّ أنَّه، أمتع الله الآدابَ ببقائه، لو رُزق مُحاورة أبي الأسود[3] على عرج رجله، ووعورة طبعه وبُخله، لكان أشهى إليه من شغف قيس بليلاه، وفرحة طير بأنثاه. ولو أدرك محاضرة أبي الخطَّاب لكان سيَلان عينيه أشدَّ شغفاً من الحادرة بسُميَّة، ومن غيلان[4] بميَّة لأنّه قال:

وعينانِ قالَ اللهُ: كونا، فكانتا   فعُولان بالألبابِ ما تفعلُ الخمرُ

---

١ الآية ٥١ سورة الزخرف

٢ نذكِّر بأن اسم أبي نواس الحسن بن هانئ الحكميّ

٣ أبو الأسود الدؤلي

٤ الحادِرَة :قطبة بن أوس بن محصن الغطفاني المتوفى ٥ هـ / ٦٢٦ م شاعر مخضرم مقل، يلقب بالحادرة أي الضخم ، أكثر من الغزل بمرأة تدعى سمية.

هو ذو الرُمَّة غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي من مضر(٧٧ – ١١٧ هـ / ٦٩٦ – ٧٣٥ م)، قال أبو عمرو بن العلاء: فتح الشعر بامرئ القيس وختم بذي الرمة. كان شديد القصر دميماً، يضرب لونه إلى السواد، أكثر شعره تشبيب وبكاء أطلال، عشق (ميّة) المنقرية واشتهر بها.

وهو بتباعد شفتي أبي الحسن سعيد بن مسعدة[1]، أعجب من كُثيِّر برضاب عَزَّة، والعذريِّ بلمى بثينة[2]. ولو كان أبو عبيدة كريه رائحة الفم، لما أمنت مع كلفه بالأخبار، أن يقبِّله شَقَّ التينة بلا استكبار، وفي الحديث عن عائشة، رضي الله عنها: كان رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، يقبِّلني شقَّ التينة. وروى بعضهم: شقَّ التمرة. وذلك أن يأخذ الشّفة العليا بيده، والسُّفلى بيده الأخرى، ويقبِّل ما بين الشفتين.

١ هو الأخفش الأوسط، وسبقت ترجمته

٢ جميل بثينة

رَمْس الهالك بيتُ الحق

وأما مَن فقدَه من الأصدقاء لمّا دخل حلب، حرسها الله، فتلك عادة الزَّمن، ليس على الإنسان بمؤتمن، يستبدل بالأبيات المسكونة قبوراً، ولا يرحم عاثراً مقهوراً. وإنَّ رمْسَ الهالك لبيتُ الحقّ، وإن طـُرِق بالصعب الأشقّ. على أنّه يغني من يثوي بَعدَ العَدم، ويكفيه المؤونة مع القِدم. وإنَّ الجسدَ لمن شرٍّ موبوءٍ، وقاك الله شرَّه المخبوء. قال الضّبيّ:[1]

ولقـد عـلمتُ بأنَّ قـصري حُـفـرةٌ	ما بعـدَهـا خوفٌ عـليَّ ولا عَـدَمْ
فأزور بـيـتَ الحـقِّ زورة َماكِـثٍ	فعلامَ أحْفِـلُ ما تـقـوَّضَ وانْهَـدمْ؟

وما زالت العربُ تسمّي القبر بيتاً، وإن كان المنتقل إليه ميْـتاً، قال الرّاجز:[2]

الـيـومَ يُـبـنـى لـدُويــــدٍ بَـيـتُــــهُ	لـو كانَ لـلـدّهْـرِ بَـلىً أبْلَـيْـتُـهُ
أو كانَ قِــرْني واحِـداً كَـفَـيْـتُــهُ	يا رُبَّ بَـيـتٍ حـسَــــنٍ بَـنـيـتُــهُ
يا رُبَّ نَـهْـبٍ صالِحٍ حَـوَيـتُــهُ	يا رُبَّ عَـبْـلٍ حَـسَـنٍ لَـوَيْـتُـــهُ

ومِعْـصَمٍ مُـخَـضَّـبٍ ثـَـنَـيْـتُـهُ

فأمّا الفصل الذي ذكر فيه الخليل، فقد سقط منه اسم الذي غالى في المدائح المُدبَّجات، وقرنني بالنجوم الزاهرات، وأيّاً كان، غفر الله جرائمَه، وحفظ له في الأبد كرائمَه، فقد أخطأ على نفسه فيما زعم وعليَّ، ونسب مالا أستوجب إليَّ. وكم أعتذرُ وأتنصَّل، من ذنبٍ ليس يتحصَّل! وإنّي لأكره بشهادة الله تلك الدَّعوى الباطلة، كراهة المسيح من جعله ربَّ العِزّة، فما ترك للفتن من مهزَّة، بدليل قوله تعالى: "وإذ قالَ اللهُ يا عيسى بنَ مَريمَ أأنتَ قُـلتَ للنّاسِ اتَّخذوني وأمّي إلهَينِ من دُونِ الله، قال سُبحانـَكَ ما يكونُ لي أن أقولَ ما ليسَ لي بحَقٍّ، إن كنْتُ قُـلـْتُهُ فقد عَـلِمْـتـَهُ، تعْـلمُ ما في نـَفْـسي ولا أعْـلمُ ما في نـَفْـسِـكَ، إنّك أنتَ عَـلّام الغُـيُـوبِ".[3]

---

١ هوالأبرش الضبي عامر بن حوط بن أبي هند بن مازن من بني عامر بن بن ضبة، شاعر فارس.

٢ دويد بن زيد بن نهد بن أسلم القضاعي. شاعر جاهلي، معمّر، روي في القاموس المحيط أنه أدرك الإسلام.

٣ الآية ١١٦ سورة الأنعام

وأمّا أبو الفرج الزّهـرجيُّ فمعرفته بالشّيخ تبين أنّه للأدب حليفٌ، وللطَّبعِ الخيِّرِ أليفٌ. وودِدتُ أنَّ الرِّسالة وصلت إليَّ، ولكن ما كان عديلك منصفاً، إذ سرق الحِملَ وما وفى، هلّا اقتنع بثوبٍ أو نفقة، وترك الصُّحفَ المُـنمَّقة! فأفقده الله ما بين يديه، ولا اهتدى في اللَّيلة بفرقديه. لو أنّه أحدُ لصوص العرب الذَّين رُويت لهم الأمثال السّائرة، وتحدَّثت بهم الركبان السائرة، لما اغْـتـفـَرْتُ ما صنع بما نَظـَم، لأنّه أفـرط وأعْـظم، أي أتى عظيمة، واقتلع من القلائد نظيمة.

وقد وُفِّقَ أبو الفرج وابنه، وصار كالبدر شأنُه، لمَّا درَس عليه الكتب، وحفظ عنه كيف تُـرَتَّـب. وإن كان الشّيخ مارسَ من التَّعب أمَّ الرُّبَيق، وهي الشدائد، فقد جدّد عهدَه الأوَّل بنهرِقُـوَيْق، وإنَّه من خيرالأنهر، لا يُغرِق السّابحَ ولا يقهر، وبناته المخطوبات صغارٌ، يؤخذن منه في الغفلة ولا يغار. سترن الأنفس فما تبرَّجْن، ولكن بالرُّغم خرجن. ما يشعرقويقٌ المسكين، أعَرَبٌ أولاء أمْ رُومٌ، ولا يحفِـلُ بما تروم. ولقد ذكره البحتريُّ، ونعته الصَّـنَوبريُّ، وإخالُ أنَّ الشّيخ أفسدته عليه دجلةُ وبناتها، وهنَّ الأنهرُ الصغيرة التي ترفدها، وأعانها على ذلك فُراتها.

وأمَّا حلب، فإنّها الأمُّ البرَّة، تُعقد بها المسرَّة، وما أحسبها، إن شاء الله، تُظهِـرُ ذميمَ العقوق، أو تُغْـفِـلُ ما استوجب من الحقوق.

ووحشيّة، يُحتمل أن يكون، آنس الله الآداب ببقائه، جعلها نائبة عمن فقده من الإخوان، الذين قـلَّ نظيرُهم في الأوان. وكذلك تجري أمثال العرب: يكنُّون فيها بالاسم عن جميع الأسماء، مثال ذلك أن يقول القائل:

فلا تُـشْـلَـل يـدٌ فـتكتْ بعَـمْـرٍو فـإنّـك لن تَـذِلَّ ولـنْ تُـضـامـا

يجوز أن يرى الرجلُ رجلاً قد فتك بمن اسْمُه حسَّان أو عطاردٌ أو غير ذلك، فيتمَّثل بهذا البيت، فيكون عمرٌو فيه واقعاً على جميعِ من يتمثّـلُ له به. وكذلك قول الرّاجز: أوردها سعدٌ وسعدٌ مشتمل[١] صار ذلك مثلاً لكلِّ من عَمل عملاً لم يُتقِنْه، فيجوز أن يُقال لمن اسمُه خالدٌ أو بكرٌ أو ما شاء الله من الأسماء. ويضعون في هذا الباب المؤنَّث موضع المذكَّر، والمذكّر موضع المؤنَّث، فيقولون للرّجل: أطرِّي فإنَكِ ناعلةٌ، والصيَّفُ ضيعَّت اللَّبن، مُحسنةٌ فهِـيلي. وإذا أرادوا أن يُخبروا بأنَّ المرأة كانت تفعل الخيرَ ثمّ هَـلَـكتْ فانقطعَ ما كانت تفعله، جاز أن يقولوا: ذهب الخير مع عمرِو بن حممة. وجائزٌ أن يقولوا لمن يُحذّرونه من قرب النّساء: لا تبت من بكريٍّ قريباً، والبكريُّ أخوك فلا تأمنه. ومثل هذا كثير.[٢]

١ تتمة البيت مثل مشهور جداً: ما هكذا تورد يا سعد الإبل

٢ أمثال عربية مشهورة يطول شرحها

الثكلى تعين الثكلى

وأمَّا شكواه إليّ، فإنني وإيّاه كما قيل في المثل: الثـكلى تعين الثكلى، وعلى ذلك حمَل الأصمعيُّ قولَ أبي دؤاد [١]:

ويُصيخُ أحيـانـاً كما اسْـ ـتمَعَ المُـضَـلُّ دُعاءَ نـاشِـدِ

كلانا بحمد الله مُضَلٌّ سواءً بسواء ، فعلى من نمُـنُّ في العطاء؟ أمّا المَطِيّة فتشكو العناء، وأمّا المِزودُ فوصفـُه الخـَواء، والرّكبُ يفتقرُ إلى العقل والفطنة، وكلُّهم يرجو العطاء دونما مِنَّة: [٢]

يشكو إليَّ جمَلي طـولَ الـسُّرى صـبرٌ جـمـيـلٌ، فـكِـلانـا مُبتلى

إن اشتكت شجرة السَّمُرَة فأساً إلى نبات السَّيّالة، فإنَّها تشكو الوهن إلى مُتعَب، وصِدْقُ المرء خيرٌ من أن يكذب. ولا أرتاب أنَّه يحفظ قول الفزازيِّ منذ خمسين حجَّة أو أكثر: [٣]

أعُـيَـيْنَ هلّا إذ بُـلِـيتَ بحُـبِّـها كنتَ اسْـتعَـنْـتَ بفارغِ العَـقْـلِ

أقْبلتَ تبغي الغـوث مَن رجُـــلٍ والمُـسـتـغـاثُ إلـيهِ في شُـغْـلِ [٤]

ولم يزل أهل الأدب يشكون الغير في كلِّ جيل، ويخصُّون من العجائب بسجلٍ سجيلٍ. وهو يعرف الحكاية أنّ مسلمة بن عبد الملك بن مروان أوصى لأهل الأدب بجزء من ماله وقال: إنَّهم أهل صناعةٍ جفاها الناس. وأحسب أنَّهم والقِلَّة خُلِقا توأمين، وإنما ينجح بعضُهم حقبة أو حقبتين، ثمّ لا يلبثُ أن تزِلَّ به القدم، ويصير كمن أصابه السقم. وقد سمع في مصر بقصَّة أبى الفضل وسعيد، وما كان أحدهما من الآخر ببعيد.

---

١ أبو دؤاد الإيادي جارية بن الحجّاج بن حذاق الإياديّ (١٤٦ – ٧٩ ق. هـ / ٤٨٠ – ٥٤٥ م) شاعر جاهلي، وهو أحد نعات الخيل المجيدين، وإنما أحسن نعت الخيل لأنه كان على خيل النعمان بن منذر.

٢ البيت من أبيات للشاعر الملبِّد بن حرملة الشيباني، ولم أجد له غيرها

٣ مالك بن أسماء بن خارجة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري المتوفى ١٠٠ هـ / ٧١٨ م شاعرٌ غزِلٌ ظريف من الولاة. كان هو وأبوه من أشراف الكوفة. وتزوج الحجاج أختة (هند بنت أسماء) وتقلد خوارزم وأصبهان للحجاج. ووقع منه ما أوجب حبسه مدة طويلة. شعره كثير.

٤ من الغريب أن يرِدَ البيت هكذا، لأن قوله « بحبها » يكسر الوزن، وحاشا المعري أن يقع في هذا الخطأ، ولعل التغيير جاء من محققي الرسالة، وكان عليه أن يقول» إذ شغفت بها ».

وإذا كان الأدب على عهدِ بني أميَّة يقصِدُ أهله بالجَفوة، فكيف يسلمون من باس، عند مملكة بني العبّاس؟ وإذا أصابتهم المِحن في زمن الرشيد فكيف يُطمَع لهم بالحظّ المشيد؟ أليس أبو عبيدة قدم مع الأصمعيِّ وكلاهما يريد الصعود، ولا يلتمس إلى البصرة أن يعود، فتشبَّث بعبد الملك الأصمعي، وردَّ أبا عبيدة معمر، ومن يعلم بما يخبئ الدهـر. ومن بغى أن يتكسَّب بالأدب ، فقد أودع شرابَه في الخـَلِقِ من القِرَب، غيرِ ثقةٍ على الوديعة، بل هي منه في صاحب خديعة. وقد روي أن سيبويه لمَّا اختُبر شأنه وأدركوا أنه عالم، رغب في أن يتولى بشيراز ولاية المظالم ، وأنَّ الكِسائيَّ حزن ممّا صنع به، فأعانه كي يحصل على مطلبه. فأمّا حبيب بن أوسٍ[1] فهلك وهو بالموصل على البريد، وصاحب الأدب حليف التّصريد.

١ هو أبو تمّام

أبو الطيب المتنبي

وأمّا الذين ذكرهم من المُصحِّفين، فغير بررة ولا منصفين. وما زال الثعلب يسعى لأذاة الأسد، وما أحسبه يشعر بمكان الحسد، فإذا سرى أسدٌ وَطْؤُه كالهمس خفي، تشقى به الناقة ذات السنام القوي، فالثعلب به منذرٌ، كأنّه ينبّه الفريسة ويحذّر، ولا يراه الضّيغمُ أهلاً للعتاب، ويجعل أمرَه فيما يَحتمل من ضُرٍّ أصابه وانتاب. وكم من ضرغام يعلو منه الزئير، سهَّده طنين البعوض الحقير، وإذا البعوض بليلٍ تغنَّى، فالأسد به مُعنَّى:[1]

ما يُضيرُ البَحْـرَ أَمسى زاخِـــــراً   أَن رَمـــى فـيــهِ غُـــلامٌ بِحَـجَـــرْ[2]

أو قول القائل:

أوَكـلّـمـا طـنَّ الذّبــابُ أروغُـــه؟   إنَّ الـــذُّبــابَ إذاً عَـــلـيَّ كـريـــمُ[3]

ومازال الهمج يقولون، ويُقصِّرون عن المكرُمة فلا يَطولون، وإنهم عما فعل متثاقلون، وطلَّاب الأدب في حباله، كمن يصعد في شعاب جباله.

من انفرد بفضيلةٍ أثيرةٍ، فإنّه يتقدَّم بمناقب كثيرةٍ، وإن حُسَّادَ البارع لكما قال الفرزدق:

فإن تَـهْـجُ آلَ الزِّبرِقـان، فـإنّـما   هجوتَ الطِّوالَ الشُّـمَّ من يَـذْبُلِ

وقد ينبحُ الكلبُ النّجـومَ ودونَها   فـراسِخُ تُـقْصي ناظِـرَ المُـتـأمِّـلِ

أو كما قال الراجز:

يَـعـدو عـلى الـحـاسِـدِ حـسَـدُهْ   ويـــذوبُ مِـن كـبْـتٍ جـسَـــدُهْ

أو كما قال:

فهل ضربـةُ الـرُّومـيِّ جاعلةٌ لكمْ   أباً عن كُلَيبٍ، أو أباً مثلَ دارِمِ؟

١ أورد أبو العلاء كعادته أسماء الأسد غير المشهورة مثل: الوَرد وهموس وأغلب وقسْور، وسمّى الثعلب ثعالة، والبعوض الطيثار

٢ البيت للأخطل التغلبي، وهو بيت مفرد ليس من قصيدة

٣ أشارت بعض المصادر إلى أن البيت لجرير، لكنه غير موجود في ديوانه

فأمّا ما ذكره من قول أبي الطَّيب:

أَذُمُّ إِلى هَـــذا الـزَمـانِ أُهَـيـلَــهُ

فقد كان الرّجل مولعاً بالتّصغير، لا يقنع من ذلك بخِلسة الصغير، كقوله:

مَن لي بِفَهمِ أُهَيلِ عَصرٍ يَدَّعي   أَن يَحسُبَ الهِندِيَّ فيهِم باقِلُ

وقوله:

إِذا عَذلوا فـيهـا أَجَـبْـتُ بِأَنَـّةٍ   حُـبَيِّـبَـتا قَـلبي، فُؤادي هَـيا جُمْلُ

وقوله:

أُخِـذتُ بِمَـدحِهِ فَـرَأَيتُ لَـهْواً   مَـقـالي لِلأُحَـيـمِـقِ يا حَـلـيـمُ

وقوله:

وَنـامَ الخُـوَيـدِمُ عَـن لـيـلِـنـا   وَقد نامَ قَـبْـلُ عَـمىً لا كَـرى

وقوله:

أَفي كُلِّ يَومٍ تحتَ ضِبني شُوَيعِـرٌ   ضَعـيفٌ يُقاويني قَـصيـرٌ يُطاوِلُ

وغير ذلك مما هو موجودٌ في ديوانه، ولا مَلامة عليه، إنما هي عادة صارت كالطبع للشاعر، فما حَسُن بها ما ألفته النواظر، ولكنها تُغتفَرُ مع المحاسن، والخال قد يظهرُ على الخد الفاتن. وهذا البيت الذي أوله:

أذم إلى هذا الزمان أهيله إنما قاله في علي بنِ محمدِ بن سيّار بن مُكَرَّم بأنطاكية، قبل أن يمدح سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمْدان، والشعراء مطلق لهم ذلك، لأن الآية شهدت عليهم بالمبالغة وقول الأباطيل: " ألمْ ترَ أنَّهم في كل وادٍ يَهيمون، وأنَّهم يقولون ما لا يفعلون؟"[1]

وأهل كلمةُ أصلٍ وُضِعت للجماعة، فيقال: ارتحلَ أهلُ الدار، فيعلم السامع أن المتكلمَ لا يقصِدُ واحداً بما قال، إلا أن هذه الكلمة قد استعملت للآحاد، فقيل: فلان أهلُ الخير وأهلُ الإحسان، قال حاتم الطائي:[2]

---

١ الآيتان ٢٢٥و٢٢٦ سورة الشعراء

٢ حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي القحطاني المتوفى ٤٦ ق. هـ / ٥٧٧ م شاعر جاهلي، فارس جواد يضرب المثل بجوده، كان من أهل نجد.

ظلَّت تلومُ على بِكرٍ سمحتُ بهِ إن الرزيئةَ في الدنيا ابْنُ مَسْعودِ
غادَرَهُ القـومُ بالمِعْـزاءِ مُـنْجَـدِلاً وكانَ أهلَ الندى والحزمِ والجودِ

وكأن هذه اللفظةَ أصلُها أن تكون للجمع، ثم نقلت إلى الواحد، كما أن صديقاً وأميراً ونحوَهما إنما وضعت في الأصل للأفراد، ثم نُقلت إلى الجمع على سبيل التشبيه. وكذلك قولهم: بنو فلان أخٌ لنا. ويقال: أهْل وأهْلة، وأهْلات في الجمع، قال الشاعر:[1]

وَهُم أَهِلاتٌ حَولَ قَـيسِ بنِ عاصِمٍ إِذا أدْلَـجوا بِالليلِ يَدْعـونَ كَـوثَـرا

وقال بعض النحويين في تصغير آل الرجل: يجوز أُوَيل وأُهَيل، كأنه يذهب إلى أن الهاءَ في أهلِ أبدلت منها همزة، فلما اجتمعت الهمزتان جُعلت الثانية ألِفاً، ومثل هذا لا يثبت. والأشبهُ أن يكون آلُ الرجل مأخوذاً من آلَ يَؤُول، إذا رجَع، كأنهم يرجِعون إليه أو يرجِعُ إليهم.

أما ما ذكره من حكاية القُـطْرُبُـلـّي وابنِ أبي الأزْهر، فقد يجوز مثلُـه، وما وضح أن المتنبي حُبِس بالعراق، فأمّا بالشام فحبسه مشهور. وحُدِّثْت أنه كان إذا سُئلَ عن حقيقة هذا اللقب، قال: هو من النَّبْـوة، أي المُرتفِع من الأرض. وكان قد طمع في شيء قد طمع فيه مَن هو دونه. وإنما هي مقادير، يديرها في العلو قدير، يظفر بها من وُفـِّق، ولا يَعيبُ المجتهد أن يُخفق.

وقد دلت أشياء في ديوانه أنه كان متعبداً، وليس مثل غيره من الناس مُلحداً، فمن ذلك قوله:

تغَرَّبَ لا مُسْتَعْظِماً غيرَ نفـسِهِ وَلا قـابِـلاً إِلّا لِـخـالِـقِــهِ حُـكْـمـا

وقوله:

ما أقْـدَرَ الـلـهَ يُخـزي خـلـيـقَـتَـهُ ولا يُصدِّقَ قـوماً في الذي زعَـمـوا

وإذا رجع إلى الحقائق، فنُطْق اللسانِ لا يُنبِيءُ عن اعتقادِ الإنسان، لأن العالـَمَ مَجبولٌ على الكذبِ والنفاق، ويُحتمل أن يُظهِرَ الرجلُ بالقول تديُّناً، وإنما يُبدي ذلك تزيُّناً، يريد أن يصل به إلى مدح أو ثناء، أو غرض من أغراض الدنيا دارالفناء، وكم رأينا من ناس هم في الظاهر متعبدون، وفيما بَطـَن ملحدون.

---

١ هو المُخَبَّل السَعدي ربيع بن مالك بن ربيعة بن عوف من تميم المتوفى ١٢ هـ / ٦٣٣ م شاعر فحل، من مخضرمي الجاهلية والإسلام، وعمّر طويلاً ومات في خلافة عمر أو عثمان رضي الله عنهما. قال الجمحي في كتابه طبقات فحول الشعراء: لَهُ شعر كثير جيّد.

دين دِعْبِل

وما يلحقُني الشك في أن دعبل بن علي[1] لم يكن له دين، وكان يتظاهرُ بالتشيع، وإنما غرضُه التكسُّب، وكم أثبت نسباً بنسب، ولا أرتاب أن دعبلاً كان على رأي أبي نواس وطبقتِه، والزندقة فيهم طاغية، ومنهم جماعات باغية.

وقد اختلفوا في أبي نواس: فادّعوا له التعبُّد، وأنه كان يقضي ليلَه في التهجُّد، والصحيح أنه كان على مذهب غيره من أهل زمانه، وذلك أن العرب جاءها النبي صلى الله عليه وسلم، فاتّبعه منها متّبعون، منهم واعون ومنهم مدّعون، فلما قوي الإسلام والإيمان، وارتفع مُلكه على الأركان، مازج العربُ غيرهم من الطوائف، وسمعوا كلام الأطباء والفلاسفة وأهل المنطق، فمالت منهم طائفة كثيرة. ولم يزل الإلحادُ في بني آدم على مرِّ الدهور، حتى إن أصحاب السِّيَرِ يزعمون أن آدمَ عليه السلام، بُعث إلى أولاده فأنذرهم على ذلك المنهاج إلى اليوم. وبعض العلماء يقول إن سادات قريش كانوا زنادقة. وما أجدرهم بذلك!

وقال شاعرهم يرثي قتلى بدر من المشركين، وتروى لشداد بن الأسود الليثي:[2]

ألَمَّتْ بالتَحِيَّةِ أمُّ بَكْرٍ ... فحَيُّوا أمَّ بَكْرٍ بالسلامِ

وكائِنْ بالطَّوِيِّ طَوِيِّ بَدْرٍ ... مِنَ الأحْسابِ والقومِ الكِرامِ

ألا يا أمَّ بَكْرٍ لا تَكُرّي ... عَليَّ الكأسَ بعْدَ أخي هِشامِ

وبعدَ أخي أبيهِ وكان قِرْماً ... مِن الأقْرام شَرّابَ المُدامِ

ألا مَن مُبْلِغُ الرحْمَن عَنّي ... بأنّي تاركٌ شَهْرَ الصيامِ

إذا ما الرأسُ زايَلَ مَنْكِبَيهِ ... فقد شبِعَ الأنيسُ مِن الطعامِ

١ دعبل بن علي بن رزين الخزاعي (١٤٨ – ٢٤٦ هـ / ٧٦٥ – ٨٦٠ م) شاعر هجّاء. في شعره جودة، وصنّف كتاباً في طبقات الشعراء. قال ابن خلّكان: كان بذيء اللسان مولعاً بالهجو والحط من أقدار الناس هجا الخلفاء الرشيد والمأمون والمعتصم والواثق ومن دونهم. وطال عمره فكان يقول: لي خمسون سنة أحمل خشبتي على كتفي أدور على من يصلبني عليها فما أجد من يفعل ذلك.

٢ لم يترجم له أحد، وذكر بعض المؤرخين أنه كان مسلماً وارتد، وقد وردت الأبيات في مصادر أخرى باختلافات طفيفة وزيادة بعض الأبيات وحذف بعضها وحدثني الثقة عنه حديثاً معناه: أنه لما كان في بني عدي، وحاول أن يخرج فيهم، قالوا له وقد تبينوا دعْواه: ها هنا ناقة صعبة، فإن قَدِرت على ركوبها، أقررنا أنك مُرسل. وأنه مضى إلى تلك الناقة وهي رائحة في الإبل، فتحايل حتى وثب على ظهرها، فنفرت ساعة، ثم سكنَ نِفارها ومشت مشي المنقادة، وأنه ورد بها الحِلَّة وهو راكب عليها، فعجبوا له كل العجب، وصار ذلك من دلائله عندهم.

أيُوعِدُنا ابْنُ كبْشَةَ أن سنحْيا ... وكيف حياةُ أصداءٍ وهامِ؟
أيَنْزِلُ أن يَردَّ الموتَ عَنّي ... ويُحْييني إذا بَلِيَت عِظامي؟

ولا يدّعي مثل هذه الدعاوى إلا من يستعدُّ وراءها للموت، ولا يأسف له إذا فات الفوت.

إعجاز المتنبي

وحُدثت أن أبا الطيب أيام كان إقطاعُه "بصَفّ" رُؤي يصلي بموضعٍ بمعرة النعمان يقال له كنيسةُ الأعراب، وأنه صلى العصر ركعتين، فيجوز أن يكون رأى أنه على سفرٍ، وأن القَصْرَ له جائز.

وحُدِّثت أيضاً أنه كان في ديوان اللاذقية، وأن بعض الكتاب انقلبت على يده سكينُ الأقلام فجرحته جرحاً بليغاً، وأن أبا الطيب تفَل عليها من ريقِه، وشدّها غير منتظر لوقته، وقال للمجروح: لا تحُلَّها في يومك. وعَدَّ له أيّاماً وليالي، وإن ذلك الكاتب قبل منه، فبرىء الجرح، فصاروا يعتقدون في أبي الطيب أعظم اعتقاد، ويقولون: هو كمُحيي الأموات.

وحدَّث رجل: كان أبو الطيب قد استخفى عنده في اللاذقية أو في غيرها من السواحل، أنه أراد الانتقال من موضع إلى موضع، فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل، ولقيهما كلب ألح عليهما في النباح ثم انصرف، فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد: إنك ستجد ذلك الكلب قد مات. فلما عاد الرجل ألفى الأمر على ما ذكر، وليس غريباً أن يكون أعد له شيئاً من الطعام مسموماً وألقاه له، وهو يخفي عن صاحبه ما فعل.

وأما القُطْرُبُلّي وابن أبي الأزهر فمن المُحال اجتماعُهما على تأليف كتابٍ، وقلما يُعرف مثل ذلك. ونحو منه قصة « الخالديين» اللذين كانا في الموصل وهما شاعران، وقد كانا عند سيف الدولة وانصرفا على حدِّ مغاضبة. ولهما ديوان ينسب إليهما لا ينفرد فيه أحدهما بشيء دون الآخر إلا في أشياء قليلةٍ. وهذا متعذر في ولد آدم إذا كانت الجبلة على الخلاف وقلة الموافقة.[1]

فأما أن يَعمل الرجل شيئاً من كتابٍ، ثم يُتمّه الآخر، فهو أسوغ في المعقول من أن يجتمع عليه الرجلان. والبغداديون يحكون أن أبا سعيد السيرافي عمل من كتابه المعروف بالمُقْنِع أو الإقناع إلى باب التصغير، ثم توفّي وأتمّه بعده ولده أبو محمد. وقد يجوز مثل هذا، وليس عندهم فيه

١ محمد وسعيد ابنا هاشم بن وعلة الخالدي الموصلي، وكانا شاعرين اشتركا في كثير من الشعر ونسب إليهما معاً وكلاهما من خواص سيف الدولة بن حمدان، والخالدية قرية من عمل الموصل، توفي محمد سنة ٣٨٠ تقريباً، وكانا مع ذلِكَ إذا استحسنا شيئاً غصباه صاحبَه حياً كانَ أو ميتاً، لا عجزاً منهما عن قول الشعر، ولكن كذا كانَ طبعهما، ولهما تصانيف، منها حماسة شعر المحدثين، كتاب أخبار الموصل، كتاب أخبار أبي تمّام ومحاسن شعره، اختيار شعر ابن الرومي، اختيار شعر البحتري، اختيار شعر مسلم بن الوليد وأخباره، الأشباه والنظائر وهو جيّد، والهدايا والتحف، الديارات.

ريب، وحكى لي الثقة أن أبا علي الفارسي كان يذكر أن أبا بكر بن السراج عمل من (الموجز) النصف الأول لرجلٍ بائع حرير، ثم تقدم إلى أبي علي بإتمامه، وهذا لا يقال إنه من إنشاء أبي علي لأن الموضوع من (الموجز)، هو منقول من كلام ابن السراج في (الأصول) وفي (الجمل)، فكأن أبا علي جاء به على سبيل النسخ، لا أنه ابتدع شيئاً من عنده.

والذين رووا ديوان أبي الطيب يحكون عنه أنه ولد سنة ٣٠٣هـ وكان طلوعه إلى الشام سنة ١٢٣، فأقام برهة ثم عاد إلى العراق ولم تطل مدته هنالك. والدليل على صحة هذا الخبر، أن مدائحه في صباه إنما هي في أهل الشام، إلا قوله:

كُفّي أراني وَيْكِ لومَكِ ألْوَما   هَمٌّ أقامَ عَلى فُؤادٍ أنْجَما

وأما شكيَّتُه أهلَ الزمان إليه، فإنه سلكَ في ذلك منهاج المتقدمين، وقد كثر المقال في ذم الدهر حتى جاء في الحديث: « لا تسبّوا الدهر فإن الله هو الدهر» وقد عَرف معنى هذا الكلام، وأن باطنَه ليس كظاهره، إذ كان الأنبياء عليهم السلام لم يذهبْ أحدٌ منهم إلى أن الدهر هو الخالق ولا المعبود.

وقد جاء في الكتاب الكريم: "وما يُهلِكنا إلا الدَّهْرُ"[١] وقول بعض النّاس: الزمان حركة الفلَك، لفظ لا حقيقة له. وفي كتاب سيبويه ما يدل على أن الزمان عنده: مُضيُّ الليل والنهار. وقد تعلق عليه في هذه العبارة.

وقد حدَّدته حدّاً ما أجدره أن يكون قد سبق إليه إلا أني لم أسمعْه، وهو أن يقال: الزمان شيءٌ أقل جزءٍ منه يشتملُ على جميع المُدْرَكات، وهو في ذلك ضد المكان، لأن أقلَّ جزءٍ منه لا يمكنُ أن يشتملَ على شيء، كما تشتمل عليه الظروف، فأما الكون فلا بد من تشبثه بما قل وكثر.

والذين قالوا: "وما يُهلكنا إلا الدهر" وغيرَ ذلك من المقال، كالبيت المنسوب إلى الأخطل، وذكره حبيب بن أوسٍ لشمعلة التغلبي، وهو:

فإنَّ أميرَ المؤمنينَ وفِعْلَهُ   لكالدَّهْرِ لا عارٌ بما فعلَ الدَّهْرُ[٢]

وقول الآخر:

الدهْرُ لاءَمَ بين ألْفَتِنا   وكذاكَ فرَّقَ بيننا الدَّهْرُ

---

١ الآية ٢٤ سورة الجاثية

٢ أبو تمّام، والمقصود أنه أورده في « الحماسة»، ولم ينفرد أبو تمام بإيراد البيت لشمْعل التغلبي (وليس شمعلة) بل أورده ابن حمدون أيضاً في «التذكرة الحمدونية» والمُبَرِّد في «الكامل في اللغة والأدب» و الزمخشري في «ربيع الأبرار ونصوص الأخبار».

وقول أبي صخر الهذلي:

عَجِبتُ لِسَعْيِ الدهْـرِ بيني وبينها   فـلمّا انْقضى ما بينَـنا سَكنَ الدهرُ

لم يقل أحدٌ منهم إنه كان يُقرِّبُ للأفلاك القرابين، ولا يزعُم أنها تعقِل، وإنما ذلك شيء يتوارثه الأمم في زمان بعد زمان.

وكان في عبد القيس شاعر يقال له» شاتمُ الدهر»، وهو القائل:

ولـمّا رأيـتُ الدهـرَ وَعْـراً سـبـيـلـُه   وأبْـدى لنا وجْهاً أزَبَّ مُـجَـدَّعا

وجَـبهـةَ قِـرْد كالشِّـراك ضَـئـيـلَـةً   وأنْفاً لَـوى بالعَـثـانـيـن أخْـدَعا

ذكرتُ الكرامَ الذاهبين أولي النَّـدى   وقلتُ لعمرٍو والحُـسامِ: ألا دَعا

وأما غيظُه على الزنادقة والملحدين فأجَـرَه اللهُ عليه، كما أجَرَه على الظمأ في طريق مكة، واصطلاءِ الشمس بعَـرَفة، ومبيته بالمُزدَلـفة. ولا ريب أنه ابتهل إلى الله، سبحانه، في أيام الصوم والحج المعدودات والمعلومات، أن يُـثـبِّـتَ هـضابَ الإسلام، ويقيمَ لمَن اتـّـبَعه النـيِّـرَ من الأعلام. ولكن الزندقة َداءٌ قديم، منذ سكن الإنسانُ من الأرضِ الأديم. وقد رأى بعض الفقهاء أن الرجلَ إذا ظهرت زندقتُه ثم تابَ فزَعاً من القتل، لم تُـقْـبلْ توبتُه. وليس كذلك غيرُهم من الكـفّار، لأن المرتدَّ إذا رَجَع قُـبِـلَ منه الرجوع. ولا مِلـّة َإلا ولها قومٌ ملحدون، يُظهرون لأصحابِ شرعِهم أنهم مُوالِـفـون، وهم فيما بطن من الأمر مخالفون، ولا بد أن ينفضحَ مُخادِعٌ في وقت من الأوقات، وتبدو من الشرالدواهي والآفات. وقد كانت ملوك فارس تقتل على الزندقة، والزنادِقة همُ الذين يُسـمَّون الدهرية، لا يقولون بنُـبُـوّةٍ ولا كتاب.

بشار بن برد

وإنما أخذ بشار ذلك عن غيره، وقد روي أنه وجد في كتبه رفعة مكتوب فيها:إني أردت أن أهـجـوَ فلان بنَ فلان الهاشـمي، فصفَحْـت عنه لقرابتـه من رسـولِ الله صلى الله عليه وسلم[١]. وزعموا أنه كان يخاصم سيبويه، وأنه حضر يوماً حلقة يونس بن حبيبٍ فقال: هل ههنا من يُخشى لسانه؟ فقالوا: لا، فأنشدهم:

بَـني أمـيَّـةَ هُـبُّـوا مِـنْ رُقـادِكُـمُ　　　إنَّ الخـلـيـفـةَ يَـعْـقـوبُ بـنُ داوُدِ

ليسَ الخليفةُ بالمَـوجودِ فالْتمِـسوا　　　خليـفـةَ الـلـهِ بيـنَ الـنّـايِ والـعُـودِ

وكان في الحلقة سيبويه، فيدّعي بعض الناس أنه وشى به. وسيبويه، فيما أحسب، كان أجَلَّ من أن يدخلَ في أمور الوشاية الحقيرة، بل يعمد لأمورٍ بعلمه جديرة ، وحُكي عن سيبويه أنه عاب على بشار قوله:

عَـلى الغَـزَلى مِنّي السَلامُ فَـطال ما　　　لـهَـوتُ بِهـا في ظِـلِّ مَـرْؤومَةٍ زُهْـرِ

فقال سـيبـويه: لم تسـتعـمل العـرب الغَـزَلى، فقال بـشـار: هذا مثلُ قولِهم البَـشَـكى (وهي الناقة السريعة) والجَمَزى (وهذه قد تكون بمعنى السريع، وقد تكون نوعاً من العَدْوِ) ونحو ذلك.

وجاءَ بشارٌ في شعرِه بالنِّـينانِ (جمع نونٍ وهو الحوت) فيُقال إن سيبويه أنكره عليه، وهذه أخبار لا تثبت[٢]. وفيما روي في كتاب سيبويه أن النون يُجمع على نينان، فهذا نقض للخبر. وذكـرَ مَن نقل أخبار بشار أنه توعَّد سيبويه بالهجاء، وأن سيبويه تلافاه واستشهد بشعره. ويجوز أن يكون استشهاده به على نحو ما يذكره المتذاكرون في المجالس ومجامع القوم. وأصحاب بشارٍ يروون له هذا البيت:

وما كلُّ ذي لـُبٍ بمُؤتـيكَ نُصْحَه　　　ومـا كلُّ مُـؤتٍ نُـصْـحـهُ بـلـَـبـيـبِ

وفي كتاب سيبويه شطرهذا البيت الثاني، وهو في باب الإدغام لم يُـسَـمِّ قائِـلَـه. وزعم غيره أنه لأبي الأسود الدؤلي.

١ وجدت الرقعة في بيت بشار بعد جلده حتى مات، وهم آل سليمان بن علي.

٢ جاء في بعض المصادر أن هذا الخلاف كان بين بشار والأخفش، فتوعده بشار بالهجاء فبكى، ثم صار يستشهد بشعر بشار اتقاءً للسانه.

ويقال: إن يعقوب بن داود وزير المهدي تحامل على بشار حتى قتل، واختلفوا في سنه: فقيل كان يومئذ ابن ثمانين سنة، وقيل أكثر، والله العالم بحقيقة الأمر. ولا أحكم عليه بأنه من أهل النار، وإنما ذكرت ما ذكرت فيما تقدَّم لأني عقدته بمشيئة الله، وإن الله لحليمٌ وهّاب.

وذكر صاحب كتاب الورقة[1] جماعة من الشعراء في طبقة أبي نواس ومَن قِبَلُه، ووصفهم بالزندقة، وسرائرُ الناس مُغَيَّبة، ولا يعلم بها إلا عَلّام الغيوب. وكانت تلك الحال تُكتَم في ذلك الزمان خوفاً من السيف، فالآن ظهر ما كان القوم

القوم يخفون، وفقست بيضةُ النعامة المتروكة عن أخبث النَّعام.

وكان في ذلك العصر رجلٌ له أصدقاء من الشيعةِ وصديقٌ زنديق، فدعا المتشيِّعَة في بعضِ الأيام، فجاء الزنديق فقرَع َحَلْقَة الباب وقال:

أصبحتُ جَمَّ بَلابِلِ الصَّدْرِ   مُتَقَسَّمَ الأشْجانِ والفِكْرِ[2]

فقالوا: ويحك! مم ذا؟ فانصرف. ولقيه صاحب المأدبة فقال له: يا هذا، أردتَ أن تُوقِعني فيما أكره (خوفاً من أن يظنَّ أصدقاؤه أنه زنديق) فقال: ادْعُهم ثانية وأعلمني بمكانهم. فلما حصلوا عنده، جاء الزنديق فقال:

أصبحتُ جَمَّ بَلابِلِ الصَّدْرِ   مُتَقَسَّمَ الأشْجانِ والفِكْرِ

فقالوا: ويحك! مما ذا؟ فقال:

مِمّا جناهُ على أبي حسَنٍ   عُمَرٌ وصاحِبُه أبو بَكْرِ

ثم انصرف، ففرح الشيعة بذلك. ولقيه صاحب المنزل فقال: جُزيت عني خيراً، فقد خلَّصتني من الشبهة.

وكان يجلسُ في مجلسِ البصرة جماعة من أهلِ العلم، وكان فيهم رجل زِنديقٌ له سيفان، قد سمّى أحدَهما «الخيرَ» والآخرَ «الفَلَح» فإذا سلَّم عليهِ رجلٌ من المسلمين قال:

صبَّحَكَ الخيرُ ومسّاكَ الفَلَحْ

---

١ أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح (٢٤٣- ٢٩٦هـ/٨٥٧- ٩٠٩م) أديب من علماء الكتاب، كان صديقاً لعبد الله بن المعتز، فلما صار خليفة ليوم وليلة كان وزيره، ونكب وقتل معه.

٢ البيتان للشاعر مطيع بن إياس الكناني المتوفى ١٦٦ هـ / ٧٨٣ م من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، كان ظريفاً ماجناً، متهماً بالزندقة

ثم يلتفت إلى أصحابِه الذين قد عرفوا اسمي السيفين فيقول:

سَيْفانِ كالبرْقِ إذا البرقُ لَـمَحْ

فأما قول الحكَمي:

تِـيـهُ مُغَــنٍّ وظَـُرْفُ زِنْـديـقِ

فقد عيب عليه هذا المعنى، وقيل: إنه أراد رجلاً من بني الحارث كان معروفاً بالزندقة والظرف، وكان له موضع من السلطان. وقوله في صدر هذا البيت:

وَصيفُ كأسٍ مُحَدِّثٌ وَلَـهُ

فهو نحو قولِ امرئ القيس:

فاليَومَ أسْقى غيرَ مُسْتحْقِبٍ إثْماً مِن اللّهِ وَلا واغِلِ

وكما قال الآخر:

يا رُبَّ أبّازٍ من العَصْمِ صَدَعْ تَقبَّضَ الظِلُّ عليهِ فاجْتَمَعْ

لمّا رأى ألّا دَعَةً ولا شَبَعْ مالَ إلى أرْطأةِ حِقْفٍ فاضَّطجَعْ

صالح بن عبد القدوس

وأما صالح بن عبد القدوس فقد اشتُهِرَ بالزندقة، ولم يُقتل، ولِلّـهِ العلم، حتى ظهرت عنه مقالاتٌ تُوجب ذلك. ويُروى لأبيه عبد القدوس [1]

كـمْ أهْلكَـتْ مَـكَّـةُ مِـن زائـِرٍ ... خَـرَّبَـهـا الـلـهُ وأبْـيـاتـَهـا

لا رزَقَ الـرحْـمــنُ أحياءَهـا ... وأشْــــوتِ الـرحْـمَـةُ أمْـواتَـهـا

وقد كان لصالح ولد حبس على الزندقة حبساً طويلاً، وهو الذي يروى له:

خرَجْنا من الدنيا ونحنُ من أهلِها ... فما نحنُ بالأحياءِ فيها ولا الموَتى

إذا مـا أتــانـا زائِـرٌ مُـتـَفـقـِّــدٌ ... فرِحْنا، وقُلنا: جاءَ هـذا من الدُنيـا

وأما رجوعُه عن الزندقة لما أحسَّ بالقتل، فإنما ذلك على سبيل الختْل. فصلى الله على محمد، فقد روي عنه أنه قال: «بُعِـثـتُ بالسـيف، والخيرُ في السـيف، والخير بالسـيف». وفي حديث آخر: لا تزال أمَّـتي بخيرٍ ما حمَلت السُـيوف». والسـيـف حمَل صالحاً على التصديق، وردَّه عن رأي الزنديق، وتلك آية من آيات الله إذا هي ظهرت للنفس الكافرة، فقد فني لا ريبَ زمانُها، ولا يُقبل هناك إيمانها.

وأما ما ذكر أطال الله بقاءه عن « القصّار» الأعور، فجهله لا يُـتـَصَوَّر، ولو تبع حقاً ثابتاً بالعلم، لكُفي أن يُسْقى السم ، ولكن الغرائز ألدُّ أعداء الإنسان، ولا بدَّ أن يلقى ما قدَّر الرحمن.

وأما المنسوب إلى الصناديق، فإنه يحسب من الزناديق. وأحسبه الذي كان يعرف بالمنصور، ظهر سنة سبعين ومائتين، وأقام برهة باليمن، وفي زمانه كانت القيان تلعب بالدف وتقول:

خُـذي الدُفَّ يا هـذه والْعبـي ... وبُـثّي فضائِـلَ هـذا الـنبـي

تـوَلّـى نَـبـيُّ بَـنـي هـاشِــمٍ ... وقـامَ نَـبِــيُّ بَـنـي يَـعْـرُبِ

[1] ورد البيتان لصالح نفسه، ولم يوردهما أي مرجع آخر على أنهما لأبيه.

فـما نبتغي السَّعْيَ عندَ الصَفا ولا زَوْرَة َالـقـبْـرِ في يَـثْـرِبِ
إذا الـقـومُ صلـّـوا فلا تـنهضي وإن صَـوَّمــوا فكُـلي واشــْـرَبي
ولا تَـحْرِمي نفـسَك المُؤمِنينَ مِـن أقْـربـيــنَ ومِـن أجْـنـبـي
فكيـف حَـلَـلْـتِ لذاك الغـريـبِ وصِـرْتِ مُـحَـرَّمَـــة ً لـلأبِ؟
ألـيـسَ الغِـراسُ لِـمَـنْ ربَّـــهُ ورَوّاهُ في عـامِـــهِ المُجْـدبِ؟
ومـا الخـَمْـرُ إلا كـماءِ السَّحـا بِ طَـلَـقٌ، فقُـدِّ سْتَ من مَذْهَبِ

فعلى معتقد هذه المقالة لعنة الله والملائكة أجمعين.

وهذه الطبقة، لعنها الله، تستعبد الجاهلين بأصناف مختلفة، فإذا طمعت في دعوى الربوبية، لم تخجل في هذا الادعاء، وليس لها عما قبُح انتهاء، وإذا علمت أن في الإنسان ميزة عن الناس، اجتذبته بالغرائز والحواس.

وقد كان باليمن رجل يَحتجبُ في حصنٍ له، والواسطة بينه وبين الناس خادم له أسود سمّاه جبريل، فقتله الخادم في بعض الأيام وانصرف. فقال بعض المجان:

تــبـــارك الــلــّـــــهُ في عُــلاه فــَـرَّ مِـن الـفُــسْـقِ جِـبْرَئِـيـلُ
وظــلَّ مَــن تــَـزعُـــمـون ربّــاً وهْـــــوَ عــلى عَــرْشِـــه قـتيلُ

ويقال إنه ما حمل ذلك الخادم على فعله إلا ما كان يفرض عليه من الفسق.

وإذا طمع بعض هؤلاء، فإنه لا يقتنع بالإمامة ولا النبوة. ولكنه يرتفع صعداً في الكذِب، ويكون شربُه من تحت العَـذِب أي الطُّحْـلـُب.

ولم تكن العرب في الجاهلية تقدم على هذه الأمور المرذولة، والأمور غير المعقولة. بل كانت عقولهم تجنح إلى رأي الحكماء، وما سلف من كتب القدماء. إذ كان أكثر الفلاسفة لا يقولون بنبي، وينظرون إلى من زعم ذلك على أنه غبي.

وكان ربيعة ُبن أمية بن خلفٍ الجمحي، جرى له مع أبي بكر الصديق رحمة الله عليه خطب، فلحق بالروم، ويروى أنه قال:[1]

١ ربيعة بن أمية بن خلف الجمحي، وكان خليعاً ماجناً، فأقام عليه عمر بن الخطاب الحدَّ في الخمر، فغضب ولحق بالروم، فتنصر فمات بها نصرانياً،

لَحِقْتُ بأرضِ الرومِ غيرَ مُفكِّرٍ بتركِ صلاةٍ من عِشاءٍ ولا ظُهْرِ
فلا تَتْركوني من صَبُوح مُدامَةٍ فما حَرَّمَ اللّهُ السُلافَ منَ الخمْرِ
إذا أمَّرَتْ تَيْمُ بْنُ مُرَّةَ فيكُمُ فلا خيرَ في أرضِ الحجازِ ولا مِصرِ
فإنْ يَكُ إسْلامي هُو الحقُّ والهُدى فإنّي قد خَلَّيْتُهُ لأبي بَكْرِ

وأوغل الناس في الضلالة حتى استجازوا دعوى الربوبية، فكان ذلك إيغالاً في الكفر، وجمعاً للمعصية مع التّيه والكِبر. وإنما كان أهل الجاهلية يدفعون النبوة ولا يجاوزون ذلك إلى سواه. ولما أجلى عمر بن الخطاب، رحمة الله عليه، أهل الذمة عن جزيرة العرب، شق ذلك على الجالين، فيقال إن رجلاً من يهود خيبر يعرف بسمير بن أدكن قال في ذلك:

يَصولُ أبو حَفْصٍ علينا بِدُرَّةٍ رُوَيْدَكَ إنَّ المَرْءَ يَطْفو ويَرسُبُ
كأنَّكَ لم تَتْبَعْ حُمولَةَ ماقِطٍ لِتَشْبَعَ، إنَّ الزّادَ شَيءٌ مُحَبَّبُ
فلَو كانَ موسى صادِقاً ما ظَهَرْتُمُ عَلينا ولكنْ دَولَةٌ ثمَّ تذهَبُ
ونحنُ سَبَقْناكُمْ إلى المَيْنِ فاعْرِفوا لنا رُتْبَةَ البادي الذي هُوَ أكْذبُ
مَشَيْتُمْ على آثارِنا في طَريقنا وبُغْيَتُكُمْ في أن تَسودوا وتُرْهَبوا

وما زال اليمن منذ كان، معدناً للمتكسبين بالتديّن، والمحتالين على الحرام بالتزيّن. وحدثني من سافر إلى تلك الناحية، أن به اليوم جماعة ًكلهم يزعم أنه القائم المنتظر، فلا يَعدم جباية من مالٍ، يصل بها إلى خسيس الآمال.

ويتعارض هذا مع رواية المعري، وتيم قبيلة أبي بكر.

القرامطة

وحكي لي أن للقرامطةِ بالأحساءِ بيتاً يزعمون أن إمامَهم يخرجُ منه، ويقيمون على باب ذلك البيت فرَساً بسرجٍ ولجام، ويقولون للهمج من العوام: هذا الفرس لركاب المهدي، يركبه متى ظهر بحق جَلِيٍ. وإنما غرضهم الخداع بهذه الأباطيل، وتوصُّلٌ إلى المملكة وتضليل.

ومن أعجب ما سمعت أن بعضَ رؤساء القرامطة في الدهر القديم، لما حضرته المنية جمع أصحابه، وجعل يقول لهم لما أحس بالموت: إني قد عزمت على النقلة، وقد كنت بعثتُ موسى وعيسى ومحمداً، ولا بدَّ لي أن أبعث غيرَ هؤلاء. فعليه اللعنة، لقد كفر أعظم الكفر، في الساعة التي يجب أن يتوب فيها الكافر، ويؤوب إلى ربِّه المكابر.

الوليد بن يزيد

وأما الوليد بن يزيد فكان عقلُه عقلَ وليد، وقد بلغ سن الكهل الرشيد، ما كانت له نية بالرشاد، وظل حتى لحظته الأخيرة متمسكاً بالعناد. وشُغِل بالخمرِ في الدِّنان، واللهو مع الجواري والقيان. يتخبط من جهنم في البطاح، ويغترف من الحميم بالأقداح. وقد رويت له أشعار، يلحق به منها العار، كقوله:

أدْنِيـا مِنّـي خليـلـَيْ ... عَـبْـدلاً دُونَ الإزارِ

فـلـقـدْ أيْقَـنْتُ أنّـي ... غيـرُ مَـبْعـوثٍ لِـنـارِ

واتْـرُكـا مَـن يَطـلُـبُ الجَنـَّ ... ـةَ يَـسْـعـى في خَـسـارِ

سـأروضُ الـنـاسَ حَـتّـى ... يَـرْكـبـوا ديـنَ الحِـمـار

فالعجب لزمان صار فيه مثلُه إماماً، يمسك للمملكة زِماماً، ولعل غيره ممن ملك يعتقد مثله أو قريباً، ولكن يُساتِرُ ويخاف تأنيباً. ومما يروى له:

أنـا الـوَليـدُ الإمـامُ مُـفْـتخِـراً ... أنْـعِـمُ بـالي وَأتْـبَـعُ الغَـزَلا

أَهْـوى سُـليـمى وَهْـيَ تـصْرِمُني ... وَليسَ حَـقّـاً جَـفـاءُ مَـن وَصَـلا

غـرّاءُ فَـرعـاءُ يُـسْـتـضـاءُ بِـهـا ... تمْـشي الهُـوَيْني إذا مَـشَـت فُضُلا

مـا الـعَـيـشُ إلا سَـمـاعُ مُحْـسِـنـةٍ ... وقَـهْـوَةٌ تَـتْـرُكُ الـفـتـى ثَـمِـلا

لا أَرْتجي الحُورَ في الخُلودِ وَهَـلْ ... يَـأمُـلُ حُـورَ الجِنـانِ مَـن عَـقَـلا

إذا حَـبَـتْـكَ الـوِصـالَ غـانِـيَـةٌ ... فجازِهـا بَـذْلَـهـا كـمَـنْ وصـلا

ويقال إنه لما أحيط به، دخل القصر وأغلق بابه وقال:

دعُـوا لِيَ هِـنْداً والـرَّبـابَ وفَرْتَنى ... ومُـسْـمِـعَـة، حَـسْـبي بـذلِـكَ مـالا

خُذوا مُلكَكُمْ لا ثَبَّتَ الله مُلكَكُمْ ... فـليـسَ يُـسـاوي بَعْدَ ذاك عِـقـالا

وَخَـلُّوا عِناني قبـلَ عَـيـرٍ وَما جَـرى ... وَلا تـحْـسُـدوني أن أمـوتَ هُـزالا[١]

١ هذه ثلاثة أبيات من خمسة كما وردت في ديوانه مع بعض الاختلاف:

خُذوا مُلكَكُمْ لا ثَبَّتَ اللهُ مُلككُمْ ... ثباتاً يُساوي ما حَييتُ قِبالا

فأزيح عن تلك المنزلة أي إزاحة، ورُئِيَ رأسُه بين الكلاب النباحة. كذلك نقل بعض الرواة الصادقين، والله القائم بجزاء الغواة المارقين. ولا حيلة للبشرِ في الدنيا المنتنة، أعْيت حتى القلوبَ المؤمنة. كان حقُّ الخلافة أن تُفضي إلى من عُرِف، لا تصْرِفه عن الرشاد البلوى، ولكن البلية خلقت منذ كانت الدهور، فهل يخلص من سكن القبور؟

ذروا لِيَ سَلمى وَالطِلاءَ وَقينَةً ... وَكأساً أَلا حَسبي بِذلِكَ مالا

أبالمُلكِ أَرجو أن أعَمَّرَ فيكُمُ ... أَلا رُبَّ مُلكٍ قد أزيلَ فزالا

أَلا رُبَّ دارٍ قد تحَمَّلَ أَهْلُها ... فأضحَت قِفاراً وَالبِقاعُ تِلالا

وَخَلُّوا عِناني قبلَ عَيْرٍ وَما جَرى ... وَلا تحْسُدوني أن أموتَ هُزالا

لا ناشد ولا نشيد

وأما أبو عيسى بن الرشيد، فليس بالناشد ولا النشيد. وإن صح ما روي عنه فقد خالف بذلك أسلافَه، وأظهر لأهل الديانة خلافَه. وربُّه الغني عن العبيدِ صائمين خوفاً أومفطرين، ولكن الإنسَ غـدَوا بـَطِرين. وربما كان الجاهل أو المتجاهل، ينطق بالكلمة ويشغل عقله من ضدها شاغل، وإنما أقول ذلك راجياً أن أبا عيسى ومن كان له نظيراً، لم يتبعوا من كان في الغي أميراً، وأنهم يضمرون غير ما يعلنون، لقد كان لهم عِبرة مَن سبقهم والميتون .

ديك الجن

ورأى بعضهم عبد السلام بن رغبان، المعروف بديك الجن في النوم وهو بأحسن حالٍ[1]، فذكر له الأبيات " الفائية " التي فيها:

هيَ الدنيا، وقد نَعِمُوا بأخرى   وتسْويفُ الظنونِ من السَّوافِ

أي (الهلاك) فقال: إنما كنتُ أتلاعب بذلك ولم أكن أعتـقِـدُه. ولعل كثيراً ممن شُهِر بهذه الجهالات تكون طويته إقامة الشريعة، والإرتاع برياضها المريعة، فإن اللسان طماحُ، وله بالفَـنَـد إسماح. وكان أبو عيسى المذكور يستحسن شعره في افْـتُـتِـن بشعره الناس في العراق، وقيل إنه أعطى أبا تمام (وكان في بداياته) قطعة من شعره، فقال له: يا فتى اكتسب بهذا. وذكر ابن خلِّكان أن أبا نواس قصده لما مرَّ بالشام ولامَه على تخوفه من مقارعة الفحول وقال له: اخرج فلقد فتنت أهل العراق.

البيتين والثلاثة، وأنشد له الصولي[2] في نوادره:

لســاني كَـتومٌ لأســرارِهِ   ودمعي نَـمومٌ بـسِرِّي مُـذيـعُ

ولـولا دمـوعـي كتمتُ الهـوى   ولـولا الهـوى لم يكنْ لي دمـوعُ

فإن كان فر من صيام شهر، فلعله يقع في تعذيب الدهر، و " لايَـيْـأسُ من رَوْحِ اللهِ إلا القومُ الكافرون"[3]. وأما الجِنّابي فلو عوقب بلد بمن يسكنه، لجاز أن تؤخذ به " جِنّابة "[4]، ولا يقبل لها توبة ولا إنابة. ولكن حكم الكتاب المنزل أجدر وأحرى:" ألّا تَـزِرَ وازِرَةٌ وِزْرَ أخْـرى"[5]. وقد اختلفوا في حديث الحجر الأسود، فزعم من يدعي معرفته أنه أخذه ليعبده ويعظمه، لأنه بلغه أنه يدالصنم الذي جُعِل على خَـلْـق زُحَل. وقيل: جعله متكأً، وهذا تناقض في الحديث. ومهما كان، عليه اللعنة

---

١ ديكِ الجِنِّ الحِمصي عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب الكلبي (١٦١ – ٢٣٥ هـ / ٧٧٧ – ٨٤٩ م) شاعر مُجيد فيه مجون، من شعراء العصر العباسي،ومولده ووفاته بحمص، في سورية، لم يفارق بلاد الشام ولم يتكسب بشعره.

٢ أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله المعروف بالصولي الشطرنجي المتوفى ٣٣٥هـ/٩٤٦م ، من كتبه المشهورة "كتاب الوزراء"، "كتاب الورقة"، "أدب الكاتب"، "أخبار أبي تمام"، "أخبار القرامطة" ، وجمع أخبار جماعة من الشعراء، ورتبه على حروف المعجم، وكلهم من الشعراء المحدثين، وغير ذلك. وكان ينادم الخلفاء، وكان أغلب فنونه أخبار الناس، وله رواية واسعة ومحفوظات كثيرة، وكان حسن الاعتقاد جميل الطريقة مقبول القول، وكان أوحد وقته في لعب الشطرنج.

٣ الآية ٨٧ سورة يوسف.

٤ الآية ٣٨ سورة النجم.

٥ جنابة: بلدة من أعمال فارس متصلة بالبحرين عند سيراف.

ما رسا " أحُد"، وصلـّى على محمدٍ أحَد.

وأما العلوي البصريّ فذكر بعض النّاس أنّه كان قبل خروجه يذكر أنّه من عبد القيس ثمَّ من أنمار. وكان اسمه أحمد، فلمّا خرج تسمّى عليّاً. والكذب في حديثه كثير جمّ، كأنه في النَّظر جبل أشَمّ، والصِّدق لديه كالحَصاة، توطأ بأقدامِ عُصاة. وتُنسَبُ إليه أبيات مشهورة :

أيـا حِـرْفـةَ الـزّمْـنى ألـمَّ بـكِ الرّدى	أما لي خلاصٌ منـكِ والشـَّمْـلُ جامِـعُ
لـَئِنْ قـنَّعْـتُ نفـسي بـتـعْـليمِ صبْيـَةٍ	يدَ الدَّهْـرِ إنّي بالـمَـذلـَّـة قـانِـعُ
وهل يَرضَـيَـنْ حرٌّ بتعـلـيمِ صِبيـَةٍ	وقد ظنَّ أنَّ الرزْقَ في الأرضِ واسعُ؟

وما أعجبُ أن يكون حمَلـَهُ حبُّ الفانية، على أن غرق في بحارٍ من حميم قانية، يسبح فيها "ما دامت السموات والأرضُ إلاّ ما شاءَ ربُّك إن ربَّكَ فعَّالٌ لما يُريد"[1]. وقد رويت له أبيات تدل على تألُّه، وما أدفعُ أن تكونَ قيلتْ على لسانِه، لأن من خَبـِر هذا العالمَ حكم عليه بالفجور، وأخلاقٍ تبعُـدُ عن صالحات الأمور. والأبيات:

قـتـلـتُ الـنّـاس إشْـفـاقاً	عـلى نـفـسي كي تـبـقـى
وحُــــزتُ المـــالَ بالسَّـيفِ	لكي أنْعَــمَ لا أشْـــقـى
فـمَـن أبـصَـرَ مَـثْـواي	فلا يَـظـْلِـمْ إذاً خَـلْـقـا
فـواويـــلي إذا ما مُـت ٌ	عِـنـدَ الـلــهِ ما ألـقـــى
أخُلـْداً في جِـــوار اللّــ	ـهِ أمْ في نـارِه ألـْقـــى؟

وأنشدني بعضُهم أبياتاً قافيـَّة َطويلة الوزن، وقافيتها مثل هذه القافية، قد نُسبت إلى عضُد الدّولة. وقيلَ إنّه أفاقَ في بعض الأيّام، فكتبها على جدارِ الموضع الذي كان فيه، وقد نحى بها نحوَ أبياتِ البَصْريّ. وأشهدُ أنَّها مُتكلـَّفة، صنعها رقيعٌ من القوم، وأن عضد الدولة ما سمع بها قط.

وأمَّا الحكاية عن أصحاب الحديث أنَّهم صحفوا زخمة فقالوا: رحمة، فلا أصدِّق بما يجري مجراها، والكذب غالب ظاهر، والصدق خفي متضائل، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكذلك ادعاء من يدَّعي أنَّ علياً، عليه السلام، قال: تهلك البصرة بالزنج، فصحَّفها أهل الحديث: بالريح، لا أؤمن بشيء من ذلك. ولم يكن عليّ، عليه السلام، ولا غيره ممن يكشف له علم الغيب، وفي الكتاب العزيز: قل

١ الآية ١٠٧ سورة هود.

لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وفي الحديث المأثور: أنه سمع جواري يُغنّين في عرس ويقُلْن:

وأهْــدى لنا أكبُشاً تبحْبَحُ في المِربَـــدِ
وزوجُــكِ في النّادي ويَعْلَمُ ما في غَدِ

فقال: لا يعلم ما في غدٍ إلا الله. ولا يجوز أن يخبَرَ منذ مائة سنة أن أمير حلب، حرسها الله، في سنة أربع وعشرين وأربعمائة، اسمه فلان بن فلان، وصفته كذا، فإن ادعى ذلك مُدَّعٍ فإنّما هو متخرّص كاذب.

وأمّا النجوم فإنّما لها تلويح لا تصريح، وحُكيَ أنَّ الفضلَ بنَ سهلٍ[1] كان يتمثل كثيراً بقول الرّاجز:

لـئِنْ نجوتُ ونـجَـتْ ركائبي مِن غالبٍ ومن لفيفِ غالبِ
إنّي لـنـجَّـاءٌ مـن الـكـرائـبِ

وأنّ غالباً كان فيمن قتله، فهذا يُنـفَّق مثله، وأجدر بهذه الحكاية أن تكون مصنوعة. فأما تمثله بالشعر فغير مستنكر، وربما اتفق أن يكون في الوقت جماعة يسمون بهذا الاسم، فيمكن أن يقترن معنى بلفظٍ، على أنَّ في الأيام عجائب، وفوق كلّ ذي علم عليم.

وقد حكي أنَّ إياس بن معاوية القاضي كان يظن الأشياء فتكون كما ظن، ولهذه العلَّة قالوا: رجل نقاب وألمعيَّ، قال أوس:

الألْمَعيُّ الذي يظنُّ بكَ الظـ ـنَّ كأنْ قد رأى وقد سَمِعا

وقال: نقاب يحدِّث بالغائب.

١ الفضل بن سهل السرخسي ، كان وزيراً للمأمون ، وكان يلقب ذا الرياستين لأنه تقلد الوزارة والسيف. وكان من أخبر الناس بعلم النجوم، وأكثرهم إصابة في أحكامه. يقال إن المأمون طلب من والدة الفضل بعد مقتله ما خلفه، فحملت إليه أغراضاً فيها درج، وفي الدرج مكتوب بخطه:
بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قضى الفضل بن سهل على نفسه، قضى أنه يعيش ثمانياً وأربعين سنة ثم يقتل بين ماء ونار. فعاش هذه المدة، وقتله غالب خادم المأمون في حمام بسرخس سنة ٢٠٢هـ.

الحلّاج

فأمّا الحسين بن منصور فليس جهله بالمحصور. وإذا كانت الأمَّة ربّما عبدت الأوثان، فكيف يأمن الحَصيف البهتان؟ أراد أن يكون قُطبَ الضّلالة ، فانتقل إلى بحور الجهالة، ولو انصرف إلى علاج الأقطان[١]، ما بقي ذِكرٌ عنه في الأزمان، ولكنّها مقادير الأقدار، تغشى بها الأبصار. فأن يكون ابن آدم حصاة أو صخرة، خير له من أن يكون هدفاً للهزء والسخرة. النّاس إلى الباطل يسرعون، وإلى الفتن يهرعون.

وكم افتري للحلاج من قصص، والكذب كثير في الناس وما نقص، وجميع ما ينسب إليه مما لم تجر العادة بمثله فإنّه الإفك المُتَناقل، لا يصدّق حرفاً منه عاقل. وممّا يفتعل عليه أنّه قال للّذين قتلوه: أتظنون انكم إيّاي تقتلون؟ أنمّا تقتلون بغلة المادراني وأنّ البغلة وجدت في إصطبلها مقتولة.

وفي الصّوفية إلى اليوم من يرفع شانه، ويجعل من النجّم مكانه. وبلغني أنَّ ببغداد قوماً ينتظرون خروجَه. وأنهم يقفون بحيث صُلب على دجلة يتوقَّعون ظهوره. وليس ذلك ببدَع من جهل النّاس، وخرافات لا تقوم على أساس، فقد نزل حظ على قرد، فظفر بأكرم الورد.

وقالت العامة: اسجد للقرد في زمانه. وأنا أتحوَّب من ذكر القرد الذي يقال: إنّ القُوادّ في زمن زبيدة كانوا يدخلون للسلام عليه، وأنّ يزيد بن مزيد الشَّيبانيَّ دخل في جملة المُسلِّمين فقتله. وقد روي أن يزيد بن معاوية كان له قرد يحمله على أتانٍ وحشيةٍ ويرسلها مع الخيل في الحلبة.

وأمّا الأبيات التي على الياء:

يا سِرَّ سِرٍّ يدُقُّ حتّى ... يَجِلَّ عن وصفِ كلّ حَيّ

وظاهِراً باطناً تبَدَّى ... مِن كلِّ شيءٍ لكلِّ شي

يا جُمْلة الكلِّ لستَ غيري ... فما اعْتذاري إذاً إلَيّ؟[٢]

١ يشير إلى مهنة الحلّاج ومنها أخذ لقبه.

٢ ثلاثة من أربعة أبيات للحلاج، وهي من شطحاته الصوفية، ومع ذلك فإن الوزن لا يستقيم إلّا بكسر الياء في الرويّ.

فلا بأس بنظمها في القوَّة، ولكن قوله: إليّ، عاهة في الأبيات: إنْ قـيَّـدَ فالتقييد لمِثل هذا الوزنِ لا يجوزُ عند بعض النّاس، وإن كسَرَ الياءَ من إلي فذلك رديء قبيح.

وأصحاب العربية مجمعون على كراهة قراءة حمزة[1]: "وما أنتم بمصرخيّ"[2] بكسر الياء. وقد روي أنَّ أبا عمرو بن العلاء سئل عن ذلك فقال: إنه لحَسَن، تارة إلى فوق، وتارة إلى أسفل، يعني فتحَ الياء في مصرخيّ وكسرَها والذين نقلوا هذه الحكاية يحتجون بها لحمزة ويذهبون إلى أن أبا عمرو أجاز الكسر لالتقاء الساكنين. وإن صحت الحكاية عنه، فما قالها إلا هازئاً على معنى العكس، كما الغنوي وهو سهل بن حنظلة:[3]

لا يَمنَعُ الناسُ مِنّي ما أرَدْتُ وَلا أعْطيـهـِمُ ما أرادوا حُـْسـنَ ذا أدَبـا

أي ليس ذلك بحسن، وهذا كما يقول الرّجل لولده إذا رآه قد فعل فعلاً قبيحاً: ما أحسن هذا! وهو يريد ضدّ الحَسن. ولم يأت كسرُ هذه الياء في شعر فصيح. وقد طعن الفرّاء[4] على البيت الذي أنشده:

قـال لـهـا: هــل لـك يـا تـا فـيّ؟ قـالـت لـه: مـا أنْـتَ بـالمَـرْضِـيِّ[5]

وقد سمعت في أشعار المحدثين: إليّ وعليّ، ونحو ذلك، وهو دليل على ضعف القدرة وركاكة الذخيرة.

وكذلك قوله: الكلّ، وإدخاله الألف واللامّ مكروه. وكان أبو علي يجيزه ويدّعي إجازته على سيبويه، فأما الكلام القديم فيفتقد فيه الكل والبعض، وقد أنشدوا بيتاً لسحيم:

رَأيـتُ الغَـنيَّ والفَـقـيـرَ كِلَـيـهِـما إلى المَـوتِ يأَتي المَوتُ للكلِّ مَعْـمِـدا

ويُنشَـدُ لفتى كان في زمنِ الحلّاج:

إن يكنْ مذهبُ الحُلولِ صحيحاً فـإلهي فـي رحْـمَـة الـزَجَّـاجِ
عَـرَضَـتْ في غِـلالـَةٍ بـطِـرازٍ بـيـنَ دارِ العَـطّـارِ والثـلّاجِ

---

١ أبو عمار حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل المعروف بالزيات (٨٠- ١٥٦هـ/٦٠٠- ٦٧٣م)، كان أحد القراء السبعة.

٢ الآية ٢٢ سورة إبراهيم.

٣ ورد اسمه في " منتهى الطلب من أشعار العرب" لابن المبارك: سهم بن حنظلة الغنوي، وهوشاعر فارس، من الشعراء المقلين.

٤ يحيى بن زياد بن عبد الله المعروف بالفراء، سبقت ترجمته.

٥ بيتان من خمسة للأغلب العجلي بن عمرو بن عبيدة بن حارثة، من بنى عجل من ربيعة (٧٠ ق. هـ - ٢١ هـ / ٥٥٢ - ٦٤٢ م) شاعر راجز معمر، وهو أول من أطال الرجز. واستشهد في معركة نهاوند.

زعَموا لي أمْـراً ومـا صَـحَّ لكن هو مِـن إفْكِ شَيخِنا الحَلّاجِ

وهذه المذاهب قديمة، تنتقل في عصر بعد عصر، ويقال إن فرعون كان على مذهب الحلولية[1]، فلذلك ادّعى أنه ربُّ العِزَّة. وحُكي عن رجلٍ منهم أنّه كان يقول في تسبيحه:

سُـبحـانـكَ سبحـاني غُـفـرانـك غُـفـراني

وهذا هو الجنون الغالب، إنّ من يقول هذا القول معدود في الأنْعام، ما عرف ما أنعم الله به علينا من الإيمان والإسلام. وقال بعضهم:

أنـا أنْـت بـلا شَـكٍّ فـسُـبحـانـك سُـبحـاني
وإسْـخـاطُـك إسْـخـاطـي وغُـفـرانُـك غُـفْـراني
ولِـمْ أجْـلَـدُ يـا ربّـي إذا قِـيـلَ هُـوَ الـزّاني

وبنو آدم بلا عقول، وهذا أمر يتلقاه صغير عن كبير، فيكون في المقدمة إلى جهنم وبئس المصير: «أمْ تحسَبُ أنَّ أكثـَرَهم يسْمَعونَ أو يعْقِلون، إن هُم إلّا كالأنعامِ، بل هم أضَلُّ سبيلاً»[2].

ويُروى لبعض أهل هذه البدعة:

رأيْـتُ ربِّيَ يَمْـشي بلاعجَـلٍ في سوقِ يَحيى فكَدْتُ أنفَطِرُ
فقلتُ: هل في اتِّصالِنا طمَعٌ؟ فـقـالَ: هـيهات! يَمْـنَعُ الحَـذرُ
ولو قـضى الـلـهُ ألـْفـة بهـوى لم يَـكُ إلاّ الـسُّـجـودُ والـنَّـظَـرُ

1 تقوم الحلولية على «وحدة الوجود» أي «وحدة الخالق والمخلوق»، حيث تحل روح الله في كل المخلوقات. ولهذا كان الحلاج يقول: «ما في الجبة غير الله». وكان يقول أيضاً:

أَنا مَن أَهوى وَمَن أَهوى أَنا نَحنُ روحانِ حَللنا بَدَنا
فـإذا أبْصَرتَني أبصَرْتَـهُ وإِذا أبْصَـرْتَـهُ أبصَرْتَنا

2 الآية ٤٤ سورة الفرقان

مذهب التناسخ

ويُؤدِّي هذا الاعتقاد إلى الإيمان بالتناسخ، وهو مذهب عتيق يقول به أهلُ الهند، وقد كثر في جماعة من الشّيعة، نسأل الله التوفيق والكفاية. وينشد لرجل من النصُّيرية [1]:

اعْجَبي أمَّنا لصَرْفِ اللّيالي — جعَلتْ أخْتَنا سُكَينَةَ فارَهْ

فازْجُري هذهِ السّنانيرَ عنها — واتْرُكيها وما تضُمُّ الغِرارَهْ

وقال آخر منهم:

تبارَكَ الله كاشِفُ المِحَنِ — فقد أرانا عَجائِبَ الزّمَنِ

حمارُ شيبانَ شيخِ بلدتِنا — صُيِّرَهُ جارُنا أبو السكَنِ

بُدِّلَ مِن مَشْيِه بحُلَّتِه — مِشْيَتَه في الحِزام والرَّسَنِ

ويصوّر لهم الرأي الفاسد أباطيلَ ومُشبَّهات، فيسلكون في الفجور والترهات.

وحُكى لي عن بعض ملوك الهند، وكان شابّاً حسن الصورة، أنّه أصيب بالجدري، فنظر إلى وجهه في المرآة وقد تغير، فأحرق نفسه وقال: أريد أن ينقلني الله إلى صورة أحسن من هذه.

وحدثني قومٌ من الفقهاء، أنّهم كانوا في بلاد محمود، وكان معه جماعة من الهند قد وثق بصفائهم، يفيض عليهم الأعطية لوفائهم، ويكونون أقرب الجند إليه إذا حلّ وإذا ارتحل، وأن رجلاً منهم سافر في جيشٍ جهزه محمود، فجاء خبره أنّه قد هلك بموت أو قتل، فجمعت امرأته لها حطباً كثيراً، وأوقدت ناراً عظيمة واقتحمتها والنّاس ينظرون، وكان ذلك الخبر باطلاً، فلمّا قدم الزّوج أوقد له ناراً عالية اللهب ليحرق نفسه حتى يلحق بصاحبته، فاجتمع خلق كثير للنّظر إليه، وأنّ أصحابه من الهند كانوا يجيئون إليه فيوصونه بأشياء إلى أمواتهم: هذا إلى أبيه وهذا إلى أخيه. وجاءه

١ النصيريون طائفة من الشيعة ينتسبون إلى محمد بن نصير البكري النميري الذي كان من معاصري الإمام الحادي عشر عند الشيعة الحسن العسكري. تعتقد النصيرية بأن محمد بن نصير الباب الشرعي للإمام الحسن العسكري ولكن الشيعة يرفضون هذا.

إنسان منهم بوردة وقال: أعط هذه فلاناً يعني ميِّتاً له، وقذف نفسه في تلك النّار. وحدّث من شاهد إحراقهم نفوسهم أنّهم إذا لذعتهم النّار أرادوا الخروج، فيدفعهم من حضر إليها بالعصيّ والخشب. فلا إله إلاّ الله « لقد جئتم شيئاً إدّاً »[1].

وفي الناس من يتظاهر بالمذهب ولا يعتقده، يتوصَّل به إلى الدنيا الفانية، وهي أغدر من الحمقاء الزّانية.

وكان لهم في الغرب رجل يعرف بابن هانئ[2] وكان من شعرائهم المجيدين، فكان يغلو في مدح المعزّ أبي تميم معدٍّ، غُـلـُّوا عظيماً، حتى قال يخاطب صاحب المظلَّة:

أمُديرَها من حيثُ دارَ لَـشَـدَّ ما زاحَـمْتَ تحتَ رِكابِـه جِـبْـريـلا

وقال فيه وقد نزل بموضع يقال له رقَّادة:[3]

حَـــلَّ بـــرَقّـــادة َالمَـسـيـحُ حَـــلَّ بـهـــا آدمٌ ونـــوحُ
حَــلّ بـهـا الـلـه ذو المعـــالي وكـــلُّ شيءٍ سِـــــواه ريـــحُ

وحضر شاعر يعرف بابن القاضي بين يدي ابن أبي عامر صاحب الأندلس[4] فأنشده قصيدة أوَّلها:

ما شِئتَ لا ما شـاءَتِ الأقـــدارُ فاحْـكُـمْ فأنـتَ الـواحِـدُ القهّــارُ

ويقول فيها أشياء، فأنكر عليه ابن أبي عامر، وأمر بجلده ونفيه.

وأعلى مراتب الحلاجّ أن يكون مشعوذاً، لا ثاقب الفهم ولا جهبذاً،على أنَّ طائفة من الصوفيَّة تعظمِّه، وهي تدرك حقيقة أمره وتفهمه.

وأمّا ابن أبي عَون فإنهّ أخذ في لونٍ بعدَ لون، غُرَّ البائسُ بأبي جعفر، وما أدرك أنه حصد الهشيم الأوفر، وقد تجد الرّجل حاذقاً في الصناعة، بليغاً في النّظر والحجة، فإذا رجع إلى الدّيانة ألفيته كأنّه بهيمة أسلمت القياد، وإنمّا تتبع ما تعتاد.

والتألـُّه موجودٌ في غريزة الإنسان، لكنه يقمعه بالعلم والإيمان، ويلقن الطّفل الناشئ ما سمعه

---

١ الآية ٨٩ سورة مريم

٢ محمد بن هانئ بن محمد بن سعدون الأزدي الأندلسي (٣٢٦ - ٣٦٢ هـ / ٩٣٨ - ٩٧٣ م) أشعر المغاربة على الإطلاق وهو عندهم كالمتنبي عند أهل المشرق، وكانا متعاصرين. ولد بإشبيلية وحظي عند صاحبها ، وفي شعره نزعة إسماعيلية بارزة. ثم اتصل بالمعز العبيدي (معدّ) ابن إسماعيل، وأقام عنده في المنصورية بقرب القيروان، ولما رحل المعز إلى مصر عاد ابن هانئ إلى إشبيلية فقتل غيلة.

٣ رَقَّادة تقع وسط البلاد التونسية وعلى مسافة ١٠ كم جنوبي غرب القيروان.

٤ المنصور محمد بن أبي عامر(توفي ٣٩٢هـ/١٠٠٠م) أصله من قبيلة معافر القحطانية، دخل كاتباً في خدمة الحكم الثاني، ونال رضى « صبح » زوج الخليفة، فلما مات الخليفة كان ابنه هشام في العاشرة من عمره، فحكم المنصور باسمه، واستبد بالأمور ستّاً وعشرين سنة حتى مقتله في إحدى المعارك. والبيت موجود في شعر ابن هانئ الأندلسي من قصيدة طويلة مدح بها المُعزّ الفاطمي.

من الأكابر، فيلبث معه في الدّهر الغابر. والذين يسكنون في الصوامع، والمتعبدون في الجوامع، يأخذون ما هم عليه، كنقل الخبر عن المُخبِّر، لا يميَّزون الصدّق من الكذب لدى المفسِّر، فلو أنّ بعضهم ألفى أسرة من المجوس، لخرج للمجوس خديناً[1]، أو من الصّابئة[2] لأصبح لهم قريناً. وإذا المجتهد ابتعد عن الإجادة، فما يظفر بغيرالبلادة. وإذا المعقول جُعِل رائداً، أفاد به من لم يكن معانداً، ولكن أين من يصبر على أحكام العقل، ويصقل فهمَه أفضل صقل؟ هيهات! عدم ذلك في مَن تطلعُ عليه الشمس، ومن ضمَّه في المقابر رمس، إلىّ أن يشذّ رجلٌ في البشر، يختص من فضلٍ منتشر.

ربمّا لقينا مَن نظر في كتب الحكماء، وتبع بعض آثار القدماء، فألفيناه يستحسن قبيح الأمور، ويبتكر بلبّ مغمور، إنْ قدر على فظيع ركِبه، وإن عرف واجباً تـنكـَّبه، كأنّ العالم سعوا له لينقاد، فهو يعتقد شرّ اعتقاد، وإنْ أودِعَ وديعةً كان خائناً، وإن سئل قال رأياً شائناً، وإن وصَف لعليلٍ دواءً فما يحفل أقتله بما قال، أم ضاعف عليه الأثقال، بل غرضه أن يكتسب، ويدعي أنه إلى الحكمة ينتسب.

وربّ من يتهم بالجهالة أهلَ مِـلـَّة، وعِـلـَّـتُه الباطنة أدهى عِـلـَّة، وإن البشر لكما جاء في الكتاب العزيز «كل حزبٍ بما لديهم فرحون».[3]

والإمامية تقَّربوا بوجوهٍ بالترابِ تُعَـفـَّـر، فعدّه بعض المتدينة ذنباً ليس يُـغْـفـر، ويحضرالمجالسَ أناس طاغون، كأنهم للرّشد باغون، وأولئك، علم الله، أصحاب المَكـْر والبِـدع ، ومن لك بمن يرتدع! كم مُتظاهـرٍ باعتزال، وهو مع المخالف في نزال، وما ينفـكُّ يرتكب من الآثام عظائم الأمور، ويقع بها في جوف التـَّنُور. ينهمك على العهر والفسوق، ويظعن بأحمال من الأوزار والموبقات ويسوق. يطيل السعيَ في النهّار واللّيل، ويُضمرُ أنّ شيخ المعتزلة غيرُ طاهرِالرُّدن ولا الذّيل، فقد جعل الجَدلَ مصيدة، ينظم به الوالغ في غيِّهِ قصيدة.

وحُـدِّثتُ عن إمام لهم يُوَقـَّرُ ويُـتـَّبَع، وكأنه من الجهل ما شبع، أنّه كان إذا جلس في مجلس

---

١ المجوسية أو الزرادشتية نسبة لمؤسسها «زرادشت» ، تأسست منذ أكثر من ٣٠٠٠ سنة في إيران على تعاليم زرادشت، يعتقد معتنقوها بوجود إله واحد أزلي هو خالق الكون ويمثل الخير ولا يأتي منه الشر أبداً، وأن زرادشت نبي الله الذي بشّر بالقوة الشافية للعمل الصالح والقوة الخيرة. النار والشمس رمزا المجوسية، ولذلك فإن النار مقدسة لأنها تمثل نور أو حكمة أهورأمزدا، ويحرص الزرادشتيون على ألا تنطفئ في معابدهم، وهو ما جعل أصحاب الكثير من الديانات الأخرى يفسرونه على أن الزرادشتيين يعبدون النار.

٢ ديانة الصابئة هي أحد الأديان الإبراهيمية أول الأديان الموحدة، وأتباعها يتبعون أنبياء اللّه آدم، شيث، إدريس، نوح، يحيى، زكريا، وقد كانوا منتشرين في بلاد الرافدين وفلسطين، ولا يزال بعضهم في العراق، وقد عاملهم المسلمون الفاتحون معاملة أهل الذمة.

٣ الآية ٥٣ المؤمنون والآية ٣٢ الروم

الشراب، ودارت عليهم الخمرة في ليل كجنح الغراب، وجاءه القدح شربه لم يترك بقية، وأشهدَ من حضَره على التوبة النقية.

والأشعري إذا كُشِف ظهرت العيوب بجلاء ، تلعنه الأرض الرّاكدة والسماء، إنّما مَثلُه مثلُ راعٍ أغنامه كثيرة، ويخبط في الدهماء بلا بصيرة، لا يحفِل علامَ هجم بها، يريدها أن ترعى من البقعة الأعشاب، ولا يضمن أن تُلِمَّ بها الذئاب،ولا تحميها من الموت الكلاب! فمن له أيسر عقل من الأفهام، كأنمّا وضع في دجى الظلام، إلا من عصمه الله باتباع السّلف، وتحمل ما يشرع من الكلف:

وإنّـا، ولا كُـفْـرانَ لـلـهِ ربِّـنـا، لكالبُدْنِ، لا تدري متى حتفُها البُدْنُ

والشيعة يزعمون أنَّ عبد الله بن ميمون القدّاح[1]، وهو من باهلة، كان من علية أصحاب جعفر بن محمدٍ عليه السلام[2]، وروى عنه شيئاً كثيراً، ثم ارتدّ بعد ذلك، فحدثني بعض شيوخهم أنّهم يروون عنه ويقولون: حدّثنا عبد الله بن ميمون القدّاح كأحسن ما كان، أي قبل أن يرتدّ، ويروون له:

هاتِ اسْقِـني الخـمرةَ يا سَـنْبَرُ فـليس عِـنـدي أنَّـني أنْـشَـــر

أما تـرى الـشِّـيـعَـةَ في فِـتْـنَــةٍ يَـغُـرُّهـا مِـن ديـنِـهـا جَـعْـفَـــرُ؟

قـد كُـنـتُ مَـغْـروراً بـهِ بُـرْهَـةً ثُـمَّ بـدا لـي خَـبَـــرٌ يُـسْــتَـــرُ

وممّا ينسب إليه:

مَـشَـيْـتُ إلى جَـعْـفَـرٍ حِـقْـبَـةً فألْـفَـيْـتُــه خـادعـاً يَـخْـلُـبُ

يَـجُـرُّ الـعـلاءَ إلى نَـفْـسِــــه وكُلٌّ إلى حَـبْـلِــهِ يَـجْــذُبُ

فـلَو كـانَ أمْـرُكُـمُ صـادِقـــاً لما ظَـلَّ مَـقْـتـولُكُمْ يُـسْـحَـبُ

ولا غَـضَّ مِـنْـكُـمْ عَـتـيقٌ ولا سَـمـا عُـمَـرٌ فـوقـكُـم يَـخْـطُـبُ

---

١ عبد الله بن ميمون القداح توفي ٢٧٦هـ/٨٨٩م، وسمي قداحاً لأنه كان كحّالاً يقدح العين إذا نزل فيها الماء. وقيل إن المهدي قُتِل في السجن، فدخل أبو عبد الله إلى السجن فوجد المهدي مقتولاً وعنده رجل من أصحابه كان يخدمه، فأخرجه وقال: هذا هو المهدي، وكان هذا بداية الدولة العبيدية ثم الخلافة الفاطمية التي قضى عليها صلاح الدين الأيوبي.

٢ جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم أجمعين، أحد الأئمة على مذهب الإمامية(٨٠-١٤٨هـ/٧٠٣- ٧٦٨م)، كان من سادات أهل البيت ولقب بالصادق لصدقه في مقالته ، وله كلام في صنعة الكيمياء والزجر والفأل، وكان تلميذه جابر بن حيان قد ألف كتاباً يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق وهي خمسمائة رسالة.

الحلولية والتناسخ

والحُلوليّة قريبة من مذهب التناسخ، وحُـدِّثت عن رجلٍ من رؤساء المنجمين من أهل حرّان أقام في بلدنا زماناً، فخرج مرّة مع قومٍ يتنزهون، فمروا بثورٍ ، فقال لأصحابه: لا أشك في أنّ هذا الثور رجل كان يعرف بخلفٍ بحَرّان، وجعل يصيح به: يا خلف، فيتـّفـق أن يخور ذلك الثـور، فيقول لأصحابه: ألا ترون إلى صحَّة ما خبرتكم به؟

وحكي لي عن رجلٍ آخر ممّن يقول بالتنّاسخ أنّه قال: رأيت في النّوم أبي وهو يقول لي: يا بنيّ، إنّ روحي قد نقلت إلى جملٍ أعور في قافلة فلانٍ، وإنيّ قد اشتهيت بِطيخة. قال: فأخذت بِطيخة، وسألت عن تلك القافلة، فوجدت فيها جملاً أعور، فدنوت منه بالبِطيخة، فأخذها أخذ من يشتهيها. أفلا يرى مولاي الشّيخ إلى ما رُمي به هؤلاء البشر من سوء التفكير، وتحيزهم إلى ما لا يقبله عقل طفل صغير؟

وأمّا ابن الرّاوندي فلم يكن إلى المصلحة بمهديّ، وأمّا تاجه فلا يصلح أن يكون نعلاً، ولم يجد من عذابٍ وغْلاً أي ملجأ، قال ذو الرّمة:

حتّى إذا لم يجِدْ وَغْلاً ونَجْنَجَها   مَخافـةَ الـرّمْي حتى كـُلـُّها هِـيَـمُ

ويجـوز أن يكون تاجه من العـقارب، فـما كان المحسـن ولا المُقارب، فـكـيـف له إذا تُوِّج بالسـيـوف، وقـُرعـت لمصرعـه الطبـول والدفوف؟ وهـل تاجُه إلا كما قـالـت الكاهـنـة: أ ُفّ وتُـفّ، وجَوربٌ وخُف[1]؟ قـيل: وما جَورَبٌ وخُفّ؟ قالت واديان بجهنم. ما تاجه كتيجان الملوك، وما هو إلا دَعِيٌّ صعلوك، ولا اتّخِذ من الذّهب، وسوف يكون على رأسه من اللهَب، ولا نظم من الدُرّ، بل وقعَ من عَناءٍ بقـُرّ، يقال: صابت بـقـُرٍ، إذا وقعت في موضِعِها، وأكثر ما يُستعمل ذلك في الشرّ. قال الشاعر:[2]

تُـرجّـيهـا وَقـد صابَـت بِـقُرٍّ   كما تـرجو أَصاغِـرَها عَـتـيـبُ

١ أُفٍّ لـهُ، وتُفٍّ لهُ. الأفُّ: وَسَخُ الأُذْنِ، والتـُّفُّ: وَسَخُ الأظـْفارِ. والأصل أن الخف ما يُنتعَل، والجورب ما يرتديه المرء في قدميه.

٢ البيت لعدي بن زيد

ما هو كتاج كِسرى، وما قاده إلا إلى سوء المسرى، ولا تاج الملك أنوشَروان، فأثـقـله وجرَّ الهوان، ذلك تاجُ فرسٍ أسرع،فقاد صاحبه إلى المصرع. ليس هو كتاجِ المنذر، ولكن لطمة من الهلاك تحذِّر، ولا هو كخرزات النعّمان، بل شَيْنٌ يُدَّخر في الأزمان.[١]

وأمّا كتابه الذي سمّاه "الدامغ" فما أحسبه دمَغ إلاّ من ألـَّفه، فأذلـَّه وما شرَّفه. وفي العرب رجلٌ يُعرف بدميغ الشيطان، وهذا الرّجل كالضعيف من الخيطان.

وإنمّا المُنكـَر، أنَّه في الآونة يُذكـر. دلّ مِمَّن وضعه على ضعفِ دماغ، فهل يسمع لصوتٍ ماغٍ؟ من قولهم: مَـغـَـت الهـرّة إذا صاحت.

رماني بـأمْـرٍ كـنـتُ مِنـه ووالـــدي   بــرِياً ومـن جَــوْل الطَّـوِيِّ رمـاني[٢]

لقد طاش منه صوابه، وطال في الآخرة عذابه. لقد شان راوند إذ انتسب إليها، وما عاد بغير العار عليها، إنمّا هتك عن نفسه الأسرار، وأبان لكل ذي نظر أنه ليس من الأبرار.

لقد أجمع من كفر ومن اهتدى، ومن ضلَّ عن الصراط ومن اقتدى، على أنّ هذا الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم كتابٌ بهَرَ بالمعجزة، آياته محكمة معززة. ما كـُتِب على مثال، ولا أشبه غريب الأمثال. ما هو من القصيد الموزون، وليس محمد شاعراً ولا يجوز أن يكون. ولا شاكل خطابة العرب، ولا سجع الكهان ذوي الأرب. وجاء كالشمس الساطعة، نوراً للقلوب الخاشعة، لو فهمه الجبل الراسخ لتصدع، أو سمعته الوعول لم تفزع: " لوْ أنْزَلـْنا هَذا القُرْآنَ عـلى جَبَـلٍ لـرَأيْـتَــهُ خاشِعاُ مُتصَدِّعاً مِن خَـشْـيَــةِ الـلـهِ وتِـلـكَ الأمْثالُ نَضْرِبُها لـلنّـاسِ لـعَـلـَّـهُـمْ يَـتَـفـَـكـَّـرُون"[٣] وإنّ الآية منه أو بعضَ الآية، تقارنها بأفصح كلم يقدرعليه المخلوقون، فتكون فيه كالشَّهابِ المُتلألئِ في جُنح غسق، والزّهرة البادية في واحات ذات نسق « فتبارك الله أحسن الخالقين »[٤]

١ النعمان والمنذر بن ماء السماء من ملوك الحيرة

٢ البيت لعمرو بن أحمر الباهلي وسبقت ترجمته

٣ الآية ٢ سورة الحشر

٤ الآية ١٤ سورة المؤمنون

ابن الرّومي

وأمّا ابن الرّومي فهو أحد من يقال: إنّ أدبه كان أكثر من عقله، وكان يتعاطى علم الفلسفة، والبغداديّون يدّعون انّه متشّيع، ويستشهدون على ذلك بقصيدته الجيميَّة، وما أراه إلّاعلى مذهب غيره من الشعراء.

ومن كان متطيِّراً يتشاءم، لم ير إلّا الشر حتى في النسائم، وإنمّا هو شرٌّ فيه يتعثر، وللأنفس أجلٌ مقدَّر، وكلّ ذلك خوفاً من الموت الذي هو حق على الإنسان والحيوان، محتومٌ لقاؤه في كلّ أوان. وفي النّاس من يظنّ أنّ الشيء إذا قيل جاز أن يقع، ولذلك قالت العامّة: الخوف أوّلُ الكون. ويقال: إن النبي صلى الله عليه وسلم، تمَثَّل بهذا البيت ولم يُتمِّمْه:

تفاءلْ بما تهوى يكُنْ، فلقلَّما　　　يُقال لشيءٍ كان إلاّ تحَقّقا

ومهما ذهب إليه اللّبيب، فالخير في هذه الدّنيا قليل جدّاً، والشرّ يزيد عليه بأجزاءٍ ليست معدودة، وما أشبه ذوي التقى بالعُصاة، كُلّهم إلى التَّلف يُساقون، يلقون أقدارهم ولا يعاقون، ولعلّ الله، جلّت قدرته، يميزهم في ما إليه ينقلبون، ويسعفهم بما يطلبون. وقال علقمة:

ومن تعرَّضَ للغِربانِ يزجرُها　　　على سلامَتِه لا بدَّ مَشْؤومُ

وقد جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم، أخبار كثيرة تدل على كراهة الاسم الذي ليس بحَسنٍ، مثل مُرّة وشِهاب والحُباب لأنّه يتأوَّلُه في معنى الحّية.

ونحو من حكاية ابن الرّومي التي حكاها النّاجم ما حُكي عن امرأة من العرب أنّها قالت للأخرى: سمّاني أبي غاضِية، وإنمّا تلك نارُ الغضى، فالحمدُ لربيّ على ما قضى، وتزوجت من بني جَمرةَ رجلاً أحْرَق، وما أمْرَق. أي لم يكثر مَرَقُه وكان اسمه تَورَباً، والتَوربُ هو التراب، فشمتت بي الأتراب، وكان أبوه يدعى جندلة وهو الحجر والحجارة جندل، فما شممت رائحة البخور ولا المندل، وكان اسم أمّه سَوّارة، فلم تزل تواثبني في العداوة، ولا أجد للعيش معها نداوة.

فقالت الأخرى: أما أنا فسّماني أبي صافية، فصفوتُ من كُلِّ قذى، وجُنِّبتُ مواقع الأذى، وزوجّني في بني سعدِ بن بَـكْـر فبَـكّـَر عليّ السعد، وأنجز لي الوعد. واسم زوجي مُحاسِن، جُزِيَ الصّالحات، فقد حاسَن وما لاسَن، واسم أبيه وقّاف، رعاه الله، فـقـد وقـف عليَّ خيرَه، وأكثر لديّ مَيْرَه، وهو الطعام، واسم أمّه راضِية، رضيت عني وعن أخلاقي، ولم تحرض ابنها على طلاقي.

والمتطير من الناس إن رأى طيراً يطير، خاف واستطير، وإن رأى حمامة من الحمام، لم يذكر سوى الحِمام وهو الموت الذي سيلقاه الأنام، كما قال الطائي أبو تمّام:

هُنّ الحَمامُ، فإن كسَرْت، عِيافة   مِـن حائِـهِـنّ، فـإنّـهـنَّ حِـمـامُ

ولهذه الطوّية جعل ابن الرّومي جعفراً من الجوع والفرار ولو هدي صرفه إلى النهر الجرار، لأن الجعفر النّهر الكثير الماء، ولكنّ إخوان هذه الخليقة، لا يحملون الأشياء الواردة على الحقيقة. وأراد بعضهم السَّفر في أوَّل السنَّة فقال: إن سافرتُ في المُحَرَّم، كنتُ جديراً أن أحْرَم، وإن رحلت في صفر، كنت الغني الذي افتقر، فأخّر سفره إلى شهر ربيعٍ، فلمّا سافر مرض ولم يُوَفـَّق في سفره، فقال: ظننته من ربيع الرِّياض، فإذا هو من ربيع الأمراض.

أبو تمام والدين

وأما أبو تمّام، فما أمسك من الدّين بزمام، والحكاية عن ابْن رجاءٍ مشهورة، والأبصار بها مبهورة. فإن قـُذِف في النّار حبيب، فما يغني المَدح ولا النسيب. ولو أنَّ القصائد لها صوت، وتشكو بعد فوات الفوت، لأقامت عليه الممدودتان اللتّان في أوّلِ ديوانِه، مأتماً يعجب الناس لأحزانه. فناحتا عليه كابنتي لبيد، وقد جرَّعَهُما الثـُكل مرارة الحنظل أو تزيد، وقالتا ما أوصاهما بقوله:

وقـولا: هـو الـمـرءُ الـذي لا حريـمَـه أضـاعَ ولا خان الصـديـقَ ولا غـَـدَرْ

إلى الحَـوْلِ ثـُمّ اسْـم السَّـلام عَـلـيـكـما ومن يَبْك حَولاً كاملاً فـقـدِ اعْـتَـذرْ

وكأنّي بهما لو قضي ذلك، لاجتمعت إليهما الممدودات، كما تجتمع نساء معدودات.

فيجئـن من كلّ مُـسْـتـقَـرّ، ويتواعـدنَ المأتم بعـويل غـيـر محـتـقَـر. ولو فعـلن ذلك لبارتهن البائيات بمأتم أعظم رنيناً، وأشد في الظلام حنيناً، كما قال:[1]

يُـجـاوِبْــن الـنِّــيـاحَ بـكلِّ فَـجْــرٍ فـقـد صَحِلَــتْ مِن النَّوحِ الحُلـوقُ

وإذا كان مأتم الممدودات في مائة ممّن يُعِدُّهُـنَّ ويطابق، وجب أن يكون مأتم البائيّات في آلافٍ من السوابق، لأنَّ الباء في الرَويِّ طريق معهود، والمد في القصائد سبيل مشهود. وتجيء الثـائيتان وكلتاهما كابْنة الظلام، وتبادرك في حالك القتام. ولو صوَّرتا من الآدميات، لزادتا على قينتي ابْنِ خَـطَـلٍ في المرثيّات[2]، وإنّ الثاء لقليلة كرَوِيٍّ في شعر العرب، إلاّ أنَّهما تستعينان قصيدة كُثَــيِّـرٍ:[3]

١ المفضل بن معشر بن أسحم النُكري: شاعر جاهلي من أصحاب المنصفات قال ابن سلّام في سبب تلقيبه بالمفضل: فضّلته قصيدته التي يقال لها المنصفة وأولها:

ألَمْ تـرَ أنَّ جيرتـنا اسْـتقلّوا فنِيَّتُنـا ونيَّـتُهُـمْ فَـريـقُ

وليس له غيرها في كتب التراث.

٢ عبد الله بن خَطَل، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح بقتله ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة، لأنه كان مسلماً، ثم ارتد، وكانت له قينتان هما «فرتنى وقريبة» تغنيان بهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقُتلت إحدى قينتيه وهربت الأخرى، حتى استُؤمِن لها رسول الـله فأمَّنها.

٣ كثير بن عبد الرحمن من خزاعة (٤٠ – ١٠٥ هـ / ٦٦٠ – ٧٢٣ م) شاعر متيم مشهور، من أهل المدينة، اشتهر بحبه لعزة فعرف بها.

حـبـالُ سَـلامَـةَ أَضْـحـتْ رِثـاثـا   فـسَـقْـيًاً لها جُـــدُداً أو رِماثا

وبأراجيز رؤبة بن العجاج وما كان نحوها من القوافي المُتكلّـفة، والأشعار المُتعسَّـفة. فأمّا الدّاليات والرّائيّات وما بني على الحروف اللينة كالميم والعين واللام، وما جرى مَجراهُـنٌّ، فلو اجتمع كلُّ حيّزٍ منهن وهو فِراد، لضاق عنهن الإيراد.

وزِدْن على ما ذُكِر أنّه اجتمع في جنازة أحمد بن حنبل[1] من النسّاء والرجال، ويقال إنّه لم يجتمع في الجاهلية ولا الإسلام جمعٌ أكثرُ ممّا اجتمع في موت أحمد، قُـدِّرَالرّجال بألف ألفٍ، والنسّاء بستّمائة ألفٍ، والله العالم بيقين الأشياء.

وإن كان حبيبٌ ضيَّع الصلوات، فإنّه ضالٌّ بالفلوات، ما كادَ فيها عدواً، ولا بلغ مرادَه رَواحاً أوغُدواً. ينكص عن عدوه بالقهر، كل من ضيَّع صلاة الظهر. وكم مِن قصرٍ، يُشيَّد في الجنة بصلاة العصر، ومسكٍ في الجنة فوّاح، لمصلّي المغرب قبل الرواح، وحُورٍ أنْشِئنَ ببديع الإنشاء، لمن حافظ على صلاة العشاء، وقد جاء في الحديث النهّي أن تسمى العتمة. وقد جاء في الحديث:» إنَّ العتمة اسم بنت الشيطان». وإنّ من يعجز عن أداء تلك الرّكعات، لجدير بأن يفقد أفضل الدعوات.

وإنَّي لأضن بتلك الأوصال، أن يكون صاحبُها قد جالَ في سقر وَصال، لأنه كان صاحب طريقةٍ مبتدعة، ومعان كاللّؤلؤ مُخترَعة، يستخرجها من غامض البحار، ويفض عنها المحار. وإن ابتدره خازن النارمالك، فقد نبذ في المَهالك، فليته كالجَعْديّ، أو سلك به مسلك عديّ، أوكان مذهبه مذهب حاتم، فقد كان ذا خلق متألّهاً، وبالكريم من الأخلاق مُتولّهاً، وقال:[2]

وإنّي وإن طالَ الثـَواءُ لـَمَـيِّـتٌ   وَيَـضُمـُّني ماوِيَّ بَـيـتٌ مُـسَـقـَّـفُ

أو ليته لحق بزيد بنِ مهلهلٍ، قد وفد على النبيّ صلى الله عليه وسلم، و طرح عنه ثوب الغبيّ.

---

١ الإمام أحمد بن حنبل(١٦٤-٢٤١هـ/٧٨٠- ٨٥٥م) كان إمام المحدثين، قال عنه الإمام الشافعي عندما ارتحل إلى مصر،: خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل.

٢ ورد الشطر الأول: وإني لمُجْزىً بما أنا عاملٌ

الإفشين والمازيار

وأمّا المازيار، فغَـويٌّ بالسَّفهِ سيّار، وحسبه ما يتجرّعُ من الحميم، ويحتمل من المقال الذميم، وقد خلد له في الكتب ما يوجب لعنه إلى يوم الدّين، فكان في جهنم من الخالدين، ورحم الله ابن أبي دؤاد، فلقد شفى الأنفس من شر العباد، وكشف حال الأفشين، فعلم أنه آلِف شيْنٍ، مخالفُ رشادٍ وزَيْن.

بابك

وبابك فتح باب الطّغيان، فتبعه شرار الرّعيان، وأظن محاربته، عليه اللعنة، أفضل جهادٍ عُـرِف، وذنبَه أكبرَ ذنبٍ اقْـتُـرِف. ولعلـّه يودُّ في الآخرة أنّه جُرِح عن كلّ من قُتِل في أوانه مائة جرح، ومُـلِئَ كلُّ جرحٍ منها بالملح، ثم خلص من العذاب الذي لا يطاق، واستنقذ عنقَـه من النطاق.

وكلّ ساعٍ للدنيا الفانية لا بدّ له من الندَم، حين يفارقها وحين تُحـشَـر الأمم، فذمّنا لها يُحسَب من الضّلال، كما تمنّى القناعة أخو الفقر والإقلال. نذمّها على غير جناية، ولم تخصَّ أحداً بالعناية، بل أبناؤها في المِحن سواء، لا تُسعِفْهم الأهواء، فرب حاملٍ حزمة من الحطب، يشكو من الضيق والعطب، يعجز ثمنها عن شراء القوت، ويكابد شظفَ عيشٍ ممْقوت، تنغرس الأشواك في قدمه، فتختضب الحزمة بدمه، وهو أقل هموماً من الجالس على السرير، ينعم برشأ غرير، يُجمع له الذهب من غير الحلال، بظلم الأمم بطرق من الضلال، وإذا ملأ بطنه من طعام فاخر، وسبح في بحرٍ من الترف زاخر، فنعمه تلك ولذاتُه، تأتيه منها أذاتُه، يأخذه القدر على غُفولٍ، وغاية كل سَفر إلى قُفول. وما يدري العاقل، إذا افتكر، أيُّ الشخصين أفضل: أربيب غنى عليه إكليل، أم مُملقٌ ظله في الهلاك ظليل؟ كلاهما بلغ آراباً، وأحدهما يأكل تراباً، والآخر يُسقى شهي الراح، وتحفل حياته بالأفراح.

وما علِمنا النّسك يأتي بالوقاية، ولا في الأسباب الرّافعة الحماية، والناس في دنياهم عاملون، أخطأهم ما هم آملون، ما آمن أن تأتي الآخرة بالأرزاق، فتخضر الشجرة بالأوراق ، على أن السّرَّ غائب، وكلنا في التماس النجاة خائب، والجاهل وفوق الجاهل، من ادّعى المعرفة بالمناهل، واللّعنة على الكاذبين.

الكيسانية

أمّا الذين يدّعون في عليّ، عليه السلام، ما يدعون، فتلك ضلالة قديمة قدم الإنسان، وبحار من الغواية ليس لها شطآن، وقد نُفيَ عبد الله بن سبأ[١] لمّا جاهر بذلك النبأ. واعتقاد الكيسانية في محمد بن الحنفية عجيب، لا يصدق بمثله نجيب،([٢]) وقد روي أنّ أبا جعفر المنصور رفعت له نارٌ في طريق مكّة في اللَّيلة التي مات فيها، فقال: قاتل الله الحُمَـيِّـريَّ، لو رأى هذه النّار لظن أنها نار محمد بن الحنفية.([٣]) وقد بلغني أنّ رجلاً بالبصرة يعرف بشاباس، تزعم جماعة كثيرة أنّه رب العزّة، وتجبى إليه الأموال الجمّة، ويحمل إلى السّلطان منها قسماً وافراً، ليكون بما طلب ظافراً، وهو إذا كشف ساقط لا يستنير ، يبذّه إلى الفضل مؤجِّر الحمير. وحُـدِّثت أنّ امرأة بالكوفة يدعى لها مثل ذلك.

١ ١- عبد الله بن سبأ: رأس الطائفة السبئية، وهو الذي قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنت الإله! فنفاه عليٌّ إلى المدائن، فلما قتل علي كرم الله وجهه زعم عبد الله بن سبأ أنه لم يمت لأن فيه جزءاً إلهياً. وقيل إنه كان يهودياً وأسلم. وهو أول من أظهر القول بالرفض وبإمامة علي، ومنه تشعبت فرق الضلال. واجتمعت عليه جماعة، هم أول فرقة قالت بالتوقف وبالرجعة بعد الغيبة.

٢ أبو القاسم محمد بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، المعروف بابن الحنفية(١٦-٨١هـ)، كان كثير العلم والورع، وكان شديد القوة، وله في ذلك أخبار عجيبة.

وكان المختار بن أبي عبيد الثقفي يدعو الناس إلى إمامة محمد بن الحنفية، وكيسان لقب المختار المذكور، وقيل: كيسان مولى علي رضي الله عنه. والكيسانية يزعمون أنه مقيم برضوى في شعب منه ولم يمت، وإنه يرجع إلى الدنيا فيملؤها عدلاً.

٣ إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة المعروف بالسيد الحميري(١٠٥-١٧٣هـ/٧٢٣-٧٨٩م)، كان شاعراً محسناً كثير القول، له مدائح جمة في أهل البيت عليهم السلام،قال له بشار بن برد: لولا أن الله تعالى شغلك بمديح أهل البيت لافتقرنا. وكان يرى رأي الكيسانية ، وكان كثير الشاعر يرى هذا الرأي، ويقال: إن السيد اجتمع بجعفرالصادق فعرَّفه خطأه وأنه على ضلالة فرجع وأناب.

ابن الراوندي

وقد سمعت من يخبر أنّ لابن الرّاوندي أتباعاً يذكرون أنّ اللاهّوت سكنـه، وأنّه من العلم مكّنـه، ويخترعون له فضائل يشهد الخالق والمخلوق ، أنّ كذبها غير مسبوق، وهو في هذا أحد الكفرة، لا يُحسَبُ من الكرام البَرَرة، فلو مات الفطِنُ كمَداً لما عتب عليه أحَد، فأين مهربُ العاقلِ من شقاءٍ أكبر من أحُد؟! أكلَّما خدع مُخادع، أرسِلت من الكفْرِ مصادع؟ والمصادع: السهام، وما جهرت بسفيهٍ دعواه، إلا وافق جهولاً عواه، أي عطفه.

مدعي النبوة

وقد ظهر في الضيعةِ المعروفة بالنَّيْـرب المقاربة لسَرْمين رجل يعرف بأبي جوف، لا يستترمن الجهل بحوف، والحوف إزار صغيرمن جلد مشقق الأطراف تأتزِرُ به الجارية وهي صغيرة، وكان يدَّعي النُّبُـوَّة، وكان له قطن في بيت فقال: إنّ قطني لا يحترق وأمر ابنه أن يُدني سِراجاً إليه، ففعل وشبت في القطن النار، وصرخت النّساء، واجتمعت الجيرة، وإنما الغرضُ إطفاء. وحدَّثني مَن حضره، أنّه كان يكثر الضّحِك بغير مُوجِب، ولا عند حَدثٍ أو حديث يُعجِب، فقيل له: ممّ تضحك؟ فقال كلاماً معناه: إنّ الإنسانَ ليفرحُ بهيّنٍ قليل، فكيف من وصل إلى العطاء الجليل؟ وكان بَـيِّـنَ الجنون، ليس الخبل فيه بالمكنون، فاتـَّـبَـعَه الأغبياء، وكذّب ما يقوله الأنبياء، حتى قتله والي حلب، حرسها الله، وذلك بعد مقتل البطريق المعروف بالدَّوقس في بلد أفامية، وكان الذي حثّ على قتلِه جيش بن محمد بن حمصامة لأنّ خبرَه وصل إليه، فأرسل إلى سلطان حلب، حرسها الله، يقول: اقتله وإلاّ أنفذت إليه من يقـتـُله، وكان السّلطان يتهاون به لأنّه حقير، ورُبَّ شاةٍ نتج منها الوقير، أي قطيع الغنم.

وبعض الشّيعة يحدّث أنّ سلمان الفارسيّ ومعه نفر جاؤوا يطلبون عليّ بن أبي طالبٍ، سلام الله عليه، فلم يجدوه في منزله، فبينما هم كذلك لمع البارق وتبعه الرعد، وإذاعليٌ قد نزل على سطح البيت، في يده سيف مخضوب بالدّم، فقال: وقع خلاف بين فئتين من الملائكة، فصعدت إلى السماء لأصلح بينهما! والذين يقولون هذه المقالة يعتقدون أن الحسن والحسين ليسا من ولده، فحاق بهم العذاب الأليم. أفلا يَرى إلى هذه الأمّة كيف افْـتـنَّت في الضّلالة، كافتنانِ الرّبيع في إخراج المرعى، والظباء في رزقها تسعى؟ وللكذِبِ سوقٌ ليست للصِدْق، تجعل الأسد والثعلب صِنوَيْن لا فرق.

خوف الشيخوخة

وأمّا الذي ذكره من بلوغ السِّنِّ، فإن الله سبحانه، خلق مقراً ومشهداً، ورغبة في العاجلة وزُهـداً، وإذا اللّبيبُ أنعمَ النّظر، لم ير الحياة تجذبه إلّا إلى الضَّرر، فالمقيم كأخي ارْتحال، لا تثبت الأمور به على حال: إمْساء وصبح يتبسّم ، لا يلبث معهما العمر يتقدم، كأنّهما ذئبان ضاريان، والعمر قطعان يتبع بعضها بعضاً، وهما على الأغنام السّارحة يغيران، فيفنيان القِطعان، ويُعملان فيها الأنياب نهشاً وعضاً.

وإن كان، مكّن اللهُ وطأةَ الأدبِ ببقائِه، قد افتقد الشبيبة فإنما أنفقّها في طلب آدابٍ وعلومٍ، وهو في هذا محمودٌ غيرُ مَـلوم، ولو كان لها على الحَيِّ ثبات، تشبثت بنفسه النفّيسة حتى الممات، ولكنها بعضُ الأعراض، لا تشعر بالحياة ولا الانقراض.

وإذا كنّا على ذمِّ هذه المنزلة مجمعين، ولفراقها مزمعين، فلم نأسف على نأي هذه الدنيا الخوّانة؟ إن الأَشاءَةَ لـَمِن العَـوَانـَة، والأشاءَةُ النخّلةُ الصغيرة، والعَـوَانة النخّلة الطّويلة، ومتى أخلص الإنسان وهو قرينُ الغـَفْـلةِ التوبة، وإن أذنب نـَوبَة بعد نوبة، فإنها تغسل ذنوبه غـَسْـلَ النّساء صوفَ الأغنام، في نهر يجري مدى الأيام ، غيَّر لونـَه الوسخُ الكثير ، فوجب غسْـلـُه للتطهير ، وكان قد أخذ عن بـِيضِ أغنامٍ ، تفوق ما يرتع حولها من الأنعام ، فعاد وكأنه كافور الطـِّيب، أو ما ضحك من كافورٍ رطيب، والكافور: زهر النخلة، وقيل هو وِعاءُ الطَّلعة.

فأمّا الغانيات بعد السَّبعين، فالأشيبُ لديهن يُعانُ ولا يُعين، وقد حُكِي أنّ أبا عمرو بن العلاء كان يخضب لِحيَـتـَه، فاشتكى وجعاً في بعض الأيام، فعاده بعض أصحابه، قال: تقومُ إن شاءَ اللهُ تعالى من عـلـَّتـك. فقال: ما آمُلُ بعد ستٍ وثمانين. وعاد إليه وقد تماثل للشفاء، فقال أبو عمرو: لا تحدِّثْ بما قُـلتُ لك. وهذا من ظريف مارُوي، رَغِـبَ في تمويهٍ بالخِضاب، وكتمَ سِـنـَّهُ عنْ كلِّ الأصحاب.

وقد تحدّث بعضُ طلّاب الأدب انّه، أدامَ الـلـهُ تزيينَ المحافلِ بحضورِه، ذكر التزويج يريد من تخدمُه، فسرني ذلك، لأنّه دلَّ على نيَّـتِه الإقامة َبالوطن، وفي قُربِه الفرحةُ لذوي الفِطن. إذ كان كالشّجَرة الوارفِ ظلالـُها كالطيف، والبارد هواؤها في حرِّ الصيف، والطّيِّب ثمرها لمن طـَعِمها،

والعَطِر هواؤها لمن تنسَّمها.

وهو يعرف حكاية الخليل عن العرب: إذا بلغ الرجلُ الستين فإياه وإيّا الخِـدَع، ولا يكون كمن أنفـه جـدَع، والنَّـصَفُ[1]، مِمَّن يُوصَف «لا فارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْن ذلـكَ فافْـعَـلوا ما تُـؤْمَرُون» [2]:

لا تـنكِحَـنَّ عَجوزاً إن دَعَـوْكَ لها   واخْلعْ ثيابَـك عـنها مُمْعِـناً هَـرَبا

وإنْ أتـَـوْكَ فـقـالـوا: إنـَّـهـا نَـصَفٌ   فإنَّ أطْيَبَ نِصْفَـيها الذي ذهَـبـا[3]

ولعله تقدَّر له كصاحبة أبي الأسود أمّ عمروٍ، ورب خيرٍ تحت الخمر:

كـثَـوبِ الـيَـماني قـد تـقـادَمَ عَـهـدُهُ   ورُقعَـتُه ما شِئتَ في العَينِ والـيَـدِ[4]

وحكي عن أبي حاتمٍ سهل بن محمد أنّه قرأ على الأصمعي شعرَ حسّان بن ثابت، فلمّا انتهى إلى قوله:

لم تَـفُـقْـها شَمسُ الـنـهـارِ بِـشَـيءٍ   غـيـرَ أنَّ الـشَـبـابَ لـيـسَ يَـدومُ

قال الأصمعي: وصفها والله بالكِبَـر، وقد يجوزُ ما قال، والأشبَهُ أن يكون قال هذا وهي شابَّة، على سبيل التأسُّف، أي إنَّ الأشياء لا بقاءَ لها، كما قال الآخر:[5]

أنتَ نِعْمَ المَتاعُ لو كـنتَ تـبقى   غـيْـرَ أنْ لا بَـقـاءَ للإنْـســانِ

ولو نشط لهذا الأرَب، لتنافست فيه العجائزُ والمُكْتهِلات، وراجَتْ خِطبة الحمقاوات المُنْهَبلات، لأن العاقلةِ ذاتَ الرشاد ، تحبُّ معاشرة من أتقن فيما بنى وأشاد. وهل هو إلّا كما قال الأوَل:

---

١ النَّصَفُ: المَرْأةُ بين الحَدَثةِ والمُسِنَّة، كأنَّ نِصْفَ عُمْرِها قد ذهَب.

٢ الآية ٦٨ من سورة البقرة

٣ البيتان للحسن بن علي الحرمازي، مولى بني هاشم، نزل بالبصرة في بني الحرماز فنسب إليهم. وكان ممن يأخذون عن أبي عبيدة وأبي زيد الأنصاري والأصمعي، روى أخباراً كثيرة وله بعض الأشعار.

٤ هذا البيت أحد بيتين لأبي الأسود الدؤلي، وقد وردا:

أَبى القلبُ إلّا أُمَّ عَوْفٍ وَحُبَّـهـا   عَجوزاً وَمَن يُحْبِبْ عَجوزاً يُفَنَّـدِ

كسَحْقِ اليَماني قد تقـادَمَ عَهدُهُ   وَجِدَّتُهُ ما شِئتَ في العَيـنِ واليَـدِ

٥ موسى الشهوات وهو موسى بن يسار مولى بني تيم قريش. وسمي شهوات لتشهيه على عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الأطايب فيشتريها له ، وكان من شعراء المدينة وظرفائهم. والبيت المذكور أحد بيتين:

أنتَ نِعْمَ المَتاعُ لو كنتَ تبقى   غيْرَ أنْ لا بَـقـاءَ للإنْسـانِ

ليسَ فيما بَدا لنا منْكَ عَيبٌ   كان في النّاس غيْرَ أنّك فانِ

وروي البيتان للشاعر هارون بن علي المنجم (٢٥١ – ٢٨٨ هـ / ٨٦٥ – ٩٠١ م) وهوعالم بالأدب وله كتب منها (كتاب النساء) ، و(المختار) فى الأغاني، و(اختيار الشعراء). وأشهر تآليفه (البارع) فى أخبار الشعراء المولدين، جمع فيه ١٦١ شاعراً، قال ابن خلكان: وهو من الكتب النفيسة، فإنه يغني عن دواوين الجماعة وقد مخض أشعارهم وأثبت منها زبدتها. توفي ببغداد شاباً:

أنتَ نِعْمَ المَتاعُ لو كنتَ تبقى   غيْرَ أنْ لا بَـقـاءَ للإنْسـانِ

ليسَ لك فيما عَلِمتُهُ عَيْبٌ   عابَـهُ النّاسُ غيـرَ أنّك فانِ

يا عَزُّ هـل لكِ في شيخٍ فتى أبَـداً ... وقـد يكـونُ شـبابٌ غـيـرُ فِـتْيـانِ

فليس بأوَّلَ مَنْ طالت به المدة، فتزوج على السنِّ عجوزاً جدَّة، كما قال:

إذا ما أعْــرض الفِـتيانُ عنّي ... فـمَنْ لي أن تُساعِـفَني عَـجُـوزُ

كأنَّ مَجامِعَ الـلَّحْيَـيْـنِ مِنها ... إذا حَـسَرَتْ عَـنِ العِـرْنِيـنِ كـوزُ

ويروى للحارثِ بن حِـلـِّـزَة، ولم أجده في ديوانه:[1]

وقالوا مَن نكَحْتَ؟ فـقـلـتُ خيراً ... عَـجـوزاً من عُـرَيـنـة َذاتَ مالِ

نـكَـحْـتُ كـبـيـرةً وغـرِمْـتُ مالاً ... كـذاك البَـيعُ: مُـرْتَخَصٌ وغـالِ

وأعوذ بالله ممّا قال الآخر:

عجوزاً لوَ انَّ الماءَ يُسقى بكفِّها ... لـما تـركَـتْـنا بـالـمِـيــاهِ نـجـوزُ

وما زالت العرب تحمَدُ الحَيْزَبُونَ والشَّهْـلة[2]، ولا تكرهُ مع الشباب الكهلة. وقد تزوج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة بنتَ خويلدٍ وهو شاب، وهي طاعنة في السّنّ. وقالت له أم سلمة ابنة أبي أميَّة: يا رسول الله، إني امرأة قد كَـبِـرتُ وما أطِيقُ الغـيْـرة. فقال: أمّا قولُـك: قد كَـبِـرت، فإنا أكبرُمنك، وأمّا الغـيـرَة، فإنّني سوف أدعو الـلـه أن يزيلها عنك. وقال الشاعر:[3]

فما أنا ابنُ رُهْـمٍ قـد عَـلِـمْتُم ... ولا ابْـنُ العامِليَّـةِ فاحْذروني

ولكني وُلِـدْتُ بِـنَـجْـمِ شَـكسٍ ... لشَـمْطاءِ الذّوائِـبِ حَـيْـزَبُونِ

ولا أشك أنّه قد استخدم في مصر أصنافاً من الجَواري، وليس عيباً لكي تواري، ولولا أنّ أخا الكبرة يفتقر إلى معينٍ كي تُسعِدَه، لكان الحزم أن يتجنب جنس النساء ويبعدَه، فهو يعرف قول القائل:

---

١ صدق المعري في قوله، فالبيتان للحارث بن زهير، وهو من بني كلب بن وَبْرَة َبن تغلب من بني قضاعة. وأشهر شعره أبيات في عجوز تزوجها تدعى هند بنت مسلم بن شكل وهي من بني عرنية بن ثور، وورد البيتان لختلاف طفيف:

وقالوا مَن نكَحْتَ؟ فقلتُ خيراً ... عَـجوزاً من عُـرَينـة َذاتَ مالِ

نـكَحْتُ عُـجَـيِّزا ًونقدتُ ألفاً ... كذاك البَيعُ: مُرْتخَصٌ وغالِ

٢ قال الثعالبي (٣٥٠ – ٤٢٩هـ/٩٦١– ١٠٣٨م) في فصل» ترتيب سن المرأة» في كتاب «فقه اللغة»: الشهلة: الكهلة إذا وجدت مسَّ الكِبَر وفيها بقية وجَلَد، ثم هي شَهْبَرَة ثم حيزبون.

٣ البيتان من أربعة أبيات للشاعر الجاهلي مجهول الولادة والوفاة خُثَيم بنِ عَدِي من بني كلب، وفيهم اختلاف:

فما أمي برُهْمٍ قد عَلِمْتُم ... ولا بالعامِليَّـةِ فاحْذروني

ولكني وُلِدْتُ بِنَجْمِ شَكسٍ ... لبيضاء الذّوائِبِ حَيْزَبُونِ

ما العيشُ إلا القُـفْـلُ والمِفتاحُ وغُـرفة ٌ تخـرَقـِّـها الـرّيـاحُ
لا صخَــبٌ فيها ولا صِـــياحُ

وحدَّثني ابْنُ القِنـّسْريّ المُقرئ، أنّه سمعه يسأل عن غُلامٍ للخدمة، وربما كان استخدام الأحرار، يمنعُ من القرار، فقد قال أبو عبادة:[1]

أَنا مِنْ ياسِرٍ وَيُسْرٍ وَسَعْدٍ لَسْتُ مِن عامِرٍ وَلا عَمّارِ
ما بِــأرضِ العِـراقِ يا قـومِ حُرٌّ يَـفْـتَـديني مِن خِدْمَـةِ الأَحرارِ

وأن يخدُم نفسَه الوحيد، خيرٌ من أن يدخُلَ بيته العبيد، فطالما أحوجوا المالك إلى العقاب، وأن ينسى الأدب ويُقبِّح السباب.

وربَّ نازلٍ من أهلِ الأدبِ في خان، ليس بالخائنِ ولا المُستخان، يخدمه صبي أعْـتِـقَ من الرّقّ حرّ، وفي خدمته يسرق ويضرّ. وإذا أرسله بالبتك، بنات الدِّرْهم ليأتيه ببطيخة حين يكثرالبطيخ، سرق في السّبيل المال، وزاد في الخيانة واستطال، ثمّ وقفَ بالبائع، فغبَنه غُبنَ الضّائِع، فأخذ منها الصغيرة، ثم انصرف بها لاعباً، كأنما هُدِي كاعباً، فلم يزل يتلقف بها في الطريق، حتى كسرها بين فريق. ويجوز أن يحملها في حال السّلامة، ويمضي ليسبح مع الفتيان، فإذا نزل في الماء اختطفها بعض الصبيان.

وكان في بلدنا غلامٌ لبعض الجند يزعم، ويصدق فيما يزعم، أنَّه كان مملوكاً لأبي أسامة جنادة بن محمّد الهرويّ بمصر، وكان يأسف لفراقه، ويعجب من جميل أخلاقه. وإنّما ذكرت ذلك لأنّه، عرَّف الله الوقتَ بحياتِه أي طيَّبَه، ممّن قد عرف جُنادة وجَرّبَه.[2]

وأمّا أهل بلدي، حرسهم الله، فإذا كان الحظ قد أعطاني حُسْن ظنِّ الغرباء، فلا يمتنع أن يعطيني تلك المنزلة من الرّهط القرباء. ولكنّهم كطـُلّاب الخُطبة من أبكم، وضوء الشمس في ليل معتم. وسيّدي الشّيخ أبو العبّاس الممتـَّع: في السّنّ ولدٌ، وفي المودّة أخٌ، وفي فضله جدٌ ّ أو أبٌ. وإنّه في أدبه، لكما قال تعالى: «وما لأحدٍ عنده من نعمةٍ تُجزى».[3]

وأمّا إشفاق الشّيخ – ملأ الـلـه حياته بالفرح، وأراح سمعه من كلِّ ما جرح - فتلك أخلاق الأنيس

١ هو البحتري وسبقت ترجمته
٢ جنادة بن محمد الأزدي الهرويّ اللغوي. كان علاّمة لغوياً أديباً، قتله الحاكم صبراً سنة تسع وتسعين وثلاثمئة.
٣ الآية ١٩ سورة الليل

المُحِب، لا يختص بها أخو الجبن عن الشّجاع الصلب. ومن القسوط، تعرُّض بالقنوط. «قُـلْ يا عبادي الذين أسْرَفوا على أنفسِهم لا تقْـنَـطوا من رحمةِ الله»[1]. كم من أديبٍ شرب وطرب ثمّ تاب، وأجابَ الرزاق الوهّاب. فقد يضلُّ الدّليل في ضوء القمر، ثمّ يهديه الله فينصاع لما أمر، وكم اسْتُـنْـقِـذ من لـُجَّة البحر غريقٌ، فسلم واستبان له الطريق.

وقد كان الفُضَيل بن عياضٍ[2]، يتمرغ في أقذر الرياض، ثمّ حُسِبَ في الزُهَّاد، وصار من أهل الاجتهاد. وربّ خليعٍ وهو فتى، تصدَّر لمّا كبر وأفتى، ومغنٍّ بطـُنبور أو عود، قُـدِّر له أن يتوب فيجود ، فرَقِيَ مِنبراً وصار واعظاً، ولكتاب الـلـه حافظاً.

---

١ الآية ٥٣ سورة الزمر

٢ أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي الزاهد المشهور(١٠٧- ١٨٧هـ) أحد رجال الطريقة، كان في أول أمره شاطرا يقطع الطريق، وكان من كبار السادات، قال له الرشيد يوماً: ما أزهدك! فقال الفضيل: أنت أزهد مني، لأني أزهد في الدنيا، وأنت تزهد في الآخرة، والدنيا فانية والآخرة باقية، ومناقبه كثيرة.

عمر بن عبد العزيز

ولعلّه قد نظر في طبقات المغِّنين فرأى فيهم عمر بن عبد العزيز، ومالك بن أنسٍ، هكذا ذكر ابن خرداذُبَّة، فإن يك كاذباً فعليه كذبُه.[١]

وثمة حكاية معروفة أن أبا حنيفة َكان يُشارِبُ حمَّاد عجرد وينادمُه[٢]، فنسك أبو حماد بن عمر بن يونس الكوفي المعروف بعجرد الشاعر المشهور، هو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، ولم يشتهر إلا في العباسية، ونادم الوليد بن يزيد الأموي، وهو من الشعراء المجيدين، وبينه وبين بشار بن برد أهاج فاحشة، توفي سنة ١٦١هـ.

وأقام حمّادٌ في الغواية، فبلغه أن أبا حنيفة يذمُّه ويعيبه، فكتب إليه حمّاد:

إنْ كـانَ نُـسْـكُـكَ لا يَـتِـمُّ ... بغيرِ شَـتْمي وانْـتِـقـاصي
فاقْعُـدْ وقُـمْ بي كيْف شِـئـ ... ـتَ مَـع الأداني والأقـاصي
فـلطـالـمـا زَكـَّيْـتَـنـي ... وأنـا المُـقـيـمُ عـلى المَعـاصـي
أيّـامَ تُـعْـطـيـنـي وتـأ ... خُـذ ُ في أبـاريـقِ الـرَّصـاصِ

١ أبو القاسم عبيد الله بن أحمد بن خرداذُبَّه (٢٠٥–٢٨٠هـ/٨٢٠–٨٩٣م). كان خرداذبه مجوسياً أسلم على يدي البرامكة. وتولى أبو القاسم هذا البريد والخبر بنواحي الجبل، ونادم المعتمد، وخص به. ومن تصانيفه: كتاب المسالك والممالك، كتاب أدب السماع،كتاب اللهو والملاهي، كتاب الندامى والجلساء؛ كتاب الشراب.

٢ الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت(٨٠–١٥٠هـ) كان عاملاً زاهداً عابداً ورعاً تقياً كثير الخشوع دائم التضرع حسن الوجه حسن المجلس، شديد الكرم حسن المواساة لإخوانه، أحسن الناس منطقاً وأحلامهم نغمة. وذُكِر أن أبا حنيفة رأى في المنام كأنه ينبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، فبعث من سأل ابن سيرين، فقال ابن سيرين: صاحب هذه الرؤيا يثور علماً، لم يسبقه أحد قبله.

عمر بن الخطاب

أليس الصّحابة، عليهم رضوان الله، كانوا كلُّهم على ضلال، ثمَّ تداركهم المقتدر ذو الجلال؟ وفي بعض الرّوايات أن عمر بن الخطّاب خرج من بيته يريد داراً كانوا يجتمعون فيها للقمار، فلم يجد أحداً فقال: لأذهبنَّ إلى الخمَّار، لعلـِّي أجد عنده خمراً، فلم يجدعنده شيئاً. فقال: لأذهبنّ ولأسلمنَّ[١]

والتوفيق يجيء من الله سبحانه وتعالى بإجبار، وفيما خوطب به النبيُّ صلى الله عليه وسلم: "ووَجَـدَكَ ضالاّ فهَدى".[٢]

وذكر أبو معشر المدني[٣] في كتابه "المبعث" حديثاً معناه أنّ النبيَّ صلـّى الله عليه وسلـّم، ذبح ذبيحةً للأصنام، فأخذ شيئاً منها فطـُبخ له، وحمله زيد بن حارثة[٤] ومضيا ليأكلاه في بعض الشِّعاب، فلقيهما زيد بن عمرو بن نفيل[٥]، وكان من المُتألـِّهين في الجاهليّة، فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم، ليأكل من الطعام، فسأله عنه فقال: هو من شيءٍ ذبحناه لآلهتنا. فقال زيد بن عمرو: انّي لا آكل شيءٍ ذُبح للأصنام، وإنِّي على دين إبراهيم صلى الله عليه، فأمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة بإلقاء ما معه.[٦]

وفي حديث آخر، وقد سمعته بإسناد: أن تميم بن أوسٍ الدَّاريّ، والدّار قبيلةٌ من لخم، كان يُهدي إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم، في كلِّ سنةٍ زِقـّاً من خمر، فجاء به في بعض السّنين، وقد حُرِّمَت الخمر، فأراقها.[٧]

---

١ هذه الحكاية لم ترد عند أحد آخر، وهي ليست مما يقبله العقل.

٢ الآية ٧ سورة الضحى.

٣ أبو معشر جعفر بن محمد البلخي(١٧٠-٢٧٢هـ/٧٨٨-٨٨٦م)، كان إمام وقته في فنه، وله التصانيف المفيدة في علم التنجيم، وكانت له إصابات عجيبة.

٤ أبو أسامة زيد بن حارثة الكلبي مولى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وحِبُّه، وأوّلُ من أسلم بعد خديجة ، وشهد بدراً وما بعدها واستخلفه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على المدينة في غزوة المريسيع، وظل يدعى زيد بن محمد حتى نزل تحريم التبني، زوجه النبي ابنة عمته زينب، ثم طلقها لعدم اتفاقهما، وتزوجها رسول الأتله صلى اللـه عليه وسلم. كان مقدّم الأمراء في جيش مؤتة، وبها استشهد عام ٨هـ/٦٢٩م.

٥ هو زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى. لم يدخل يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموءودة، وقال أعبد رب إبراهيم وبادى قومه بعيب ما هم عليه. قال عنه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «يأتي يوم القيامة أمة وحده».

٦ حكاية أخرى يخالف فيها المعري جميع المؤرخين، فمن المعروف أن اللـه سبحانه وتعالى حفظ نبيه الكريم من عادات الجاهلية، فكيف يمتنع زيد بن عمرو عن أكل ذبائح الأوثان، ويرضاها رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم؟

٧ هل يعقل هذا يا أبا العلاء؟ إن رسول اللـه لم يشرب خمراً قطّ، فكيف يأتيه بزِقٍّ من الخمر بعد تحريمها وقد حُرِّمَت في السنة الثالثة للهجرة؟

والمطبوخ وإنْ أسكـرَ فهو جارٍ مجرى الخمر، على أنَّ كثيراً من الفقهاء قد شربوا الخمر، وذكِرَ أحمد بن حنبل عند أحمد بن يحيى ثعلب، وإن كان شرب النّبيذ قطّ؟ والنّبيذ عند الفقهاء غير الخمر، فقال ثعلب: أنا سقيته بيدي في حانةٍ كانت لخلف بنِ هشام البزَّاز.

فأمّا الطِّلاء فقد كان عمر بن الخطّاب، رضي اللـه عنه، جزَّأ منه على نصارى الشّام لجنود المسلمين، والمثل السّائر:

هِـيَ الـخـمـرُ تُكْنى الـطـِّـلاءَ ... كما الذِّئْـبُ يُكْنى أبا جَـعْـدَة

وهذا البيت يُروى ناقصاً كما علم، وهو ينسب إلى عبيد بن الأبرص وربّما وجد في نُسخةٍ من ديوانه، وليس في كلِّ النُّسخ. والذي أذهب إليه أن هذا البيت قيل في الإسلام بعد ما حُرِّمت الخمر.

وإنّما لذَّة الشّاربين فيما يعرِضُ لهم من السُّـكر، ولولا ذلك لكان غيرُها من الأشربة أعذبَ وأدفأ، وقال الأخطل التغلبيُّ:

عَـلـِّلاني بشَـرْبَـةٍ من طِـلاءٍ ... نِعْمَتِ النـِّيمُ في شَبا الزّمْهَـريرِ

ويروى لدعبل:

عَـلـِّلاني بِـسَــمـاعٍ وطِـلا ... وبضَـيْـفٍ جائعٍ يَـبْـغي الـقِـرى

وهذا يدلُّ على أن الطـّلا يسكر، ويروي للهُذليّ:

إذا مـا شئتُ باكَـرني غـريضٌ ... وزقٌّ فـيــه نـيٌّ أو نَـضـيــجُ

وإن كان، هيَّأ الله له حُبَّ الأحباب، قد شرب نيًّا، وقال له الندمان: هنيّاً، فله أسوةٌ بشيخ الأزد ابن دريد محمد بن الحسن إذ قال:

بل رُبَّ ليلٍ جَمعتْ قُطْريه لي ... بنـتُ ثمانـيـن عـروساً تُجْـتَـلى

ثمّ قال في آخر القصيدة:

فـإن أمُـتْ فـقـدْ تـنـاهَـتْ لـذتي ... وكلُّ شـيءٍ بـلـغَ الحَـدّ انْـتَـهى

وما أختار له أن يأخذ بقول أبي نواس:[1]

١ أبو نُواس(١٤٦ - ١٩٨ هـ / ٧٦٣ - ٨١٣ م) الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن صباح الحكمي بالولاء. شاعر العراق في عصره. ولد في الأهواز ونشأ بالبصرة، ورحل إلى بغداد فاتصل فيها بالخلفاء من بني العباس، ومدح بعضهم، وخرج إلى دمشق، ومنها إلى مصر، فمدح أميرها ، وعاد إلى بغداد فأقام بها إلى أن توفي فيها. هو أول من نهج للشعر طريقته الحضرية وأخرجه من اللهجة البدوية، وقد نظم في جميع أنواع الشعر، وأجود شعره خمرياته.

قالوا كَبُرْتَ فقلتُ ما كَبُرَتْ يدي ... عَنْ أنْ تـسـيرَ إلى فمي بالكاسِ

وهو يعرف البيت:

وَمـا طبَخوها غيرَ أَنَّ غُـلامَهُـم ... سعى في نواحي كَـرْمِها بِـسِراج

وقول عبد الله بن المعتزِّ:[1]

ذكـرَ العِـلْـجُ أنَّهـم طبخـوهـا ... فـرضـيـنـا ولـو بـعُـودِ خِـلالِ

وقديماً طلب النَّدامى مطبوخاً، شبَّاناً في العمر وشيوخاً، ينافقون بالصِّفة ويوارون، وعن الصّهباء المعتقة يدارون، وأبيات الحسين بن الضّحاك الخليع التي تنسب إلى أبي نواسٍ معروفةٌ[2]:

وشـاطـريِّ اللسان مختـلق التّـ ... ـكريه، شـابَ المُـجـونَ بالنُّسُكِ

دسَـسْتُ حمراء كالشِّهاب له ... مِـن كـفِّ خـمّـــارِ حـانـةٍ أفِـكِ

يحْلِـف عن طبخِها بخـالـقِـهِ ... وربِّ مـوسى ومُنـشِئِ الفـلـك

ومن النِّفاق أن يُظهـِرَ الإنسان شُربً ما أجاز شربه بعض الفقهاء، ويعمد إلى الصفراء والحمراء، فقد أحسن الحكميُّ في قوله:

فإذا نـزَعْـتَ عَنِ الغِواية فليكُـنْ ... لـلّــهِ ذاك الـنَّــزْعُ لا الـنّـاس

وقد آن لمولاي الشّيخ أن يزهد في شيمة حميد، وينصرف عن مذهب أبي زبيد، وإنَّماعنيت حُمَيداً الأمَجيَّ القائل:[3]

حُـمَـيْـــدُ الـذي أمَـــجٌ دارُه ... أخو الخمر ذو الشَّيبَةِ الأصلعُ

أتـــاهُ المَـشيبُ عـلى شـُربِها ... وكـان كـريـمـاً فـمـا يَـنْـزِعُ

١ ابن المُعتز(٢٤٧ – ٢٩٦ هـ / ٨٦١ – ٩٠٨ م) عبد اللّه بن محمد المعتز باللّه بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد العباسي. الشاعر المبدع، خليفة يوم وليلة. آلت الخلافة في أيامه إلى المقتدر العباسي، واستصغره القواد فخلعوه، وأقبلو على ابن المعتز، فلقبوه (المرتضى باللّه)، وبايعوه للخلافة، فأقام يوماً وليلة، ووثب عليه غلمان المقتدر فخلعوه، وعاد المقتدر، فقبض عليه وسلمه إلى خادم له اسمه مؤنس، فخنقه.

٢ الحسين بن الضَحّاك الباهلي البصري(١٥٠ – ٢٥٠ هـ / ٧٦٧ – ٨٦٤ م) شاعر عباسي مولى لباهلة، وهو بصري المولد والمنشأ ، وهو من ندماء الخلفاء. شاعر أديب ظريف، مطبوع حسن التصرف في الشعر حلو المذهب. وكان أبو نواس يأخذ معانيه في الخمر فيغير عليها.

٣ ليس لهذا الشاعر أي ذكر في كتب التراث، ولم يذكر أحد نسبه أو أبياتاً أخرى غير هذه الأبيات الثلاثة التي أوردنا اثنين منها، وله حكاية طريفة مع أولاد أخيه وعمر بن عبد العزيز تتكرر في مراجع كثيرة.

وقال آخر:

تُعاتِبني في الرَّاحِ أمٌّ كبيرةٌ	وما قولُها، فيما أراه، مُصيبُ
تقول ألا تجْفو المُدامَ فعندَنا	من الرِّزْقِ تمْرٌ مُكْثَبٌ وزبيبُ؟
فقلتُ رُوَيداً ما الزّبيب مُفرِّحي	وليسَ لتَمْرٍ في العِظامِ دَبيبُ
فإنَّ حُمَيْداً علَّها في شبابِه	ولمْ يصحُ منها حينَ لاحَ مَشيبُ

وإذا تسامع الناس بتوبته، اجتمع عليه الشّبان لم يكتملوا، والأدباء الذين اكتهلوا، وكلُّ أشيبَ لم يبق من عمره إلاّ ظمأ حمار، كما اجتمع للسمر أصنافُ السُّمّار، فيقتبسون من آدابه، ويرهفون السمعَ لخطابه، وجلس لهم في بعض المساجد بحلب، حرسها الله، فإنَّها من بعد أبي عبد الله بن خالويه عطلت من خُلخال وسِوار، وأقفرت من الأدب أيَّما إقفار. وإذا حدث ذلك بتفضُّلِ الله، أعدَّ معه خِنجراً كخنجر ابن الرّوميّ، أو الذي عناه ابن هرمة في قوله:[1]

لا أمْتِعُ العَوذَ بالفِصالِ وَلا	أبْتاعُ إلّا قريبَةَ الأَجَلِ
لا غَنمي في الحَياةِ مُدَّ لها	إلّا دِراكَ القِرى وَلا إبِلي
كم ناقَةٍ قد وَجَأتُ مَنحَرَها	بِمُستَهَلِّ الشُؤْبوبِ أَو جَمَلِ

فإذ جلس في مجلسه الذي يلتقط أهله منه الأزهار، بل لآلئ البحار، فيكون ذلك الخنجر قريباً منه، فإذا صادف أن يمُرَّ بباب المسجدِ الكهلُ المُرَقَّبُ الذي أراده القائل بقوله:

إذا الكهلُ المُرقَّبُ غاضَ ألْناً	إلى سِيٍّ له في القَرْوِ ثانِ
كأنَّ الذّارع المَغْلولَ مِنها	سَليبٌ مِن رجالِ الدَّيْبلانِ

والسيُّ المثيل والشبيه، القرو: شئ يجعل فيه زق الخمر، والذارع: زق الخمر. والديبلان: جبل معروف. وثب إليه وثبة نمرٍ، إلى غزالة منفردة تمرّ، أو أمر بعض أصحابه بالوثوب إليه، فطعنه بذلك الخنجر طعنة فانبعث الدم، كالخالص من صباغ العندم، وقرأ هذه الآية: " إنَّ الحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلكَ ذِكرى للذاكرين"[2].

---

١ ابراهيم بن هرمة(٨٠ - ١٧٦ هـ / ٦٩٩ - ٧٩٢ م) شاعر من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، أنشد الشعر بين يدي الرشيد. اتفق المؤرخون على أن الشعر ختم بابن هرمة وبخمسة من معاصريه، إلا أن الأصمعي قدمه عليهم، وقد تنقل بين المدينة ودمشق وبغداد يمدح الخلفاء.

٢ الآية ١١٤ من سورة هود.

فإذا مضى صاحبه إلى السّلطان شاكياً فقال: من فعل ذلك بك؟ فسمّاه له، قال السّلطان بمشيئة الله: لا حُرَّ بوادي عوفٍ،[1] ما أصنع بأصل الأدب وبقيّةِ أهلِه؟. ما يفعل ذلك مرّةً أو اثنتين، إلاّ وحملة الذّوارع قد اجتنبت تلك النّاحية، كما اجتنب أبو سفيان بن حربٍ طريقه خوفاً من النبي صلى الله عليه وسلم، فقال حسّان:

إذا هَبَطتْ حَورانَ مِن رَملِ عالِجٍ   فَقولا لها ليسَ الطَّريقُ هُنالِكِ

ولا بأس إن كان قد أعدَّ خنجراً يخفيه في كمه، فإذا ضرب به زقَّ الخمر، ذكر من نظر في المبتدأ حديث طالوت لمّا أمر ابنته وهي امرأة داود، صلّى الله عليه، أن تدخله عليه وهو نائمٌ ليقتله. فجعلت له في فراش داود زقَّ خمرٍ ودسَّتْه عليه، وضربه بالسيف، وسالت الخمر، فظنَّ أنَّها الدّم، فأدركه الأسف والنّدم، فأومأ بالسيف ليقتل نفسه ومعه ابنته، فأمسكت يدَه، وحدَّثته بما فعلته، فشكرها على ذلك.

ويكون السّكران إذا ألمَّ بذلك المسجد، تُرْتر ومُزْمِز، كما في الحديث[2]، واسْتُنْكِه، فإن أوجبت الصورة أن يُجلَد جُلِد، ولا يَقتصر له الشّيخ، أغراه الله أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، على أربعين جلدة في الحدِّ على مذهب أهل الحجاز، ولكن يَجلِدُه ثمانين على مذهب أهل العراق، فإنَّها أوجَعُ وأفجع. ويقال إن النبيّ صلى الله عليه وسلم، جَلَدَ أربعين، فلمّا صار الأمر إلى عمر بن الخطَّاب، رضي الله عنه، اسْتقلَّها، فشاوَر علياً، عليه السّلام، فجعلاها ثمانين.

وإذا صحّت الأخبار المنقولة بأنّ أهل الآخرة يعلمون أخبار أهل العاجلة، فلعلّ الحُورَالمُعدَّات له في الخلد، يسْألْن عن أخباره مَن يَرِدُ عليهنّ من الصُّلحاء، فيسمعن مرّةً أنّه بالفسطاط، وتارةً أنّه بالبصرة، ومرّةً أنّه ببغداد، وخَطْرةً أنّه بحلب. فإذا شاع أمر التّوبة، ومات ناسكٌ من أهل حلب، أخبرهن بذلك، فسُررن وابتهجن، وهنّأهُنَّ جاراتُهنَّ. ولاريب أنّه قد سمع حكاية البيتين الثابتين في كتاب الاعتبار:

أنْعَم الله بالخَيالَيْن عَيْناً   وبمَسْراك يا سعادُ إلينا

عجَباً ما جَزِعْتِ مِن وحْشَة اللَّحْـ   ـدِ ومن ظُلْمةِ القُبورِ علينا

---

١ مثل معروف وذُكرت في سببه حكايات مختلفة، ومعناه: لا سيِّد يناوئه.

٢ حديث ابن مسعود في الرجل الذي ظُنَّ أنَّهُ شرَب الخمر فقال: ترْتِرُوه ومَزْمِزُوه، أَي حَرِّكوه ليُسْتَنْكَه هل يُوجَدُ منه ريح الخمر أَم لا.

وأعوذ بالله من قوم يحثُّهم المشيبُ على أن يستكثِروا من الصهباء، كأنّها المنجية من داهية تتلون كالحرباء، كما قال حاتم:

أماوِيَّ إنَّ المـالَ غـادٍ ورائِـحٌ ... ويَبْقى مِن المالِ الأحادِيثُ والذِكْرُ
وقدْ عَلِمَ الأَقْوامُ لو أنَّ حاتِماً ... أرادَ ثَراءَ المالِ كانَ لَهُ وَفْرُ
يُفَكُّ به العاني ويُؤْكَلُ طَيِّبا ... ولا أَنْ تُعَرِّيهِ القِداحُ ولا اليَسْرُ
أَماوِيَّ إنْ يُصْبِحْ صَدايَ بقَفْرَةٍ ... مِن الأرْضِ لا ماءٌ لَدَيَّ ولا خَمْرُ
تَرَيْ أنَّ ما أنْفَقْتُ لمْ يَكُ ضَرَّني ... وأنَّ يَدِي مِمّا بَخِلْتُ به صِفْرُ

وقال طرفة:[1]

فإنْ كنتَ لا تسْطيعُ دفْعَ مَنيَّتي ... فدَعْني أبادِرْها بما مَلَكَتْ يَدي

وقال عبد الله بن المعتز:

لا تُطِلْ بالكؤوسِ مَطْلي وحَبْسي ... ليسَ يَومي، يا صاحِبي، مثلَ أمْسي
لاتسَلْني وسَلْ مَشِيبيَ عَنّي ... مُذْ عَرَفْتُ الخمسين أنْكَرْتُ نَفْسي

فهذا حَثَّتْه كثرةُ سِنيِّهِ على أن يستكثرَ من السُّلافة، وما حَفِظ حقَّ الخِلافة، وإنّ العجبَ طمعه أن يتولّاها، كأنّه في العبادة نفسَه أبلاها، ولكن كما قال القائل لمعاوية بن يزيد:

تلَقّاها يَزيدٌ عَن أبيهِ ... فخُذْها يا مُعاوي عن يَزيدا

وقد كان محمّد بن يزيد المُبرَّد ينادم البحتريَّ ثمّ ترك. وأنا أضِنُّ به، ميزّ الله من الغيظ قلب عدوِّه، أن يكون كأبي عثمان المازني: عُوتِب في الشّراب فقال: إذا صار أكبر ذنوبي تركته.

اتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه، ثم أرسله بكتاب إلى المكعبر عامله على البحرين وعُمان يأمره فيه بقتله، لأبيات بلغ الملك أن طرفة هجاه بها، فقتله المكعبر شاباً.

وأمّا إبراهيم بن المهديّ فقد أساءَ في تعريضه بالكأس لمحمّد بن حازم، ولكن من عبث بالعود والقيان، لم يكن في الدّيانة قوي الإيمان. وقد رُوي أنّ المعتصم دعا إبراهيم كعادته فغنّاه بيتين وبكى ، فقال له المتعصم: ما يبكيك؟ فقال: كنت عاهدت الله إذا بلغت ستين سنةً أن أتوب، وقد بلغتها. فأعفاه المعتصم من الغناء وحضور مجالس الشراب.

١ طرفة بن العبد بن سفيان البكري الوائلي(٨٦ – ٦٠ ق. هـ / ٥٣٩ – ٥٦٤ م) شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، وأصغر أصحاب المعلقات سناً. كان هجاءاً غير فاحش القول، تفيض الحكمة على لسانه في أكثر شعره.

والتّوبة إذا لم تكن صادقة صافية، لم تكن في الإيمان كافية، وكان في بلدنا رجلٌ مغرمٌ بالخمرة، فلمّا كبُر رغب في المطبوخ، وكان يحضر مع ندامـاه وبين يديه زِقٌّ فيه خمرمطبوخةٌ، وعندهم قدحٌ واحدٌ، فيشرب هو من المطبوخ، ويشرب أصحابه من النيْء، فإذا جاء القدح إليه ليشرب، غسله من أثر الخمر وشرب فيه، فإذا فرغ زِقُّ المطبوخ رجع فشرب من شراب إخوانه.

وأمّا مُخاطبتَـه غيرَه وهو يعني نفسَه، فهو كقولهم في المثل: إيّاكِ أعني واسْمعي يا جارة. وطبيعة الإنسان غالبة ، يريد المُتنسِّكُ أن ينصرفَ حبُّه عن العاجلة، وليس يقدر على ذلك، كما لا تقدرُ الظبية أن تصيرَ لَـبُؤَةً، ولا الحصاة أن تصير لؤلؤةً: «يُوسُـفُ أعْرِضْ عن هذا واسْـتَـغْـفِـري لِذَنْـبِـكِ إنـَّكِ كُنْتِ مِن الخاطِئين»[1]. وقول القائل في الدّعاء: اللّهم اجْعَـل الحمامة بازياً، يكون للسّفَـه موازياً.

ولقد عَلِمْتَ ولا أنهاكَ عـن خُـلـُـقٍ أن لا يكونَ امْرُؤٌ إلا كـما خُـلِـقا

وإنَّا لنجد الرّجل مُوقناً بالآخرة، مُصَدِّقاً بالقيامة، مُعتـَرِفاً بالوحدانية وهو يبخل على الكلب النابح بالعظام، وعلى الجارية أن تأكل بانتظام. وكثير من الذين يتلون الآية: «مَثَـلُ الذين يُـنْـفِـقـُونَ أَمْوالـَهُمْ في سَـبيلِ الـلـهِ كَمَثَـلِ حَـبَّـةٍ أَنْـبَـتَـتْ سَـبْـعَ سَـنابِلَ في كُـلِّ سُـنْـبُـلَـةٍ مِـئَـةُ حَـبَّـةٍ والـلـهُ يُضاعِـفُ لِمَنْ يَـشاءُ وَالـلـهُ وَاسِـعٌ عَـلِـيمٌ»[2] وهُم بها مصدِّقون، ومن خشية إلههم مشفقون، يضِنُّون بالقليل الحقير، ولا يتصدقون على السّائل ولا الفقير، فكيف تكونُ حالُ مَن ينكرُ حديث الجزاء، ولا يقبلُ عن الفانيةِ حُسْنَ العزاء؟

وقد مرّ به حديث أبي طلحة، أو أبي قتادة، ومعناه أنهّ خاصم يهوديّاً إلى النبيّ صلّى الله وسلم، وكان لأبي طلحة حديقة نخلٍ، وبينه وبين اليهوديّ خلافٌ في نخلةٍ واحدةٍ. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم لليهوديّ: أتسمح له بالنخلة حتى أضمن لك نخلةً في الجنّة؟ ووصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم، بصفات أشجار الجنّة. فقال اليهوديُّ: لا أبيع عاجلاً بآجِل. فقال أبو طلحة: أتضمَنُ لي يا رسول الله كما ضمنت له حتى أعْـطِـيَه الحديقة؟ فقال: نعم. فرضي أبو طلحة بذلك. وأخذ اليهوديّ وذهب إلى حديقته، فوجد فيها امْرَأتـَه وأبناءَه وهم يأكلون من جناها، فجعل يُدخلُ إصبَعَه في أفواهِهم فيُخرِجُ ما فيها من التمر، فقالت امرأتـُه: لِمَ تفعل هذا ببنيك؟ فقال: إنّي قد بِـعْـتُ الحديقة. فقالت: إن كنتَ بِـعْـتـَها بعاجلٍ فبئسَ ما فعلت! فقصَّ عليها الخبر، فـفـرِحَت بذلك.

---

١ الآية ٢٩ سورة يوسف.

٢ الآية ٢٦١ سورة البقرة

ولو قيل لبعضِ عُـبَّاد هذا العصر: أعْـطِ لَـبِـنَـةً من طينٍ تـقَـرْمَد ، لتعطى في الآجلة لبنةً من عَـسْـجَد، لما أجاب. لو سئل أن يُعطيَ أَمَةً عوراء، يُعَـوَّض منها في الآخرة بحَوراء، لما فعل. على أنّه من المُصدِّقيـن، فكيف من نشأ على التكذيب، وجحَـدَ وُقـوعَ التّعذيب؟

وأمّا «فاذوه» فلقي طائرَ الحَيْـن، فانْصَبَّ عليه بجناحين، فلا إله إلّا الله، ما أعِدَّ المهراس، ليشُـجَّ به الرأس، ولكن لكلِّ أجل كتابٌ، والشرُّ يُـبَكِّـرُ ويَـنتاب. مَنـَّـتْهُ نفسُه التّوبة، فكانت كصاحبة امرىء القيس لمّا قال لها:

مَـنـَّـيْـتِـنا بغَـدٍ وبَعْـدِ غـــدٍ حتّى بَخِـلْـتِ كـأسْـوأ البُـخْـلِ

ويُحكى عن أبي الهُـذيل العَلّاف أنّه كان يمرُّ في الأسواق على حمارٍ ويقول: يا قومُ احذروا توبَة غلامي. وكان له غلامٌ يعِدُ نفسَه التّوبَة، فسقطت عليه آجرةٌ فـقـتـلـتـه، والدّنيا الغرَّارَةُ خـتـلَـتْـه.

بدء معرفة ابن القارح

وأوّل ما سمعت بأخبار الشّيخ، أدام الله تأثيرَ الفضل ببقائِه، من رجلٍ واسطيٍّ[١] يتعرّضُ لعلم العَروض، ذكر أنّه شاهده بنِصِّيبين[٢]، وفيها رجلٌ يعرف بأبي الحسين البصْريّ، كان معلماً لبعض العلويّة، وكان غلامٌ يختلف إليه يُعرَفُ بابْنِ الدان، وقد اجتاز الشّيخ ببلدِنا والواسطيُّ يومئذٍ فيه. وقد شاهدت عند أبي أحمد عبد السّلام بن الحسين المعروف بالواجكا رحمه الله،[٣] كتباً عليها سماعٌ لرجلٍ من أهلِ حلب، وما أشكُّ أنّه الشّيخ، أيّد الله شخصَه بالتّوفيق، وهو أشهر علم على الطريق، لا يفتقر إلى تعريف بالأشعار، بل يصدح شرفه في كل الأقطار. قال البكريُّ النَّسّابة لرؤبة: من أنت؟ قال: أنا ابن العجَّاج. قال: قصَّرت وعرَّفت. وإنّما هو في الاشتهار، كما الساطع من ضوء النهار، وكما قال أبو تمام الطائيُّ:

تحْـمـيـهِ لألاؤُهُ أو لَـوْذَعِـيِّـتُـهُ من أن يُـذالَ بمَـن أو مِمَّن الرّجُلُ

وإن تناسخت الأمم في العصور، فهو عليُّ بن منصور الذي مدحه أبو الطيِّب:

فِي رُتـبَةٍ حَجَـبَ الوَرى عَن نَـيْـلِـها وَعَلا، فـسَـمَّـوْهُ عـلِـيَّ الـحـاجِـبـا

وأمّا العلماء الذين لقيهم، فأولئك مصابيحُ بين الأنام، وكواكبُ تبدِّدُ الظلام، وإنَّ في النّظر إليهم لشرَفا، فكيف بمن أدركهم ومِن بحورهم اغترفا؟ وإنّما أقول ذلك على الاختصار، ولعلَّه قد استدرَّبحارَهم بالقلم والفهْم، وفتحوا له أبوابَ البُهْم وهي جمعُ بُهْمَةٍ وهو الأمر الذي لا يُهتدى له، فأخذ عن الكنانيّ سور التّنزيل، وفاز بثوابٍ جزيل، فكأنما لقَّـنه إيّاهُ المصطفى الحبيب، وبدون تلك الدّرجة يبلغ الفـَهِمُ الأريب. وسهّلوا له ما صعب من جبال العربيّة، فصارت وعورة كتاب سيبويه عنده كالسهول والبساتين، وغنِيَ في اللُّجَج عن ركوب السفين.

وأمّا انحيازه إلى أبي الحسن، رحمه الله، فقد كان ذلك الرّجل سـيِّـداً، ولمن ضعف من أهل

١ نسبة إلى واسط، وهي مدينتان على جانبي دجلة، والمدينة القديمة في الجانب الشرقي، وابتنى الحجاج مدينة في الجانب الغربي. قيل: سميت بواسط لتوسطها بين البصرة والكوفة والمدائن.

٢ مدينة في ديار ربيعة من بلاد الجزيرة بين دجلة والفرات. كان لها سور حصين، وفيها أسواق عامرة وتجارات، ومياهها كثيرة.

٣ عبد السلام بن الحسين بن محمد بن عبد الله البصري، ويلقب بالواجكا اللغوي، صاحب الخط المليح والضبط الفصيح. توفي في المحرم سنة ٣٢٩هـ. ورد بغداد وحدث بها، وكان صدوقاً عالماً أديباً قارئاً، عارفاً بالقراءات، وكان يتولى النظر بدار الكتب، وقرأ على أبي علي الفارسي، وأبي سعيد السيرافي.

الأدب مُؤيِّـداً، يمنح وِدادَه لمن قوي منهم، ويحاربُ أعداءَهم ويذود عنهم، وكان كما قال القائل:

وإذا رأيـتَ صديقَـه وشقـيـقَـه لـم تَــدْرِ أيُّهـمـا أخـو الأرحــامِ[1]

وكما قال أبو تمّام الطائيّ

كـلُّ شِعْبٍ كُنتُمْ به آلَ وَهْـبٍ فـهْوَ شِعْبي وشِـعْـبُ كـلَّ أديـبِ

والمثل السّائر: على أهلها تجني براقش. وذكر الصُّوليّ أنّه دخل على المتـَّقي بعدما قتل بنو حمْدان محمَّد بن رائق، فسأله عن أبيات نَهْـشل بنِ حَـرِّي:[2]

ومَـوْلىً عَـصانِي واسْـتَـبَـدَّ بِـرأْيِـهِ كما لمْ يُطَعْ بالبَـقَّـتَـيْـنِ قـصِـيـرُ[3]

فـلمّـا رَأى ما غِـبُّ أمْـرِي وأمْـرِهِ ونـاءَتْ بـأعْـجـازِ الأُمُــورِ صُـدُورُ

تَـمَنـّى نَـئِـيشـاً أنْ يَكـونَ أطاعَـنِي وقـدْ حَـدَثـتْ بَـعْـدَ الأُمُـورِ أُمُــورُ

يقال: فعل كذا نئيشاً، أي بعدَما فات، قال الشاعر:

وإنّــك يـا قَـطِـنُ ولستَ مِنهم لَألْأمُ مالِكٍ عَـقِـبـاً وريـشـا

تـنـاءَتُ مِنكُمُ عَــدْسُ بـنُ زيـدٍ فـلـم تـعْـرِفْـكُـمُ إلا نَـئـيـشـا

وما زال الشّبان يحسبون في أنفسهم القوة، يبغون المكانة العالية الشريفة، ولكنهم لا يتحملون الشدائد العنيفة، والمثل السّائر: رأيُ الشّيخِ خيرٌ من رؤية الغلام. وربَّما تملكت الطّالبَ حِدّة، فواجهت من القدر شِـدّة، إنّ الاكتفاء من العيش، ليغني المجتهد عن البَرْيِ والرَّيْش، أي يبري سهامه ويركب لها الريش، ولكن لا مَـفـرَّ من القضاء المحتوم، وآهٍ من عُمرٍ بالتَّـلـف مختوم:

وسَــوْرة علمٍ لم تُسَـدَّد فأصبحت وما يَـتـمارى أنّها سَــورَةُ الجَهْـلِ

وأمّا حِجَجُه الخمس فهو، إن شاء الله، يستغني في المحشر بالأولى منهن، وينظر في المتأخرين من أهل العلم، فلا ريب أنه يجد فيهم من لم يحجُج، فيتصدّق عليهم بالأربع. وكأنّي به ومواكب الحجاج، يرفعون التّلبية فيعلو الصوت والعجاج، وهو يفكر في تلبيات العرب، وأنّها جاءت على ثلاثة

١ ينسب هذا البيت لإبراهيم بن هرمة ومحمد بن بشير الخارجي وعمير بن عامر وأبي تمام الذي أورده وأبياتاً أخرى في حماسته.

٢ نهشل بن حَرِّي بن ضمرة الدارمي، توفي ٤٥ هـ / ٦٦٥ م شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية وعاش في الإسلام، أسلم ولم ير النبي صلى الله عليه وسلم، وصحب علياً كرم الله وجهه في حروبه. قال ابن سلاّم الجُمَحي: نهشل بن حري شاعر شريف مشهور، من أسرة كلهم شعراء.

٣ قصير بن سعد اللخمي صاحب جذيمة الأبرش الذي غدرت به الزبّاء وقتلته وهرب قصير، ثم عاد إليها وقد جدع أنفه، فقالوا: لأمر ما جدع قصيرأنفه، وعرف مداخل مدينتها، ثم غزاها مع ابن أخت جذيمة وقتلها، وفي حكايته أقوال كثيرة صارت أمثالاً منها أثأر من قصير. وبقة موضع بالشام.

أنواع: مَسْجوعٌ لا وزن له، ومَنهوك، ومَشطورٍ. فالمسجوع كقولهم:

لبَّيْكَ ربَّنا لبَّيكْ … والخيرُ كلُّه بيدَيكْ

والمنهوك على نوعين: أحدهما من الرَّجز، والآخر من المُنْسِرح، فالذي من الرَّجز كقولهم:

لبَّيك إنَّ الحمدَ لكْ … والمُلكَ لا شريكَ لكْ

إلا شريكٌ هو لكْ … تملِكُهُ وما مَلَكْ

أبو بَناتٍ بِفَدَكْ

فهذه من تلبيات الجاهليّة، وفَدَك يومئذ فيها أصنام، وكقولهم:

لبَّيكَ يا مُعْطيَ الأمر … لبَّيكَ عَن بَني النّمِرْ

جئناكَ في العامِ الزَمِرْ … نأمُلُ غيْثاً يَنْهَمِرْ

يَطْرُق بالسَّيْلِ الخَمَرْ

والذي من المنسرح جنسان: أحدُهما في آخره ساكنان، كقولهم:

لبَّيْكَ رَبَّ هَمْدانْ … مِن شاحِطٍ ومِن دان

جئناكَ نبغي الإحْسانْ … بكلِّ حَرْفٍ مِذعانْ

نطْوي إليك الغِيطانْ … نأمُل فضْلَ الغُفْرانْ

والآخر لا يجتمعُ فيه ساكنان كقولهم:

لبَّيْكَ عَن بَجيلَةْ … الفَخْمَةِ الرَّجيلةْ

ونِعْمَتِ القبيلَةْ … جاءَتْكَ بالوَسيلَةْ

نُؤَمِّلُ الفضيلةْ

وربّما جاؤوا به على قوافٍ مختلفة، كما رووا في تلبية بكرِ بنِ وائل:

لبَّيكَ حَقّاً حَقّا … تَعَبُّداً ورِقّا

جئناك للنَّصاحَةْ … لمْ نأتِ للرَّقاحَةْ

والرقاحة المتاجرة. والمشطور جنسان: أحدهما عند الخليل من الرّجز، كما روي في تلبية تميم:

لـبـيـك لــولا أنّ بَـكـراً دُونـكـا ... يـشـكـُـرُكَ الـنـاس ويكْفـُرونَـكا

مـا زال مِـنّا عَـثَـجٌ يأتـُونَـكا

والعثج: الجماعة من الناس. والآخر من السريع وهو نوعان: أحدُهما يلتقي فيه ساكنان كما يروون في تلبية همْدان:

لـبَّيـكَ مَـعَ كـلِّ قـبـيـلٍ لـبُّـوكْ ... هـمْدانُ أبـنـاءُ الـمُلـوكِ تـدعـوكْ

قـد تـركـوا أصنامَهم وانتـابُـوكْ ... فـاسْـمَـعْ دُعــاءً في جميع الأمْـلـوكْ

قولهم: لبُّوك، أي لزِموا أمرَك، ومن روى: لبَّوك، فهو سِنادٌ مكروه. والمشطور الذي لا يجتمع فيه ساكنان كقولهم:

لـبَّيك عـن سَـعْــدٍ وعــن بَنيها ... وعـن نساءٍ خلفـَها تعْـنـيـهـا

سارتْ إلى الرّحْمةِ تجْـتَـنـيهـا

والموزونُ من التلبية يجب أن يكونَ كلُّه من الرجَز عند العرب، ولم تأت التلبية بالقصيد. ولعّلهم قد لبّوا به ولم تنقله الرّواة. وكأني به، أطال الله زينة الوجود ببقائه، لمّا اعتزم استلامَ الرّكن، ذكر البيتين اللذّين ذكرهما المفجع في حدِّ الإعراب:[١]

لـو كان حَـيّـا قـبْـلَـهُـنَّ ظعـائـنـاً ... حـيّـَا الحَطيمُ وجُوهَـهُـنَّ وزَمْزمُ

لكـنـَّه عَـمّــا يُـطيـفُ بِـرُكْـنِـــه ... منهُـنَّ صَـمّاءُ الصَّدى مُـسْـتَـعْـجِمُ

وكذلك يذكرُ قولَ الآخر:[٢]

ذكَـرْتـُكِ والحَجيـجُ له عَـجيــجٌ ... بـمكـَّةَ والـقـُـلـوبُ لـهـا وجـيـبُ

فـقـلـتُ ونحْـن في بَـلَــدٍ حَـرامٍ ... بــه لـلّـــهِ أخْـلَـصَـتِ الـقـُـلـــوبُ

أتــوبُ إلـيـــكَ يـاربّــــاهُ مِــمّــــا ... جَـنَـيْـتُ فـقـد تـظـاهَـرَتِ الذنوبُ

فـأمّـا مِـن هَـوى لـيـلى وحُـبِّـي ... زيـــارَتَــهـــــا، فـإنـّي لا أتــوبُ

---

١ المفجع محمد بن محمد بن عبد الله البصري النحوي من كبار النحاة، كان شاعراً مفلقاً وبينه وبين ابن دريد مهاجاة، وصنف كتاب الترمان وعرائس المجالس والمتقدمين في الأيمان، توفي سنة ٣٢٠هـ.

٢ الأبيات لمجنون ليلى

فيقول: أليس قال البصريون إنَّ هاء النُّدبة لا تثبتُ في الوصل، والهاء في قولِه: يا ربَّاه، مثل تلك الهاء ليس بينهما فرقٌ؟ ولكن يجوز أن يكون مغزاهم في ذلك المنثور من الكلام، إذ كان المنظوم يحتمل أشياء لا يحتملها سواه. ولعَـلـَّه قد ذكر هذه الأبيات في الطَّواف:

أطَـوِّفُ بالـبـيـتِ فـيـمَـنْ يُـطَـوِّفُ   وأرْفَـعُ مِن مِـئْـزري الـمُـسْـبَـلِ

وأسْجُدُ بـالـلَّـيْـلِ حَتّـى الصّبـاحِ   وأتْـلـو مِـن الـمُـحْـكَمِ الـمُـنْـزَلِ

عَـسى فـارِجُ الكَــرْبِ عَــن يُـوسُــــفٍ   يُـسـخِّــرُ لي ربَّــةَ الـمَـحْـمَــــلِ

فقال: ما أيسَرَ لفظَ هذه الأبيات، لولا أنّه حَذفَ أنْ من خبَرِ عسى، فسُبحان الله، لا تعْـدَمُ الحسناء ذاماً[1]، وأيُّ الرّجال المُهذبُ[2].

وذكر عند النَّـفْرِ وتفرُّقِ الناس هذين البيتين:[3]

جَـدِّدي الوَصْـلَ يا سُـكَيـنَ وَجُـودي   لِـمُحِـبٍّ فِـراقُـهُ قـد أَحَـمّـا

لـيـسَ بـيــنَ الحَـيــاةِ وَالمَــوتِ إلا   أن يَــرُدّوا جِـمـالَـهُم فـتُـزَمّا

وقول قيس بن الخطيم:[4]

دِيارَ التي كادَت وَنَحـنُ عَـلى مِنىً   تَـحُـلُّ بِـنـا لـولا نَـجـاءُ الـرَكـائِـبِ

ولـم أرَهــا إلّا ثـلاثــاً عَـلى مِـنىً   وعَهدي بِهـا عَـذراءُ ذاتُ ذَوائِـبِ

تـبَـدَّت لنا كالشَمسِ تحْـتَ غَـمامَةٍ   بَدا حاجِبٌ مِنها وَضَـنَّـتْ بِحاجِبِ

وميّز بين هذين الوجهين في قوله: تحلُّ بنا، لأنَّه يحتمل أن يكون: تحُلُّ فينا، وقد يجوز أن يريد: تحُلُّنا، كما يقال: انْزِل بنا هاهنا، أي أنْزِلنا، ومنه قوله:

كما زلَّت الصّفواء بالمتنزل[5]

---

١ الأبيات لإسماعيل بن جامع بن إسماعيل، ويعرف بابن جامع. كان قد قرأ القرآن وسمع الحديث، ثم ترك ذلك واشتغل بالغناء. وقال صاحب الأغاني: كان ابن جامع أحسن المغنين في أيامه صوتاً وأقواهم طبعاً وأصحهم صنعة.

٢ لا تعدم الحسناء ذامّاً: مثل مشهور، معناه لا يخلو أحد من شيء يعاب به.

٣ أي الرجال المهذب: من بيت للنابغة الذبياني من قصيدة بلغت اثني عشر بيتاً، وهي إحدى اعتذاريات النابغة للنعمان بن المنذر:

ولستَ بِمُسْتَبْقٍ أخاً لا تَلُـمُّهُ   عَلى شَعَثٍ أَيُّ الرِجالِ المُهَذَبُ

٤ قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي المتوفى٢ ق. هـ / ٦٢٠ م. شاعر الأوس وأحد صناديدها في الجاهلية. أوَّلُ ما اشتهر به تتبعه قاتلَيْ أبيه وجدِّه حتى قتلَهُما، وقال في ذلك شعراً. أدرك الإسلام، وتريث في قبوله، فقتل قبل أن يدخل فيه.

٥ قوله هذا من بيت لامرئ القيس

كُمَيتٍ يَزِلُّ اللِّبْدُ عَن حالِ مَتْنِهِ   كما زَلَّتِ الصَفْواءُ بِالمُتَنَزِّلِ

وإن كانت الحِجَجُ التي أتى بها مع مجاورةٍ، فقد أقام بمكّة حتى صار أعلمَ بها من الغراب بوكْرِه، والقطاة بمواضع بيضها، والحرباء بمأواها بين الشجر.

وإن كان سافر إلى اليمن أو غيره، وجعل يحجُّها في كلّ سنة، فذلك أعظم درجة في الثواب، وأجدر بالوصول إلى مغفرة التـوَّاب. ولعلّه قد وقف بالمغمِّس[١] وترحَّمَ على طفيلٍ الغنوي لقوله:[٢]

هلْ حبلُ شمّاءَ بعد الهجْرِ موصولُ   أم أنتَ عنها بَعيدُ الدّار مَشغولُ؟

إذ هيَ أحْوى من الرِّبْعي حاجبُهُ   والعَينُ بالإثْمِد الحاريِّ مكحولُ

تـرعى منابتَ وسْمِيٍّ أطـاعَ لـها   بالجِزْع حيثُ عصى أصحابَه الفيلُ[٣]

وإنّما أطلقت التّرحُّم على طفيلٍ إذ كان بعض الرّواة يزعم أنَّه أدرك الإسلام، ورُوِيَ له مدحٌ في النبي صلّى الله عليه وسلم، ولم أسمعه في ديوانه [٤]:

وَأبيكَ خَيرٍ إنَّ إِبْلَ مُحَمَّدٍ   غُزُلٌ تَناوَحُ أن تَهُبَّ شَمالُ

وَإذا رَأَيْنَ لَدى الفِناءِ غريبَةً   فاضَتْ لهُنَّ مِن الدُموعِ سِجالُ

وَتَرى لها حَدَّ الشِتاءِ على الثَرى   رَخْماً وَما تَحيا لَهُنَّ فِصالُ

وأنشد أبيات ابن أبي الصّلت الثّـقَفيّ:[٥]

إنَّ آياتِ ربِّنا ظاهِراتٌ   ما يُماري فيهِنَّ إلا الكَفورُ

حَبَسَ الفيلَ بالمُغمَّس حتّى   ظلَّ يحْبو، كأنَّه مَعْقورُ

كلُّ دينٍ يومَ القِيامَةِ عندَ الـ   ـلّه إلاَّ دينَ الحَنيفَةِ بُورُ

---

١ المُغَمِّس: موضع في طرف الحرم، فيه برك فيل أبرهة حين توجه به إلى مكة لهدم الكعبة.

٢ تختلط هذه الأبيات مع أبيات قصيدة مطولة تبلغ واحداً وثمانين بيتاً من شعر عبدة بن الطبيب مطلعها:

هَلْ حَبْلُ خَوْلَةَ بَعْدَ الهَجْرِ موصولُ   أَم أَنتَ عنها بَعيدُ الدَّارِ مَشْغولُ

حَلَّتْ خُوَيْلَةُ في دَارٍ مُجَاوِرَةً   أهلَ المَدَائِنِ فيها الدِّيكُ والفِيلُ

٣ طُفَيل بن عوف بن كعب من قيس عيلان، توفي ١٣ ق. هـ / ٦٠٩ م. شاعر جاهلي، فحل، من الشجعان وهو أوصف العرب للخيل وربما سمي (طفيل الخيل) لكثرة وصفه لها.

٤ لكن الأبيات موجودة في ديوان الطفيل

٥ أمية بن أبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفي، توفي ٥ هـ / ٦٢٦ م شاعر جاهلي، حكيم، وهو ممن حرموا على أنفسهم الخمر ونبذوا عبادة الأوثان ، ورحل إلى البحرين فأقام ثماني سنين ظهر في أثنائها الإسلام. وعاد إلى الطائف فسأل عن خبر محمد صلى الله عليه وسلم، وقدم مكة وسمع منه آيات من القرآن وسألته قريش رأيه فقال: أشهد أنه على الحق. قالوا: فهل تتبعه؟ فقال: حتى أنظر في أمره. ثم خرج إلى الشام وهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى المدينة وحدثت وقعة بدر، وعاد أمية يريد الإسلام، فعلم بمقتل أهل بدر وفيهم ابنا خالٍ له فامتنع وأقام في الطائف إلى أن مات.

وما عدم أن تخطر له أبيات نفيلٍ:[1]

ألا حُيِّيتِ عنّا يا رُدَيْنا ... نَعِمْناكُمْ مع الإصْباحِ عَينا
رُدَيْنةَ لو رأيْتِ، ولن تَرَيْهِ ... ألا حُيِّيتِ عنّا يا رُدَيْنا
إذاً لعَذرْتِني ورَضِيتِ أمْري ... ولمْ تأسَيْ على ما فاتَ بَيْنا
حَمِدْتُ اللهَ إذ أبْصَرْتُ طيراً ... وحَصْبَ حِجارةٍ تُلْقى علينا
وكلُّ القومِ يسألُ عن نُفَيْلٍ ... كأنَّ عَليَّ للحُبْشانِ دَيْنا

وليت شعري أقَرَن بين الحج والعُمرة أم أفْرَد؟ وأرجو أن لا تكون لَقِيَتْهُ بمكة عجوزتعرض عليه فتوى ابن عبّاسٍ، حلف ما بها من باسٍ، فتذكّر قول القائل:

قالت وقد طُفْتُ سبْعاً حولَ كعبتِها: ... هل لكَ يا شيخُ في فُتيا ابنِ عبّاسِ؟
هل لكَ في رَخْصَةِ الأطرافِ ناعمةٍ ... تُمْسي ضجيعَك حتى مصدرِ النّاس

وكأنّي به وقد مرَّ بأنطاكية، فذكَرَ قولَ امرىء القيس:

عَلَوْن بأنْطاكِيَّةٍ فوقَ عَقْمَةٍ ... كجِرْمَةِ نَخْلٍ أو كجَنَّة يثْرِبِ

وأمّا صديقُه الذي أفْحش عند الخِصام، فهو يعرِفُ المثل: أعْرِضْ عن ذي قَبْر، إذا حجَزت دُون الشّخص الأرض، فقد نجا بالطول والعرض، ومن تحمل اللومَ في حياته، استحقَّ المعذرة في مماته، ولعله نطقَ بما نطقَ في معنى انشراح، لا يقصد بكلامه أن ينكأ الجراح، ومن غفرَ ذنبَ حيٍّ وهو مَوفورُ المهابة، فكيف لا يغفر له بعد الميتة وهو أضعف من ذبابة؟ وسلامٌ على قبرمن مخاتل، يعدل ألف تسليمةٍ في المحافل، وهو يعرف ما قالوه في معنى البيت:[2]

وآتي صاحبي حيث ودَّعا

أي أزور قبره.

---

١ نفيل بن حبيب الخثعمي قاتل أبرهة فهزمه أبرهة وأخذه نفيل أسيراً فلما همَّ بقتله قال نفيل لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب.

٢ ١- هذا القول من بيتين ذكرهما المرزوقي في» شرح ديوان الحماسة « ونسبهما إلى» مزعفر» ولم نجد له أي ترجمة أو أشعار أخرى:

وإنّي لأسْدي نِعْمَتي ثم أبْتَغي ... لها أخْتَها حتّى أعَلَّ فأشْفَعا
وأجعَلُ نِعْمي ما فعَلْتُ ذِمامَةً ... عَليَّ وآتي صاحِبي حيثُ ودَّعا

وأمّا الذي أنكره، فمولاي الشّيخ مكرَّرٌ في الأدب تكريرَ الحسن والحسين في آل هاشم، والوشمِ المزخرفِ بكفِّ الواشِم، وهل يعجب لغناءٍ من حمامة، أو قطرةٍ تسبق الغيث من غمامة؟ ولو بارى الخُزامى بأريجِها، لجاز أن يسبقَ ما تفتح من أكمامِها، أو البروقَ اللامعة لجاء بريقُه سابقاً أمامها. وفي النّاس من يكون طبعه المخاصمة، فيؤذي الجليس، وينفـِّرُ الأنيس، وهو يعلم أنّه فاضل، لا يباريه في الرّمي مناضل.

ابن خالويه

وأمّا أبو عبد الله بن خالويه وإحضارُه للبحثِ النُّسخ، فإنّه ما عجِزَ ولا أفْسَخ، أي نسي، ولكن الحازمَ يريد أن يكون الأمين، ويزيد على الشّهادة الثانية اليقين:

أَرى الحاجاتِ عند أَبي خُبَيبٍ   نَكِدْنَ وَلا أُمَيَّةَ في البِلادِ[1]

أين كأبي عبد الله؟ لقد عدمه الشّام! فكان كمَكَّة إذ فقدت هشام، عنيت هشامَ بنَ المغيرة، لأنَّ الشاعر رثاه فقال:[2]

فأصبَحَ بطنُ مكَّةَ مُقْشَعِرّاً   كأنَّ الأرض ليسَ بِها هِشامُ[3]

يظَلُّ كأنَّه أثناءُ سَوطٍ   وفَوق جِفانِهِ شَحْمٌ ركامُ

فلِلكبُراء أكلٌ كيفَ شاؤوا   ولِلصُّغَراء حَمْلٌ واقْتِثامْ

وأبو الطيب اللُّغوي اسمه عبد الواحد بن عليٍّ، له كتابٌ في الإتباع صغير على حروف المعجم في أيدي البغداديين، وله كتابٌ يعرف بكتاب الإبدال، قد نحا به نحو كتاب يعقوب في القلب، وكتابٌ يعرف بشجر الدرِّ، سلك به مسلك أبي عمر في المداخل، وكتابٌ في الفرق قد أكثر فيه وأسهب. ولا شكَّ أنَّه قد ضاع كثيرٌ من كتبه وتصنيفاته، لأنّ الرّوم قتلوه وأباه في فتح حلب.

وكان بين أبي الطيب اللّغوي وأبي العبّاس بن كاتب البكتمريّ مودّةٌ ومؤانسةٌ، وله يقول:

يا عبدُ إنّك عِندَ القلبِ جَنَّتُهُ   حُبّاً، وإنَّكَ عند الطَّرْفِ ناظِرُهُ

أزْمَعْتَ سَيْراً، فقُلْ ما أنتَ قائِلُهُ   واذكُرْ لراعي الهَوى، ما أنتَ ذاكِرُهُ

لا أشْتكي سهَراً طالتْ مَسافتُهُ   اللّيل يَعْلَمُ أنّي الدّهْرَ ساهِرُهُ

١ عبد الله بن الزبير الأسدي المتوفى ٧٥ هـ / ٦٩٥ م. شاعر من الكوفة من المشهورين بالهجاء، كان مرهوب اللسان كثير الهجاء سريع الغضب كثير التقلب.

٢ الحارث بن خالد بن العاص بن هشام المخزومي من قريش توفي ٨٠ هـ / ٦٩٩ م شاعر غزل، من أهل مكة، نشأ في أواخر أيام عمر بن أبي ربيعة وكان يذهب مذهبه، لا يتجاوز الغزل إلى المديح ولا الهجاء.

٣ كانت بنو مخزوم تسمى ريحانة قريش، وكان هشام بن المغيرة المخزومي جواداً سيداً. وكانوا يؤرخون بثلاثة أشياء، يقولون: كان ذلك زمن بناء الكعبة، وعام الفيل، وعام موت هشام. ولم أجد في غير رسالة الغفران سوى هذا البيت.

قوله: يا عبد، يريد: يا عبد الواحد، كما قال عديٌّ بن زيد في الأبيات الصادية التي مضت:

غُيِّبْتَ عنّي عبدُ في ساعةِ الـ شـرِّ وجُـنِّبْـت أوانَ العَـويـصْ

يريد عبد هندٍ. وقد كان أبو الطيب يتعاطى شيئاً من النَّظم.

في معرة النعمان

وقد علم اللهُ أنّي لا في العِير ولا في النّفير[1]، ومَن لجاني الرُّطَب بالتّبكير؟ كلَّما رغبت في الخُمول، قُدِّر لي غيرُ المأمول، كان حقُّ الشّيخ إذ أقامَ في معرَّة النّعمان سنةً أن لا يسمعَ لي بذكرٍ، ولا أخطُر له على فِكر، والآن فقد غـمَرَني بالأفضال، وأظلَّني دوحُ أدبِـه بوارف الظـلال، وجاءتني منه فرائدُ لو تمثَّلت الواحدة منها دُرَّة، لم يفُقْها تاج كسرى شهرة، ولاستغنى بثمنها رهط من الرجال، وضاق عن وصفها المجال، ينظر منها النّاظرُ إلى جوهرة، تعدل جنَّةً مزهرة.

وهو، أدام الله عِزَّ الأدب بحياتِه، كريم الطَّبعِ والكريمُ يُخدع، ومن سمعَ جازَ أن يَتصوَّر، وليس صُمُّ الصخر كالجوهر.

وأمَّا ما ذكرَه من ميلِه في مصرَ إلى بعضِ اللّذات، فهو يعرفُ الحديث: أريحوا القلوبَ تعِ الذِّكْر. وقال أحيحة بن الجلاح:[2]

صَحَوتُ عَنِ الصِبا وَالدَهرُ غولُ وَنَفْسُ المَرْءِ آوِنَةٌ مَلُولُ

وكان ينبغي أن يكونَ في هذا الوقت يضبُط ما معه من الأدب بدَرْسِ من يدرُسُ عليه، والتقدم في السِّنِّ له تأثير، ويرمي بالنقص كلَّ كثيرٍ، والقطرة الواحدة قد تُغْرِق، وما حَمى من البَردِ قد يُحرِق، وقال رجلٌ من قريش:

لـلّـهِ دَرِّي حيـن أدْركني البِلى على أيِّما تأتي الحوادثُ أنْدَمُ؟

ألمْ أجْتَلِ البيضاءَ يَبْرُقُ حِجْلُها لها بَشَرٌ صافٍ ووَجْهٌ مُقَسَّمُ؟

ولمْ أصْطَبِحْ قبلَ العَواذِلِ شَرْبَةً مُشَعْشَعَةً كأنَّ عاتِقَها الدَّمُ

---

١ مثل مشهور. والعير: الإبل تحمل التجارة، ويعنى به هاهنا عير قريش التى خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لأخذها، ووقعت وقعة بدرٍ لأجلها، والنفير يعنى به وقعة بدر، وذلك أن كل من تخلف عن العير وعن النفير لبدرٍ من أهل مكة كان مستصغراً حقيراً فيهم، ثم جعل مثلاً لكل من هذه صفته.

٢ أُحَيحَة بن الجُلاح الأوسي المتوفى ١٢٩ ق. هـ / ٤٩٧ م شاعر جاهليٌ، من دهاة العرب وشجعانهم. كان سيد يثرب، وكان مرابياً كثير المال وله حصن فيها وحصن في ظاهرها، ومزارع وبساتين ومال وفير، ولم يبق إلا القليل من شعره.

ولعلّه قد قضى الأرَبَ من ذلك كلّه، والأشياء لها أواخر، وإنّما العاجلة سرابٌ ساخر، وقد عاشرَ مُلوكاً ووزراء، فلا مَنقصَة َولا إزراء، وقد سمِعَ نبأ النّعمانِ الأكبر، إذ فارقَ مُلكه فراقَ غيرِ مُضطّر، واستعاض عن الحريرِ بالمُسوح، ورغِبَ في أن يسوح، وإيّاه عَنى عدي بنُ زيد العباديُّ في قولِه:

وتَذكَّرْرَبَّ الخَوَرْنَقِ إذ فَكَّ ـرَ يوماً وللهُدى تفكيرُ
سَرَّه مُلْكُه وكَثْرَةُ ما يَمـ ـلِكُ والبَحْرُ مُعْرِضاً والسَّديرُ
فارْعَوى جَهْلُهُ فقالَ: وما غِبْـ ـطَةُ حَيٍّ إلى المَماتِ يَصيرُ؟

والسُّكرُ مُحرَّمٌ في كلِّ الأديانِ والملل، ويقال: إنّهم في الهند لا يُملّكون عليهم رجلاً يشربُ مُسْكِراً، لأنّهم يرونه مُنكَراً، ويقولون: يجوز أن يحدث في المملكة أمْرٌ، ويقصدون الملك، فإذا الملكُ المُتتَّبَعُ تَعْتَعَه السُّكْر.

لُعِنت الخمرُ التي لأنّها تقْهو عن الطعامِ سَمَّوها القهوة، فكم تهبِطُ بعزائِم الرجال وتجعلُها رخوة، ولا خير في الخمر، تُوطِىءُ على مثلِ الجمر. من شربها صُبحاً، لم ينل في يومه ربحاً، ومَن شرب أمَّ ليلى وهو اسمٌ للخمر، فقد جرَّ في الباطل ذيلاً. ومن أسمائها أم زنبق، ومن أغْريّ بها باء بالخُذلان المُطْبِق. ومن أسمائها الراح، فمن حمل بالرّاحة راحاً، فقد أرخى للغواية سراحاً. وهي العُقار، فمن رضي بصُحبَة العُقار، فقد خلع ثوبَ الوقار. وهي القَرْقَفُ فمن أدمن القرقف، فليس له بين العقلاء موقف. وهي الخُرطوم، فمن أولِعَ بالخرطوم، رجع إلى حال المفطوم. وهي العاني، والمواظبة على العاني، تمنع بلوغ الأماني.وهي السبيئة، والخيبة لكل سبيئةٍ، تُخرِج من الأسرار كلَّ خبيئةٍ. وهي الكُمَيت، ولا فائدة في الكميت، جعلت حيَّها مثل المَيْت. ومن أسمائها الصرخدي، ومن ابتلي بالصَّرخديّ، لم يكن من الفاضحة بالمَفْديّ. وما أخونَ عهودَ السُّلاف، تنقضُ وثيق الأحلاف. أمّا السُّلافة، فهي سُلٌّ وآفة. كم شابٍّ في بني كلابٍ، مات

فُجاءة، وما بلغ من الدّنيا هناءة! رماه بداءٍ قاتلٍ، إدمانُ المُعتقَّة ذاتِ المخاتل. وهي الشَّمول، فمن أدمن الشَّمولَ في دنياه، لا نظر له كأنما فُقِئت عيناه. كم عود في حضن قينة في مجلس شراب، عصف بعقول ذوي الألباب. وكم وكم من مَزهَر، أوقع هاجداً في السَّهَر!

وهو يعرف أبيات المتنخِّل:

مِمّا أقضّي ومَحارُ الفتى لِلضُّبْعِ والشَّيْبة والمَقْتَلِ

إنْ يُمْـسِ نَـشـوانَ بمَصْروفـَـةٍ مِـنْهـا بِـنَـيءٍ وعـلى مِـرْجَــــلِ

لا تَـقـْـهِ الـمَـوتَ وقـَـيّـاتـُـهُ خُـطـَّ لـهُ ذلـكَ فـي الـمَـحْـبَــــلِ

وينبغي أن يُـزَهـِّدَه في الصّهباء الصّافية، أن نَداماه الأكرمين أصبحوا في القبورالعافية. كم جلس مع فتيان، أتى عليهم الزّمنُ كلَّ الإتيان، فكان كما قال الجعديُّ:

تذكّـرْتُ والذِكرى تهـيجُ ليَ الهَـوى ومِـن حاجَـةِ المَحْـزونِ أن يـتـذكّـرا

نَـداميَ عـنـدَ الـمُـنْـذِرِ بْـنِ مُـحَـرِّقٍ فأصبحَ منهُم ظاهِرُ الأرضِ مُقْفِرا

وهو يعرف الأبيات التي أوّلها:[1]

خَليلـَيَّ هُـبّا طالَ ما قـد رَقـَدتـُما أَجِـدَّكُما لا تـَقْـضِيانِ كَـراكُـما؟

وهل يعجز أن يكون كما قال الآخر:

أمّا الطـِّلاءُ فإِنّي لستُ ذائِـقَـها حتّى ألاقِـيَ بعْـدَ الـمَـوتِ جَـبَّارا

كأنّه كان نديمَه على الطـِّلاء، فلمّا رماهُ التّلفُ من غيرِ بلاء، حرَّم على نفسه شربَها، حتى تُسْكِـنَـه الأرضُ تُربَها.

١ قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك المتوفى ٢٣ ق. هـ / ٦٠٠ م خطيب العرب وشاعرها وحليمها وحكيمها في عصره، كان أسقف نجران، ويقال إنه أول من علا على شرفٍ وخطب عليه، وأول من قال: أما بعد، وكان مؤمناً بالله والبعث، وقد رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعكاظ، وقد نقل الرسول عنه كلاماً، وقال عنه (يرحم الله قساً إني لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمة وحده)

دنانير الذهب وفيها العجب

وسرَّتني عودةُ الدّنانير إليه، فتلك أعوانٌ، تُـشتـَـبَه منها الألوان، ولها على النّاس حقوقٌ، وهي البارَّةُ إن سادَ العقوق. قال عمرو بن العاص لمعاوية: رأيتُ في النّومِ أن القيامَة قدْ قامتْ وجِيءَ بك وقد ألجَـمَـك العَـرَق، فقال معاوية: هل رأيت ثـَمَّ من دنانيرِ مصرَ شيئاً؟ وهذه لا ريب من دنانير مصر، فالحمد لله الذي سلـَّمها إلى هذا الوقت، ولم تكن كذهبٍ مخزونٍ، صار إلى الخمّارة مع الموزون:[1]

وخَـــمّارةٍ من بَـناتِ المَجُـوسِ ... تـرى الـــزِقَّ في بَـيـتِـها شـائِلا

وزَنـّـا لـهـا ذهـَـبـاً جـامِـداً ... فـكالـَـتْ لـنـا ذهـَـبـاً سـائـلا

ولا ألغز عنها هذا البيت:

دَنانيرُنا من قـَرْنِ ثورٍ، ولم تكـُنْ ... منَ الذهبِ المَضْروبِ بين الصّفائِحِ

لو رآها المُـرَقـِّـش لعلمَ أنّها أحسن من وجُوه أحبتِه، لمَّا غدا الظاعنُ بصحبته، فقال:

النـَّـشْـرُ مِـسْـكٌ والـوجـوهُ دنا ... نـيـرٌ، وأطـْرافُ الأكـُـفِّ عَـنـَـم

وإنها لأحسنُ من الوجوه التي ذكرها الجعديّ، وزعم أن حسنـَها بديّ، فقال:[2]

في وُجُـــوهٍ شُـــمٍّ الـعَـرانِـينِ أمثا ... لِ الدنانِيرِ شـُـفْـنَ بِالمِـثـقـالِ

أخذت من جوائز كرامٍ صيد، تارةً بالخدمة وتارة بالقصيد، ولم تكن في العيدية مرهناتٍ، ولا عند الغرض موهناتٍ، كما قالٍ ردَّادٌ الكلابيُّ:[3]

---

١ البيتان لابن المعتز وسبقت ترجمته

٢ النابغة الجعدي

٣ ردّاد الكلبي. شاعر إسلامي من بني كلب بن وبرة بن تغلب، ويرد اسمه في بعض المصادر: رذاذ.

ظلَّـتْ تجـوبُ به البلدانُ ناجِيـةٌ   عِـيـدِيَّـةٌ أُرْهِـنَـتْ فـيها الدنانيـرُ

وهي عند أصحاب الأفهام النقيات، أجودُ من الخاتَمِ الذي ذكره ابن قيس الرقيات، فقال:[1]

إِن خُـتِمَت جازَ طينُ خاتَــمِها   كـمـا تَـجـوزُ العَـبـدِيَّـةُ العُـتُـقُ

أراد بالعبدية دنانير نسبها إلى عبد الملك بن مروان، ويقال إنّه أول من ضرب الدّنانير في الإسلام.

وجلـَّـتْ عن نقدِ الصّيرفي، وهي الرّواجح لدى الميزان الوفِيّ، حاشَ لـلـّه أن تكون كما قال الفرزدق:

تنفي يداها الحَصى في كلِّ هاجِرةٍ   نَـفْيَ الدّنانـيـرِ تَـنْقادُ الصّياريفِ

وهذا البيت يُنشد على وجهين: الدّنانير والدّراهيم.

ولا هي من دنانير أَيْلَـة، باع بها البائِعُ نُخَـيلَـه، وإنمّا ذكروا دنانير أيْـلـة لأنهّا كانت في حَـيِّز الرّوم فتأتيها الدَّنانير من الشام، قال:[2]

فما هَـبرَزِيٌّ مِن دنانيـرِ أيْـلَـةٍ   بِأيدي الـوُشاةِ ناصِعٌ يَـتَـأكـّـلُ

الوشاة: النقاشون الذين يُوشّونه. ولو رآها الضبيّ محرز[3]، لشهد أنهّا حين تبرز، أجلُّ من تلك القسمات، وإن كانت في أوجهٍ ذات سماتٍ، قال:

كـأنَّ دنانـيـراً على قَـسَماتِهِـمْ   وإن كان قدْ شَـفَّ الوجوهَ لقاءُ

ولو أخذ مثلها النّادمُ على بيع كُـمَيته، لسكنت البهجة في خَـلَـدِه وبَيتِه، ولم يأسف أن عُوِّض حِماراً من فـرَس، ولوُجِدَ على الشّكوى ذا خـرَس، ولم يقل:

ندِمْـتُ عـلى بـيـعِ الكُـمَـيـتِ، وإنّــمــا   حـيــاةُ الـفـتـى هَــمٌّ لـهُ وخَـســارُ

---

١ عبيد اللّه بن قيس بن شريح بن مالك من بني عامر المتوفى ٨٥ هـ / ٧٠٤ م شاعر قريش في العصر الأموي. خرج مع مصعب بن الزبير على عبد الملك بن مروان، ثم انصرف إلى الكوفة بعد مقتل ابني الزبير (مصعب وعبد اللّه) ثم لجأ إلى عبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب فسأل عبد الملك في أمره، فأمّنه، فأقام إلى أن توفي. أكثر شعره الغزل والنسيب، وله مدح وفخر. ولقب بابن قيس الرقيات لأنه كان يتغزل بثلاث نسوة، اسم كل واحدة منهن رقية.

٢ أحَيحَة بنُ الجُلاح وسبقت ترجمته

٣ مُحرِز بن المُكَعبِر الضَبّي. شاعر جاهلي من بني ربيعة بن كعب من ضبة مجهول الولادة والوفاة، وفي الحماسة لأبي تمام، قصيدة له، يخاطب بها بني عَدِيّ بن جندب، وكان جاراً لهم، ونُهبت إبله فلم ينجده.

وإمّـا أتـاني بـالـدَنـانـيـرِ سـائِـمي | أصاخت وهَـشَّـتْ لـلبِيـاعِ نُـوارُ
وقالـتْ: أتِـمَّ البَـيْـعَ واشْـتَـرِ غيـرَهُ | فحَـولكَ في المَشْتى بَنونَ صِغارُ
فـأنْـفَـقْـتُ فـيهِـمْ ما أخـذتُ ولمْ يَـزلْ | لـدَيَّ شَـرابٌ راهِـنٌ وقَـتـارُ
إلى أنْ تداعى الجُندُ بالغزْوِ وانْجَلتْ | غُـيـومُ شِـتـاءٍ سُـحْـبُهُـنَّ غِـزارُ
وأعْـوَزَني مُـهْـرٌ يَـكـونُ مَـكانَـهُ | كأنْ لـيْسَ بَـيْـنَ العـالَـمِـينَ مِـهـارُ
وسارَ عـلى الخيـلِ المُغِـذة صُحْـبَـتي | وسِـرْتُ وتحْـتـي لـلـشَّـقـاءِ حِـمـارُ[١]

وقال آخر:

وقبْـضَـةٍ من دنانيـرٍ غـدوتُ بِهـا | لـلدّسْـكَرِيِّ وحَـولي فِـتْـيَـةٌ سُـمُـحُ
ولم يَـزلْ ثَـمَّ يَـسْـقـينـا ويأخُـذهـا | حتّى اسْـتَـقَـلَّ بِـما في الصُّرَّةِ القَـدَحُ

ولو كان الشيخ أدرك من تقدم من الملوك، لكان لكلّ واحد منها كالذي قال فيه القائل:

وأصْـفـرَ مِـن ضَرْبِ دارِ المُـلـوك | يَـلـوحُ عـلى وَجْـهِـهِ جَـعْـفَـرُ
يَـزيـدُ عـلى مـائـَـةٍ واحِـداً | إذا نـالَـهُ مَـعْـشَـرٌ أيْـسَـروا

ودنانيره، بإذن الله، محجوبات، ما هنَّ بالغش مشوبات.

والإتقان من شِيَمه، فلا يدفع إلى مُدايِـنٍ شيئاً من عِـيَـمه أي خير ما لديه، وفي الكتاب العزيز: «ومِنْ أهْلِ الكِتابِ مَن إنْ تَأْمَنْهُ بقِنْطارٍ يُـؤَدِّهِ إليكَ، ومِنهم مَن إن تَأْمَنْهُ بدينارٍ لا يُؤَدِّهِ إليْكَ إلاَّ مَا دُمْـتَ عَلَـيْهِ قائماً »[٢] وهذا قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: وقد كان في زمانه من يشعر بالحَرج، والنُّسكُ له عابقُ الأرج ، فأما اليوم فلو أمِنَ كِتابيٌّ على فلس زائف، لأسرع إليه الظن إسراع الرَميّ الطائف، والرَّميُّ ههنا سَحابٌ سريع الإنقشاع، من قولِ الهذلي:[٣]

هُنالِكَ لو دَعَوتَ أتاكَ مِنهُمْ | رجـالٌ مِـثْـلُ أرْمِـيَـةِ الحَـمـيـمِ

وما عنيت بالكتابي، مَن نُسبَ إلى إنجيل وتوراة، دون مَن نُسِبَ إلى القرآن وفيه أكرم الآيات.

على أنّه لا بدّ من أمانةٍ مفترقة في البلاد، تراها في الخيِّرين من العباد، وإنّها في الآخرة لأشرف،

١ لم أجد هذه الأبيات والتي تليها وأبياتاً أخرى كثيرة في دواوين الشعر ولا في الكتب الجامعة، ويحتمل هذا أحد ظنين: إما أن تكون من دواوين وكتب كانت تحت يد المعري وفقدت، أو أن تكون من أشعار المعري نفسه، ولعله نظمها للرسالة دون أن تكون في دواوينه.
٢ الآية ٧٥ من سورة آل عمران.
٣ البيت من أبيات لأبي جُندب الهُذليّ، وهوأخو أبي خراش الهُذليّ، وهم عشرة إخوة كانوا أصحاب شرٍّ ومن العدّائين المشهورين.

وهي الماسحة لما يُقترَف، فكل واحدٍ منها دينار أعِزَّة، يبعث الكريم على الهزّة، كما قال سحيم:[1]

تُريك غـداةَ البَينِ كفّاً ومِعْـصَـماً ووجْهاً كديـنارِ الأعِـزَّة صافـيـا

ولو نظر إليه قيس بن الخطيم لما شبّه به وجه كَـنودٍ بالنعمة كافرة، بل جعله من أنصر جنوده وشدَّ به أواصره، ولم يسمح أن يقول:

صَرَمــتَ الـيَـومَ حَبلَـكَ مِـن كَنودا لِـتُـبْـدِلَ حَـبْـلَـهـا حَـبْلاً جَـديـدا

عَـشِـيَّة طالعَـتْ فأرتْـك قـصْراً مَحاسِـنَ فخْـمَـة ًمِنْها وجيــدا

ووَجْـهــاً خِـلْـتُــهُ لـمّـا بـدا لي غـداة َ الـبَـيْـنِ ديـنـاراً نَـقـيـدا

ولمثله قصد ربيعة بن المكدَّم،[2] لمّا أيقن بحتفٍ مقدَّم، فقال:

شُـدِّي عَـليَّ العَـصْبَ أمَّ سَــيّـارِ فـقـد رُزيـتِ فارسـا ً كالدّيـنـارِ

وكلّ دينارمن هذه الصُّفر المباركة، أبلغ في قضاء الحاجة من دينارٍ الذي اختاره للمأربة قائل هذا البيت:

هـلْ أنـتَ باعـث دينارٍ لحاجَـتِـنـا أو عبدَ ربٍ أخا عَـونِ بنِ مِخْراقِ

وهذا البيت يتداوله النحويّون، وزعم بعض المتأخرين من أهل العلم أنّه مصنوع، وهذا أقرب إلى العقل. فأمّا قول الفرزدق:

رأيتُ ابـنَ دينارٍ يـزيـدَ رمــى بِــهِ إلى الشـامِ يومَ العَنزِ، والله قاتِلـُهْ[3]

لو كان دينارُ هذا المذكور كأحدِ هذه الدّنانير، لكان أعزَّ من أن ينسب إليه يزيد.وأين هي من دنانير النـَّخـَّةِ التي قال في واحدِها القائل:

عَمّي الـذي مَنعَ الـدّيـنـارَ ضـاحِـيَـةً ديـنــارَ نخـَّةِ جُــرْمٍ وهْـو مَشْهودُ

ودينار النَّخَّة دينار كان عامل الصدقات يأخذه إذا فرغ من الجباية. وكلُّ نقيشٍ من هذه الدنانير الرّاجعةِ بعد اليأس، تروي ظمأ الإنسان أكثر من دينار الذي دعاه لِسَقْـيه مسافرٌ في فلاةٍ جدْبة، وهو

١ سحيم عبد بني الحسحاس: سبقت ترجمته.

٢ ربيعة بن المكدم فارس كنانة وأشجع مضر، قيل ما نعلم أحداً حمى الظعينة قتيلاً أو ميتاً إلا ربيعة، ذلك أنه أصيب بجروح قاتلة، فاتكأ على رمحه وهو على فرسه، فلم يجرؤ أحد على الاقتراب منه، ثم رموا فرسه فنفرت ورمته، وكانت الظعائن قد وصلن إلى الديار، وأم سيّار التي يخاطبها أمه.

٣ هذا البيت موجود في ديوان الفرزدق على النحو التالي:

رأيتُ ابنَ ذُبيانٍ يَزيدَ رَمى بِهِ إلى الشامِ يَومَ العَنزِ وَاللـهُ شاغِلـُهْ

وكثيراً ما نجد مثل هذا الاختلاف في رسالة الغفران

على ظهر ناقة صلبة، فقال:

أقولُ لدينارٍ وهُنَّ شوائِلٌ بِنا كنَعامٍ طالباتِ رئالِ
لكَ الوَيْلُ أدْركْني بشَرْبَةِ آجِنٍ مِن الماءِ ما مَشْروبُها بزُلالِ
فما كادَ دينارٌ يُغيثُ بنُطْفَةٍ حُشاشةَ نفْسٍ آذنَتْ بزَوالِ

ولا هو كدينار الأخطل الذي ذكره في قوله:

كُمَّتْ ثلاثة أَحْوالٍ بطِينتِها حتّى اشْتراها عِبادِيٌّ بدينارِ

لو وقعَ إلى عِبادِيٍّ لما جاد به لخمَّار بائع، ولو حُسب في الدَين الضائع. ولا كالدّينار في البيتِ الذي أنشده أبو عمرو الزّاهد:

وفي الكتابِ أسطُرٌ محكوكه، لا حَظَّ في الدّينارِ للكاروكَه

زعم أن الكاروكة القوادة.

والعجبُ لها تفِرُّ من بَنانِ السّارق، فِرارَ دنانير الشَّارِق، وصفها أبو الطيب فقال:

وألْقى الشَّرْقُ منها في ثِيابي دنانيراً تفِرُّ مِن البَنان

لو رآها كُثيِّرُ عَزَّة لأكَّدَ بصافي النيَّة، أنّها أحسنُ من الهِرَقْليَّة:

يَروقُ عُيونَ النّاظرينَ كأنّه هِرَقْليُّ وزْنٍ أحمَرُ التِّبْرِ راجِحُ

وما أدراك ما الثمانين

وإن كانت زائدةً على الثمانين، فقد أوفتْ على عِدَّة أصحابِ موسى الذين جاء فيهم: «واختارَ مُوسى قومَهُ سَبْعِينَ رجُلاً لمِيقاتِنا» [١] وعلى عِدّة الاستغفار المذكور في قوله: «إنْ تَسْتَغْفِرْ لهم سَبعينَ مَرَّةً فلنْ يَغْفِرَ اللهُ لهم» [٢] وعلى عدّة أذرع السّلسلة في قوله تعالى: «في سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبعُونَ ذِراعاً فاسْلُكوه» [٣].

ولو كانَ الإنسانُ في بئرٍعمقها ثمانون قامَةً، جازَ أن تُنقذه هذه المُصْفَرَّةُ من غيرِ مرض، والزّائلة بما يعترِضُ من الجرَض، والجرض الجهد، وإنّما ذكرتُ ذلك لقول الأعشى:

ولو كنتَ في جُبٍ ثمانينَ قامةً ورُقّيتَ أسْبابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ

ولو كانت أعوامُ زهيرٍ مثلَها لما وصف نفسه بالسآمة[٤]، ولكانت له أنهضَ قامة والقامة الأعوان، كأنّها جمع قائم. قال الرّاجز:

وقامَتَيْ ربيعةَ بنِ كَعْبِ حَسْبُكَ ما عِندَهُمْ وحَسْبي

ولو أدركه عُروَةُ بنُ حِزام[٥] وهو يقول:

يُكلّفُني عَمّي ثمانين ناقَةً وما ليَ يا عَفراءُ غيرُ ثمانِ

لجاز أن يرقّ له فيُغيثُه من هذه الثمانين ببعضِها أو يسمحُ له بكلّها، لأنّه كريم طبع، ويجود كما جاد بالماء نبع، ولو صارت في يد عروة هذه الثمانون، لبلغ بها الأمنية، لأنّ النّاقة في ذلك الزّمانِ كانت ربّما اشتريت بعشرةِ دراهم.

١ الآية ١٥٥ سورة الأعراف

٢ الآية٨٠ سورة التوبة

٣ الآية ٣٢ سورة الحاقة

٤ يشير إلى قول زهير بن أبي سلمى:

سئمتُ تكاليفَ الحياةِ ومَن يَعِشْ ثمانين حَولاً لا أبا لكَ يَسأم

٥ عروة بن حزام المتوفى ٣٠ هـ / ٦٥٠ م كان يحب ابنة عمه (عفراء) نشأ في بيت واحد. ولما كبر خطبها، فطلبت أمها مهراً لا قدرة له عليه، فرحل إلى ابن عمه في اليمن، وعاد فإذا هي قد تزوجت بأموي من الشام، فلحق بها، فأكرمه زوجها. فأقام أياماً وودعها وانصرف، فمات حباً قبل بلوغ حيّه.

الفرزدق

وفي بعض أخبار الفرزدق، أنّ رجلاً من مُلوكِ بني أمية أعطاه مائة من إيل الصّدقة، فباعها بألفٍ وخمسمائة درهم. وقد مرّت به الحكاية التي يذكرها أصحاب التاريخ، أن الجملَ كان يباعُ في زمن أبي جعفر المنصور بدرهم، وأنّه صادر قوماً من أصحابه، وكانت لهم نِعاج، فباعوها ثماني نعاجٍ بدرهم. هذا ممّا وجد بخطِّ المرزبانيّ في تاريخ ابن شجرة.[1] وهي أنصر من الثمّانين التي ذكرها العلوي البصري في قوله[2]

عَـبَرتُ إليهـم في ثـمانـين فـارِساً فأدْرَكتُ منـهم بُغـيـتي ومُرادِيا

ولولا خشيةُ الغُـلـوِّ لقلت: ومن ثمانين ألفاً ذكرها السِّنبسيُّ[3] في قوله:

ثمـــانون ألفـــاً، ولـمْ أحْـصِهـم وقــد بلغـَـتْ رَجْـمَها أو تــزيــدُ

وكيف للفرزدق همَّام بن غالبٍ أن ترميه الحوادث بهذه الثمانين، كما رمته بسنيه في قوله:

رمَـتْـني بالـثِّـمــانـيـن الـلـيـالي وسَهْمُ الـدّهْـرِ أقْـتَـلُ سَهْـمِ رامِ

ولو ملكها راعي ثمانين الذي يقال فيه، أحمق من راعي ضأنٍ ثمانين[4]، لجعلت له عقلاً رائعاً، وثوباً من التنعم واسعاً.

وهو يعرف حكاية الحطيئة مع سعيد بن العاص لمَّا قال له: أيُّ النّاس أشعر؟ قال:

الذي يقول، وهو أبو دؤادٍ الإياديُّ:

لا أعُـدُّ الإقـتـارَ عُـدْمـاً ولكنْ فَقْدُ مَن قد رُزِئْـــتُــه الإعْـدامُ

---

١ القاضي أحمد بن كامل بن شجرة (٢٦٠ – ٣٥٠هـ). أحد أصحاب الطبري، وتقلد قضاء الكوفة ، وكان من العلماء بالأحكام وعلوم القرآن والنحو والشعر وأيام الناس والتواريخ وأصحاب الحديث وله مصنفات في أكثر ذلك.

٢ قائد ثورة الزنج في البصرة علي بن محمد وكان يدعي الانتساب إلى علي بن أبي طالب. قاتل أربع عشرة سنة من ٢٥٦– ٢٧٠هـ.

٣ هذا لقب لعدد من الشعراء، والمقصود هنا الأخرم السنبسي وقد اشتهر بقصيدة منها هذا البيت، ويوردها أبو العلاء في «رسالة الصاهل والشاحج».

٤ «أحمق من طالب ضأن ثمانين». أصل المثل أن أعرابياً بشر كسرى ببشرى سُرَّ بها فقال له: سلني ما شئت. فقال: أسألك ضأناً ثمانين. فضرب به المثل في الحمق.

قال: ثمّ من؟ قال: الذي يقول وهو حسان بن ثابت:

ربَّ عِــــلْـمٍ أضـاعَـه المـــا ... لُ وجَهْلٍ غـطَّى عـليـهِ النّعيـمُ

قال: ثمّ من؟ قال: الذي يقول وهو أعشى قيس:

بَـيضــاءُضَحـوتُهــاوصـفـُ ... ـراءْ العَـشِـيَّــة كـالــعَــرارَهْ

قال: ثمّ من؟ قال: ثمّ حَـسْبُك بي إذا وضعتُ رِجْلاً على رِجْلٍ، ثم جريتُ في آثارِ القوافي، كما يجري الفَصيلُ في آثار الإبل.

وقال الشاعر:

وجَـدتُ بني الجَـعْـراءِ قـومـاً أذِلَّـةً ... ومَن لا يُهِـنْهُم يُمْـسِ وغْداً مُهَـضَّما
وأحمقَ مِن راعـي ثـمـانيـنَ تَـرْتَـعي ... بجَنبِ السِّـتارِ بَـقْلَ روضٍ مُـوسَّـمـا

وتلك الثمانون، ألْقِيَ فيها الرَّيْعُ إلى أن يصيرَ قيراطُها قِنطاراً، ولا فَتِئ حَـدّها معطاراً أي هو قريب من عطر، لا يعدم في صيام ولا فطر، أوفر حظّاً في المحمدة من التي ذكرها الحرّاني السّلمي، أبو المُحَلِّم عوفُ بنُ المُحلِّم في قوله:

إنَّ الـثَّـمـانِيــنَ، وبُلِّـغْـتُـهــا ... قد أحْـوَجَـتْ سَـمْعِي إلى تُـرْجُـمانْ
وَبَـدَّلَـتْـنِي بـالـشَّـطـاطِ انْـحِـنـا ... وكُنْـتُ كالصَّـعْـدَةِ تـحْـتَ السِّــنـانْ

لأن التي ذكرها تُضعِف، والدنانيرالثمانون تُنعِش وتُسعِف، وتلك تجعل الرّجل بعد كونه كالقناة، كأنّه قوس في أيدي الحناة.

ولعلـّه قد اجتاز في أرض المَوصِل، بالقرية التي تعرف بثمانين وهي قريبة من الجبل المعروف بالجُوديِّ، فإن كانت ثمانون القريةُ وطَـن أناسٍ، فهذه تجري مجرى الوطَـن في الإيناس، كما قال:

الفَـقْـر في أوطـانِـنـا غُــرْبَـةٌ ... والـمــالُ في الـغُـرْبَـةِ أوطـانُ[1]

لله دَرّ الذّهَـبِ من خليل، فإنّه يفيءُ بظلٍّ ظليل، وإن دُفـنَ لا يبالي، ولا يقال هذا الدهب البالي، أعْطِيَ نفيسَ المِقدار، فما هَـمَّ شرفُه بانْحِدار، والدُرُّ إذا كُسِرَ لم يعد يساوي فلساً، وقد كان

١- هذا البيت أحد بيتين من شعر محمد بن الحسن بن عبد الله بن مذحج الزبيدي الإشبيلي،(٣٠٩-٣٧٩هـ/٩٢٧-٩٨٩م) كان واحد عصره في علم النحو وحفظ اللغة، وكان أخبر أهل زمانه بالإعراب والمعاني والنوادر وعلم السير والأخبار.

يبعثُ البهجَةَ والأنْسا ذهبت قيمتُه، ورُبَّ ذهبٍ في سِوار، مرَّ عليه زمن يلفت الأنظار، ثمّ جُعِلَ في خـَلْخال، تختالُ بلـُبْـسه ذاتُ الخال، ثمّ نقل إلى كاسٍ، وهو بحسنه كاسٍ، ما تغيَّر إذ لمسته النّيران، ولا غدر بوفيّ الجيران.

ولعّل هذه الثـمانيـن، قد أدركَ ذهـبُهـا قارون، ومُـوسى المُـرْسَـلَ وأخاه هارون، لا تـقـتـربُ منه الهَـلكة، وله العزّةُ في كل مَـمْـلكة، يُعَـظـَّـمُ في أرضِ السِّـنـد، وبلادِ الهند.

ابنة الأخت والخال

وأمّا ابنة الأخت، أدام الله لها الصيانة، فإنّها أدَلَّت على الخالِ إذ كان أحدَ الوالدين، فهمَّت أن تأكل بيدين، وما هي بأختٍ لـلـرجل الذي قال فيه القائل:[1]

ووَراءَ الـثـأرِ مِـنـّـي ابْـنُ أخْـتٍ   مَـصِـعٌ، عُـقْـدَتُـهُ مـا تُـحَـلُّ

ولا تجعلها أختاً للهجرس(٢) لأنّه طالبَ خاله بثار، فلم يقبح ما فعل من الآثار، ولكن تشْبِه أن تكون أختاً لابن مُضَرِّس حين فاتَتْها الأخوةُ من الهِجْرِس، وهو المعروف بالخَنوت واسْمُه توبَة، وكان له أخٌ يقال له طارق، فقتله رَهطُ خاله، فرأى أن يقتل خالَه، وقال:

بكَتْ جَـزَعـاً أمّي رُمَـيْـلة ُ أنْ رَأتْ   دَماً مِـن أخـيهـا في الـمُهَـنَّـد بـادِيـا
فـقلـتُ لـهـا: لا تجْـزَعي إنَّ طارقـا   حَميمي الذي كانَ الخليلَ المُصافِـيـا
وما كنتُ لـوأعْطِيـتُ ألـفَي نَجيبَـةٍ   وأولادَهـا لغْـواً تُـسـاقُ، وراعِـيــا
لِأرْضى بـوِتْـرٍ مِنهُـمُ دُون أن أرى   دمَاً من بني عَوفٍ على السيفِ جاريا
ومـا كان في عَـوفٍ دمٌ لو أصَبْـتـُه   ليُوفِيَـني مِـن طارقٍ غـيـرُ خـالـيـا

ويجوز أن يكون قد رشح إلى هذه المرأة شيء من آدابِ الخـؤولة، فليتقِّ مَعَرَّة بيانِها، أكثرَ من اتِّـقـائِه خِـلْـسَة بنانِها. فهو يعلمُ أنَّ الشعرَ وَرِثه زهيرُ بنُ أبي سُلمى من خاله بَشامَةَ بْنِ الغـديـر، ولم يكن في قبيلته "مُـزَينة " شعرٌ يُذكر، وحضَرَه زهيرٌ عند الوفاة، فأرادَ أن يُعطِيَه شيئاً من مالِه، فقال بَشامة: أما يكفيك أنّي ورَّثْـتُـكَ غرائِبَ القصيد؟

وربمّا كان في نساءِ حلب، حرسَها الله، شواعـر، فلا يأمَن أن تكونَ هذه منهنّ، فطالما كُنَّ أجود أشعاراً من رجالهـنّ، وحدَّثَ رجلٌ ضريرٌ من أهل آمد يحفظ القرآن، ويأنسُ بأشياءَ من العِلم، أنّه كانَ له وهو شابٌ امرأةٌ مُـقَـيِّـنـة تُـزيِّـنُ النساءَ في الأعراس، وكان يُـنجِّم في القـرْع، وكان يعتمدُ حِفظ

١- البيت من شعر الشنفرى.

٢- الهجرس بن كليب التغلبي، وقد قتل خالُهُ جسَّـاسٌ أباه كليباً، وكان هذا سبباً في حرب البسوس التي دامت أربعين عاماً، وشب في ديار أخواله بني مرَّة، وعلم القصة بعد أن شبَّ فقتل خالَه

تلك الأشعار، ويدرسُها في بيتِه، ولا غريزَةَ له في معرفةِ الأوزان، فيكسِرُ البيت. فتقولُ له امرأتُه الماشِطة: ويلي !ما هذا جيد! فيجادلها ويزعُمُ أنّها مخطئة. فإذا أصبحَ مضى فسألَ من يعرِفُ ذلك، فأخبرَه أنّ الصوابَ معها، وعرَّفه كيف يجبُ أن يكون، فإذا حَفِظه، عاد في اللّيلةِ الثانية فذكره وقد أصْلِح، فتقولُ الماشطة: هذا الساعة جيّد.

وكان لي من يؤجِّرُني الدَّواب من أهلِ البادية يُعرف بعُلوان، وله امرأةٌ تزعُمُ أنّها من طيّ، ولم يكن يعرفُ موزونَ الأبياتِ من غيرِه، وكانت المرأةُ تُحِسُّ بذلك. وكانت تتأسَّفُ على طفلٍ لها مات يقال له رجب، وكانت تُنشد هذا البيت:

إذا كنتَ من جَرَّا حبيبِك مُوجَعاً   فلا بُدَّ يوماً مِن فِراق حبيبِ

فقالت يوماً:

إذا كنتَ من جرَّا رُجَيبٍ مُوجعاً

فعلمت أنّ الوزن مختلّ، فقالت:

إذا كنتَ من جَرَّا رُجَيبِنَ موجعا

فحرَّكت التنوين، وأنكرَت تحريكَه بالطبع. فقالت:

إذا كنتَ من جَرَّا رُجَيبِك مُوجعاً

فأضافَتْه إلى الكاف، فاستقامَ الوزنُ واللّفْظ.

وفي الكتاب العزيز "يا أيُّها الذين آمَنُوا إنَّ مِن أزواجِكُم وأولادِكم عَدُوّاً لكم فاحْذروهُم، وَإنْ تَعْفُوا وتَصْفَحوا وتَغْفِروا فإنَّ اللهَ غفورٌ رحِيم"[١]

١ الآية ١٤ سورة التغابن

الشبلي الصوفي

وأمّا أبو بكر الشِبلي، رحمه الله، فلا ريبَ أنّه من أهلِ الفضل، وأرجو أن يكون سالماً من مذهبِ الحُلولِيَّة. وأنشدني له منشد:

بــاحَ مَجْنــونُ عـامِـرٍ بِهَــواه وكـتمْتُ الهوى، فـفُــزْتُ بِوَجْدي
وإذا كان فـي الـقِيـامَـةِ نُــودي أينَ أهلُ الهـوى؟ تقـدَّمْتُ وَحْدي

هكذا أنشِدْتُه: نودي بسُكونِ الياء، ولا أحبُّ ذلك، وإن كان جائزاً، وإنّما يوجدُ في أشعارالضَّعَـفَـةِ من المُحدِثين.

فإن صحَّ أن هذين البيتين له، فلا يَمتنِعُ أن يعترضَ عليه قائلٌ فيقول: من زعَم أنّه صافٍ، فما يجب أن يأتي بغيرِ الإنصاف، وادِّعاؤُه الانفرادَ من العالَم لا يُسَلِّم به البشر، إن كانَ هواهُ للمخلوقين، أو الخالق ولا يقين، فلَهُ في الأممِ نُظراءُ كثير.

خاتمة الرسالة

وأنا أعتذر إلى مولاي الشيخ الجليل من تأخير الإجابة، فإن عوائق الزّمن منعت من إملاءِ السوداء، كأنّها سوداءُ التي عناها القائل:

نُبِّئْتُ سوداءُ تَنْآني وأتْبَعُها لقد تباعَدَ شَكلانا وما اقْتَربا

وجَدْتُها في شَبابي غيرَ مُطْلِبَةٍ فكيفَ والرّأسُ جَونٌ تُسْعِفُ الطَّلبا

وأنا مستطيعٌ بغيري، فإذا غاب الكاتبُ فلا إملاء. ولا يُنكِرُ الإطالةَ عليّ، فإنّ الخالصَ من النّضارِ الذائب، طالما اشتري بأضعافه في الزِّنَة من اللُّجَينِ تشوبُه الشوائب، فكيف إذا كان الثمن من البقايا غير القيِّمات، يوجدن في الطُّرق مَرميّات؟ وعلى حضرته الجليلة سلامٌ يتبعُ قوَّتَه ضِعافُه، وتلحق براعيه خِرافُه.

إصدارات وزارة الثقافة والرياضة
إدارة البحوث والدراسات الثقافية

م	الإصدارات	المؤلف	السنة
١	البدء من جديد	حصة العوضي	٢٠٠٠
٢	بداية أخرى	فاطمة الكواري	٢٠٠٠
٣	أصوات من القصة القصيرة في قطر	د. حسن رشيد	٢٠٠٠
٤	دنيانا .... مهرجان الأيام والليالي	دلال خليفة	٢٠٠٠
٥	قالت ستأتي	جاسم صفر	٢٠٠٠
٦	غنج الأميرة النائمة	فاروق يوسف	٢٠٠١
٧	وريثة الصحراء	سعاد الكواري	٢٠٠١
٨	ويخضر غصن الأمل	أحمد الصديقي	٢٠٠١
٩	بستان الشعر	حمد محسن النعيمي	٢٠٠١
١٠	رومانوف وجوليت	ترجمة/ النور عثمان	٢٠٠١
١١	الأدب المقارن من العالمية إلى العولمة	د. حسام الخطيب	٢٠٠١
١٢	الحضن البارد	د. حسن رشيد	٢٠٠١
١٣	سحابة صيف شتوية	خالد عبيدان	٢٠٠١
١٤	سيرة الوجع	أميرتاج السر	٢٠٠١
١٥	وجوه خلف أشرعة الزمن	حصة العوضي	٢٠٠١
١٦	حافة الموسيقى	غازي الذيبة	٢٠٠١
١٧	قصص أطفال	د. هيا الكواري	٢٠٠١
١٨	أوراق نسائية	د. أحمد عبد الملك	٢٠٠١
١٩	الفريج	إسماعيل ثامر	٢٠٠١
٢٠	الأعمال الشعرية الكاملة ج١ – ج٢	د. أحمد الدوسري	٢٠٠٢
٢١	علمني كيف أحبك	معروف رفيق	٢٠٠٢

م	الإصدارات	المؤلف	السنة
٢٢	قصص وحكايات شعبية	خليفة السيد	٢٠٠٢
٢٣	رحلة أيامي	صدى الحرمان	٢٠٠٢
٢٤	جرح وملح	عبد الرحيم الصديقي	٢٠٠٢
٢٥	خلف كل طلاق حكاية	وداد الكواري	٢٠٠٢
٢٦	دراسات في الإعلام والثقافة والتربية	د. أحمد عبد الملك	٢٠٠٢
٢٧	النثر العربي القديم	د. عبد الله إبراهيم	٢٠٠٢
٢٨	كأن الأشياء لم تكن	جاسم صفر	٢٠٠٢
٢٩	نعاس المغني	عبد السلام جاد الله	٢٠٠٢
٣٠	مدى	د. زكية مال الله	٢٠٠٢
٣١	قال المعنى	خليل الفزيع	٢٠٠٢
٣٢	المسرح الألماني المعاصر	د. عوني كرومي	٢٠٠٢
٣٣	المسرح في بريطانيا	محمد رياض عصمت	٢٠٠٢
٣٤	إبراهيم ناجي - الأعمال الشعرية المختارة	حسن توفيق	٢٠٠٢
٣٥	مسرح الصورة بين النظرية والتطبيق	د. صلاح القصب	٢٠٠٣
٣٦	النوافذ السبع	صيتة العذبة	٢٠٠٣
٣٧	الرحيل والميلاد	جمال فايز	٢٠٠٣
٣٨	أوراق ثقافية	د. كلثم جبر	٢٠٠٣
٣٩	بدائع الشعر الشعبي القطري	علي الفياض/ علي المناعي	٢٠٠٣
٤٠	شبابيك المدينة	ظافر الهاجري	٢٠٠٣
٤١	حضارة العصر الحديث	د. شعاع اليوسف	٢٠٠٣
٤٢	المتراشقون "مسرحية"	غانم السليطي	٢٠٠٣
٤٣	معاناة الداء والعذاب في أشعار السياب	د. حجر أحمد حجر	٢٠٠٣
٤٤	سحائب الروح	سنان المسلماني	٢٠٠٣

م	الإصدارات	المؤلف	السنة
٤٥	أصوات قطرية في القصة القصيرة	د. عبد الله إبراهيم	٢٠٠٣
٤٦	ذاكرة الإنسان والمكان	خالد البغدادي	٢٠٠٣
٤٧	إبراهيم العريض شاعراً	عبد الله فرج المرزوقي	٢٠٠٣
٤٨	الصحافة العربية في قطر	إبراهيم إسماعيل	٢٠٠٤
٤٩	أم الفواجع	علي ميرزا	٢٠٠٤
٥٠	صباح الخير أيها الحب	وداد عبداللطيف الكواري	٢٠٠٤
٥١	الصحافة العربية في قطر "مترجم إلى الإنجليزية"	إبراهيم إسماعيل ترجمة / النور عثمان	٢٠٠٤
٥٢	لآلئ قطرية	علي عبد الله الفياض	٢٠٠٥
٥٣	الأعمال الشعرية الكاملة	مبارك بن سيف آل ثاني	٢٠٠٥
٥٤	التفاحة تصرخ.. الخبز يتعرى	دلال خليفة	٢٠٠٥
٥٥	إدارة التغيير	عبد العزيز العسيري	٢٠٠٥
٥٦	الشعر الحديث في قطر	د. عبد الله فرج المرزوقي	٢٠٠٥
٥٧	الشرح المختصر في أمثال قطر	خليفة السيد	٢٠٠٥
٥٨	لؤلؤ الخليج ذاكرة القرن العشرين	خالد زيارة	٢٠٠٥
٥٩	على رمل الخليج	محمد إبراهيم السادة	٢٠٠٥
٦٠	إبداعات خليجية	(مسابقة القصة القصيرة لدول مجلس التعاون)	٢٠٠٥
٦١	الأدب المقارن وصبوة العالمية	د. حسام الخطيب	٢٠٠٥
٦٢	مهارات الإرشاد النفسي وتطبيقاته	د. موزة المالكي	٢٠٠٥
٦٣	تجريبية عبد الرحمن منيف في مدن الملح	نورة محمد آل سعد	٢٠٠٥
٦٤	المعري يعود بصيراً	د. أحمد عبد الملك	٢٠٠٥
٦٥	وردة الإشراق	حسن توفيق	٢٠٠٥
٦٦	مجاديفي	حصة العوضي	٢٠٠٥

م	الإصدارات	المؤلف	السنة
٦٧	الأعمال الشعرية الكاملة ج١	د. زكية مال الله	٢٠٠٥
٦٨	أسباب للانتماء	رانجيت هوسكوتي ترجمة: ظبية خميس	٢٠٠٥
٦٩	تباريح النوارس	بشرى ناصر	٢٠٠٥
٧٠	المرأة في المسرح الخليجي	د. حسن رشيد	٢٠٠٥
٧١	أبو حيان .. ورقة حب منسية	حمد الرميحي	٢٠٠٥
٧٢	تطور التأليف في علمي العروض والقوافي	د. أنور أبو سويلم د. مريم النعيمي	٢٠٠٥
٧٣	أحزان كبيرة	أميرتاج السر	٢٠٠٥
٧٤	الديوان الشعبي	عيد بن صلهام الكبيسي	٢٠٠٥
٧٥	سمك القرش والنورس البحري دومينيك دو فيلبان	هاشم صالح ومحمد مخلوف. مراجعة د. حسام الخطيب	٢٠٠٥
٧٦	مسلمو الغرب ومستقبل الإسلام طارق رمضان	د. إبراهيم الشهابي مراجعة د. حسام الخطيب	٢٠٠٥
٧٧	ذاكرة الذخيرة	علي بن خميس المهندي	٢٠٠٦
٧٨	تجليات القص "مع دراسة تطبيقية في القصة القطرية"	باسم عبود الياسري	٢٠٠٦
٧٩	سمط الدهر "قراءة في ضوء نظرية النظم"	د. أحمد سعد	٢٠٠٦
٨٠	كان يا ما كان	خولة المناعي	٢٠٠٦
٨١	الظل والهجير "نصوص مسرحية"	د. حسن رشيد	٢٠٠٦
٨٢	الرواية والتاريخ	مجموعة مؤلفين	٢٠٠٦
٨٣	وجوه متشابهة "قصص قصيرة"	خليفة عبد الله الهزاع	٢٠٠٦
٨٤	المسرح والمدينة	د. يونس لوليدي	٢٠٠٦
٨٥	الأعمال الشعرية الكاملة ج٢	د. زكية مال الله	٢٠٠٦
٨٦	الدفتر الملون الأوراق	حصة العوضي	٢٠٠٦

م	الإصدارات	المؤلف	السنة
٨٧	الظل وأنا	نسرين قفة	٢٠٠٦
٨٨	حقيبة سفر	صفاء العبد	٢٠٠٦
٨٩	مسرحيات قطرية (أمجاد يا عرب - هلو Gulf)	غانم السليطي	٢٠٠٦
٩٠	العالم وتحولاته (التاريخ – الهوية - العولمة)	د. إسماعيل الربيعي	٢٠٠٦
٩١	موال الفرح والحزن والفيلة "نصان مسرحيان"	حمد الرميحي	٢٠٠٦
٩٢	حكاية جدتي	مريم النعيمي	٢٠٠٦
٩٣	صورة المرأة في مسرح عبدالرحمن المناعي	إمام مصطفى	٢٠٠٦
٩٤	تاريخ اللغات ومستقبلها، عالم بابلي هارالد هارمان	سامي شمعون، مراجعة محمد فرززات	٢٠٠٦
٩٥	فلسطين في الشعر الأسباني المعاصر محمد الجعدي	محمد الجعدي، مراجعة د. حسام الخطيب	٢٠٠٦
٩٦	هل كنّا مثل أيّ عاشقين؟ نفتاج سارنا	د. منذر محمد	٢٠٠٦
٩٧	ديوان ابن فرحان	حسن حمد الفرحان	٢٠٠٧
٩٨	موال الفرح والحزن والفيلة "مترجم إلى الفرنسية"	حمد الرميحي	٢٠٠٧
٩٩	الفن التشكيلي القطري.. تتابع الأجيال	خالد البغدادي	٢٠٠٧
١٠٠	دراسة في الشعر النبطي	حمد الفرحان النعيمي	٢٠٠٧
١٠١	بداية أخرى "مترجم إلى الإنجليزية"	فاطمة الكواري	٢٠٠٧
١٠٢	الخيل.. رياضة الآباء والأجداد	صلاح الجيدة	٢٠٠٧
١٠٣	شجرة الغاف باحثون من جامعة قطر	مجموعة باحثين، جامعة قطر	٢٠٠٧
١٠٤	وجع امرأة عربية The pain of Arab woman	تأليف/ كلثم جبر، ترجمة/ النور أسامة ابوبكر	٢٠٠٧
١٠٥	بداية جديدة A new beginning	تأليف/ فاطمة الكواري، ترجمة/ النور أسامة ابوبكر	٢٠٠٧
١٠٦	موال الفرح والحزن والفيلة La chanson du Bonheur ET Malheur	تأليف/ حمد الرميحي، ترجمة علي زينل	٢٠٠٧

م	الإصدارات	المؤلف	السنة
١٠٧	القضية المشتركة د. فيليب آغران	عبدالودود العمراني مراجعة د. حسام الخطيب	٢٠٠٧
١٠٨	النقد بين الفن والأخلاق، حتى نهاية القرن الرابع الهجري	د. مريم النعيمي	٢٠٠٨
١٠٩	وداع العشاق	حسين أبو بكر المحضار	٢٠٠٨
١١٠	الوزة الكسولة	د. لطيفة السليطي	٢٠٠٨
١١١	المهن والحرف والصناعات الشعبية في قطر	خليفة السيد محمد المالكي	٢٠٠٨
١١٢	العشر الأوائل.. رائدات الفن التشكيلي في قطر	خولة المناعي	٢٠٠٨
١١٣	الرواية العربية.. رحلة بحث عن المعنى	عماد البليك	٢٠٠٨
١١٤	دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر	د. عبد القادر حمود القحطاني	٢٠٠٨
١١٥	السلاحف البحرية في دولة قطر	د. جاسم عبد الله الخياط د. محسن عبد الله العنسي	٢٠٠٨
١١٦	تجليات اللون في الشعر العربي الحديث في النصف الثاني من القرن العشرين	د. ماجد فارس قاروط	٢٠٠٨
١١٧	عصر النفط ليوناردو ماوجري	د. إبراهيم الشهابي	٢٠٠٨
١١٨	حكايات من الأدب الشعبي الفارسي مقتطفات من شهنامه الفردوسي	د. مصطفى باكور	٢٠٠٨
١١٩	بنت عرب إفلين شاكر	أمل منصور، مراجعة د. فائقة صديقي	٢٠٠٨
١٢٠	الموسوعة الصيدلانية	د. زكية مال الله	٢٠٠٩
١٢١	المدارس المسرحية منذ عصر الإغريق حتى العصر الحاضر	أ. د. جمعة أحمد قاجة	٢٠٠٩
١٢٢	من أفواه الرواة	علي عبد الله الفياض	٢٠٠٩
١٢٣	صورة الأسرة العربية في الدراما التلفزيونية	د. إبراهيم إسماعيل	٢٠٠٩
١٢٤	دور الدراما القطرية في معالجة مشكلات المجتمع	د. ربيعة الكواري د. سمية متولي عرفات	٢٠٠٩
١٢٥	ديوان الغربة	إسماعيل تامر	٢٠٠٩

م	الإصدارات	المؤلف	السنة
١٢٦	الحب والعبودية في مسرح حمد الرميحي	خالد سالم الكلباني	٢٠٠٩
١٢٧	عناق الأسرة نوبو كوجيما	د. منذر محمد	٢٠٠٩
١٢٨	قصة حب طبل وطارة "مترجم إلى الإنجليزية"	حمد الرميحي	٢٠١٠
١٢٩	التراث والسرد	د. حسن المخلف	٢٠١٠
١٣٠	ديوان الأعشى (جزآن)	تحقيق: د. محمود الرضواني	٢٠١٠
١٣١	توظيف التراث في شعر سميح القاسم	لولوة حسن العبدالله	٢٠١٠
١٣٢	إساءة الوالدين إلى الأبناء وفاعلية برنامج إرشادي لعلاجها	أمل المسلماني	٢٠١٠
١٣٣	شحنات المكان	ياسين النصير	٢٠١٠
١٣٤	من أدب الزنوج الأمريكان	عبدالكريم قاسم حرب	٢٠١٠
١٣٥	أزهار ذابلة وقصائد مجهولة للسياب	حسن توفيق	٢٠١٠
١٣٦	وضاح اليمن دراسة في موروثه الشعري	د. باسم عبود الياسري	٢٠١٠
١٣٧	عروق القدس النازفة مجموعة باحثين، تحرير د. منير العكش	د. منير العكش	٢٠١٠
١٣٨	اللغة والثقافة كلير كرامش	د. أحمد الشيمي مراجعة عبدالودود العمراني	٢٠١٠
١٣٩	مستقبل الدراسات الأدبية هانس غومبرخت، والترموزر	د. ربى محمود ود. منذر محمد	٢٠١٠
١٤٠	عصارة الأيام سمرست موم	د. حسام الخطيب	٢٠١٠
١٤١	كُتُب تحترق، تاريخ تدمير المكتبات لوسيان بولاسترون	هاشم صالح ومحمد مخلوف. مراجعة عبدالودود العمراني	٢٠١٠
١٤٢	الترجمة والعولمة مايكل كرونين	محمود الهاشمي وعبدالودود العمراني مراجعة د. حسام الخطيب	٢٠١٠
١٤٣	العلم في الترجمة سكوت مونتغومري	د. إبراهيم الشهابي مراجعة وفاء التومي	٢٠١٠

م	الإصدارات	المؤلف	السنة
١٤٤	قصة حب طبل وطارة والقرن الأسود تأليف / حمد الرميحي	، ترجمة / عبدالودود العمراني	٢٠١٠
١٤٥	قطر الندى	ندى لطفي الحاج حسين	٢٠١١
١٤٦	الوحي الثائر "سلسلة شعراء من السودان"	فضل الحاج علي	٢٠١١
١٤٧	شيء من التقوى "سلسلة شعراء من السودان"	الجيلي صلاح الدين	٢٠١١
١٤٨	في مرايا الحقول "سلسلة شعراء من السودان"	محمد عثمان كجراي	٢٠١١
١٤٩	المغاني "سلسلة شعراء من السودان"	مصطفى طيب الأسماء	٢٠١١
١٥٠	على شاطئ السراب "سلسلة شعراء من السودان"	أبو القاسم عثمان	٢٠١١
١٥١	ديوان أم القرى "سلسلة شعراء من السودان"	الشيخ عثمان محمد أونسة	٢٠١١
١٥٢	في ميزان قيم الرجال "سلسلة شعراء من السودان"	محمد عثمان عبدالرحيم	٢٠١١
١٥٣	من وادي عبقر "سلسلة شعراء من السودان"	د. سعد الدين فوزي	٢٠١١
١٥٤	شبّابتي "سلسلة شعراء من السودان"	حسين محمد حمدنا الله	٢٠١١
١٥٥	غارة وغروب "سلسلة شعراء من السودان"	محمد المهدي المجذوب	٢٠١١
١٥٦	من التراب "سلسلة شعراء من السودان"	د. محيي الدين صابر	٢٠١١
١٥٧	المجموعة الشعرية الكاملة "سلسلة شعراء من السودان"	محمد محمد علي	٢٠١١
١٥٨	ضفدع مقاطعة كالافيراس وقصص أخرى مارك توين	خليفة الهزاع	٢٠١١
١٥٩	محاضرات الحائزين على جائزة نوبل في الأدب	عبدالودود العمراني مراجعة وفاء التومي	٢٠١١
١٦٠	جسور إلى اللانهاية مايكل غيلن	د. عامر شيخوني مراجعة بدرالدين علاء الدين ووفاء التومي	٢٠١١
١٦١	الهند تظفر بالحرية أبو الكلام آزاد	د. نبيلة الزواوي مراجعة أ.د. محمد لطفي اليوسفي	٢٠١١
١٦٢	منظومة حيوانات قطر محمد جاسم العبدالجبار	بدور القحطاني وسامي بن صغير. مراجعة فرانسيس غيلسبي	٢٠١١

م	الإصدارات	المؤلف	السنة
١٦٣	الحرية الافتراضية داون نونسياتو	أنور الشامي. مراجعة وفاء التومي	٢٠١١
١٦٤	النظام الدستوري في دولة قطر	أ.د. رعد ناجي الجده	٢٠١٢
١٦٥	الفريج (رواية) – الطبعة الثانية	إسماعيل تامر	٢٠١٢
١٦٦	السردية الشفاهية	محمد إبراهيم السادة	٢٠١٢
١٦٧	حادي العيس	خليل الفزيع	٢٠١٢
١٦٨	المال العزيز مارثا ماكفي	أ.د. منذر محمد محمود. مراجعة عبدالودود العمراني	٢٠١٢
١٦٩	سعيًا للصّمت جورج بروشنيك	د. إبراهيم الشهابي مراجعة وفاء التومي	٢٠١٢
١٧٠	المتعة في تعلّم اللغات فابيو كاون	ترجمة /د. رشيد بلحبيب	٢٠١٢
١٧١	مهر الصياح THE KORAK COUNCIL	تأليف / أمير تاج السر ترجمة/ عبدالوهاب عبدالله، أمل عبدالله	٢٠١٢
١٧٢	الحائزين على جائزة نوبل للآداب 1999-1985	عبدالودود العمراني مراجعة – د.جلال الغربي	٢٠١٢
١٧٣	La fable du lac (أسطورة الإنسان والبحيرة) دلال خليفة	دلال خليفة	٢٠١٢
١٧٤	دليل المؤلف وكاتب السيناريو –دليل عملي للكتابة	ناديج ديفو ترجمة :أ.د شكري المبخوت	٢٠١٢
١٧٥	هموم في الإدارة	د. هند المفتاح	٢٠١٣
١٧٦	هالشكل يا زعفران (مسرحيتان باللهجة العامية)	عبدالرحمن المناعي	٢٠١٣
١٧٧	مقامات ابن بحر	عبدالرحمن المناعي	٢٠١٣
١٧٨	القدس في عيون الشعراء	محمد قجة	٢٠١٣
١٧٩	المصورون في قطر	حسين الجابر	٢٠١٣
١٨٠	عناكب الروح	بشرى ناصر	٢٠١٣

م	الإصدارات	المؤلف	السنة
١٨١	الخليج العربي دراسات في الأصول التاريخية والتطور السياسي	د. مصطفى عقيل الخطيب	٢٠١٣
١٨٢	فنّ الرسم عند الأطفال: جماليّاته ومراحل تطوره	سوسن عصفور	٢٠١٣
١٨٣	واحات وظلال	أحمد محمد الصديق	٢٠١٣
١٨٤	أنا الياسمينة البيضاء (باللغة الإيطالية) lo gelsomino bianco	دلال خليفة	٢٠١٣
١٨٥	INBOUND TRAVLERS (AND OTHER STORY)	جمال فايز ترجمة: محمد مبخوت	٢٠١٣
١٨٦	-LES ARTS ISLAMIQUES		٢٠١٣
١٨٧	الأريكة البشرية /إدغاو رانبو	خليفة هزاع	٢٠١٣
١٨٨	الثورة الرومنسية تيم بلانينغ	عبدالودود العمراني	٢٠١٣
١٨٩	حلم يتفتح في صخر	حسن توفيق	٢٠١٤
١٩٠	اناشيد البلابل	محمد ابراهيم السادة	٢٠١٤
١٩١	عيوب الشعر	عبد الله السالم	٢٠١٤
١٩٢	المشكلات العملية في المناقصات والمزايدات	أحمد منصور محمد علي	٢٠١٤
١٩٣	الخليج حضارة وتاريخ	أحمد بن يوسف الخليفي	٢٠١٤
١٩٤	الحماية القانونية للمأثورات الشعبية القطرية	أ.د. حسن حسين البراوي	٢٠١٤
١٩٥	الإعلام المعاصروسائله، مهاراته، تأثيراته، أخلاقياته	د. إبراهيم اسماعيل	٢٠١٤
١٩٦	الإصدارات الثقافية للوزارة من 2013-1976	محمد الكواري- شيخة الكواري	٢٠١٤
١٩٧	"سحر الطبيعة في قطر " " The Magic of Qatar landscape "	أحمد بن يوسف الخليفي	٢٠١٤
١٩٨	سميح القاسم في ظل الغياب	د. يحيى زكريا الأغا	٢٠١٤
١٩٩	الأرنب خرنوق	لولوة البنعلي	٢٠١٤
٢٠٠	رواية الوردة (غيوم دولوريس)	ترجمة: نزار شقرون أ.نعيم عاشور	٢٠١٤

م	الإصدارات	المؤلف	السنة
٢٠١	ترجمة مبارك بن سيف أل ثاني – للفرنسية		١٠١٤
٢٠٢	لمسات معمارية	خالد المسلماني	٢٠١٥
٢٠٣	البنية النحوية في شعر مبارك بن سيف آل ثاني (دراسة نحوية دلالية)	د. علي الطوالبة	٢٠١٥
٢٠٤	قاريء الشرفات	بسام علواني	٢٠١٥
٢٠٥	حراثة في الذاكرة	د. عبد الغفور الهيتي	٢٠١٥
٢٠٦	Bracelets de violettes –Recuil de poesie أساور البنفسج	سميرة عبيد ترجمة للفرنسية/ عبدالله فريج	٢٠١٥
٢٠٧	النسوية في شعر المرأة القطرية	حصة المنصوري	٢٠١٦
٢٠٨	القصة القصيرة في قطر – ببليوجرافيا شاملة ودليل وصفي تحليلي	إعداد / أ.د صبري حافظ ، د/ محمد مصطفى سليم ، د/إكرامي فتحي حسين	٢٠١٦
٢٠٩	المرزام	عبدالرحمن المناعي	٢٠١٦
٢١٠	الأنساق الثقافية في القصة القطرية	د/ رامي أبو شهاب	٢٠١٦
٢١١	القيم الجمالية في الشعر العربي	د/أحمد طعمة حلبي	٢٠١٦